

الأكاديمية

مجلة
أكاديمية المملكة المغربية

العدد 5 ـــ ربيع الثاني 1409 ـــ دجنبر 1988


بسم الله الرحمن الرحيم



الأكاديمية

مجلة

أكاديمية المملكة المغربية

العدد 5 — ربيع الثاني 1409 — دجنبر 1988

Dépôt légal auprès de la Bibliothèque Générale et archives N° 29/1982

Académie du Royaume du Maroc
Avenue Al-Imam Malek (Souissi)
B.P. 1380 Rabat — Maroc

أعضاء أكاديمية المملكة المغربية

الحاج محمد باحنيني : المملكة المغربية.
ليوبولد سيدار سنغور : السينغال.
هنري كيسنجر : و.م. الأمريكية.
محمد الفاسي : المملكة المغربية.
موريس دريون : فرنسا.
عبد الله كنون : المملكة المغربية.
نيل أرمسترونغ : و.م. الأمريكية.
ع. اللطيف بن عبد الجليل : المملكة المغربية.
محمد إبراهيم الكتاني : المملكة المغربية.
إيميليو كارسيا كوميز : المملكة الاسبانية.
عبد الكريم غلاب : المملكة المغربية.
أوطو دوهابسبورغ : النمسا.
عبد الرحمن الفاسي : المملكةالمغربية.
جورج ڤوديل : فرنسا.
ع. الوهاب ابن منصور : المملكة المغربية.
محمد عزيز الحبابي : المملكة المغربية.
محمد الحبيب ابن الخوجة : تونس.
محمد ابن شريفة : المملكة المغربية.
أحمد الأخضر غزال : المملكة المغربية.
عبد الله عمر نصيف : م.ع. السعودية.

ع. العزيز بن عبد الله : المملكة المغربية.
أحمد عبد السلام : الباكستان.
عبد الهادي التازي : المملكة المغربية.
فؤاد سزكين : تركيا.
محمد بهجة الأثري : العراق.
عبد اللطيف بربيش : المملكة المغربية.
محمد العربي الخطابي : المملكة المغربية.
برناردان كانتين : الفاتيكان.
المهدي المنجرة : المملكة المغربية.
أحمد الضُّبيب : م. ع. السعودية.
محمد علال سيناصر : المملكة المغربية.
أحمد صدقي الدجاني : فلسطين.
محمد شفيق : المملكة المغربية.
لورد شالفونت : المملكة المتحدة.
محمد المكي الناصري : المملكة المغربية.
عبد اللطيف الفيلالي : المملكة المغربية.
أحمد مختار أمبو : السينغال.
أبو بكر القادري : المملكة المغربية.
الحاج أحمد ابن شقرون : المملكة المغربية.
عبد الله شاكر الكرسيفي : المملكة المغربية.

جان برنار : فرنسا.
أليكس هالي : و. م. الأمريكية.
روبير امبرودجي : فرنسا.
عز الدين العراقي : المملكة المغربية.
ألكسندر دومارانش : فرنسا.
دونالد فريدريكسن : و.م. الأمريكية.
عبد الهادي بوطالب : المملكة المغربية.
إدريس خليل : المملكة المغربية.
رجاء كارودي : فرنسا.
عباس الجراري : المملكة المغربية.
بيذرو راميريز فاسكيز : المكسيك.
الحاج أحمد أحيجو : الكامرون.
محمد فاروق النبهان : المملكة المغربية.
عباس القيسي : المملكة المغربية.
عبد الله العروي : المملكة المغربية.
عبد الله الفيصل : م. ع. السعودية.
روني جان ديبوي : فرنسا.
ناصر الدين الأسد : المملكة الأردنية.
محمد حسن الزيات : ج. مصر العربية.
أناتولي كروميكو : الاتحاد السوفياتي.

الأعضاء المراسلون

بوريس بيتروفسكي : الاتحاد السوفياتي
ألفونسو دولاسرنا : المملكة الاسبانية
شارل ستوكتون : و.م. الأمريكية.
ريشار ب. ستون : و.م. الأمريكية.
م. هداية الله : الهند.

أمين السر الدائم : عبد اللطيف بربيش.
أمين السر المساعد : عبد اللطيف بن عبد الجليل.
مدير الجلسات : محمد العربي الخطابي.

لجنة الأعمال : عبد اللطيف بربيش — عبد اللطيف بن عبد الجليل — محمد العربي الخطابي — عبد الهادي التازي — عبد الكريم غلاب — عبد الله العروي.

اللجنة الإدارية : عبد اللطيف بربيش — عبد اللطيف بن عبد الجليل — عبد الوهاب ابن منصور — أحمد الأخضر غزال — إدريس خليل.

مدير الشؤون العلمية : مصطفى القباج.

مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية

I ــ سلسلة «الدورات» :

- «القدس تاريخيا وفكريا» بحوث موضوع دورة الأكاديمية، مارس 1981.
- «الأزمات الروحية والفكرية في عالمنا المعاصر» بحوث موضوع دورة الأكاديمية، نونبر 1981.
- «الماء والتغذية وتزايد السكان»، القسم الأول، بحوث موضوع دورة الأكاديمية، أبريل 1982.
- «الماء والتغذية وتزايد السكان»، القسم الثاني، بحوث موضوع دورة الأكاديمية، نونبر 1982.
- «الامكانات الاقتصادية والسيادة الدبلوماسية»، بحوث موضوع دورة الأكاديمية، أبريل 1983.
- «الالتزامات الخلقية والسياسية في غزو الفضاء»، بحوث موضوع دورة الأكاديمية، مارس 1984.
- «حق الشعوب في تقرير مصيرها»، بحوث موضوع دورة الأكاديمية، أكتوبر 1984.
- «شروط التوفيق بين مدة الانتداب الرئاسي وبين الاستمرارية في السياسة الداخلية والخارجية في الأنظمة الديمقراطية»، بحوث موضوع دورة الأكاديمية، أبريل 1985.
- «حلقة وصل بين الشرق والغرب : أبو حامد الغزالي وموسى بن ميمون»، بحوث موضوع دورة الأكاديمية، نونبر 1985.
- «القرصنة والقانون الأممي»، بحوث موضوع دورة الأكاديمية، أبريل 1986.
- «القضايا الخلقية الناجمة عن التحكم في تقنيات الانجاب»، بحوث موضوع دورة الأكاديمية، نونبر 1986.
- «التدابير التي ينبغي اتخاذها والوسائل اللازم تعبئتها في حالة وقوع حادثة نووية»، بحوث موضوع دورة الأكاديمية، يونيه 1987.
- «خصاص في الجنوب، حيرة في الشمال : تشخيص وعلاج» بحوث موضوع دورة الأكاديمية، أبريل 1988.

II ــ سلسلة «التراث» :

- «الذيل والتكملة»، لابن عبد الملك المراكشي، السفر الثامن، جزءان، تحقيق محمد ابن شريفة عضو الأكاديمية، الرباط 1984.

- «الماء وما ورد في شربه من الآداب» تأليف محمود شكري الألوسي، تحقيق محمد بهجة الأثري، عضو الأكاديمية، مارس 1985.
- «معلمة الملحون» محمد الفاسي، القسم الأول والقسم الثاني من الجزء الأول، أبريل 1986، أبريل 1987.
- «ديوان ابن فركون» تقديم وتعليق محمد ابن شريفة، ماي 1987.

III ــ سلسلة «ندوات ومحاضرات» :

- «فلسفة التشريع الإسلامي» الندوة الأولى للجنة القيم الروحية والفكرية، 1987.
- «وقائع الجلسات العمومية الرسمية بمناسبة استقبال الأعضاء الجدد» (من 1980/1401 إلى 1986/1407)، دجنبر 1987.
- «محاضرات الأكاديمية» (من 1983/1403 إلى 1987/1407)، 1988.

IV ــ سلسلة «المجلة» :

- «الأكاديمية» مجلة أكاديمية المملكة المغربية، العدد الافتتاحي، فيه وقائع افتتاح جلالة الملك الحسن الثاني للأكاديمية يوم الاثنين 5 جمادى الثانية عام 1400هـ، الموافق 21 أبريل 1980.
- «الأكاديمية» مجلة أكاديمية المملكة المغربية، العدد الأول، فبراير 1984.
- «الأكاديمية» مجلة أكاديمية المملكة المغربية، العدد الثاني، فبراير 1985.
- «الأكاديمية» مجلة أكاديمية المملكة المغربية، العدد الثالث، نونبر 1986.
- «الأكاديمية» مجلة أكاديمية المملكة المغربية، العدد الرابع، نونبر 1987.

IV - Revue de l'Académie du Royaume du Maroc

- «Academia», numéro inaugural relatant la cérémonie de l'inauguration de l'Académie par Sa Majesté le Roi Hassan II, le 21 Avril 1980, la réception des académiciens, ainsi que le discours prononcés à cette occasion et les textes constitutifs de l'Académie.
- «Academia», N° 1, Février 1984.
- «Academia», N° 2, Février 1985.
- «Academia», N° 3, Novembre 1986.
- «Academia», N° 4, Novembre 1987.

• من ندوات أكاديمية المملكة المغربيـة
«ازدهار العلوم عند العـرب»

• «ازدهار العلوم عند العرب».. 161
فؤاد سزكين

• الحضارة الاسلامية من وحي الذكر الحكيم.................. 173
محمد المكي الناصري

• التجربة عند العرب : الحسن ابن الهيثم والبصريات............... 189
محمد البغدادي

• ملاحظات بصدد التعريف بالتراث العلمي العربي................ 197
عبد الله المصلوت

• مساهمة في الحديث عن «ازدهار العلوم في العالم الاسلامي»...... 205
مصطفى بنيخلف

• **الملخصات**.. 215

• **أنشطة الأكاديمية**.. 229

القسم الأول

البحوث

خلفية الصراع الطويل بين العبيديين والأمويين

القسم الثاني

عبد الرحمٰن الفاسي

لقد كان البربر في العهد البيزنطي أوفر حظا في تجارة ذهب غرب السودان،[1] وفي ازدهارها أيضا في الصحراء الكبرى، وفي صحرائهم الغربية، وذلك بفضل مقاومتهم المجدية للاحتلال البيزنطي التي كانت امتداداً لسلسلة حركات مختلفة لم تتوقف، ولا وهنت خلال مراحل الاستعمار السابقة، ثم إذا هي تجابه بيزنطة الغازية، تلك التي اجتاحت القوات الوندالية في أسابيع معدودة، فما إن تتالع (جستنيان) بمرسوم سنة خمس وثلاثين وأربعمائة الذي وضع خطة تحتذى النموذج الروماني القائم على السياسة العسكرية، وعلى الصرامة الرومانية،

---

(1) المقصود غرب افريقيا كما يقال في الاصطلاح الحديث، ونسجل (غرب السودان) تبعا لجل المصادر العربية الجغرافية والتاريخية، كما انها تعبر **ببلاد السودان،** وتعني غرب افريقيا ووسطها أيضا، ويطلقون كلمة السودان أيضا على السودان العربي، أما بقية السود فيطلقون عليهم إسم (الزنج) أو الأسماء الأصلية كالنوبة، والأحباش ــ انظر «مروج الذهب» للمسعودي، ج 2 / 322 القاهرة ــ وبمتابعة الاطلاق العربي نكون قد تجافينا عن الاطلاق الاستعماري الذي ينعت بالافريقي، فهي عندهم الوصف الذي ينضح بالتحقير ولا سيما حين يقال بلسانهم (افريكان).

حتى وضح اليقين لبيزنطة، وتجلّى أن عملية الفتح على الوجه السابق فات أوانها، وأنها في هذه اصطدمت بتجمعات بربرية، معبأة في اتحادات قبلية جاهزة للمقاومة الحالية، وزاد في تعكير بداية الفتح حركة تمرد القائد (سلمون)، فساد الاضطراب الذي حاول البيزنطيون التخلص منه بالتآمر والاغتيال، فما نفعت بحال، وبدا لهم أن الهدوء الذي عرفوه بين سنة 544 وسنة 548 إنما كان برقا خلبا، فبعدها ساد الاضطراب حتى نهاية القرن السابع، وعندها انقلب الاحتلال إلى فشل ذريع، واستغلظت الروح الانهزامية على العزيمة الردعية، فعمدوا إلى تقليص مناطق نفوذهم، وإنهاء حركة امتدادهم، أمام مقاومة وطنية قوامها تجمعات قبلية، لم تُجِد في ردع صولتها الحصون الثلاثة الشهيرة التي ورثوها عن الرومان، وإنما فزعوا إليها بعدما انحسر نفوذهم، فلم يمتدّ غربا إلى ما وراء إقليم (سطيف) في المغرب الأوسط، وبذلك وقفت حاجاتهم عند بعض المدن الساحلية ليجدوها محاصرة من قبل الحاميات البربرية.(2)

وهذا وجه لتاريخ (بيزنطة) وهو على أي حال ضريبة الأمجاد التي يذكرها التاريخ في مجال الإدارة والاقتصاد، وما عنانا من هذا التفصيل إلاّ الإشارة إلى أن انحسار النفوذ على هذا الوجه هو مصداق ما أشرت إليه سلفا، من أن البربر كانوا في العهد البيزنطي أوفر حظا في تجارتهم الذهبية، وفي الصحراء الكبرى والغربية على السواء، ثم لإظهار أن اليد العليا التي كانت على رؤوسهم مسيطرة على تحركاتهم، وتَحُدّ من نشاطهم لصالح المسيطرين على بلادهم ومقدراتهم، قد شُلّت على الوجه المذكور، فحالت الحال، وعاد الأمر إلى أهله وكما رسمناهم على اتحاد في هذا المجال، كما سيأتي بعد لحظات.

وقد يبدو لأول وهلة أن النزاعات القبلية التي تقصها علينا الأحداث التاريخية، كالذي كان بين (البتر) و(البرانص) أو بين (صنهاجة) و(زناتة)، من شأنها أن تكبت نوازع التلاحم، فلا يصحّ لهم اتحاد مع جرية الأحداث، ووقائع تلك المجتمعات. والجليّ غير ذلك، فإزاء الوازع الوطني، هناك أيضا ظاهرة تلفت النظر وهي ظاهرة التنقل الجغرافي بالتساكن بين القبائل الذي أعطى دفعا للحياة المعاشية

(2) انظر «تاريخ افريقيا العام»، ط العربية ــ اليونسكو، ج 2 / 518.

في خوض هذه التجارة الذهبية، وهي التي نتراءاها وقد واكبت بداية انحسار جذوة النزعة القبلية فألأنْتها، وبحكم العامل الجغرافي أحكمتها، فإذا هي في نطاقه تتمخض عن تلاق انبثق عنه وئام كان مظهره في الاتحادات القبلية التي يتحدث البحث الحديث عنها كبادرة الخروج من مستوى حكم القبيلة، الى سيادة حكم الدولة.

وهكذا يتجلّى للباحث بوضوح من المصادر التي عنيت بمناطق القبائل البربرية وبمهاجرها قبل الفتح الاسلامي، وعند انطلاقته نحو أراضي المغرب[3] أن للجذم الواحد وللقبيلة الواحدة بترية، أو برانصية، عشائر، أو بطون، أو فصائل، قد تناثرت في غير ما جهة، فهي ماثلة في الواحات الداخلية، وفي الجبال والبسائط وعلى السواحل، وهي بين استقرار ونقلة، وحسب مقتضيات، ودوافع مختلفة، وما كان هذا بوضعية قارّة، ولا هو بحتمية تاريخية، كما قد يتبادر، ولا كان مردّه على الدوام إلى نزاع قبلي قيادي، أو الى خلاف طبقي ذهابا في ذلك مع تفريع ابن خلدون القائم على التفرقة الحضرية بين البتر والبرانص، أو كما سجله بعض المحدثين من الأجانب على طبيعة العصبية القبلية البربرية، قياسا على النزاع المشهر الذي استغلظ بين «صنهاجة» و«زناتة» حيث قامت بينهما فترات وأزمن صراع، وتسعّرت حروب،[4] ولا سيما بالحدود المسيلية من (مليانة) والجزائر، والحدود التاهرتية فما وراءها. وهو الخلاف الذي استغل استِحْرارَه العبيديون وأمويو الأندلس في صراعهم المعروف، فالواقع أن البحث في أخبار انتجاعات القبائل ومواقفها إزاء مختلف الأحداث، قبل الفتح وبعده، ليلفت النظر الى عوامل طبيعية مختلفة، كالكوارث الطبيعية، والأخطار الاجتماعية والمصالح الشخصية، ومنها الأغراض المعاشية، حيث لا يكون للقبيلة أرب في التجارة، فتولي وجهتها شطر مواقع الخصب انتجاعا للكلأ، أو مناقع المياه للعمل في الزراعة، وقد يكون الدافع سياسة قاهرة كسياسة الاستيطان الرومانية التي دحرت الى (جبل نفوسة) الأجرد

---

(3) يطلق المؤرخون والجغرافيون العرب اسم المغرب أو الأراضي المغربية على كل ما يقع جنوب مصر من أقطار شمال افريقية، ويزيدون أحيانا الوصف بكلمة الاسلامي.

(4) «أعمال الأعمال» لابن الخطيب 3 / 62.

(الواقع بين جبلي دمر وغربان) مجموعات قبائل مختلفة الانتساب بين برانصية، (كهراوة) وموطنها الأصلي في المغرب الأوسط، وبترية ومنها مثلا (نفوسة) وموطنها الأصلي جنوب افريقية، وباسمها سمي جبل نفوسة، فنرى هذه القبيلة بحكم تحركاتها السياسية وتطلعاتها القيادية حتى في العهد الاسلامي تبتعد عن طريق الساحل الذي يربط بين مصر والقيروان لتنزل عند الجبل المشرف على السهل الذي كان يطاردها فيه جند[5] الخلافة، وذلك لردع محاولاتها الاجتهادية (في قيام الدولة الرستمية) التي لم تكن في صالح الدعوة الإسلامية، ولا في صالح تصرفات بعض الولاة الذين تفرسوا فيها — حسبما ظهر لهم — التضريب بين الفئات الحديثة العهد بإسلامها[6]، لاسيما ولها فصائل في منطقة (طرابلس) وفي صحرائها، وفي (برقة) و(اجذابية) و(صبرة) وتلك مراكز حساسة يومئذ بالنسبة إلى المسيرة الإسلامية.

وهكذا نجد صنهاجة وهي برانصية، ومنها البدو أو رعاة الإبل أو صنهاجة الصحراء — كما يقع التعبير — منتشرة العشائر والبطون في غير ما جهة، وخصوصا في المغرب الأقصى، وكانت أكبر تجمعاتها في (سجلماسة) ووادي درعة وفي الصحراء بالمناطق الجنوبية والغربية وما وراءها إلى تخوم السودان وغانة، وكان هذا القبيل الصنهاجي المتبدي متوطنا متاجرا في الصحراء، كبربر هذه المنطقة الصحراوية، والمقصود بالقبيل قبائل صنهاجة الثلاث : «لمتونة» و«كدالة» و«مسوفة». ويقول البكري عن «كُدالة» منهم : (انهم كانوا أقرب القبائل البربرية الى بلاد السودان على ضفاف النيل «النيجر»).

ومن مظاهر هيمنة صنهاجة على الصحراء التي هي مناط هذا السياق، أن الطوارق المعروفين عند العرب باسم (الملثمين) هم الصنهاجيون اللمتونيون، ولهم وجود بالصحراء الغربية ومنساحون كما سمعنا بالكبرى، ولم يكن اللثام من سماتهم على عهد الرومان والبيزنطيين، وإنما كان الفتح العربي بداية تاريخ صنهاجة الملثّمة،

---

(5) ابن خلدون — بيروت 6 / 230.

(6) راجع تحركات (نفوسة) التي اعتنقت الخارجية عند أخبار الدولة الرستمية واشتباكها مع الدولة الحفصية في تاريخ ابن خلدون — بيروت 4 / 645، وانظر «البيان المعرب» لابن عذاري، ج 1 / 118 — «طبقات الدرجيني» 1 / 66 — والشماخي 45 — و«تاريخ ابن الصغير»، ص 19 — 31.

ولا يبعد أن يكون لهم ذكر بنفس هذا الوجه الملثم في كتابات القدماء كبطليموس، وغيره ومن مظاهر هيمنتهم انهم هم الذين حفروا آبار الصحراء، وتعهدوها لسقي الرعاة، وهيمنوا على طرق تجارة الذهب، وهي من سجلماسة الى (ولاتة) التي تقود الى مواطن الذهب في السنغال والنيجر الأعلى ؛ والطريق الممتد من (غدامس) الى (غات) و(ايرى) وممالك (الهوسا) الغنية ؛ والطريق الممتدة من (طرابلس) بوابة الصحراء الى (فزّان) و(كوار) وطريق (جارامانتس) الى (بورنو) وبحيرة (تشاد).

ويسجل ابن خلدون : «أن فصائل من (هوارة) و(مغيلة) و(مطماطة) و(أوربة) و(كتامة) و(مكناسة) قد كانت أيضا مستقرة بالصحراء»، وهي كما نرى بين برانصية وبترية.

وتعترضنا أيضا صنهاجة في طليعة القبائل التي استقرت لها عشائر بالسهول الخصبة في أحواز فاس بين القبائل المتعددة هناك، نظرا للقرب من مناجم[7] الذهب في (تازة)، وكانت بذلك مجمعا للقوافل القادمة من الجنوب والغرب نحو الشرق والشمال.[8]

ولصنهاجة أيضا بجانب[9] مصمودة ــ فصائل بكل من منطقة السوس الأدنى التي تشمل الأجزاء الجنوبية من المغرب الأقصى، وتمتد جنوبا نحو الصحراء، ثم في منطقة السوس الأقصى الممتدة في مناطق الجنوب[10] كلها، وتبدو صنهاجة صريحة في وجهتها التجارية وهي تقيم مضاربها في هذه المناطق السوسية، فما كانت الا ناظرة الى منابت الذهب، ومعادن الفضة السوسية، فاليعقوبي في (البلدان)

---

(7) البكري «المسالك» ــ قسم المغرب 118 ط الجزائر.

(8) البكري 117، 140، 142، 165 ــ «نزهة المشتاق» 79، 81.

(9) ابن خرداذبة 89 ــ الاصطخري في «المسالك»، 39 ــ المقدسي «أحسن التقاسيم» 216، 222 ــ ابن عذاري 1، 8، 6، 26، 42، 44، ــ «جنى زهر الآس»،نشر الأستاذ عبد الوهاب ابن منصور الرباط ص : 6 ــ «الاستبصار في عجائب الأمصار» ص 211، 212.

(10) قد يلاحظ عند الرجوع الى المصدر الجغرافي أن (زناتة) لها امتداد طويل في المناطق الساحلية على الجهات الجنوبية تجاه الصحراء التي تعنى بهذا البحث، لكن الواقع أن امتدادها لا ينساح الى حدود السودان كما هو واقع توغل صنهاجة التي هيمنت على جميع المناطق الصحراوية حتى انها عزمت إقامة مشروع جبائي بالاشتراك مع (ولاته).

يذكر مدينة باسم (تامدولت) وأن حولها معادن الذهب والفضة «وأن الذهب كالنبات ويقال أن الرياح تسفيه»، وهنالك أيضا اشارة المقدسي في (أحسن التقاسيم) الى ذهب جنوب المغرب «بين كورة تازررت وبلاد السودان، وليس في العالم أصفى ولا أوسع منه»، كما سجل الحسن الوزان أن السكة الوحيدة التي يتعامل بها أهل (تيّوت) بالسوس هي التبر. وسنلتقي بصنهاجة وهي في تنقلات أخرى بالعهد الإسلامي.

وهذه قبيلة (لواتة) التي يقول عنها ابن خلدون : «أن أمة عظيمة منهم كانت تسكن على (وادي مينة) قبلة (تاهرت)»، وكأنه يعني ما يعرف اليوم بمائدة القرابين، ومن فروعها (سدارة) و(مزانة)، ويعرضها اليعقوبي — وهو أول مؤرخ جغرافي توسع في تحديد المنازل — فيسجل امتدادها من صحراء مصر، ومحاذاة الساحل منساحة في منطقته، ومرورا بطرابلس، وبموانيء (برقة) المتعددة،[11] و(بأجدابية) و(صبرة)، كما أن لها مناطق في صحراء (طرابلس) وقبيلا في جنوب تونس بجانب (زناتة) و(نفوسة) و(نفزاوة)، ولها أيضا فصائل على سفوح (جبال الأوراس)،[12] وتشارك (لواتّة) في منطقة طرابلس، وفي صحرائها وفي (برقة) و(اجدابية) و(صبرة) فصائل من (نفوسة) أيضا ومن (هوارة)[13]، وأخرى من (نفزة)[14] و(زناتة)[15]، وقد كانت للواتة اقامة طارئة ببراري السودان القاحلة عندما خرجت عن طاعة المنصور الفاطمي، ولاحقهم الى أرضهم فوجدهم قد فرّوا إلى البراري السودانية حسبما يروي الداعي عماد الدين في تاريخه عن الفاطميين بالمغرب[16]،

(11) «البلدان» لليعقوبي، ص 242 — 243 — «الولاة والقضاة» للكندي — بيروت 32 البكري / 5، 8 — الادريسي، ص 57، ابن خلدون، بيروت 6 / 223.

(12) ابن حوقل، ص 87، 91 — البكري، ص 63، 82 — «نزهة المشتاق»، ص 98، 99 — تاريخ ابن خلدون 4 / 201، 204، 262.

(13) «مروج الذهب» للمسعودي، بيروت 2 / 25، 96 — ابن خلدون، بيروت 6 / 284، 290.

(14) ابن عبد الحكم 219، 224 — ابن خلدون 7 / 4، 109.

(15) نفس المصدر قبله يليه.

(16) القسم الخاص من كتاب «عيون الأخبار» ص 465 وما بعدها.

ومن أشهر القبائل التي كانت تسيطر على سهول البحر الأبيض المتوسط، ومعظم جبال الريف، ومناطق المضايق الواقعة بين (سبتة) و(طنجة) قبيلة مصمودة، فقد كانت متحكمة بأحد بطونها في مناطق لها أهميتها في تصريف الصادرات والواردات التجارية.

وهكذا فنحن أمام واقع فصائل وبطون وعشائر من قبائل مختلفة امتزجت في رحاب واحد، وتمخض هذا التجمع عن قبليّة مزجية بلحمتها ومحكم رباطها، وبذلك تأمنت الفرصة لعبور قوافل مختلفة القبائل نحو مسالك غرب السودان والخوض في تجارة الصحراء بمنجاة من عائق الاستئثار ممن له هيمنة ترابية كصنهاجة بحكم موقعها على حافة الصحراء وتعدّد منازلها على الوجه الذي رأيناه، وقد حصل فعلا ما لم يكن في الحسبان، ففي القرن السابع حاولت (صنهاجة) و(لواتة) اعتدادا بمواقعهما أن تقيما بمشاركة (كُدالة) — وهذه قبيلة من صنهاجة — اتحادا هدفه العمل على تنظيم حركة القوافل، وذلك بين أقصى الشمال حيث منازل (لواتة) وبين أقصى الجنوب حيث كانت تقع مملكة (غانة) التي تضرب اليها ءاباط الإبل، وتتدحرج في فيافيها عربات تجرها الخيل أو الثيران، أو الحمير ان اقتضى الحال، وهي تئن في حبوها على كثبان الرمال نحو مراكز بضاعة الذهب في أرض السودان، ولكن هذا المشروع لم يكتب له البقاء بالرغم من أن الرسوم فرضت وفق ما تحتمله التجارة، لأن تركيبة التساكن قد فرضت تلقائيا تطبيق حرية المرور للاتجار، حتى ان الشنئان الذي يحصل بين عشية وضحاها على المراعي والآبار لم يكن ليؤثر على الوضعية التجارية بحال، وبذلك همدت نوازع الاستئثار والجشع في صدور أولئك الشركاء[17]، وأشرعت للجميع المسالك البرية والبحرية من غير استثناء، ولا يؤثر في هذا ما أشار اليه البكري وابن خلدون وغيرهما — ووردت اشارة اليه في الفصل الأول — من أن هذه الحرية كانت تشوش عليها أحيانا نزوات فروع قبائل (لمطة) و(جزولة) لقطع المسالك لابتزاز رسوم على

---

(17) وقد بعث المشروع بعد، ولكن في مملكة غانة الكبرى حيث أن البضاعة بضاعتها، والقوافل تحج اليها، وقد أحيطت البيوعات بالصمت المطبق (كما سنعرف بعد) فهي النفساء الصامتة التي تتمخض عن الوليد الضارب في الأكباد !!

القوافل والحمولات، فالواقع أن فسح المجال قد كانت له عائدة على ازدهار تجارة البربر إن في صحرائهم الغربية التي كانت رائجة باستمرار[18] قبل الاسلام وبعده ــ وكان الذهب[19] والملح في طليعتها ــ، أو في تجارة غرب السودان ؛ وقد كانت (سجلماسة)[20] بوقوعها في النهاية الشمالية لطريق التجارة عبر الصحراء كمدينة (زيز) قبلها معْبَراً ومدخلا لقدوم القوافل التجارية في السودان، حيث كانت (غانة) تتبادل التجارة في الذهب مع المغرب الأقصى، وكانت أيضا سوقا لمناجمها الخاصة القريبة منها، وقيل انها تتوفر على انقى أنواع الذهب، وأكثرها امتيازا حسبما نقله ابن حوقل، وصدر بعده البكري عن رؤيته الأندلسية فصوّر سجلماسة في أبنية جميلة، يسكنها الطوارق، واشتهرت بطيب مناخها، وبمهارة نسائها في صناعة الصوف، وبما هي عليه في أيامه من النخيل والأعناب الشديدة الحلاوة، وأنواع التمر، ويفرغ بعدها ليأتينا بالمراد فيقول : «وأهل هذه المدينة من أغنى الناس، وأكثرهم مالا، لأنها على طريق من يريد (غانة) التي هي معدن الذهب، ولاريب أنه يشير الى الطريق المذكور سابقا بين الطرق الأربع والتي أشير الى أن الطوارق (صنهاجة الصحراء) كانوا يهيمنون عليها، وهي من (سجلماسة) الى (ولاتة)، الى موطن الذهب في (السنغال) و(النيجر) الأعلى.

ومن المهم تعرض البكري لمرويات حول تأسيس (سجلماسة) فتعدد المرويات يحدو الباحث الى الترجيح الذي من شأنه أن يتيح محاولة الوصول الى بداية عمر التجارة وتحقيق بداية تأسيس المدينة وانفتاحها بوابة على منطقة البيض في شمال القارة، وعلى السود في غربها.

وهكذا نشير الى أن البكري صدّر بالرواية التي تحدد تاريخ التأسيس قائلا :

---

(18) «المسالك» لابن حوقل ص 96.

(19) كتاب «الاقاليم»، وكتاب «المسالك» للاصطخري ــ ابن حوقل 98 ــ المقدسي في «أحسن التقاسيم»، 231.

(20) انظر «معجم البلدان» لياقوت عن كلمة (سجلماسة) وأفاد «دليل مؤرخ المغرب الأقصى» للمرحوم البحاثة السيد عبد السلام ابن سودة نقلا عن بناني في «الرحلة الكبرى» : أن الزبيدي، شارح القاموس، له كتاب في تحقيق أصول لفظ سجلماسة، وانظر البكري في المعجم عند مادة تبر.

«ومدينة (سجلماسة) بنيت سنة أربعين ومائة»، وفي أثناء توسعه في خلافة أبي القاسم سمكو ابن واسول، وعيسى الأسود أورد الرواية الثانية بتحديد سنة (أربع ومائة) وهي بهذه الصورة[21] الخاطئة في كل من طبعة الجزائر وطبعة باريس لجزء المغرب من مسالكه تعد لاغية، والرواية الثالثة لم يحدّد لها تاريخا، وانما ذكر «ان مدرارا الذي تنسب اليه الدولة المدرارية كان جدّادا من ربضية الأندلس، ورد الى موضع (سجلماسة) وكان براحا يجتمع فيه البربر وقتا من السنة، يتسوقون القِرب، فكان يحضر سوقهم، ثم بنى خيمة، وسكن البربر حوله، فكان ذلك أصل عمارتها، ثم تمدنت». وزاد البكري : «والأول أصح» أي المروي الأول المحدد بسنة أربعين ومائة.

وعلى هذا يقال : «وماذا قبل التاريخ عن فعالية ترويج التجارة الذهبية على الوجه الذي أتاحه الموقع لسجلماسة» ؟

لقد جاء الجواب من البكري فزاد بعد النص الفارط مباشرة : «وبعمارتها خلت مدينة (ترغة) وبينهما يومان، وبعمارتها خلت (زيز) أيضا»، والمعروف ان مدينة (وادي زيز) تقع كسجلماسة في النهاية الشمالية لطريق التجارة عبر الصحراء، كما أن (ترغة) البلد تطلق على القبيلة التي أشير قبل صفحات الى انها كانت تستوطن منطقة سجلماسة.

وتَمثُّل كل من مدينة (أوداغشت) و(نول لمطة) قبل سجلماسة كما يرجح، ومثلها في أهمية الموقع الذي جعل كلاً منهما سوقا للذهب ونقطة تفرع مسالكه، ثم ان (أوداغشت وليدة حلف قبلي على رأسه صنهاجة، وأقيمت بمقربة من منجمي الذهب «كالام» وبامبوك) فكانت بذلك عاصمة الضفة الجنوبية للصحراء وافريقيا السوداء، كما كانت (نول لمطة) عاصمة الذهب بالضفة الغربية للصحراء والجنوب المغربي، وموقعها بوادي نون على مقربة من المحيط جعل السفن تتجه نحو مينائها بمصب (وادي أساكا)[21م].

(21) وجه الخطا أنها لو صححت (بأربعين ومائة) لكانت هي نفس الرواية الأولى للعلم بأنه هو أقدم من تعرض للموضوع واختص بذكر ثلاث روايات، في حين انفرد الوزان الفاسي بذكر غريبته الرومانية، وذهب المحدثون مذهبا ثالثا كما سيرد في الأصل بعده.

(21 م) انظر كتاب «الصحراء من خلال بلاد تكنة» للأستاذ مصطفى ناعمي، في النبذة عن معادن=

نسوق هذا للفت النظر إلى النص التاريخي على أن وجود الذهب بالمغرب له تاريخ مبكر، ويرجع الى تواريخ تصنيع الحديد بنجيريا، أي الى العصر الحديدي فقد لفتت الانتباه احتمالات وجود مصدر في شمال افريقيا ازاء نشر الفنيقيين لتكنولوجيا الحديد من المشرق الى أجزاء من شمال افريقيا في القسم الأول من الألف سنة قبل الميلاد.

ويظن أيضا ـــ كما يستشف من البحث الحديث ـــ أن تجارة الذهب كانت تجري على سبيل السّربين (السنغال) وجنوب المغرب وإقليمه الذي كان ينتج الذهب بانعزال عن الحدود الرومانية، الى أن حلّ العهد العربي الذي أسس علاقاته مع هذه السوق سنة 734.

ويلاحظ في المقام أن البحث الحديث حين يستبعد[22] أن يكون القرطاجنيون قد خاضوا في تجارة ذهب السودان يسجل أنهم حصلوا على الذهب من ساحل المغرب المطل على الأطلنطي وذلك اعتمادا على ما كتبه[23] (هيرودوت) عن تجارة المقايضة الصامتة التي سنتحدّث بعد عن صورتها، والأصيل فيها، بالرجوع الى (هيرودوت) من المتقدمين والى نص عربي فريد[24].

أما بالنسبة لتجارة غرب السودان، فالبحث الحديث يقول بعد تمحيص الرواية

= الذهب والفضة بسوس. فقد أشار الى تمركز اليهود الأمازيغ من صنهاجة بهذه المنطقة، وما كان لهم من حركة نشيطة في تأسيس مراكز تجارية وثقافية خلال القرون العشرة قبل الميلاد، وهي إفادات مهمة في الموضوع.

(22) «تاريخ إفريقيا العام» ط. اليونسكو II / 541.

(23) «تاريخ إفريقيا العام»، اليونسكو II / 528 ـــ 563.

(24) أحسب أن هذه المؤشرات هي التي دفعت بمحرر الفصل في دائرة المعارف الاسلامية حول (سجلماسة) إلى أن لا يعتمد ما رجّحه البكري حول تاريخ تأسيسها، وإنما يرده الى الأزمنة الغابرة، خلافا لأكثر الباحثين من العرب والأجانب الذين أخذوا بما رجّحه البكري من روايات ثلاث، وواضح أن دائرة المعارف تعني ـــ وان لم تسجل ـــ أن سنة إحدى وأربعين ومائة لن تكون غير سنة إعادة البناء، والملاحظ أنها لم تعتمد حتى ما انفرد به الحسن الوزان الفاسي من أن الاسكندر ذا القرنين هو منشيء سجلماسة لتكون موطنا للمرضى والعاجزين من جنوده.

واستقراء الآثار من رسوم[25]، وصور محفورة على الصخور، ومعالم قديمة، ومع احتراس في القول : ان الاتصال كان مفتوحا على الحزام السوداني منذ حوالي خمسمائة سنة قبل المسيح، ويرى حسبما يوحي به حدس علم الآثار، أن تأثيرا لشمال افريقيا أخذ يتعاظم رويدا رويدا، على الحزام السوداني، وأن الصلات التجارية، تزايدت شيئا فشيئا منذ بدايتها في الألف سنة الأولى والثانية قبل الميلاد[26]، وتوالت رحلات البربر من الشمال الى الجنوب من الصحراء، وتفتقت طوالع الثقافة مع الأيام، وكان ذلك بفضل إدخال الجمل على يد (زناتة) من الشرق الأدنى كما يقال، وبه ولّى عهد العربات التي تجرها[27] الحصن أو الثيران والحمر، وعجلاتها تئن في كثبان الرمال الشهور والأيام. وهو عهد تتداعى عنده الأخبار، وتبكم الآثار، فالبحث الحديث لا يعتمد الرواية التاريخية وحدها عن مثل هذه المهامه من غير سند من الآثار، كما أنه لا يعتبر الآثار ما لم يدعم بعضها بعضا أو لم تؤيدها الرواية التاريخية.

---

(25) «تاريخ افريقيا العام» ـــ اليونيسكو ـــ II / 563.

(26) وهذا يدفع ـــ كما يظهر ـــ الى احتمال حول ما تقدم عن تجارة الذهب على الساحل الأطلنطي للمغرب، وهو أن هذه التجارة المغربية قد شجّعت الباحثين عن الذهب على الاندفاع نحو الجنوب لاستغلال نحاس (موريطانيا) التفاتاً الى أدلة قيام صناعة نحاسية موريطانية، ومن شأن استغلاله أن يكون حافزا لصناعة معاصرة في نفس الوقت (لتشغيل) الذهب في الجنوب ـــ انظر «تاريخ افريقيا العام» II / 564 هـ.

(27) انظر «تاريخ افريقيا العام» ـــ اليونيسكو ـــ II / 544 هـ.

تعليم الطب بالمغرب
والعالم الإسلامي

عبد العزيز بنعبد الله

إن هدفنا من هذا البحث المقتضب رغم طوله، هو محاولة رسم صورة واضحة عن تعليم الطب ومناهجه بالمغرب وبقية أقطار العالم الإسلامي، من خلال تطور مختلف مراكز الدراسة والبحث والتدريس من معاهد ومستشفيات وعيادات فردية وجماعية، عامة أو تخصّصية، وأخيرا دكاكين العلاج التي أمست آخر ملجأ لتطبيقات فقدت الكثير من مقوماتها العلمية الصّحيحة. وستعزز هذه النظرة بتحليل عنصرين أساسيين هما أصناف الأمراض والعاهات التي عرفها هذا الجزء من العالم، وكذلك أنواع الاختصاصات التي واجهت هذه الأمراض مع ما تسلحت به من أسباب الوقاية ووسائل العلاج.

ولعل من آكد ما وجب التعرّف عليه قبل هذا وذاك، الملابسات والظروف التي كيفت البيئة الإسلامية والتي جعلت منها مسرحا لاختيارات وتوجيهات كانت أسيسة للمفاهيم الطبية ومميزاتها وتطوراتها.

وإذا كان الطب قد عرف بالعالم الإسلامي عامّة وبالمغرب نوعا من القداسة جعلت منه طرفا من العلوم الإسلامية، فإن أول مجال ازدهر فيه تدريس علم الطب هو المسجد الذي يرمز إليه في بلادنا بجامع القرويين وباقي جوامع المملكة. وقد كان الإمام الشافعي يقول : «لا أعلم علما بعد الحلال والحرام أنبل من الطب» وكان يتلهف على ما ضيّع المسلمون من الطبّ ويقول : «لقد ضيّعوا ثُلث العلم ووكلوه إلى اليهود والنصارى».

نعم إن التنظير بين تعاليم الإسلام كدين وسلوك اجتماعي وبين الطبّ كعلم وقوام حيوي في المجتمع، ليبرز لنا هذا اللون من المعرفة الإنسانية كبنية جوهرية تكيّف هيكلة المجتمع وتسهر على سلامته المادية التي تعزز سلامة الروح الموكولة هي الأخرى الى علماء الدين. بل إن المنهج الرئيسي الذي طبع تعاليم الإسلام هو المبدأ الذي يعطي الأسبقية لحفظ الأبدان على حفظ الأديان، فلهذا نجد الكثير ممّن تخصّص في العلوم الدينية قد عزّزها بالمشاركة في الطبّ وما يتصل به من نفسانيات وصيدلانيات، وإن تاريخ الفكر الإسلامي ليحفل بهذا الحجم المتصاعد من جهابذة المعرفة، الذين نهلوا من المنبعين لضمان التوازن بين عنصري المادة والروح. فمن صميم الفكر الإسلامي ما انتظم في القرآن والحديث من مبادىء حول نظام التغذية والوقاية الصحية ومكافحة الغوليات (الكحوليات) والمخدرات، مع العمل الدؤوب المتوازي من أجل تربية النفس التي تشكل دعامة ومنطلق أمراض عصبية دلت الاحصاءات على أنها تمثل في العصر الحديث في مناطق متطورة نحو تسعة أعشار الإصابات البشرية.

ونحن نلمس فعالية وجدوى هذه التعاليم في نطاق منهج استقرائيّ يحلل تصور الإنسان منذ تكوينه في الرحم إلى أن يكتمل وينمو ويترعرع ثم يهرم وينهار، مع ما يتخلل ذلك من ظواهر وأحداث ممّا يشكل العمود الفقري لمناهج الدراسة الإنسانية في كل مجالاتها واختصاصاتها. ونحن نتجاوز الآن، نظرا لضيق المجال، التحليل العلمي الدقيق لمحتويات القرآن والحديث في هذا الصّدد مُركِّزين أكثر على كشوف ومعطيات تحدّدت في ظل الإسلام من خلال تجارب علماء الإسلام شرقا وغربا. وإذا كان الفكر المنطقي في مجراه العلمي ومجالاته الجامعية لم يطبع الحركة العلمية الطبية بأوروبا إلا في القرن التاسع عشر مع ظهور كلود بيرنار (Claude BERNARD) الذي وضع أسس منهجية الطبّ التجريبي في العصور الحديثة، فإن المجتمع الإسلامي قد عرف كما سنرى منذ القرن الثالث الهجري أو التاسع الميلادي، أي قبل ذلك بألف عام منهجا تجريبيا في مختلف العلوم وخاصة في الطبّ.

وقد شكلت المساجد وفي طليعتها جوامع الزيتونة والأزهر والقرويين معاهد أولى للطبّ انطلقت في تدريسها ممّا يسمى بالطبّ النبوي الذي بلغت أحاديثه

المتعلقة بالأدوية والأدواء (أي الأمراض) ثلاثمائة، تبلورت في ستة مؤلفات نقل بعضها (بيروه) الى الفرنسية وحلل بعضها الآخر (ريسك) في رسائله الطبية و(كانبي) في (حياة محمد) حيث رسم فكرة سامية عن علم الرسول عليه السلام[1].

غير أن محتوى هذه المصنّفات لم يكن ــ في نظري ــ سوى مجموعة تجارب قبلية استقاها الرسول عليه السلام ــ حسب زوجته عائشة ــ من الوفود التي كانت ترد عليه. أما الأحاديث النبوية الصحيحة التي لها مفهوم طبي فإنها لا تزيد على العشرة معظمها وارد في الصحاح كحديث العسل والكلب[2] والذباب[3]، وهو ما حلّله مؤتمر الأطباء المنعقد عام 1930 بلندن فأيد وجهة نظر (الرسول) وكذلك حديث فعالية العدوي الوارد في صحيح مسلم : «لا يورد ممرض على مصح» وحديث الحجر الصحي : «إذا كان الطاعون في أرض فلا تخرجوا منها ولا تدخلوها» وحديث (الطبراني) الذي حل منذ أزيد من أربعة عشر قرنا مشكلا استطاع الفكر الطبّي الحديث اليوم أن يتعرف عليه بعد تجارب موصولة حول مراحل تطور حياة الجنين التي تبدأ بإشعاع روح خلوية (âme cellulaire)، نصّ الحديث المذكور على بروزها منذ الأسبوع الأول من علوق النطفة، ولذلك حظر الإسلام كل نوع من أنواع الإجهاض منذ اللحظة الأولى لهذا العلوق (Conception).

إلا أن بيوت العلماء كانت أيضا مسرحا لدروس خصوصية في شتى مجالات المعرفة كمواد التفسير والحديث والطبّ وغير ذلك، وقد انبثقت هذه الدروس المزدوجة عن مزيد اهتمام بالمبادىء العامة للإسلام الذي اهتم بالطهارة كعلاج وقائي للجسم والروح، كما دعا للإيمان بالله تعوذا من الخوف والقلق واليأس، مع الابتعاد

---

(1) لوكلير ــ «تاريخ طبّ العرب» (مجلدان) ــ طبعة بيروت ــ أعادت طبعه وزارة الأوقاف المغربية (ج 2 ص 315).

(2) وهو قوله عليه السلام : «إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعا إحداهن بالتراب».

(3) وهو قوله عليه السلام : «إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغسله فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر دواء».

عن الخمور والمخدرات والميسر والقمار لطرد أسباب القلق. وقد أبرز الأستاذ (إيرنيست أدولف) الطبيب الجراح في جامعة (سان جوهن st. John) الأمريكية هذا الشرط في دعم العلاج الطبّي الحقيقي.

وفي الوقت الذي فسح الإسلام المجال للدراسات والأبحاث والتجارب فازدهر الطب والتداوي عند العرب ــ كما يقول ولتر في «مختصر التاريخ» ــ، كان الأوروبيون يجهلون هذا العلم ويحتقرون أربابه إذ أن الكنيسة حظرته عليهم وحصرت التداوي في زيارة الكنائس والاستشفاء بذخائر القديسين والتعاويذ والرقى التي كان رجال الدين يبيعونها وكان الأوروبيون يستنكفون من النظافة لأنها تشبه الوضوء عند المسلمين[4].

ومعلوم أن علماء ألمانيا هم الذين استطاعوا أن يكونوا لأنفسهم نظريات سليمة حول تاريخ الطبّ العربي، ومنهم (ويستنفلد) الذي كتب ثلاثمائة ترجمة لأطباء عرب، و(فنريش) الذي درس الكتب اليونانية المعرّبة أو المنقولة إلى السريانية والآرامية الفارسية (لوكلير، ج 1/ص 4). وقد راجع (لوكلير) في باريس ما يوجد فيها من كتب طبية عربية يتراوح عددها بين مائتين وثلاثمائة (ج 1. ص 9). وإذا رجعنا الى المصادر التي استقى منها العرب نلاحظ أن دراسة الطب في الاسكندرية كانت على أساس مجموعة من ستة عشر كتابا لجالينوس «Gallienus»، قد استعرضت في ثلاثة مصنَّفات هي فهرست ابن النديم، و «كتاب الحكماء» للقفطي، و «طبقات الأطباء» لابن أبي أُصَيْبعة. وقد عرّب (حنين) معظم كتب جالينوس الا أن الفكر الإسلامي بدأ يبتكر حيث قرر المجتمع الطبي الأولية لجالينوس وابن سينا عام 1340. وفي عام 1500 حكموا بالسّبق لابن سينا في خمس محاضرات من أصل عشر، ولجالينوس في أربع ولأبقراط (Hippocrate) في واحدة.

نعم في ظل الإسلام الذي شجع العلم وبجل العلماء ظهر أبوبكر محمد بن زكرياء الرازي، الذي هو في الحقيقة أبو الطبّ العربي ــ وأفضل أن تقول الطب الاسلامي نظرا لكون الكثير من الأطباء المسلمين غير عرب ــ والذي ألّف ما

(4) «كازيط المستشفيات» عدد مارس 1932 ــ محاضرة الأستاذ فوسك.

يناهز مائتي كتاب ترجمت جميعها الى اللاتينية. وقد وصف الجدري والحصبة، كما أنه أول من استعمل الفتائل في العمليات الجراحية والأنابيب التي يمرّ منها الصديد والقيح والإفرازات السامّة. وكان طبيبا أخصائيا ألّف كتاب «أمراض الاطفال» و«تجارب المارستان» فكان منزله عيادة تخصصية تابع فيها تلامذته دروسهم وزاولوا تجاربهم.

وقد شعر المسلمون منذ القرن الثاني للهجرة بأهمية علم الصيدلة في التجارب الطبية، كما اقتنعوا بأن معرفة الكيمياء أساسية في البحوث الصيدلية حيث أكد (برتيلو) في كتابه «الكيمياء في القرون الوسطى» أن كتب جابر بن حيان في الكيمياء هي غاية ما وصل إليه العقل الإنساني من الابتكار. وقد سبق العرب الأوروبيين إلى تجهيز المخابر بآلات وفي طليعتها الأواني الزجاجية المحتوية على السوائل الملونة والتي كانت من أول ابتكارات العرب وكانت «مدرسة النظامية» في العراق و«مدرسة نيسابور» وراء النهر، و«دار الحكمة» بالقاهرة الفاطمية، وكليات قرطبة مراكز بارزة خاصة في الآونة التي ظهر فيها (ابن سينا) Avicenne. فكان أعظم مصنفاته الطبية بعد (القانون) أرجوزته المعروفة عند الأوروبيين ب (كانتيكوم) وكان كلاهما أسيسة للتجارب المارستانية والعيادية والجامعية في بحبوحة القرن الرابع الهجري حيث كان جامع الأزهر وجامع القرويين وربما جامع الزيتونة مسارح لدراسة الطبّ كحصة في مناهج العلوم الإسلامية. وكانت هذه الجوامع تعتمد على كتاب (القانون) لابن سينا والحاوي للرازي وكتاب علي بن عباس وكلها تشكل أعظم عناصر الموسوعة الطبية التي أنتجها العرب (لوكلير ج 1/ص 470)، بل إن هذه الكتب ظلت ستة قرون — إلى القرن العاشر الهجري والسادس عشر الميلادي — مرجعا أساسيا لكليات الطبّ الأوروبية كما ورد ذلك في قرار جامعي مؤرخ بعام 1617م يدل على أن كتب الرازي وابن سينا كانت أساس التعليم الطبي في جامعة لوفان (التي أسست عام 1425م)[5].

---

(5) «أعراف المسلمين وعاداتهم» — ڭوتيي ص 245 / «وهذه الجامعة توجد في بلجيكا وقد أسست عام 1426 م وألغيت عام 1791 ثم أعيدت عام 1835 كجامعة كاتوليكية.

ولعل من مظاهر فعالية تعليم الطب في الحقل الجامعي منذ القرن الثالث الهجري قيام المقتدر العباسي بتنظيم وتدريس الطب وصناعته حرصا على مصلحة الجمهور، حيث ولي الخلافة عام 225 هـ ففرض إجراء امتحان بلغ عدد المتخرجين منه في جانبي بغداد (عام 319 هـ) 860 رجلا سوى من استغني عن امتحانه لمهارته (القفطي ص 130)، أما الصيادلة فقد أجرى لهم امتحان أيام المعتصم عام 221 هـ.

وقد برزت الدراسات الطبية بالأندلس في نفس الفترة، حيث كان عدد الكليات أربعا وعشرين في أرباض قرطبة عاصمة الأمويين، وفي هذا العصر عرف الطبيب محمد بن علي (المتوفى عام 391 هـ) الذي عالج موضوعا طريفا في رسالته (فطرة الطابع في سعة الطبائع) temperaments (نسخة مخطوطة في المكتبة العامة بالرباط عدد 1486 د).

كما ظهر أعظم طبيب عربي هو أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي صاحب كتاب «التصريف لمن عجز عن التأليف»، وقد وصفه أحد الجراحين الغربيين بأنه أعظم طبيب في الجراحة، اعتمده واستند الى بحوثه جميع مؤلفي الجراحة في العصور الوسطى. وكتابه هو اللبنة الأولى في هذا الفن، وهو أول من ربط الشرايين ووصف عملية تفتيت حصاة المثانة واستخرجها بعملية جراحية وعالج الشلل، وأول من استعمل خيوط الحرير في العمليات الجراحية. ولذلك اعتبره (لوكلير) (ج 1 ص 334) أكبر نموذج لعلم الجراحة في المدرسة العربية، لاسيما وأن بحوثه وتجاربه الجامعية والعيادية قد عززت بوسائل إيضاحية[6].

وقد أفاد الشرق من تجارب الغرب الإسلامي منذ القرن الرابع حيث دخل محمد ابن عبدون القرطبي بلاد الكنانة والبصرة، فدبر (أدار) مارستان مصر وعاد إلى الأندلس عام 360 هـ («نفح الطيب» ج 1/ص 444)، على أن الشرق عرف (مختصرا في الطب) لعبد الملك بن حبيب السلمي القرطبي المتوفي عام 238 هـ

---

(6) توجد في المكتبة العامة بالرباط في مخطوط عدد 1428 د، حيث ورد في المقالة الثامنة من كتاب التصريف مقالة تحتوي على 28 صورة في خصوص حدائد الكي والمكاوي التي تختلف حسب العضو المريض من الرأس الى الأنف الى الرحم والمثانة. الخ.

(توجد نسخة منه في المكتبة العامة بالرباط). وأول من أدخل الطب الى المغرب إسحاق بن عمران وأحمد بن إبراهيم المعروف بابن الجزار (ت 395 هـ) صاحب «زاد المسافر» (يوجد الجزء الأول منه في المكتبة العامة بالرباط) وكذلك (مختصر «كتاب الاعتماد في الأدوية المفردة» لابن الجزار) أيضا مرتبا على الحروف، وصاحب الاختصار مجهول (ولعله اسحاق بن عمران).

وقد شهدت المغارب الثلاثة في هذه الفترة جملة من الأطباء المهرة، حيث روى القفطي في «اخبار العلماء بأخبار الحكماء» ص 75، أن المعز الفاطمي كان مرفقا الى الكنانة بعدد من هؤلاء الحكماء، على أن حركة الترجمة في أفريقية تأسلت منذ ظهر (قسطنطين) التونسي الصقلي مؤسس مدرسة سالرنة (Salerne) بإيطاليا وهي أول مدرسة من نوعها بأوروبا فكان مبعث أنوار الطب الحديث في أوروبا. وقد ولد قسطنطين حوالي 400 هـ بتونس وترجم الى اللاتينية أهم كتب الطب العربي (كزاد المسافر وكتب الرازي)، وألف نحوا من أربعة وعشرين كتابا منها («قانون الطب» في اثنى عشر مجلدا و«فياتيكوم» Viaticum) في الطب العام (سبعة أجزاء) وقد أقرأ يونس العربي الفاسي بمدرسة سالرنة هذه (اللسان العربي ج 5). الا أننا لا نعرف بالضبط متى ازدهر الطب في المغرب الأقصى وإن كان لوكلير يؤكد (ج 1 ص 334) ابتداء ازدهاره خلال القرن العاشر الميلادي (أي الرابع الهجري)، ملاحظا أن المغرب أشد بلاد الإسلام عمقا من الناحية العلمية (ج 1 ص 407). وقد أشير الى وجود مدرسة طبية بفاس في هذا العصر — حسب («شهيرات المغرب» للكانوني العبدي) وإن كنا لم نجد ما يؤكد ذلك. والواقع أن الطب لم يزدهر حقيقة بالمغرب إلا في القرن الخامس حيث امتزج العطاء الأندلسي والمغربي في وثبة مشتركة برعاية المرابطين ثم الموحدين. ويمكن القول مع لوكلير (ج 2 ص 72) بأن الفكر لم يسبق له أن تحرّر كما وقع في هذا العصر، يشهد بذلك نبوغ أمثال ابن طفيل وابن باجة Avempace وابن رشد في حاضرة مراكش الحمراء، وكذلك نبوغ بني زهر الذين توارثوا الطب طوال ثلاثة قرون. وقد لوحظ أن أطباء الأندلس الخاضعة لسلطان مراكش التقوا، كما يقول لوكلير (ج 2 ص 24)، حول ملوك المرابطين والموحدين وسار معظمهم في ركاب هؤلاء الملوك الى المغرب حيث قضوا بقية حياتهم في العلاج وتدريس الطب، ولذلك فاقت مراكش العاصمة الإسماعيلية فاساً في هذا المجال خلال هذه الفترة.

ويظهر أن أبا العلاء زهر بن زهر هو أول طبيب أندلسي ورد على المغرب بعد استيلاء المرابطين على الأندلس، وكان طبيبا خاصا ليوسف بن تاشفين بعد أن كان طبيب المعتمد بن عباد باشبيلية، ولعله أول طبيب أفرد في منزله مختبرا لأبحاثه وتجاربه كأول مدرسة لعدد من التلاميذ المخصوصين. وكانت له آراء شاذة في الطب تدل على أصالته، وقد تمخضت تجاربه عند تأليف كتاب «التذكرة» (الذي ترجمه وطبعه كولان Colin عام 1911 بباريس، وهو مجموعة ملاحظات سجلها خاصة لتلميذه وولده ابن زهر لتعريفه بالأدواء الغالبة بمراكش مع الأدوية المناسبة، وكانت له «مجربات» أخرى جمعت في مراكش بأمر الخليفة علي بن يوسف عام 526 هـ (يوجد مخطوط منها في الأسكوريال رقم 844)، وقد ترجم (جان دوكابو) «التذكرة» من العبرانية الى اللاتينية (نسخة في كلية الطب بباريس)، ثم توالت التراجم عام 1280م والمطبوعات عشر مرات بين 1490 و1554م[7].

وقد أصبحت مدرسة ابن زهر مختبرا علميا رصينا أجريت فيها تجارب مختلفة شملت تخصصات متعددة تبلورت في رسائل مثل (رسالة في أمراض الكلي) لأبي العلاء نفسه (توجد ترجمتها باللاتينية نشرت عام 1497)، ومخطوط حول (الخواص) بمكتبة باريس منه استقى ابن البيطار (خواص لحوم الحيوانات) وكذلك مقالة في شرح رسالة يعقوب بن اسحاق الكندي حول (تركيب الأدوية) أو المستحضرات الصيدلية.

واستمرت تجارب بني زهر أيام المرابطين في عيادات متعددة الاختصاصات polycliniques في شخص أبي مروان عبد الملك بن زهر Avenzoar الذي ألف كتاب «الاقتصاد» عام 515 هـ (مخطوط منه بباريس عدد 2959)، والاسكوريال (مخطوطة محررة بالعربية ومكتوبة بحروف عبرانية)، ورسالة لم تصلنا في (تحليل العدوى والفرق بين الجذام والبهق) وغير ذلك من دقيق المفاهيم الطبية ممّا جعل ابن زهر هذا طبيبا أخصائيا فاق ابن سينا لا يعدله في الشرق سوى الرازي.

(7) توجد الآن نسخة بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بباريس يرجع تاريخ طبعها إلى عام 1531 وهي تحتوي على «كليات» ابن رشد (Colliget).

وممّا يدل على أن هذه العيادة الخاصة ببني زهر أصبحت آنذاك مرجعا لأطباء آخرين أن أبا مروان لم يصنف كتابه «التيسير» إلا بطلب من ابن رشد الذي عاشره بمراكش، والذي كان يفضله على غيره من أطباء عصره. وقد تميز أبو الوليد ابن رشد الحفيد هذا بكتابه «الكليات Colliget» الذي ترجم الى اللاتينية، وطلب من ابن زهر أن يؤلف كتابه في الأمور الجزئية لتكون جملة كتابيهما ككتاب شامل في صناعة الطب. ومعلوم أن ابن رشد عزّز هذه العيادة التخصصية المراكشية بكتب أصيلة منها تلخيصه لكتاب «العلل والأمراض والحميات والأدوية المفردة وحياة البرء» وكذلك رسالة التفحص عن طول العمر وقصره (كتاب التيسير) حول الطب التطبيقي، وهو وصف عيادي لأمراض منها péricardite وجرح المنصفى mediastinal مع وصف الأعراض الشخصية وهو غير معروف باللغة العربية، نشر عدة مرات باللاتينية (راجع Arabian contributions to medicine, by Haddad S.T. (Annales médicales Hist. T. 3 . p. 60 - 72, 1942) وابن رشد أول من وصف الدورة الدموية الكبرى قبل ويليام هارفي (Williem Harvy)، واقترح في شرحه لأرجوزة ابن سينا ما يصفه الأطباء اليوم وهو تبديل الهواء في الأمراض الرئوية مشيرا الى جزيرة العرب وبلاد النوبة بمصر كمراكز شتوية.

وقد شمل التخصص في هذه العيادة بعض النساء أمثال أم عمرو بنت أبي مروان ابن زهر طبيبة (دار المنصور الموحدي) وكانت تمارس الطب وتداوي نساء البلاط بمراكش ويستفتيها الموحدون في طب النساء والأطفال. وكانت بنت أم عمرو أيضا عالمة بالطب والتوليد. وقد برزت في سبتة بعد ذلك عائشة ابنة محمد بن عبد الجبار محتسب المدينة فكانت طبيبة صيدلانية خبيرة في شؤون المياه وعلاماتها.

ولعل هذا النموذج العيادي جدير بأن نقف برهة لتحليل منهجه العلمي ووصف مختلف الاختصاصات التي مارسها، وذلك من خلال كتاب «التيسير» الذي ظل نبراسا لأبناء ابن زهر وتلامذته من بعده كولده أبي بكر الطبيب الشاعر الذي كان لغويا محدثا يحفظ صحيح الإمام البخاري عن ظهر قلب، كما يستظهر ديوان ذي الرمة وهو ثلث أشعار العرب («المطرب» لابن خفاجة). ولعل عطاء هذه الأسرة قد استمر الى القرن التاسع الهجري، حيث توفى آخر أطباء بني زهر وهو أبو العلاء الثاني محمد ابن أبي محمد بن زهر (المتوفى عام 825 هـ 1422 م)،

إذا صدقنا ما ورد في رسالة منسوبة لابن زهر المغربي عنوانها (المجربات في خواص المعدن والنبات والحيوانات) (نسخة بدار الكتب المصرية ـــ 135 طب).

وكانت هذه المنهجية أسلوبا اختاره في البحث والتجربة نحو الثلاثين من كبار الأخصائيين نذكر منهم على الخصوص سبعة أخصائيين هم :

1) الطبيب الكحال أبو جعفر بن هارون الترجالي (والكحال معناه طبيب العيون).

2) أبو الحسن بن قاسم الاشبيلي صاحب (خزانة الأشربة والمعاجين).

3) أبو جعفر بن الغزال الصيدلي الماهر (كان المنصور يعتمده في تركيب الأدوية).

4) أبو بكر بن القاضي الحسن الزهري تلميذ كل من ابن زهر وابن رشد، كان يطب الناس بدون أجرة ويكتب وصفات على الرقاع ordonnance للمرضى.

5) إبراهيم بن صواف الحجري الذي تصدى للعلاج في طنجة ثم فاس (والمتوفى عام 506 هـ) وقد توفي في نفس السنة (ميمون الصحراوي) الذي اختص في مجال آخر هو (الطب الروحي) (راجع قصيدة اليوسي).

6) علي بن عتيق الخزرجي نزيل فاس وقد أقرأ الطب في بجاية وتوفي عام 598 م (الجذوة/ص 306).

7) موسى بن ميمون (Maîmonide) تلميذ ابن رشد الذي انتقل الى فاس لدراسة الطب ونزل بدار المجانة طوال خمس سنوات وهو صاحب (قوانين الجزء العملي من صناعة الطب) نسخة بمدريد عدد 5240 (16 ورقة) (الرسالة في الأعراض) symptomatologie. فكتاب «التيسير» قد نهج فيه ابن زهر أسلوبا جديدا في الحكمة القياسية مستخدما التمحيص العقلي للوصول الى أحسن النتائج، فهو طبيب التجربة والتحقيق وليس من صناع اليد، يقوم شخصيا بتحضير الأدوية كأشهر صيدلي محاطاً بمن يسميهم (أعوان الطبيب)، وهم ممرضون مختصون بالأعمال اليدوية، محتفظا لنفسه بتقرير نظام الأكل عند المريض ووصف الأدوية قيمةً وتركيباً فكشف بذلك عن أدواء جديدة لم تدرس قبله، حيث اهتم بالأمراض

الرئوية فشرح القصبة في مرض الذبحة واختص في أمراض الجهاز الهضمي واستعمل أنبوبة مجوفة من القصدير لتغذية المصابين بعسر البلع كما استخدم الحقن المغذية وكشف عن طفيلية الجرب وسماها صوَّابة. وقد امتازت منهجيته باعتبار الطبيعة قوة داخلية تدبر شأن الجهاز البشري وتكفي في الغالب لعلاج الأدواء، وعزز ذلك بالاستهلاك في مريضه ونسيان نفسه عند العلاج. فإذا عرضت عليه حالة شائكة حاول أن يعيشها مستلهما ذكرياته وتجاربه ومنطقه عازفاً عن كل طريقة تقليدية، فاستطاع بذلك وبفضل مساعديه في العيادة المدرسية النموذجية تطوير ثلاث شعب حاول توحيدها وهي : الصيدلة والجراحة والطب العام («تاريخ المغرب» — كودار، ص 452). وقد تحدث في كتابه هذا عن يمين (ابقراط) الذي كان يطالب به جميع من يدرس مصنفاته ويقتضي منهم الزام تلاميذهم به.

ولعل المغرب لم يكن يستعمل قسما آخر عُرف في الشرق ذكره عبد الرحمن الشيزري في كتابه المخطوط «نهاية الرتبة» يقوم المحتسب فيه بتحليف الأطباء (أن لا يعطوا دواء مرا ولا يركبوا له سمّاً ولا يذكروا للنساء دواء إسقاط الأجنة ولا للرجال دواء يقطع النسل والغض عن المحارم وعدم إفشاء الأسرار «سر المهنة» والتوفر على جميع الآلات.)

وقد ظهر في ربوع مراكش ثم باقي المغرب اتجاه تجريبي طريف وفّق بين المعطيات المنطقية التجريبية والتقاليد القديمة لنظرية الاخلاط Théorie humorale ومبدأ القوى الطبيعية الشافية ونظرية الأيام البحرانية (crise) ليستمد الى التحقيق العلمي بإجراء تجارب للتأكد من صحة بعض الفروض. وقد احتل كتاب «التيسير» بذلك مرتبة لا تقل عن مرتبة «الحاوي» للرازي و«القانون» لابن سينا حيث تحدث ابن زهر عن أمراض جديدة في تحليلات دقيقة وصف فيها ما سماه :

غشاء الأورام الغليظ	La dure - mère
التشخيص التفريقي	Diagnostic différentiel
أورام الغشاء الرقيق	La pie - mère
أورام الدماغ	Encéphalites

الجليدية	Cristallin
الزجاجية	Humeur Vitrée
البيضية	Humeur acqueuse
السلع	Humeurs fibro - Kystiques
الغلظ الخارج عن الطبيعة	Xanthome
أمراض مآقي العين	Pathologie des voies lacrymales
قروح الملتحم والقرنية	Conjonctivite - Kératite
الإنتشار	cataracte (المسمى اليوم الساد)

وقد تعرف ابن زهر على أدواء ناتجة عن اختلال الدماغ فوجد أعراضها من تشنج Spasme (في نطاق علم الأعراض العامة symptomologie) وصرع épilepsie وشرسام بارد (délire chronique)، كما وصف السل ومضاعفاته وأمراض القلب والكبد والطحال والمعدة ومراقي البطن وأمراض الصدر والمثانة والكلية وحصاتها وأمراض القضيب والأرحام والفروج وقشور العظام والتهابها ostéite والحميات والأمراض الوبائية وشق قصب الرئة trachéotomie واستخدم المسمار المعدي sonde gastrique لوصف الحمية وتحديد الأغذية الصحية ومعالجة ما يعرف اليوم بوذمة الرئة الحادة oédéme aigu du poumon Dap والتهاب التامور Péricardite. ولم ينس أي عضو ولا جهة من الجسم الا كشف عن خباياها من خلال تجارب واعية جعلت منه طبيبا متعدد التخصصات أنشأ ما يشبه معهد الاخصاءات اليوم (Institut des spécialités) منذ قرابة ألف عام. وأعطى في علاجاته الأسبقية الكاملة للمداواة بالأعشاب النباتية التي كانت أسيسة صيدلية مستعملا مصطلحات دقيقة لا تقل في عمق مفهومها عن المصطلح الحديث وقد تعززت الدراسة الطبية في مختلف العيادات بمعاجم ومسارد نذكر منها :

1) «تقريب من إلتذكرة» وغيرها لإبراهيم بن أبي سعيد المغربي (المتوفى عام 546 هـ/1151 م) (مكتبة الأحمدية 3/5649.)

2) «المنهج في التداوي من صنوف الأمراض والتكاوي» له أيضا، وهو مختصر في مفردات الأدوية، ختم بقائمة للأدوية التي لها أسماء ثلاثة مرتبة معجميا.

3) «شرح أسماء العقار» لموسى بن ميمون (المتوفى عام 601 هـ/204 م) بالقاهرة 1940.

4) «تفسير الالفاظ الطبية اللغوية» الواقعة في كتاب المنصوري مرتبة على حروف المعجم لابن الخشاء توجد نسختان في المكتبة العامة بالرباط (عدد 956 د) ومكتبة القرويين وهو مطبوع. (8)

5) «المعجم الطبي» لإبراهيم بن أحمد الثغري التلمساني (المكتبة الحسنية بالرباط رقم 8544).

6) تعريب كتب طبية للحسن بن أحمد المسفيوي (المتوفى عام 1032 هـ وهو كاتب المنصور السعدي وتلميذ أبي القاسم الغساني شاعر عالم طبيب مؤرخ.

7) «ضياء النبراس في حل مفردات الأنطاكي بلغة فاس» لسيدي عبد السلام العلمي طبع بفاس عام 1318 وقد علق عليه (رينو) فلاحظ أن المؤلف يعطينا مفردات بربرية للمصطلحات الطبية العربية.

أما الصيدلة التي تشكل جزأ لا يتجزأ من الطب فقد صنفت فيها عشرات المؤلفات خاصة في الأدوية المفردة والأعشاب والعقاقير (توجد قائمة بها في كتابنا حول «تاريخ الطب والأطباء») وهو مطبوع عام 1960 وكذلك «المعلمة الطبية» (مخطوط).

وكان للمغرب وللأندلس ضِلع في تحقيق ازدهار علوم الحكمة والطب في الشرق في القرن السابع الهجري فظهر أمثال (السويدي صاحب التذكرة (9) (المتوفي 691 هـ) وابن أبي أصيبعة، والقفطي علي بن يوسف المصري (المتوفى عام 646 هـ) وابن النفيس (المتوفي عام 687 هـ) وهو الذي اكتشف الدورة الدموية الصغرى أي الرئوية قبل الغربيين بثلاثة قرون (نشره المعهد المصري

---

(8) كتاب المنصوري هذا هو «مفيد العلوم ومبيد الهموم» نشره عام 1941 معهد الدروس العليا المغربية.

(9) اختصر «التذكرة» عبد الوهاب الشعراني المتوفي عام 973 هـ (توجد نسخة في المكتبة العامة بالرباط).

بمدريد، ج 26، عام 1934، بقلم ماكس ماير هوف، ص 33)، وعبد اللطيف البغدادي (المتوفى عام 629 هـ) والذي امتاز في وصف أعشاب مصر.

على أن مصنفات رجالات المغرب أصبحت أساساً دراسياً حتى للعلماء النباتيين أمثال ابن البيطار (المتوفي عام 646 هـ) وأستاذه أبي العباس النبطي فاستطاع الأندلس أن يحمل راية الفلسفة والطب في العالم الإسلامي (لوكلير، ج 2، ص 72). إلا أن القرن السابع الذي وصف بأنه عصر ازدهار في الشرق ما لبث أن أعقبه عصر انهيار واكب انحسار موجة العلم والحكمة بالمغرب بعد (وقعة العقاب) التي انهزم فيها الموحدون (عام 609 هـ) وكانت السبب في هلاك الأندلس «البيان» لابن عذارى، ج 4، ص 240).

المارستانات والمستشفيات

إن أول مارستان عرف في الشرق هو مارستان الشام بناه الوليد بن عبد الملك الأموي الذي تولى الخلافة عام 86 هـ وهو أول من بنى المارستان في الإسلام «الخطط والآثار» للمقريزي، ج 2، ص 405 ــ طبعة بولاق)، وأول من اتخذ المارستان بمصر أحمد بن طولون.

وبلغ كراء المقعد (أي السرير) فيه كل يوم اثني عشر درهما («صبح الأعشى» ج 3، ص 337) وكان في المارستان العصري أربعة وعشرون من الأطباء منهم الكحّالون والطبائعيون والجراحون والمجبرون كل يداوي حسب اختصاصه. وكانت هذه المستشفيات معززة بمكتبات كالتي عرفها العهد الفاطمي بمصر حيث بلغ عددها أربعين خزانة في قصر الخلافة أشهرها الخزائن التي جمعت مائة ألف مجلد منها 6500 في الطب والفلك. وكان المصريون يختلفون إليها لاستعارتها أو مطالعتها.

وأول شبكة من المستشفيات الأندلسية هي ما أشار إليه العلامة الأمريكي (فكتور روينصن) من وجود أربعمائة مستشفى في مدينة طليطلة وحدها وهو رقم أقرب الى الخيال منه الى الحقيقة، لاسيما وأن لوكلير (ج 1 ص 571). أكد أنه لم تصله معلومات في شأن هذه المستشفيات الا ما كان من مستشفى (الجزيرة الخضراء) الذي أسسه الموحدون في آخر أيامهم وجعلوا على رأسه الطبيب أحمد بن ابراهيم الداني.

والواقع أن المنصور الموحدي سمح بفتح دكاكين للعلاج وعيادات متعددة الاختصاص بجانب مستشفى عظيم هو (مستشفى دار الفرج) شرقي الجامع الكبير بمراكش، و لم تكن كلمة مارستان معروفة آنذاك ولعلها تسربت من تركيا عن طريق السعديين. وقد وصف عبد الواحد المراكشي («المعجب» ص 177) مارستان مراكش وزخارفه ونقوشه وغراسته والمياه المحيطة به وفرشه النفيسة وأنواع الملبوسات المخصصة للمرضى مع وفير الأدوية والأطباء والممرضين ممّا حدا المؤرخ ميي Millet الى القول في كتابه «الموحدون» Les Almohades بأن هذا المستشفى لا يخلف وراءه مصحات أوروبا المسيحية (وسماها maladredries) فحسب، بل تخجل منه مستشفيات باريس حتى اليوم، أي تاريخ صدور الكتاب المذكور وهو عام 1923 وقد أشار ابن الخطيب في «انفاضة الجراب» عام 761 هـ ـــ 1359 م الى هذا المستشفى الذي ربما اندثر إبان الاحتلال البرتغالي لبعض مدن الجنوب وكان مديّره (أي مديره) آنذاك هو أبو الضياء منير بن أحمد الجزيري بينما ولي أمانته في عهد الناصر والمستنصر ابراهيم الداني وولده أحمد وأخوه.

وقد تعددت المارستانات المرينية حتى لم تكد تخلو مدينة من مارستان (الذخيرة السنية 100). فقد بنى أبو يوسف المريني مارستانات وفّر لها عددا من الأطباء. ثم بنى أبو عنان المريني بسلا مدرسة للطب أحيلت بعد توسيعها الى مارستان كان من أبرز أطبائه ابن غياث السلاوي وأبو الفضل العجلاني(10).

وقد عرف هذا العهد مارستانات أخرى كمارستان شالة («وصف افريقيا» للحسن الوزان المعروف بليون الأفريقي ـــ طبعة باريس، ج 2، ص 24)، ومارستان مكناس ومارستان الرباط أمام الجامع الأعظم، وأهمها (مارستان سيدي فرج) قرب سوق العطارين بفاس، وقد تولى نظارته عام 754 هـ الطبيب محمد بن قاسم المالقي، وخصص أحد أجنحته للأمراض العصبية حيث جربت الموسيقى في العلاج وكان ذلك قبل أن يشيع في أوروبا استعمال نوع من الرقص هو

(10) ولعله هو محمد بن قاسم العجلاني صاحب «تحفة الأريب عند من لا يحضره طبيب» توجد نسخة في الخزانة الحسنية عدد 1044، وهو يحتوي على حقائق طبية أهملها الناس.

Rock-and-Roll في خصوص معالجة مرض عضوي هو أزمة مغص كلوي : ألم يحصل على مستوى الكلية. والغريب أن مارستان سبتة الذي بناه المرينيون كان يحتوي على ثمانمائة سرير («وصف وتاريخ المغرب» كودار، ج 1، ص 62).

ولا نستغرب هذا إذا ما رجعنا الى كتاب «اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سنين الآثار» (المطبعة الملكية بالرباط لمحمد بن قاسم الأنصاري) ــ الذي ألفه 825 هـ / 1421 م أي بعد احتلالها بسبع سنوات ــ (ومن ذلك 62 خزانة و47 رباط صيد و360 فندقا و4000 مطمورة و103 طاحونة و44 مرمى ومحلات للسباق و30 مرسى و999 مصيدة للحوت).

وقد توالى إنشاء المارستانات في العهد السعدي حيث أنشأ السلطان الغالب بالله عام 970 هـ / 1562 م مارستانا بمراكش قرب جامع المواسين وقف عليه أموالا للنفقة على القومة من أطباء وصيادلة وممرضين مع مختلف اللوازم. وقد أسس السعديون للأسارى المسيحيين ــ حسب رواية السفير الانجليزي ادمون هوكان ــ مستشفى قرب أحد الجوامع بمراكش (الاستقصا، ج 3، ص 18).

ولعل هذه المارستانات قد بدأت تفقد من أصالتها وأهميتها حيث أصبحت مخصصة للعلاج إن لم نقل مجرد إيواء المجانين كما هو الحال بالنسبة لمارستان المجانين بفاس، حيث تولى الحسن الوزان خريج جامعة القرويين خطة العدالة فيه مدة أربعة أعوام. وقد احتفظ باسم مارستان رغم تقلص أهميته. وقد أقيمت مارستانات أخرى في العهد العلوي قامت بدور محدود ومن جملتها المارستان الذي بناه المولى عبد الرحمن بسلا آخر عام 1247 هـ / 1831 م قرب ضريح سيدي أحمد بن عاشر استحال هو أيضا الى مستشفى للمجانين.

وكان لأطباء المغرب المارستانيين شفوف في الشرق منذ القرن الرابع الهجري حدا المسؤولين المشارقة الى اختيارهم للاشراف على مارستاناتهم، منهم :

ــ محمد بن عبدون القرطبي الذي دبر مارستان مصر (توفي عام 360 هـ).

ــ علي بن يقظان السبتي الذي توجه الى مصر عام 544 هـ ثم الى اليمن والعراق (القفطي، ص 160).

ـــ يوسف بن يحيى بن إسحاق السبتي المعروف بابن سمعون الفاسي كان طبيب ميمون أمير حلب والملك الظاهر (القفطي، ص 206).

ـــ عبيد أبو الحكم عبد الله المظفر المعروف بالمغربي (المتوفى عام 549 هـ/1155 م) كان طبيبا مهندسا شاعراً موسيقارا، مهر في ضرب العود ودخل مصر ودمشق والعراق وترأس مارستان السلطان السلجوقي وكان له دكان علاج.

ـــ محمد الغساني الجياني المغربي كان طبيبا بمدرسة النظامية ببغداد عام 601 هـ بعد مروره بالقاهرة ودمشق، وكان يلقب بحكيم الزمان.

ـــ علي بن أحمد الحرالي ولد بمراكش وتوفي بدمشق عام 637 كان فريدا من نوعه، أحكم تدريس الطب بمنهج أصيل فكان يلقن قوانين في الطب نزل في التفسير منزلة أصول الفقه في الأحكام.

ـــ علي بن هلال الحضرمي السبتي (المتوفي عام 678) كان له دكان علاج جعل من أسفله مدرسة للطب ثم انتقل الى المسجد عند ما كثر تلاميذه («الذيل والتكملة» ق 5 ص 419)، وهذا يعطينا صورة عن لجوء بعض أساتذة الطب الى المساجد عندما تضيق عيادتهم أو مصحاتهم عن ذلك.

ـــ محمد القوبع، درس بمارستان دمشق في عهد أبي الحسن المريني (نزل بتونس، توفي عام 738 هـ).

ـــ غالب الشقوري نزيل فاس (المتوفي عام 741 هـ) قرأ الطب بمارستان القاهرة وزاول العلاج في دكان بفاس.

ـــ أحمد بن حاتم الفاسي ولد بفاس عام 851 هـ ونزل مصر والشام ومكة، يعرف في مصر بحاتم.

ـــ عمر بن على السلعي المتوفى عام 576 م كان له دكان علاج بدمشق، كتب ملاحظات على كتب ابن سينا وهو أبو جعفر المغربي (لوكلير، ج 2، ص 200).

ولعل دكاكين العلاج والمصحات قد استمر دورها عندما تقلصت المستشفيات. وقد كان للمريخ الحكيم دكان نموذجي بمراكش كان يجلس اليه كل

من ابن البنّا تلميذه وابن الشاطر، كما عرفت فاس دكان إبراهيم بن أبي الفضل بن صواف الحجري (المتوفي عام 1112)، وفي مكناس دكان العيادة للطب والصيدلة لصاحبه إبراهيم بن علي المراكشي الذي بلغ درجة أكابر الحكماء من أطباء البلاط العلوي.

تدريس الطب في جامع القرويين ومساجد المغرب

أسس جامع القرويين عام 245 هـ (أي قبل جامع الأزهر بقرن تقريبا) ولكن نشاطه الجامعي لم يبدأ الا منذ القرن الخامس الهجري وقد اعتبرت فاس من طرف (باديااليبليش، المعروف بعلي باي العباسي) بمثابة أثينة افريقيا كما وصف دلفان Delphin في كتابه عن القرويين جامعة فاس بأنها أول مدرسة في الدنيا (ص 12)، وردد (الدكتور رينو) القول بأن مدينة فاس التي جلبت طلبة العالم كانت مهد الحضارة كأثينة تدرس فيها جميع العلوم والفنون والآداب («الطب القديم بالمغرب» ص 77). ولاحظ (دوكاميو) في كتابه «المغرب المعاصر مملكة تنهار» (باريس 1886، ص 12) أن هذه الجامعة كانت ملتقى الأجانب من مختلف الجنسيات والأديان، وآشار (كابريال شارمس) في كتابه («سفارة الى المغرب» ص 254) أن العلوم والفنون كانت تنتشر منها الى أوروبا بل أن كل مدارس فاس كانت أولى مدارس العالم(ص 297) يوم كانت فاس مركز القوة العربية، ورثت مكانة قرطبة والقيروان ومنها انبثق ما يسمى بالحضارة العربية التي أشع نورها ــ كما يقول أيضا ــ في اسبانيا فأضاء جوانب أوروبا المتوحشة. وقد نهل من معينها جيربر Gerbert الذي اعتلى أريكة البابوية عام 999 م باسم سيلفيستر الثاني.

وقد أكد (رينو) أن علم الطب كان يدرس في جامعة القرويين بواسطة كتب أبقراط وجالينوس وديوجينوس المعربة. ورأى أن احتواء خزانة القرويين على جملة مؤلفات لأطباء مسلمين دون أخرى يدل على نوعية الدراسات الطبية المنتقاة في القرويين وإن كان الكثير من مخطوطات الجامعة قد ضاع أو نقل الى الأسكوريال في قصة المولى زيدان بن المنصور السعدي، فأبرز الكتب التي كانت على ما يلوح ــ منطلق التعليم الطبي بالقرويين هي :

1) «عمل من طبّ لمن حبّ» لابن الخطيب السلماني (خق أي خزانة القرويين) 607/40، 160 ورقة/خق 40/207/، حبسه السلطان مولاي عبد الله بن اسماعيل (خع أي الخزانة العامة الرباط) 3477 (1) عام 1156 وهو في جزئين يعدد الأمراض من الرأس الى القدم، (الخاصة ببعض الأعضاء مع تعريف لكل مرض وأعراضه وأنواع العلاج). وله أيضا «الوصول لحفظ الصحة في الفصول» (جزآن، خع، 652 د، 100 ورقة، 1970 د / خق 50 / الخزانة الحسنية 979).

2) شرح أرجوزة ابن سينا (خق 342 / خق 1970، 95 ورقة) الأزهر 475.

3) «تذييل أرجوزة ابن سينا» لمحمد بن زاكور الفاسي (المتوفي عام 1120 هـ/1708 م

4) «الأدوية المفردة» لاحمد أبي جعفر الغافقي (المتوفي عام 560 هـ) جزآن في خق 155/الجزء الأول في خزانة تمكروت.

5) «التيسير في المداواة والتدبير» لابن زهر (خق ق 195).

6) «الأرجوزة في الطب» لابن طفيل (المتوفي بمراكش عام 581 هـ / 1186 م) نسختان في خق 3158 /50 ل /خق ل 40 / 3158.

7)«مختصر في الطب» لابن حبيب صاحب كتاب «الواضحة في السنن والفقه» (المتوفى عام 238 م / 886 م) توجد قطع منه في مكتبة جامعة القرويين.

8) «كتاب الاستقصا والايرام في علاج الجراحات والأورام» لمحمد بن علي الشقرة الفربلياني الطبيب الجراح بمراكش عام 761 هـ (توجد نسخة منه في خزانة القرويين منسوبة لمحمد بن فرح المعروف بالشنفرا في ثلاثة أجزاء).

وقد استمر التعليم الرسمي للطب في جامعة القرويين وباقي مساجد المغرب الى القرن الماضي (رينو ص 77) وقد أشار (دلفان) في كتابه حول جامعة القرويين (الى اعتناء الطلبة بجملة من الكتب الطبية مثل ما ذكرناه بالاضافة الى «زبدة الطِّبع» للجرجاني و«التذكرة» للسويدي و«تذكرة الأنطاكي» و«كليات» ابن رشد و«مفردات» ابن البيطار و«كشف الرموز» لابن حمادوش الجزائري (في شرح العقاقير والأعشاب) يحتوي على ألف عشبة مرتبة ألفبائيا.

إلا أن دراسة الطب تهلهلت في الواقع وأصبحت لا تتجاوز المبادىء الصحية العامة والعلاجات التطبيقية بالأعشاب فأصبح بعض الفقهاء والمحدثين يؤلفون في الطب مثل ابن قنفد (المتوفى عام 810 م) صاحب «الأرجوزة في الأغذية والأشربة» (توجد نسخة في الخزانة الحسنية بالرباط رقم 515) تحتوي على 282 بيتا، وقد انصب التأليف خاصة حول «تذكرة الأنطاكي» التي كان الفقيه أحمد الحضيكي يحفظها عن ظهر قلب كما يحفظ كتاب الزهراوي ويسردها في دروسه للطلبة مع تعليق على شرح ابن رشد لأرجوزة ابن سينا وقد صنف الطبيب عبد السلام بن محمد العلمي (المتوفى عام 1323 هـ)كتابه (ضياء النبراس في حل مفردات الأنطاكي بلغة أهل فاس) (طبع بفاس عام 1318 هـ / 1900 م وكذلك «البدر المنير في علاج البواسير» وانتقد المؤرخ القادري في كتابه «نشر المثاني» (ج 2 ص 123) كتاب «التذكرة» وملاحظا أن الأنطاكي أودعها غثا وسمينا، وكذلك رسالته الأخرى المسماة «النزهة المبهجة في تشحيذ الأذهان وتعديل الأمزجة» (توجد نسخة منها في المكتبة العامة بالرباط) وقد لاحظ القادري أنها أكثر تحريرا وأسلم ايرادا وقد اقتصر البعض على مجرد اختصار «تذكرة» الأنطاكي مثل إبراهيم بن أحمد التادلي (المتوفى عام 1311 هـ) وهي «التذكار لما في التذكرة من الطب مع الاختصار».

وكانت الدراسات الطبية في القرويين تكلل بشاهدة تمنح للطبيب فقد أشار (رينو) في كتابه (ص 121) الى اجتماع عقده أربعة من علماء فاس في ثامن شوال 1310 هـ / 1896 م لامتحان طبيب مغربي فشهدوا بعد استفساره في الطب وقوانينه ووظائفه وتطبيقاته ومعرفته بتراكيب الأدوية وتقاسيم الشرايين وعددها وعدد العظام وتمييزه بين أنواع العصب والعضلات في الجسم ومعرفة النباتات والأزهار والأعشاب الطبية وخواصها وأسمائها وطرق اذابتها في الوقت الصالح والأوقات المناسبة لوصفها للمرضى. وبعد المداولة بين العلماء خولوا الطبيب إجازة Licence وقد حصل على نفس الإجازة في الطب الطبيب الكحاك عام 1832 هـ ففتح دكانا للعلاج بفاس.

غير أن التعليم بدأ يتهلهل بسبب تأزم القضية السياسية وتدخل أوروبا في شؤون المغرب بعد توقيعها على معاهدات سرية عام 1904، فاقتصرت دراسة الطب

على مصنفات عامة كمقالة حفظ الصحة لابن رشد (الأسكوريال 884 / 7) و(تدبير الصحة) لأحمد بن الحسن القضاعي (المتوفى بمراكش عام 598 هـ وأرجوزته في حفظ الصحة). وقد شمل هذا التقلص سائر مساجد المغرب وإن كانت لعبد الكريم بن مومن بن يحيى العلج، وزير المنصور الموحدي. وأنجبت الصحراء أمثال الشيخ ماء العينين (المتوفى عام 1328 هـ / 1910 م) صاحب «شفاء الأنفاس فيما ينفع الأنسان وخصوصا الاضراس» و«منظومة في علم الطب»، وكذلك طبيب تافلالت عبد الله بن هاشم العلوي البلغيثي (المتوفى عام 1304 هـ) الذي درس الطب على عمه بالصحراء وعاد الى فاس ليفتح بها دكان علاج.

وهذا النقص هو الذي حدا المولى الحسن الأول الى ارسال بعثات طلابية الى الشرق أو الغرب حيث تخرج جملة من الأطباء منهم :

شاكر السلاوي الذي درس الطب بأوروبا وفتح دكان علاج بفاس عام 1347 هـ 1928 م («الطب العربي للكانوني»، مخطوط شخصي، ص 121) والشريف عبد السلام العلمي الذي تلقى تعاليمه بالاسبطالية المصرية بالقاهرة وفتح مصحة صغيرة قرب الحرم الإدريسي بفاس حتى، توفي عام 1323 هـ وصنف كتابه «الضياء» حيث وصف بعض الأمراض الباطنية وعلوم التشريح العظمي والعصبي والكيمياء الطبية والمستحضرات الصيدلية وطب الرمد والأمراض الجلدية والداء الزهري وأمراض النساء والأطفال.

وقد تابع في العهد الحسني زيادة على أولئك، ستة أطباء تمارين في المستشفى الاسباني بطنجة ولاحظ (رينو) أن ثلاثة منهم أصبحوا يمارسون في طنجة ومراكش داخل الجيش وقد استفاد الناس من تجاربهم (ص 60).

والواقع أن هذه الدراسة التي توبعت في الجوامع والمساجد والتي اقتصرت أحيانا على شرح بعض الكتب المبسطة للطلبة وجمهور العوام قد ساعدت على ضمان نوع من التوعية للحفاظ على السلامة الجسمية.

نعم إن بساطة العيش والحمية الاضطرارية واللجوء الى الطبيعة وأعشابها هي التي قلصت الأدواء والعاهات والأوبئة وويلاتها وذلك بالرغم عما أصاب العلوم

الطبية والصيدلانية من نكسات بدأت بالغزو الايبيري على المغرب حيث استولى البرتغاليون على سبتة عام 818، ثم قصر المجاز (القصر الصغير) عام 862، وطنجة عام 869، وأصيلا وأنفا في حدود 876، والجديدة عام 907، والعرائش عام 910، ثم أكادير وسواحل السوس وأسفي حوالي 912، وأزمور عام 914، والمعمورة (المهدية) في حدود 920، فطويت هذه العلوم في شمال المغرب على إثر سقوط سبتة التي ازدهرت فيها الفلسفة والطب. وقد ألفت فيها مصنفات في العهد المريني منها (بلغة الامنية وقصد اللبيب في من كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب). وفي الشرق بدأ عصر الانحطاط العلمي في القرن الثامن وبداية التاسع على إثر هجمات (جنكيزخان) و(تيمورلنك) حتى قال لوكلير (ج 2 ص 258) بأنه يمكن في هذه الفترة تسجيل أكثر من أربعين عالما نصفهم من الأندلس لا يوجد بينهم طبيب مشهور لقلة الطرافة والاكتفاء بالجمع والتأليف. وقد أكد (رينو) («الطب القديم بالمغرب» ص 75) أنه لم يذكر أي طبيب مغربي في المصنفات الكلاسيكية من عهد المرينيين الى القرن الثامن عشر، وإن كان (ليڤي بروفنصال) قد لاحظ في كتابه «مؤرخوا الشرفاء» نهضة المغرب من الوجهة الأدبية مؤكدا أن من الغريب أن لا نجد مثل هذه النهضة في العلوم الطبية. غير أن وجود بادرات نادرة في هذا الحقل لتبرر في نظري وصف المغرب بالاستمرارية في هذا المجال وقد أشرت في كتابي «الطب والأطباء بالمغرب» (ص 59) الى عشرات من هؤلاء الرجال الذين حاولوا ربط الماضي بالحاضر الموصول حتى ظهر أمثال أبي القاسم الوزير الغساني (المولود عام 960 هـ) صاحب «حديقة الأزهار في شرح ماهية العشب والعقار»، والذى قال عنه (الدكتور رينو) في نشرة معهد الدروس المغربية العليا (ج 18ص 195) إنه كتاب يمتاز بمنهاجه الواضح في الوصف النباتي المتسم غالبا بالأصالة والطرافة مع محاولة جريئة لوصف الأعشاب والمواد الصيدلية بفاس وترتيب ثلاثي يدخل عنصرا جديدا في وصف أعشاب المدرسة الصيدلية الشرقية ومنهم أيضا الطبيب عبد الوهاب أدرّاق طبيب المولى اسماعيل ومحمد بن سعيد المرغيشي المتوفى عام 1089 هـ) والذي كان ينظر في قوارير البول ومحمد العياشي الدكالي صاحب «الجربات الطبية» توفي بمصر عام 1149 هـ (طبعة مصر 1346 هـ). ولكن بالرغم عن انخفاض المستوى الاجتماعي العام فإن الوفيات

كانت قليلة حيث ذكر الحسن الوزان (ليون الافريقي) أن معدل العمر بلغ في مجموع بلاد المغرب ما بين 65 و70 سنة بل يرتفع أحيانا الى 80 ومائة سنة في الأطلس، بينما يبقى في حدود 60 سنة في ليبيا. ومن مظاهر تدهور الصيدلة مثلا أن الصيادلة لم يعودا قادرين على تركيب الأشربة والأدهان طبقا لما يصفه الأطباء، فكانوا يجتمعون كلهم لتركيبها ثم إرسالها إلى دكاكينهم واستمر الأطباء أنفسهم في مزاولة علاجات تقليدية ضمن طب تطبيقي، لم يكن يخلو أحيانا من جودة (رينو، ص 132) سواء في ميدان التشريح والعمليات الجراحية أو كسر العظام أو معالجة بعض الأمراض بالمغرب كأمراض العيون التي كانت تشكل مع الزهري ثلثي أمراض افريقيا الشمالية مستعملين أنواع التبنيج والإيحاء والتنويم في معالجة المرضى يصفها رينو (ج. / م 240) بأنها لا تختلف عن المناهج المستعملة عند الأوروبيين. على أن الطبيب (بنسيمون) لاحظ في بحث له حول الطب والأطباء بالمغرب قبل الحماية (مجلة المغرب الطبي، شتنبر 1951) (أن الطب التقليدي بالمغرب كان يستعمل في عدة حالات أنواعا من العلاج لم يعد نزاع في جدواها، ومنها تخفيف تفجر الحميرة (بوحمرون) والحمى الاستعصاءات باكساء غرفة المريض باللون الأحمر وهي طريقة لا يزال يستعملها الدكتور (شاطينير). :

وقد نقل (ڭودار ج 2 ص 461) ما أكده الحسن الوزان من أن المغرب لم يعرف (الحشيش) وقد حظر الحسن الاول في ظهير شريف استعمال الأفيون والتبغ والكيف رغم ازدهار سوقه حيث بلغت مداخله أواخر القرن الماضي في مراكش وحدها في عام واحد مائة ألف فرنك وفي الصويرة عشرة ءالاف (Raynaud, Etude sur l'hygiène et la médecine au Maroc, Alger 1902).

و لم يكن المغرب يعرف كثيرا من الأمراض المنتشرة بأوروبا مثل الحمى الوبائية والحمى الحصبية بينما تقل الاصابات الدقتيرية أو التيفويد (رينو ص 140) ولم يظهرالوباء بالمغرب منذ عام 1818، وظهرت الكوليرا لأول مرة عام 1895 (ص 141). وكان الجدري يظهر كل سبع سنوات ويعمد الناس الى التلقيح بحقن جراثيم بثور ودماميل العجل أو الناقة. أما الزهري (أو النوار وحب الفرنج) فقد لاحظ الحسن الوزان انتشاره بالمغرب في القرن العاشر الهجري بحيث كان عشر السكان مصابين به وقد نقله المهاجرون اليهود من الأندلس بعد عام 898 هـ

/ 1492 م (گودار ص 261). وكان المخزن يتخذ تدابير وقائية صارمة لمحاربة الأوبئة كما وقع مثلا عام 1865 حيث طردت كل باخرة واردة من الأقطار المنكوبة مثل ايطاليا ومرسيليا وتونس والجزائر. وصدر ظهير للسلطان محمد بن عبد الرحمن في عاشر رجب 1283 هـ (موافق 18 نوفبر 1866) جعل جزيرة الصويرة محجرا صحيا، وعندما ظهر الطاعون عام 1089 هـ بمكناس والقصر الكبير وقف الجند على مشرع سبو وغمره يمنعون التوجه الى فاس ومكناس وباقي مدن المملكة، وقد ظهر بفاس.

فأمر السلطان بتحريق ما بسوق الخميس («نشر المثاني» ج 2، ص 44) وقد بنيت حول الحواجز الكبرى حارات لفصل الجذمى عن الأصحاء وقد وصفها الدكتور (مارسنيت) في كتابه عن المغرب (عام 1885) حيث لاحظ أن سكانها أصبحوا كلهم أصحاء وتعززت هذه التدابير الوقائية بتوفر سائر مدن المغرب على لجنة صحية من أعيان يهتمون بكل ما يتصل بالصحة العمومية وطهارة المدينة وتموين الأسواق وجلب الماء (رينو ص 36). وكان المخزن يقوم بتطهير بعض الأزقة والشوارع خلال الليل وقد حاول تنظيم نقل الأزبال فجلب من الخارج أول القرن الحالي كناسات ورشاشات ميكانيكية ولكنها لم تستخدم (ص 37). ومن غريب ما يحكى أنه في عام 1760 اقترح بعض الاسبان كنس الطرقات بمدريد من الأزبال التي تغمرها وتدنس المدينة فاحتجت الهيئة الطبية بقوة زاعمة أن أجدادها كانوا رجالاً حكماء وأنهم عاشوا في الأزبال («حضارة العرب» لوبون ص 638 الطبعة الفرنسية). ولعل الأمراض التي تنشأ عن سوء التغذية لم تكن كثيرة الانتشار لأن المغرب لم يعرف المجاعة منذ عام 1614، أي طوال أزيد من ثلاثة قرون سوى ثماني مرات أي مرة كل 35 سنة في حين توالت المجاعة بين سنتي 867 هـ و1325 هـ ست عشرة مرة (رينو، ص 76).

ومن الصعب تقبل مثل هذه الأرقام وإن كان يعززها مانقله (شارل لامارتينير) Charles Lamartinière في كتابه La question du Maroc ان المغرب كان يتوفر، حوالي 1859 وهو تاريخ وفاة المولى عبد الرحمن، على 48 مليون رأس غنم وستة ملايين رأس بقر. وقد أكد ما يقاربه گودار في كتابه المذكور (ج 1 ص 188)، كما يسنده الفائض الضخم الذي مكن المغرب من أن يصدر عام 1845 من ميناء الصويرة وحدها 75 ألف طن من القموح والخضروات، واستمر في ذلك الى

عام 1911 حيث صدر ثلاثة أضعاف ما جلبه من أوروبا. ومع ذلك يجب أن نأخذ كل ذلك بحذر لما يثيره في نفوسنا من شك مثل هذا التعداد الارتجالي الذي حدا أمثال هؤلاء المؤرخين الأجانب الى أن يسجلوا في خصوص سكان المغرب أعداداً تتراوح بين سبعة ملايين وخمسة وعشرين مليون. ويزعم (رينو) أن الطاعون الذي نقله الحجاج إلى المغرب عام 1799 قد حطم كل المحاصيل وأهلك خمسين ألفا من ستين من سكان مراكش وعشرين ألفا من ثلاثين من سكان الرباط، فكيف أن نثق بكل هذا الاحصاء ودولة الحماية نفسها عجزت عام 1950 عن تحديد سكان المغرب كما عجزت عن تحديد ضحايا مجاعة جنوب المغرب عام 1945 وإن كان الرقم التقريبي وصل إلى مليون نسمة.

تلك نظرة مكبرة عن الوضع العام في المغرب طوال ألف عام وعن الدور الذي قام به أطباؤنا بتعاون مع المخزن في مراحل تنظيم تعليم الطب بشتى الوسائل وفي حدود الامكانات التي كان المغرب يتوفر عليها.

بداية تاريخ العلاقات بين المغرب والدُّول الأوروبية التي تنتظم اليوم فيما يُسَمَّى بـ «المجموعات الأوروبية»

عبد الهادي التازي

«ذلك أن المغرب قريبٌ جغرافياً من أوروبّا، وقد نسَج التاريخ بينه وبينها طوال قرون عديدة صِلاتٍ بلغتْ من العُمْق درجةً جعلتْ حضاراتهما تتداخل أقوى ما يكون التّداخل، وأبانتْ في مناسبات عديدة عن وحْدة المصير التي تجمعهما.»

من خطاب لجلالة الملك الحسن الثاني إلى السيد رئيس مجلس المجموعات الأوروبية يوم الأربعاء 11 ذي القعدة 1407 = 8 يوليه 1987.

يتأكَّد أنَّ العلاقات بين المملكة المغربية وبين الممالك والجمهوريات الأوروبية عرفت طريقها منذ تاريخ جدّ مبكّر، ويرجع السبب الرئيسي لهذا التَّعارُف إلى الموقع الجغرافيّ الذي يمتاز به المغرب الذي لا يفصله عن القارَّة سوى بضعة أميال ! والذي يتميَّز بأنَّه النافذة الأقرب للقارَّة الإفريقية والمغرب العربي على القارَّة الأوروبية، وبأنه المحطة الوحيدة التي تجمع، على مسافةٍ شاسعةٍ بين المحيط الأطلسي والبحر المتوسط... ذلك الموقع الجغرافي الذي نجده وراء الزيارات العديدة التي قام بها عددٌ من أمراء وقادة أوروبا لديار المغرب من سائحين وسياسيين

ودبلوماسيِّين على مرِّ العصور... كانت وراء العلاقات الإنسانية التي سجَّلها التَّاريخ بين المنتسبين لتلك القارة والمنتسبين لهذه... حيث نقرأ منذ التاريخ المبكّر عن سيدة أوروبية مثلاً أمست خالة لأحمد !!.. وعن مواطِن مغربيّ غدا عما لمارية !!

ومن هنا لم يكن غريباً علينا أن نجد الوثائق المغربية والأوروبية كذلك تتحدث عن صلات المغرب مع دُوّل أوروبا جميعها[1].. على الأقلّ منذ عهد الامبراطور شارلماني (ChARLEMAGNE)، وبالذَّات في بداية القرن التاسع الميلادي، حوالي سنة 184 من التَّاريخ الهجري.

إن هناك فقرةً من الحوليات الملكية (Annales Royales)[2] لسنة 801 تشير إلى أنه في الوقت الذي كانت توجد فيه بالبلاط الأمبراطوري لشارلماني سفارة الخليفة هارون الرشيد، كان يوجد أيضاً مبعوث من الأمير إبراهيم ورد من أقصى إفريقيا، في إمارة فوساطوم (Fossatum).

هناك بعض المؤرخين من أمثال كويزو (Guizot) وبيرتز (Pertz) وشارلز دولارونسيير (Ch. de Loroncière) يرون أن في الإستطاعة ترجمة كلمة فوساطو بعبارة فاس... وهكذا انتهوا إلى أن القصد إلى بعثةٍ واردة من أمير الأدارسة...

ويظهر لي أنه كانت هناك للأدارسة الأولين طموحات للإتّصال بما وراء حدود مملكتهم على ذلك العهد... ولعلَّ القصد بإبراهيم إلى شخص كان يحمل هذا الإسم وعهد إليه بمهمة الإتّصال بشارلماني عن الأدارسة... ويبدو أخيراً أن القصد من كلمة فوساطوم إلى فاس ونحن نعلم أنها، أي فاس، كانت تعرف آنذاك **بدار القيطون** أي دار الفُسْطاط حيث كان يقيم الإمام إدريس في انتظار تجهيز العاصمة...

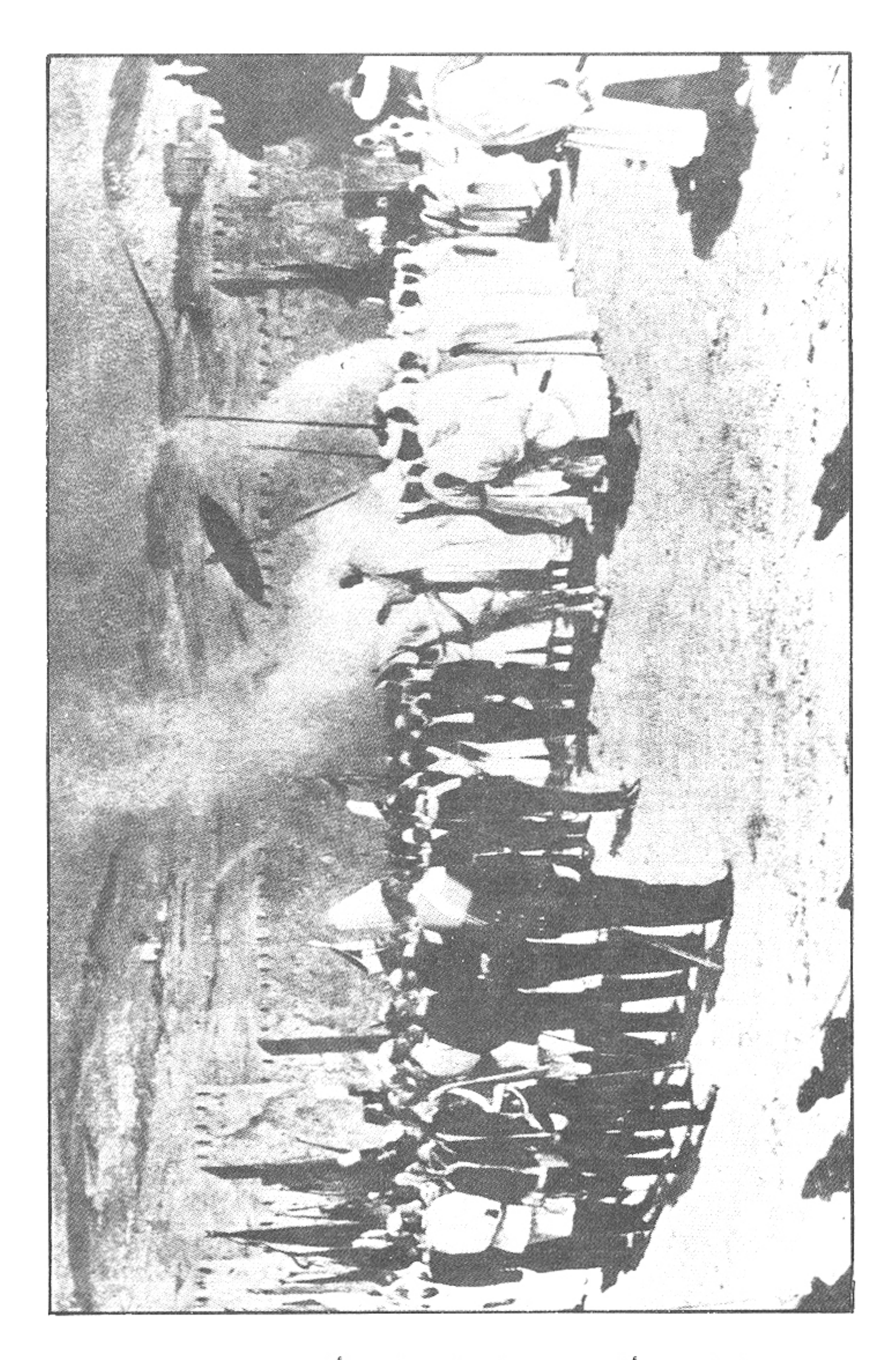
ولايمكن لِلمهتمّ بمركز المغرب في تاريخ المجموعة الأوروبية أن لاتستوقفه وثيقة

---

(1) «ينبغي أن نعيد للذاكرة أن المغرب كان جزءا من الامبراطورية الرومانية في وقت من الأوقات، وقد غدا حصنا للرومان للدفاع عن إمبراطوريتهم» من خطاب السيد عبد السلام زنيند سفير المغرب بلندن في ملتقى 25 نونبر 1988 حول العلاقات المغربية الأوروبية

(2) GHOVIN (Gisèle) : Aperçu sur les relations de la France avec Le Maroc des origines à la fin du Moyen Age. Hesp. 1957, TXLIV, 3e 4e Tr. p.p 249 - 298

د. التازي : «التاريخ الدبلوماسي للمغرب»، ج 4، ر 6، مطبعة (فضالة) 1406 = 1986



استقبال السفارة الألمانية بفاس من لدن الملك الحسن الأول 1307 = 1890.

فريدة يحتضنها أرشيف الدَّولة في جنوة (إيطاليا) التي نعرف عن تفوقها البحري مع جمهورية بيزة في الربع الثاني من القرن الثاني عشر.

هذه الوثيقة التي تحمل تاريخ 1138 = 532 أي أيام أمير المؤمنين علي بن يوسف بن تاشفين...

ويتعلق الأمر باتفاقية دفاعية هجومية أبرمتها مرسيليا مع جمهورية جنوة لمدة عشر سنوات، وقد التزمت مرسيليا بمقتضى الاتّفاقية المذكورة أمام الجمهورية بمراعاة السلام بالنسبة للمملكة المغربية، كما أنها أي مرسيليا التزمت بمنع قراصنتها المسلحين من مهاجمة المغاربة، وقد اشترط المرسيليون لهذا أن تحصل لهم جنوة ــ باعتبارها حليفةً للمغرب ــ على عقد معاهدة سلام مع ملك المغرب أو تَعِدهم بالدِّفاع عنهم ضد هجماته فيما يتجاوز السنوات العشر، وبتعويضهم عن جميع الأضرار التي قد تلحقهم ابتداءً من الفترة المذكورة.

ولهم ان يحطّوا في بلاد الموحدين اعزهم الله على عادتهم ويتجروا من العدل
والحماية على رسمهم ويمنعوا من كل من يريد اذاهم او التسبب بمكروه اليهم
واذا لقيتهم في البحر اساطيل الموحدين نصرهم الله فلا سبيل لهم الى تعرضهم ولا
الى اذايتهم في نفوسهم ولا اموالهم ولا في شيء من شؤونهم واحوالهم وفاء بذمتهم
وامضاء لاحكام سلمهم وهدنتهم وعلى هذه الاصول المقررة والفصول المعتبرة
انتظمت هذه المهادنة وجعل هذا الكتاب خمس نسخ يمسكون منها واحدة في
بلدهم ويستظهرون بها فيما في البلاد المأذون لهم في الوصول اليها توسعة
عليهم واكمالا للمنة لديهم وكتب في اوايل شهر رمضان المعظم عام اثنين وثمانين
وخمسمائة

جانب من الاتفاقية المغربية مع جمهورية بيزة على عهد الموحدين رمضان 582 = نونبر 1186 يلتزم فيها المغرب بحماية السفن التجارية الأوروبية «وفاء بذمتهم وامضاء = لأحكام سلمهم...».

وقد أخذت على عاتقها مدينة هيير (Hyères) و فريجيس (Fréjus) وأنْتيب (Antibes) وسائر المدن البحرية للإقليم، نفس الإلتزام إزاء جنوة باحترام أشخاص وممتلكات الرعايا المغاربة وبحمل قراصنتهم على التعهُّد بنفس ماتعهدت به مرسيليا إزاء المملكة المغربية

إن المرء عندما تقدّم له هذه الوثيقة الصغيرة في حجمها من لدن محافظ الأرشيف ربما لايعيرها انتباهاً لكنه لايلبث وهو يستعرض أبعادها أن يدرك جيّداً حجم المغرب وحجم العلاقات التي كانت تربط بينه وبين أروبا ويدرك بالتالي دور المغرب في بسط السلام في حوض البحر المتوسط[3].

وهل نغادر جنوة دون أن نسمع أن أحد الجنويين عهد إليه في البلاط المغربي بالقيام بوظيفة كاتب الدولة في الشؤون الخارجية على نحو ما قرأنا عن أحد الفرنسيين الذين كانوا يقومون بنفس الدّور على عهد الملك محمد الثالث من الدولة العلوية ؟

* * *

ويعتبر الملف المغربي الإنجليزي من أقدم الملفات وأغناها وأكثرها تنوُّعاً وإطرافاً... وها نحن مع حدث يعتبر من أروع الأحداث التي تُروَى اليوم وكأنَّها ضرب من الخيال والإفتراض !

حديث تمَّ في العصور الوسطى بالذات أثناء سنة 604 للهجرة الموافق لسنة 1208 للميلاد، لقد تولّى الحديث عن هذه السفارة الإنجليزية الأسقف ماثيو باريس (Mathew PARIS) مؤرخ دير القِدِّيس ألبانس (ALBANS) الذي عاش في القرن الثالث عشر ونشر الحديث عنها ــ فيما بعد ــ أحد رهبان الدير روجي فاندوفير (Roger of Wendover).

---

(3) M.L.De Mas-Latrie : Traités de paix et de commerce et documents divers consernant les relations des Chretiens avec les Arabes de L'Afrique septentrionale au Moyen Age. Paris, 1866 Préface P. 37, Docum. P. 88 - Relations... P. 70
Géséle Chovin : Les relations de la France avec le Maroc. Hesp. 1957 P- 266-267
د. التازي : «التاريخ الدبلوماسي للمغرب» ج 2، 193 ــ 194 ج 5 ص 222 ــ 223 1406 = 1986 مطبعة فضالة ــ المحمدية ــ المملكة المغربية.

وفي أوائل الستينات تقدم المستشرق البريطاني الراحل نيفيل باربور (N. BARBOUR) ببحث حول هـذا الموضوع إلى المؤتمر الخامس والعشريـن للمستشرقين الذي انعقد بموسكو بعنوان :[4]

(The Embassy sent by king John of England to Mirammelinus King of Morrocco)

واستناداً إلى المصادر البريطانية فإن أعضاء السفارة لما وصلوا استقبلوا بما يستقبل به كبار الرسل، وإنهم أدلوا برسائل اعتمادهم وشرحوا للخليفة الموحدي بواعث الزيارة، ثم رفعوا إليه خطاب الملك جوهن، وكان الذي يساعد على التفاهم الجانبين المغربي والانجليزي ترجمان أحضر على الفور.

لقد سأل العاهل المرحدي عن ملك أنجلترا وعن مملكته، وقد كان الذي تصدّى للجواب هو الفارس توماس باعتباره أقدر المبعوثين على تناول الخطاب...

وبعد تبادل أطراف الحديث بين الجانبين سلَّم الملك النَّاصر إلى سكرتير البعثة عدداً من الهدايا الثمينة من الذهب والفضة ومختلف أنواع المجوهرات والأقمشة الحريرية.

وقد وردت في المصادر المغربية[5] إفادات عن سفارة مسيحية وردت قريباً من هذا التّاريخ على العاهل المغربي الناصر يعتقد بعض المؤرخين أنها إشارة إلى سفارة الملك جوهن.

ومن المهم أن نسمع جلالة الملكة إليزابيث الثانية تتحدث عن هذه السفارة، في كلمتها جواباً على خطاب جلالة الملك أمام الملك الحسن الثاني بمناسبة زيارتها للمغرب في 27 أكتوبر 1980 = 17 ذي الحجة 1400:

---

(4) Roger of Wendover's Flowers of History (trans. by J.A.Giles. London 1849 vol II p. 283. P. G. Rogers : A History of Anglo-Morroccan Relations to 1900 London : Foreign and commonwealth office P. 1-5.

ع. التازي : «التاريخ الدبلوماسي للمغرب» ج 6، 1407 = 1987 ص 267 وما بعدها.

(5) ابن أبي زرع : «الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار المغرب ومدينة فاس»، مطبعة الأزرق الحجرية 1303 = 1886 ص 168.

«... علينا ـــ تقول الملكة إليزابيث الثانية ـــ ألا نظنّ بأننا غرباء عن بعضنا البعض، إن أول تبادل بين حاكمي بلدينا جرى بعد مرور بضع سنوات فقط من تشييد صومعة حسان العظيمة وذلك حينما التجأ جون ملك بريطانيا للسلطان محمد الناصر يطلب المساعدة...»

وقد بقينا على صلةٍ مستمرَّة باليونان عبر تاريخنا الثقافي الطويل ومن هنا قرأنا لعبد الواحد المراكشي في كتابه (المعجب في تلخيص أخبار المغرب) عند حديثه عن الخليفة إلى يعقوب يوسف أنه، أي الخليفة، كان يذكر في مجالسه العالمية التي كان يحضرها أبو بكر محمد بن طفيل ما قاله أرسطو طاليس وافلاطون ويقارنه بما قاله أهل الملة الإسلامية... وكان أمير المؤمنين يشتكي من قلق عبارة أرسطو أو عبارة المترجمين عنه.

وأذكر بهذه المناسبة أن الرئيس السابق لجمهورية اليونان قسطنطين د. تساطسوس (TSATSOS) بمناسبة استقباله عضواً في أكاديمية المملكة المغربية في دورتها المنعقدة بفاس 25 نونبر 1980 أشار إلى علاقات المغرب القديمة باليونان، وذكر على الخصوص : «... وفي سنة 604 = 1170[6] أرست سفينة حربية بميناء سبتة تحمل شعار الأمبراطورية البيزنطية، حيث شاهد عمال الميناء شخصية يظهر أنها جدّ مهمة، يرتدي لباساً فخماً ذا أبهة عظيمة ويحمل قلادة حمراء رفيعة الشأن إنما يحملها كبار رجالات الدولة لاتيس كْرافيس (Latus CLAVUS) وقد كان السفير مصحوبا بحاشيّةٍ كبيرةٍ.

لقد كان سفيراً من لدن مانويل كومنين الأول (Manuel commène) أمبراطور الرومان وهو، أي السفير، يحمل إسم ميشيل دانكيالوص (Michel

---

(6) أعتقد أن أنسب تاريخ لهذه السفارة هو عام 576 = 1180 عندما حلّ الخليفة بفاس في أعقاب حركته الظافرة في افريقية حيث ورد عليه سفير الروم... وهو ما كان موضوع مكاتباتي مع الزميل الراحل تساطسوس.. ع. التازي : «التاريخ الدبلوماسي للمغرب» ج 6، ص 278.

عن خطاب السيد عبد العزيز اللعبي سفير المغرب لدى اليونان عن تقديم أوراق اعتماده للسيد كريسطوس سارْطزِيطاكيس رئيس الجمهورية اليونانية بتاريخ 2 يبراير 1989.



صورة ملك بريطانيا جوهن.

DANGHIALOS) وقد توجه السفير إلى مدينة فاس حيث كان يقيم الأمير أبو يعقوب يوسف...

في القاعة الكبرى للعرش تلا السفير البيزنطي ـــ باللغة اليونانية ـــ نص الرسالة التي كان ينقلها إلى اللغة العربية ترجمانٌ من أصل سوري كان له اطّلاع على شؤون الاغريق ولغتهم.

لقد كان ممّا ورد في خطاب الامبراطور للخليفة الموحدي :

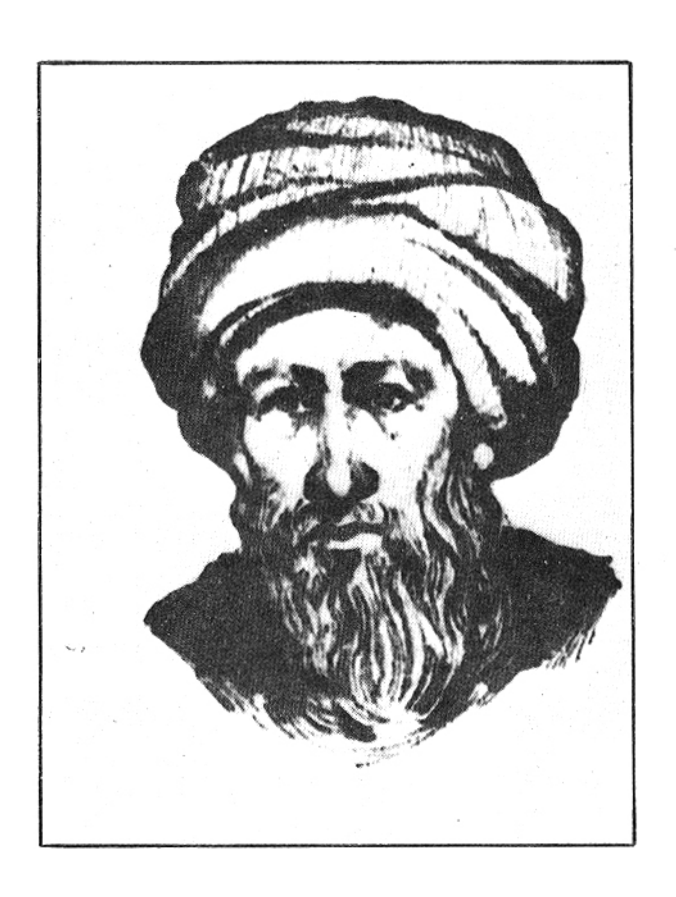
إن حبكم للعلوم وبخاصة حبكم لسائر الذين يعتنون بتلك العلوم أمر معروف عندنا... وان تسامحكم وبُعد نظركم وترفعكم عن التعصّب، كل تلك المزايا التي تتمتعون بها تقوّي فينا مشاعر التقدير والإعجاب بكم وبشعبكم وكبار العلماء من أطباء ورياضيين وفلاسفة من الذين يعيشون بين ظهرانيّكم وفي بلاطكم.

لقد سمعت أنكم استدعيتم ذات يوم فيلسوفكم الكبير ابن طفيل الذي تعرف مؤلفاته عندنا في بيزنطة وأنكم «اشتكيتم من قلق عبارة أرسطو» كما بلغتكم منقولة في غالب الأحيان عن عبارة المترجمين... السريان وقلتم : «لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرب أغراضها بعد أن يفهمها فهماً جيّداً لقرب مأخذها على الناس»

ولهذا فلكي نعبر عن تقديرنا لذلك الإهتمام منكم... أهدي إليكم مخطوطا يونانياً نادراً جداً يحتوي على محاولة ألفها أرسطو بعنوان «في الروح».

ومن حسن الحظ أنه في هذه الأيام كان ابن رشد بفاس، وقد دعى هو وابن طفيل للاطلاع على المخطوط الثمين... حيث استمرت المناقشات على ضوء المشاعل حتى مطلع الفجر وعندئذ توجه أمير المؤمنين إلى ابن رشد وعهد إليه بأن يقوم بشرح جديد لأعمال أرسطو.

* * *



ابن رشد شارح أرسطو

ولعلَّ من المهمّ أن نبرز هنا جانباً من الجوانب الرَّائعة والمثيرة كذلك في تاريخ العلاقات بين المغرب والدُّول الأوروبية، ويتعلق الأمر بالمساعي الحميدة التي كان يقوم بها المغرب إما تطوّعاً منه أو استجابة لاقتراح يعرض عليه، يقوم بها لإصلاح ذات البين بين الدول الأوروبية بعضها ببعض سجلنا طائفةً من الحالات التي توسط فيها المغرب لإحقاق حق أو إنهاء خلاف.

وسوف أقتصر هنا على ما سجله التاريخ الدولي ممّا يتصل بالوساطة المغربية بين ملك إسبانيا وملك فرنسا عام 681 = 1282.

نحن أمام وثيقة محفوظة في الأرشيف الوطني بباريز تحت رقم 200.

وتعتبر هذه الوثيقة في منتهى الأهمية، وقد جاءت أهميتها من أنها تعتبر من أهم وأصدق الدلائل على تغلغل العلاقات المغربية الأوروبية، علاوة على أنها تدل دلالةً قويَّةً على مدى إسهام المملكة المغربية ــ على ذلك العهد في بسط السلام بأوروبا وفي إيجاد تفاهم صادق بين الأمم إلى جانب أنها، أي الوثيقة، تعبر عن مدى تشبُّث المملكة المغربية بالشرعية والأخلاق.

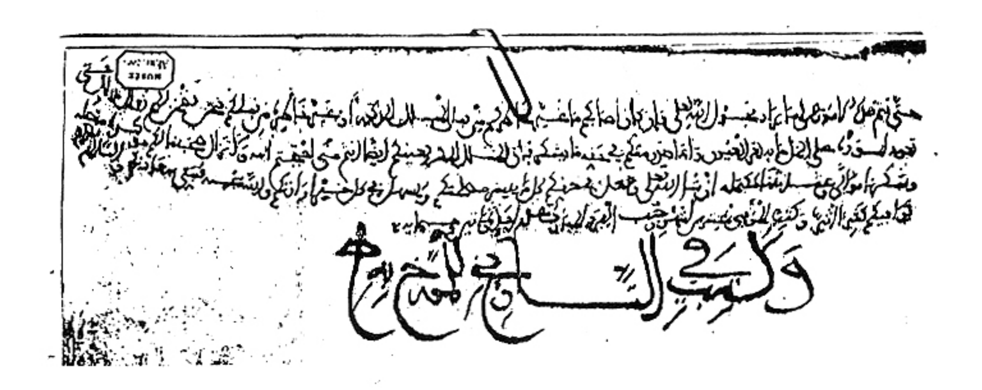
لقد حدث أن ثار الأمير دون شانش (Don Chanche) على والده ألفونصو العاشر وآزره معظم النبلاء ! وحينئذ اتجه أبوه الملك المخلوع إلى السُّلطان أبي يوسف المنصور وهكذا أرسل في غرة محرم 681 = أبريل 1282 سفارة مؤلفة من عيون الأحبار إلى مراكش تحمل رسالة تطلب إلى العاهل المغربي المدد والعون ضد ولده، فاستجابَ الملك لصريخ ملك إسبانيا وعبر البحر في قواته إلى الأندلس في ربيع الثاني سنة 681 = يوليه، غشت 1282 حيث هرع ألفونصو العاشر إلى لقائه بالجزيرة الخضراء حيث قدّم إليه ــ كرهينة ــ التَّاج الذي بقي بين يديه ! فأمدَّه السلطان بمائة ألف دينار من الذهب ليستعين بها على حشد الجند.

وعن هذا التَّاج تحدّث المؤرخ المعروف ابن خلدون قائلاً : «وبقى التاج بيد بني مرين فخراً للاعقاب لهذا العهد...»

وفي أعقاب هذا اللقاء المغربي الإسباني بعث العاهل المغربي برسالته التاريخية إلى فيليب لوهاردي ملك فرنسا يقترح عليه عون ألفونصو العاشر أو بالحرى الانضمام إلى الحلف المغربي الاسباني.

وقد كان مما ورد في هذا الخطاب الطويل الذي يحتفظ بنسخته الأصلية أرشيف المتحف الوطني بباريز، هذه العبارات التي لها دلالتها :

«... فإن أصابكم ما غير خاطركم من قبل الملك المذكور أو غير خاطره من قبلكم فنحن نضمن لكم زوال ذلك حتى تعود المودة على أكمل ما به تقر العيون، وإذا صدر منكم في حقِّه ما يستنكر فإن الملك المكرم يعينكم أيضاً أنتم متى احتجتم إليه ولا تزال صحبتنا لكم مؤكدة متصلة...»



من رسالة بتاريخ 20 رجب 681 = 24 أكتوبر 1282 موجهة من العاهل المغربي أبي يوسف يعقوب إلى ملك فرنسا فيليب الثالث يطلب إليه أن يساعد الفونس العاشر ملك إسبانيا لصالح إقرار العدل والسلام في أوروبا ويعده ببذل المساعي الحميدة. إنها إحدى الوثائق التاريخية التي تترجم عن أصالة الدبلوماسية المغربية وعملها من أجل انسجام المجموعة الأوروبية.

والحديث عن الاتصال المغربي بالأراضي الواطئة (هولاندا) يبتدىء بمساعدة المغرب لتلك الأراضي على بناء استقلالها.

وتعتبر هولاندا من الدول السباقة إلى التقرب إلى المغرب وخاصّةً بعد وقعة القصر الكبير (وادي المخازن) 986 = 1578 حيث نعثر على عدد من الرسائل المتبادلة بين ملوك المغرب وبين قادة هولاندا.

وقد توالى الاتّصال حتى بعد وفاة السُّلطان أحمد المنصور حيث وقفنا في الأرشيف الوطني في لاهي على طائفة مهمَّة من الرسائل الهامة التي نسخت بخطوط جميلة وحملت توقيعات جدّ رائعة... إن هولاندا من البلاد الأوروبية التي كان للمغرب بها سفراء مقيمون منذ ذلك التَّاريخ[7]

* * *

(7) ع. التازي : «التاريخ الدبلوماسي للمغرب» ج 8، ص 273، 1988 = 1408.

الحمد لله حق حمده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما



يعلم من هذا الكتاب الكريم أسماه الله وأعزه أننا عقدنا مع جنس الفلمنك
هذه العقدة التي تتضمن الاستلزام بهذه الفصول المذكورة في هذا الكتاب لما رأينا
في ذلك من الصلاح والسداد والرفق للجانبين وذلك على سبيل الدوام والتأبيد إن شاء الله

الفصل الأول إن العمل في فداء الأسرى مسلمين ونصارى رأس برأس مسلم في نصراني
ونصراني في مسلم ولا يزاد على ذلك مال من الجانبين

الفصل الثاني إذا كان لكم أسارى عندنا ولم يكن عندكم أسارى مسلمين تفدون بهم إخوانكم
أو كان لنا أسارى عندكم ولم يكن عندنا من جنسكم ما نفدي به أسارانا فإن الجانب
الذي لم يكن عنده أسارى يعطي مائة ريال كبيرة عن كل أسير والأسرى كلهم سواء
لا يعتبر فيهم غني ولا فقير ولا مرتبة

الفصل الثالث عند رأس كل سنة يكون الفداء للأسارى على الوجه المذكور وهو
رأس برأس إذا كان الأسارى موجودين في الجنسين أو مائة ريال عن كل أسير على الجانب الذي لم
يكن عنده أسارى ولا يبقى الأسير في الأسر أكثر من سنة وإذا كان أسير عند أحد من الرعية
فالسلطان يلزمه الفداء على الوجه المذكور

الفصل الرابع الشيخ الذي جاوز سبعين سنة والمرأة مطلقا كيفما كانت كبيرة أو صغيرة
لا سبيل لأحد عليهم ولا يؤسرون

الفصل الخامس المركب الحامل للقوت وهو القمح والشعير والذرة وجميع الحبوب وأما الإدام
مثل الزيت والسمن واللحم والعسل فليس من القوت وسواء حمل القوت من بلاد المسلمين
أو من بلاد النصارى فلا يتعرض له أحد من المسلمين ولا من النصارى لأنه يمكن
أن يكون متوجها به إلى قوم جائعين فإذا حيل بينهم وبين ذلك القوت هلكوا ويكون
متسببا في هلاك طائفة من المخلوقات وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم في كل ذي كبد
حرّاء أجر وإذا كان في مركب القوت مال أو سلعة فإن السلعة والمال يؤخذ من المركب والبحرية
والقوت لا يتعرض لهم أحد وفي سابع شعبان عام إحدى وتسعين ومائة وألف

الاتفاقية المغربية الهولاندية 1191 = 1777

ونحن نتحدث عن علاقات المغرب بهولاندا نرى من المفيد هنا أن نشير إلى اتّفاقيةٍ مغربية هولاندية تحمل تاريخ 7 شعبان 1191 = 10 شتنبر 1777.

والجدير بالذّكر أن هذه الاتفاقية أبرم مثلها في نفس التاريخ مع دول أوروبية أخرى مثل إسبانيا والسويد.

ويتعلق الأمر بمبادرة مغربية رائعة تجلّى فيها التّعاون بيننا وبين أوروبا على أوسع نطاق وبغضّ النظر عن سائر الإعتبارات الاقليمية أو الدّينية.

إن المملكة المغربية تعتبر أن البلاد المسيحية التي توجد على الضّفة الأخرى من الحق أن لاتحرم من الحبوب المغربية وخاصة في حالة الجفاف، ولذلك فإن المغرب يُحرِّم تحريماً باتاً التّعرض للمراكب التي تقوم بتقديم المساعدة للمتضررين، ويعلّل هذه المساعدة بأنه لايوجد فرق بين الانسان المغربي والانسان الأوروبي وأن كل من يحمل في أحشائه كبداً فيه حرارة فإنه يحتاج للمساعدة !

وهكذا نقرأ في الفصل الخامس من الاتّفاقية المغربية التي أبرمت بمكناس في التاريخ المذكور والتي لم تكن محدَّدة بفترة معيّنة ولكنها كانت على سبيل الدوام والتأييد كما يقول النص :

إن المركب الحامل للقمح والشّعير والرُّز وجميع الحبوب سواء حمل من بلاد المسلمين أو بلاد النصارى فلا يتعرَّض له أحد من المسلمين ولا من النصارى لأنه يمكن أن يكون متوجّهاً إلى قوم جائعين فإذا حيل بينهم وبين القوت هلكوا ويكون متسبِّباً في هلاك طائفةٍ من المخلوقات وقد قال نبيّنا ﷺ : «في كل ذي كبدٍ حراء أجر»[8].

وبالرَّغم من الإحتكاكات التي عرفتها العلاقات بين المغرب والبرتغال سواء على الأراضي البرتغالية أيام الوجود المغربي هناك أو على الأراضي المغربية أيام الاحتلال البرتغالي لبعض الجهات في المغرب، أقول بالرَّغم من ذلك فقد عرفت

(8) يلاحظ أن الوثائق الدبلوماسية لاتخلو من استدلال بآيات قرآنية أو أحاديث نبوية، والاشارة هنا إلى الحديث الذي يقول ما معناه : إن رجلاً شعر أن حيواناً يشكو العطش فقدم لذلك الحيوان ماءً فخفف عنه العطش فشكر الله له ذلك، فسأله الصحابة : هل لنا في البهائم أجر ؟ فأجابهم : «في كلّ كبدٍ رطبة أجر» !

العلاقات على مرِّ العصور تعارفا على الساحة سجلته طائفة من الاتفاقيات الاقتصادية والتقنية والسياسية التي ينوء بها الأرشيف الوطني في العاصمة البرتغالية.

والحديث عن بداية العلاقات بين المغرب والدَّانمارك حديث لايخلو من الطرافة والمتعة... فقد كان الفضل يعود في تعرف كل على الآخر إلى حركات القرصنة التي كانت شائعة في بداية القرن الثامن عشر عندما وجدنا أن عددا من المغاربة يصبحون في قبضة كوبنهاك، ووجدنا بالمقابل طائفة من الدانماركيين يعيشون في فاس !! هناك مثل عربي يقول : «ربّ نقمةٍ في طيّها نعمة» وها نحن نرى أنَّها كانت قولةً صادقةً بالنسبة لهذه العلاقات، فقد كان ذلك الحادث وراء إرسال سفير مغربي، يهودي من أصل برتغالي جوزيف بوزاكلو دي باز (J.B.DE PAZ) إلى الدانمارك حيث اختمرت فكرة إنشاء أول شركةٍ دانماركية في المملكة المغربية منذ عام 1165 = 1751[9]..

ومن هنا تحركت بعثة من الملك فريديرك الخامس في اتِّجاه المغرب، وكانت برئاسة (لونكفيل Longuville) حيث وطئت ميناء آسفي يوم 13 يونيه 1751 ومن هنا يبتدىء شريط محكم للعلاقات سجّلته يوماً عن يوم الوثائق المغربية والوثائق الدانماركية على السواء.

وكان من أبرز ما قرأناه نصوص الاتفاقية الاقتصادية المؤرخة يوم 24 شعبان 1169 = 24 مايه 1756.

ومن هنا توالى تبادل السفراء بين الطرفين حيث عرفنا بتفصيل عن أسمائهم ومهماتهم... وقد كان من الدبلوماسيين الدانماركيين من أصبح صديقاً مقرّباً للعاهل المغربي وممن أسهموا بجدٍّ ومصداقية في كتابة تاريخ المغرب.

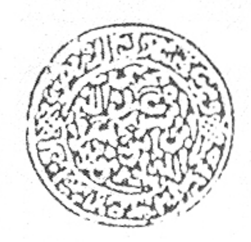
* * *

(9) Castries (L I-Col. de : Le Danimark et le Maroc 1750-1767, Hesp. 1926 T.VI 4e tr. p. 439)

د. التازي : «التاريخ الدبلوماسي للمغرب» ــ المجلد التاسع 1408 = 1988، «فصل العلاقات المغربية مع الدانمارك» ص 243 ــ 254.

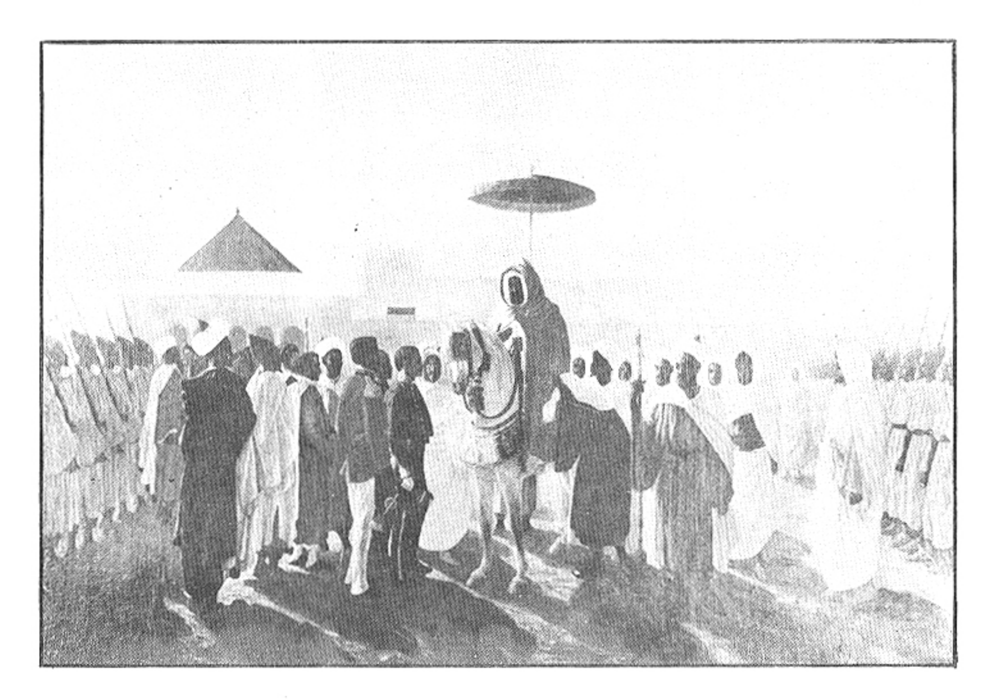
الحمد لله وحده — ولا حول ولا قوة إلا بالله وحده

أما بعد فقد انعقدت المهادنة الكاملة والصلح التام بين سيدنا الإمام
العلوي الهمام مولى العباد وحامي البلاد رافع منار الشريعة النبوية وناصب
رايات العلوم الدينية سيدنا ومولانا أمير المؤمنين



نصره الله وأدام عزه وخلد في صفحات المجد ذكره ملك البلاد المغربية
بأجمعها والمتصرف في أقاليمها وبلادها مراكش وسوس وتافيلالت
ودرعة وفاس ومكناسة وسلا وما عداها من الإيالات المنتسبة
إليها وجرى من المراسي والمدن على حكمها وسبيلها وبين السلطان
عظيم البرتغال وفيه دون جوزي الأول ملك الغرب وجميع كونكيستا
وصاحب سفن ومتجر بلاد الحبش والعرابيا وبرسيا والهند وغينيا
والباقي من إيالته بواسطة من ناب عنه في عقد المهادنة المذكورة
وهو القنصل الجنرال دنسي توسيموس المثبت في مكان الباشدور
الموجه من قبل سلطان البرتغال المتوفى في إيالة سيدنا نصره الله
على شروط تذكر

صدر الاتفاقية المغربية ــ البرتغالية 1187 = 1773



استقبال السفارة البلجيكية من لدن الملك محمد الرابع
3 رجب 1281 = 2 دجنبر 1864

وقد عاش المغرب مع الأيام الأولى التي ظهرت فيها بلجيكا ومن هناك كانت لنا معها علاقات تميَّزت بما أبرمناه معها من اتفاقيات... وما توجه إليها أو ورد علينا منها من سفارات.

وهكذا نجد أن أول صلة رسمية للمملكة البلجيكية بالمملكة المغربية ترجع لسنة 1838 ولما يمض على جلوس الملك ليوبولد الأول على العرش سوى بضع سنوات.

ومن هنا وصل الطرفان إلى إبرام معاهدة للتجارة والملاحة من ثلاثة فصول حصلت بلجيكا بمقتضاها على ما لم تحصل عليه معظم المعاهدات الأوروبية، وقعها عن الملك ليوبولد الأول بتاريخ 2 رحب 1278 = 4 يناير 1862 القنصل



صورة للقنصل الدانماركي هوست

بسم الله   ولا حول ولا قوة إلا بالله

للجانب المولوي سلطان مراكشة وفاس والجانب المولوي سلطان البلجيك حيث
مراده هما في عقد شروط المحبة على أن يكون تجار الجانبين مقبولين محظوظين محترمين
في الإيالتين جعلوا نوابهم المفوضين يعني الجانب المولوي سلطان مراكشة وفاس
عين خديمه الأرضى الحاج عبد الرحمن العاجي والجانب المولوي سلطان البلجيك عين
الكبالير إرنسط دالوان قونصو جنرال في إيالة مراكشة وفي بلاد أمريكة بعد ما
أظهر كل واحد منهما ما بيدهما من التفويض اتفقا على ما سيذكر

الشرط الأول

يكون الصلح والمهادنة بين إيالة ورعية سلطان مراكشة وفاس وبين إيالة ورعية
سلطان البلجيك على الدوام

الشرط الثاني

النواب والقنصوات والرعيات من سلطان مراكشة وفاس وتجارتهم ومراكبهم يكون لهم
جميع المنفعة في إيالة سلطان البلجيك التي كانت أو تكون لأجناس المحببين وكذلك النواب
والقنصوات والرعيات من سلطان البلجيك وتجارتهم ومراكبهم يكون لهم جميع المنفعة في
إيالة سلطان مراكشة وفاس التي كانت أو تكون لأجناس المحببين

الشرط الثالث

هذه الشروط المتفقة يطبع عليها إن شاء الله في مدة قصيرة من الجانبين

وختم النائبان المذكوران بخط يدهما وطابعهما بثغر طنجة المحروسة بالله في يوم
2 من رجب الفرد الحرام عام 1278 الموافق لتاريخ المسيح في 4 من شهر ينير سنة 1862



خديم المقام العالي بالله الحاج عبد الرحمن بن محمد العاجي وفقه الله



الاتفاقية المغربية ــ البلجيكية 1278 = 1862

البلجيكي إيرنيست دالون (E. DALWIN) ووقعها عن العاهل المغربي السُّلطان مولاي عبد الرحمان، الدبلوماسي المغربي الحاج عبد الرحمان بن محمد العاجي

ومنذ إبرام هذه الاتفاقية... أصبح الطرفان يتعاونان في مختلف المجالات.

وقد وجدنا سفارة مغربية هامة في الديار البلجيكية عام 1293 = 1876 برئاسة السفير المغربي الحاج محمد الزبدي، وقد كان من ضمن الدبلوماسيين الذين راحوا ضمن السفارة إدريس الجعايدي الذي دوَّن مذكّرات جيدة حول نشاط هذه البعثة... في بروكسيل حيث استقبلت السفارة من لدن الملك والملكة... قبل أن تقوم السفارة بزيارة عدد من المنشآت والمؤسسات العمومية وغيرها.

وقد كان من الأحداث البارزة في العلاقات المغربية البلجيكية على عهد السلطان مولاي الحسن (الأول) السفارة الهامة التي وردت على مكناس بقيادة البارون إدوارد ويثنال (E. Whethnal) بقصد تنشيط الحركة التجارية بين بلجيكا والمغرب والمفاوضة حول بعض المشاريع الإنشائية.



السفارة المغربية عام 1293 = 1876 لدى الدول الأوروبية
فرنسا ــ بلجيكا ــ بريطانيا ــ إيطاليا.

وقد تم الاستقبال بالقصر الملكي يوم 21 يناير 1882 = 7 جمادى الأولى 1305 حيث نجد لوحةً فنِّيةً رائعةً لهذا المشهد الجميل بريشة الرسام البلجيكي موريس رومبيرك (M. Romberg) الذي صحب السفارة.

وجوابًا على سفارة البارون ويثنال بعث السلطان مولاي الحسن الأول عام 1890 إلى ليوبولد الثاني بسفارة كانت برئاسة أحمد بن المؤذن السرغيني على ما تكشف عنه الوثائق المغربية والبلجيكية كذلك.

واستمرت العلاقات بين الجانبين في طريقها نحو الازدهار والنَّماء.

* * *

بقي ممّن لم نذكره من تلك الدول الأوروبية ممّن يربطها بالمغرب تاريخ الأمس البعيد... بقيت جمهورية إيرلاندا و الليكسامبورغ اللّتان حالت أوضاعهما الداخلية الناتجة عن الأطماع الدولية فيهما، حالة دون أن تكون لهما مع المغرب صلات ملحوظة على نحو ما سجلناه مع الأمم الأخرى : ألمانيا — بلجيكا — الدَّانمارك — إسبانيا — فرنسا — بريطانيا العظمى — اليونان — إيطاليا — هولاندا — البرتغال.

ومع كلّ ذلك نجد أن التاريخ يتحدث عن العلاقات الإنسانية التي سجلتها المذكرات الأوروبية بين المملكة المغربية وبين هاتين الدولتين.

* * *

وإذا كانت العلاقات بين المغرب وغيره من تلك الدُّول الأوروبية قد عرفت إبان الحماية فترة ركود عابرة، فإنها لم تلبث أن عادت إلى حالتها الأولى بعد أن استرجع المغرب استقلاله حيث وجدنا أن كل تلك الدُّول جميعها أصبح لها تمثيل دبلوماسي وارتبطت جميعها مع المغرب بعدة اتِّفاقيات ومعاهدات، وشهدت العلاقات تبادل الزيارات بين الشخصيات على أرفع مستوى.

معجم أندلسي من القرن السادس الهجري
محاولة علمية لتجنيس النبات

محمد العربي الخطابي

من ذخائر التراث العلمي الأندلسي الذي حفظه الزمن ووصل إلينا كتابٌ مخطوط في علم النبات لايُعرف منه سوى نسختين اثنتين.

واسم هذا الكتاب «عمدة الطبيب في معرفة النبات»، ولسنا نعرف شيئا ذا بال عن مؤلفه إلا أن اسمه ابن عبدون، وأنه كان يعيش في اشبيلية في أواخر القرن الخامس الهجري، وأوائل القرن السادس، وقد ذكر في مؤلَّفه أسماءَ بعض شيوخه وأشار إلى كثير من البلدان التي زارها في الأندلس والمغرب.

لقد ورد في صدر مخطوطتي الرباط ومدريد من «عمدة الطبيب في معرفة النبات»[1] أن مؤلفه هو المختار بن الحسن بن عبدون ابن بطلان «المعروف بيوانيس النصراني (ت 456 هـ / 1066 م) ولاشك أن نسبة الكتاب إليه من أوهام النساخ لأنَّ المؤلف أندلسي يَعرف بلاده معرفة تامة، مُدنا وجبالاً ووديانا وسواحل، ذَرعها طولاً وعرضا للوقوف على منابت الشجر والأعشاب، وذكر

(1) توجد من هذا المخطوط نسختان إحداهما محفوظة بخزانة الكتب والوثائق بالرباط، ونسخة مغربية أخرى محفوظة بالأكاديمية الملكية للتَّاريخ بمدريد، الأولى انتسخت عام 996 هـ. والثانية عام 1119 هـ.

بالاسم غير ما مرة شيخا من شيوخه وردت ترجمته في المصادر الأندلسية، وهو أبو الحسن علي بن عبد الرحمان الساعدي الأنصاري الطليطلي الشهير بابن اللونقة (ت 498 هـ/1104 م)[2]. وحلاَّه المؤلف بنعت «شيخنا» وبعبارة «شيخي الذي تعلمت عليه الصناعة» كما أشار المؤلف مراراً إلى ما تلقاه مشافهةً من فوائد من الشيخ الفلاَّح أبي عبد الله محمد ابن بصّال الطليطلي (القرن الخامس الهجري)[3] الذي كان له الإشراف على «جنَّة السلطان» في اشبيلية، وفضلاً عن ذلك يذكر مؤلف «عمدة الطبيب» عدداً من المواضع التي زارها في بلاد المغرب الأقصى، في نواحي مراكش وغيرها، لمعاينة بعض النباتات واستفسار أهل البلد عنها.

ومعروف أن ابنَ بطلان لم تطأ قدمه بلاد الغرب الإسلامي، وأنه لم يتلقَّ على شيخ من شيوخ العلم في الأندلس، ولم يذكر أحدٌ من مؤلفي التراجم أن له كتاباً باسم «عمدة الطبيب في معرفة النبات» فضلا عن أن ابن بطلان توفي قبل تصنيف هذا الكتاب الذي انتهى المؤلف من كتابته بعد وفاة شيخه ابن اللونقة في أواخر القرن الخامس، فهو يترحّم عليه كلما ذكره.

فمن هو ابن عبدون هذا الذي ألف الموسوعة النباتية التي نحن بصدد الكلام عليها ؟

عندما كنت منشغلا بتحقيق «حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقَّار» لأبي القاسم الغساني الوزير[4] (1019 هـ / 1611 م) لفت نظري ورود اسم «ابن عبدون» في عدد من أبواب الكتاب، وكانت تحت يدي نسخة مصورة من «عمدة الطبيب في معرفة النَّبات» فعمدت إلى مقابلة ما نقله الغسَّاني في حديقته منسوباً إلى «ابن عبدون» في أحد عشر موضعاً حيث تناول المؤلفان تفسيرَ ماهية المفردات النباتية التالية : **هرنوة، زنجبيل، ينبوت، كندر، عرطنيثا، قيصوم، قتاد، قرنفل،**

---

(2) انظر «التكملة» لابن الأبار، ص 662، طبعة مدريد.

(3) انظر مقدمة «كتاب الفلاحة» لابن بصال الذي نشره وترجمه إلى الاسبانية محمد عزيمان وخوسي م. بييكروسا، تطوان 1955.

(4) صدر كتاب «حديقة الأزهار» عن دار الغرب الإسلامي، بيروت 1405 هـ/1985 م.

تافسيا، سُمّاق، خولنجان، فثبت عندي قطعاً أن ما نسبه الغساني إلى ابن عبدون وارد بنصّه في كتاب «عمدة الطبيب» مع أن الغساني لم يذكر اسم هذا الكتاب مرةً واحدة، وإنما اكتفى بعبارة «قال ابن عبدون» دون زيادة بيان، وقد اتّضح لي أيضا أن الغساني نقل كثيراً ـــ وباختصار ـــ من كتاب «العمدة» من غير إشارة إلى المصدر، وتجدر الإشارة هنا إلى أن نسخة مدريد من «عمدة الطبيب» وقع الفراغ من انتساخها في المغرب عام 996 هـ. أي بعد أربع سنين من تصنيف «حديقة الأزهار»، وكان الغساني مايزال حياً، ونسخة مدريد من كتاب «العمدة» تنسب تأليفه إلى المختار بن الحسن **بن عبدون** ابن بطلان، فهل كان الغساني على علم بالمؤلف الحقيقي للكتاب أم أنه إنما يقصد بابن عبدون الطبيبَ البغدادي على غرار الوهم الذي وقع فيه ناسخ المخطوطة ؟

هذا وقد رجعت أيضا إلى مفردات ابن البيطار المالقي (646 هـ / 1248م)[5]. فألفيت أنه ذكر «ابن عبدون» ونقل عنه ثلاث مرات. وقد تبين لي أن ما نقله ابن البيطار في مفرداته منسوبا إلى ابن عبدون ماهو إلاّ تلخيص لما ورد في «العمدة» من كلام حول المفردات النباتية : مما يحمل على الظن أن النباتي المالقي إنما نقل ما نقله من مختصر كتاب العمدة الذي وضعه ابن عبدون وأشار إليه في ثنايا كتابه المطول، ونقل ابن البيطار مرتين عن مؤلف سماه محمد ابن عبدون، وقد ترجَّح عندي أنه يقصد محمد بن عبدون الجبلي العددي (361 هـ/971 م) وهو طبيب ذكره ابن جلجل والقاضي صاعد في طبقاتهما كما ذكره ابن الفرضي، وما نقله ابن البيطار عنه لا يتعلق بالنبات ولا ذكر له في كتاب العُمدة.

فهل يكون مؤلف العمدة هو أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن عبدون الإشبيلي مؤلِّف «رسالة في القضاء والحِسبة» نشرها ليفي بروفنصال مع رسالتين أخريين في نفس الموضوع ؟ إننا لا نستطيع في الوقت الراهن أن نقطع برأي مقبول في هذا الصدد. لأننا لا نعرف شيئاً عن مؤلف هذه الرسالة، سوى أنه عاش في

(5) أبو محمد عبد الله بن أحمد المالقي المعروف بابن البيطار مؤلف «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» و «المغني في الأدوية المفردة» و «الإبانة والإعلام بما في المنهاج من الخلل والأوهام» انظر «عيون الأنباء» 3 : 220 ـــ 222.

العصر الذي خرج فيه كتاب «العمدة» إلى الوجود، وأنه أظهر في رسالته اهتماماً بشؤون الفلاحة والحقول إلى الحدّ الذي دفع بالمستعرب الأسباني بيدور تشالميطا إلى الاعتقاد أنه كان من كبار ملاك البساتين والأراضي الفلاحية في أحواز اشبيلية.[6]

ميـزة الكتـاب

يمكن القول إن كتاب «عمدة الطبيب في معرفة النبات» فريد في بابه، متميّز عن غيره من كُتُب المفردات في عدة أشياء، منها :

أولا. أنه لايهتمّ إلا بالنبات، شجراً وعشباً وبقلاً وأغلاثاً وعِضاه، يدرسه من أجل خصائصه الطبيعية والمورفولوجية، ولايحفل إلا في النادر بما قد يكون فيه من منافع دوائية أو مضارّ، وهو لم يذكر في الكتاب شيئاً من المفردات الحيوانية والمعدنية، لذلك فإنه يُعدّ تصنيفاً جامعاً في علم النبات وحده.

ومن المعروف أن الرائد في هذا الميدان هو أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري (ت 282 هـ/ 895 م) الذي كان سبّاقاً إلى تأليف كتاب «أعيان النبات»[7]، إلاّ أن هنالك فرقاً في المنهج بين التأليفين، ذلك أن أبا حنيفة إنما يُعنى بالنّبات من الناحية اللغوية معتمداً على أقوال الرواة والأعراب، يورد من أشعار العرب وأمثالهم ما يناسب المقام، ويشير إلى اختلاف الأقوال بخصوص النباتات المعروفة في بلاد العرب، وقد يذكر أعشاب البلاد الأخرى وأسماءها المعرّبة الجارية في كلام العرب، فهو بالجملة معجم لغوي، وربما اشتملت فصول منه على لمحاتٍ عن تجنيس النّبات على مذهب العرب، وأما كتاب «العُمدة» فإنه يعنى بالجانب العلمي فيفسر ماهية العشبة ويُعدّد أجناسها وفصائلها، ويَصف كل نبات من جهة شكل جذره

---

(6) **انظر El Señor del Zoco en Espana من منشورات المعهد الاسباني العربي للثقافة، مدريد 1973.**

(7) أو حنيفة من أعيان علماء القرن الثالث الهجري، موسوعي المعرفة، أديب ولغوي وفلكي ورياضي، من أشهر كتبه المطبوعة «الأخبار الطوال» حقّقه عبد المنعم عامر وجمال الدين الشيال، وله كتاب «النّبات» أو «أعيان النبات» نَشَر قطعةً منه برنهارد ليوين، وعني محمد حميد الله بجمع ملتقطات ممّا نسب إليه أبي حنيفة عند المتأخرين، ولأبي حنيفة نحو من عشرين كتاباً في شتى العلوم، وذكره وارد في أهمّ كتب التراجم والفهارس.

وساقه وزهره وبذره وثمره، ويذكر منابتَ الأعشاب وبيئتها الطبيعية وأماكن وجودها، فضلا عن عنايته بالجانب اللغوي الصّرف.

ثانيا : اصطنع المؤلف نظاما طريفاً للتصنيف النباتي (تجنيس النبات) استنبطه من معاينته لأوجه «المشابهة والمشاكلة» ــ حسب عبارته ــ الموجودة بين الأجناس والأنواع المتقاربة، وهو بذلك أول عالم يستنبط نسقاً للتصنيف النباتي، وهو يشير إليه صراحةً في صلب كتابه، وقد سبق بذلك غيره من العلماء في الشرق والغرب، ذلك أن أول محاولة في هذا الميدان لم تُعرف إلا في أواخر القرن السادس عشر الميلادي بظهور كتاب الأعشاب Di Planti عام 1583م. من تأليف أندريا سيسالبينو الإيطالي الذي نَهج في تأليفه طريقَ التّحليل المرفولوجي لأجزاء النبات وتوصل إلى تعيين فصائل تطابق تنوع تلك الأجزاء.

ثالثا : عُني المؤلف بجغرافية النبات وبيئته الطبيعية، فذكر أماكن تكاثره مشيراً إلى ما وقف عليه بنفسه من أجناس في مختلف أنحاء الأندلس والمغرب كسرقسطة وطليطلة وبلنسية واشبيلية وقرطبة وغرناطة والجزيرة الخضراء ومراكش، وهو كثيراً مايذكر أسماء القرى والأودية والجبال والسواحل التي شاهد فيها أصنافاً من الأعشاب عياناً، ويذكر ما جُلِبَ إلى الأندلس من بذور واستُنْبِت في أرضها.

رابعا : يتجلَّى في كتاب «العمدة» اهتمام المؤلف بمسائل الفلاحة والغراسة ومعالجة شؤونهما، ويبدو من كلامه أنه كان يتردد على «جنَّة السلطان» في اشبيلية التي يبدو أنها كانت تحت نظر الشيخ العريف أبي عبد الله ابن بصال، وكان يُجرِي فيها تَجارب زراعية ناجحة.

خامساً : أورد مؤلف «العمدة» أسماء الأعشاب بعدّة لغات كاليونانية واللاَّتينية والأمازيغية والفارسية والنبطية والسريانية ولهجات نصارى الأندلس، فضلاً عن الأسماء المحلية الشائعة بين العوام من الشجارين وغيرهم.

مصادر الكتاب

يتبين من قراءة مواد الكتاب المرتبة ترتيباً أبجدياً أن المؤلف اعتمد أساساً في وصف النبات على خبرته ومعرفته بأعيان الأعشاب الموجودة بالأندلس والمغرب، كما أنه رجع إلى عدد كبير من المراجع اللغوية والعلمية المتوافرة في هذا الباب

لتوثيق معلوماته أو تصحيح أقوال غيره، سواء تعلّق الأمر بأعشاب الأندلس أو بنبات البلاد الأخرى.

فمن المؤلفين اليونانيين الذين تردد ذكرهم في الكتاب : ديسقوريدس وجالينوس، فما من عشبة عشبة إلا وقد حرص المؤلف على بيان ما إذا كان قد ذكرها أحد هذين الحكيمين أو كلاهما أو أنهما لم يذكراها، وكثيراً مايرد في الكتاب ذكر أهرن وبُولش.

وأما المراجع العلمية المختصة بالنبات والأعشاب الدوائية فهي كثيرة يضيق المقام بذكرها جميعاً، ومن المؤلفين الذين ترددت أسماؤهم كثيراً في كتاب العمدة : الطبري، والرازي، وابن الجزار، واسحاق بن سليمان، ودونش بن تميم، وابن سمجون، وابن جلجل، وابن وافد، والزّهراوي، وغيرهم.

ورجع المؤلف أيضا إلى عدد عديد من مصادر اللغة كمؤلفات أبي حنيفة الدينوري، والخليل ابن أحمد، والأصمعي، وأبي الفتوح الجرجاني، وأبي علي القالي، وأبي حاتم السجستاني، وغيرهم[8].

هذا وقد ورد كثيراً في كتاب «العمدة» ذكر أبي حرشن الذي يظهر أنه كان ذا معرفة واسعة بأعيان النبات فضلاً عن بصره باللّغة والنحو، واسم أبي حرشن هو عبد الله، وهو من أهل قرطبة، وأبوه هو نافع، مولى رسول الله ﷺ، وقد ورد ذكره في كتب التراجم الأندلسية، ولا يعرف تاريخ وفاته.[9]

إن مؤلف العمدة يمحّص أقوال من سبقه من العلماء، وكثيراً ما يُعقّب عليها لتصحيح خطإٍ، أو رفع وهمٍ، أو زيادة شرحٍ وبيان، أو إضافةِ فائدة، لاسيما إذا كان الأمر متعلّقاً بأعشاب وقف عليها بنفسه وعاينها وعرف أجناسها ومنابتها، أما ما لم يتحقّقه من صفات الأعشاب التي تنبت في غير بلاد الأندلس والمغرب فإنه يقتصر على إيراد أقوال غيره من الثقات العارفين مع بيان اختلاف الأقوال فيها وترجيح ما يظهر له أنه الصواب.

(8) استخلص ميكيل أسين بلاثيوس أثناء قراءته لكتاب «العمدة» استنتاجات قيمة استفدنا منها في انجاز هذا البحث، وسيأتي ذكر ذلك فيما بعد.

(9) انظر «طبقات النحويين» للزبيدي، ص 281، وكتاب «التكملة» لابن الأبار 2 : 778.

هذا، وفضلا عن عناية المؤلف بوصف مختلف أنواع النبات وأجناسه وبيئته فإنه قد اهتمّ أيضا بألفاظ اللغة ومصطلحاتها الخاصة بالفلاحة وأحوال العُشب وأطوار نموه، وأجزائه، وشَرح ما أورده منها شرحاً موجزاً كما فسَّر عدداً من المصطلحات غير العربية المتداولة بين العشابين **كالتَّمنس والراءا والدستي**....

منهج التَّأليف

تضم هذه الموسوعة النباتية ما يزيد عن 4.700 مادة مرتبة ترتيباً أبجدياً، وتتباين هذه المواد في الطول والقصر، فمنها ما لايزيد عن سطر أو سطرين ومنها ما يستغرق عدَّة صفحات.

يبدأ المؤلف في كلِّ حرف بذكر أسماء الأعشاب التي لها أكثر من اسم في اللغة العربية أو اللغات الأجنبية فيقتصر في الغالب على ذكر مرادفها، وقد يشرحها شرحاً موجزاً ثم يُحيل القارىء على الاسم المرادف الذي يكون أكثر شيوعاً بين النباتيين والأطباء ويذكره في الحرف المناسب، ومن هذه التفاسير القصيرة ينتقل المؤلف إلى ماهو أطول منها وأحوج لمزيد من البيان، فيذكر الاسم الشائع ثم يعمد إلى بيان الأجناس والأنواع المختلفة للنبات المقصود، ويذكر ما بينها من اختلاف أو تشابه من حيث السّاق والورق والزهر والثمر والجذر ونحو ذلك، وهو غالباً ما يُعَيّن بيئةَ كل عشبة يصفها، ويشير في كثير من الأحيان إلى الأماكن التي وقف فيها بنفسه على مختلف الأعشاب في بلاد الأندلس والمغرب، ثم ينتقل إلى تسمية الأعشاب بمختلف اللغات الشائعة في زمانه، ومن بينها عجمية الأندلس بلهجاتها المختلفة، وكثيراً ما يعمد المؤلف إلى إدراج فصيلة من النبات بمختلف أجناسها في بابٍ واحد، مثال ذلك ما فعله عند الكلام على جنس البصل ــ وهو يقصد به ما يسمى اليوم بالفصيلة الزنبقية (Liliaceae) ــ وقد ذكر في هذا الباب البصل والثوم بأنواعهما المختلفة، كما أدرج العنصل والسّوسن وغير ذلك من أنواع الزنبقيات وأجناسها.

والجنس في اصطلاح المؤلف هو مايُسمى اليوم بالفصيلة، ومن الأجناس التي ذكرها وفقاً لقاعدة المشابهة والمشاكلة : جنس اليقطين، والألسن، والسيوف، والمترسات، والأحباق، والصعاتر، واليتّوعات، وجنس البصل، واللبلاب، وجنس الديس، والقصب، والكفوف.

هذا، وقد حرص المؤلف ــ كما سبق القول ــ على شرح ألفاظ اللغة التي لها صلة بالأعشاب والشجر والفلاحة والغراسة وما إلى ذلك فضلاً عن وصفه لأعيان النّبات، كما أفرد فصلاً للكلام على أنواع الصّموغ وما شاكلها من عصارات تستخرج من الأشجار، وتكلّم على طريقة تدبير بعض الأخشاب الرفيعة كالآبنوس وعود الطيب.

اعتماده على المشاهدة وعنايته بالتّجارب الزراعية.

سبق القول أن مؤلف كتاب العمدة عُني عناية خاصة بجغرافية النبات، فما كان من العشب والشجر موجوداً بالأندلس والمغرب ذكر منابته وأماكن نموه مشيراً إلى ما وقف عليه بنفسه في الأودية والجبال وشطوط الأنهار وسواحل البحار، وأما الأعشاب التي لاوجود لها في الأندلس فإن المؤلف يكتفي بذكر موطنها معتمداً على أقوال غيره، ومع ذلك فإنه يُشير أحياناً إلى معاينته لبعض ما يجلب من البلاد البعيدة إلى الأندلس من بزور وثمار وجذور وأوراق، وهو يذكر أيضا بعض ما جُلِب إلى الأندلس من بذور لاستنباتها في بساتينها مشيراً إلى ما أنجب منها ومالم يُنجب.

وقد يكون من المفيد أن نعرض فيما يلي أمثلة من اهتمام المؤلف بالتجارب الزراعية وحرصه على التأكد من حقيقة بعض الأعشاب الغريبة عن بلده وذلك بمعاينتها وفحصها بمفرده أو بمحضر أستاذه وشيخه :

ــ تكلّم المؤلف على أجناس **الصعتر** ووصف صنفاً منه معدوماً في بلاد الأندلس ثم قال : «وقد رأيت هذه الصفة عند الحكيم ابن اللونقة، شيخنا، ورأيتها أيضا عند بعض الصيادلة الجالبين للعقّار».

ــ وصف المؤلف نبات **الفاونيا**، وعلّق على ذلك بقوله : «تذاكرت عند الشيخ أبي الحسن ابن اللونقة ــ رحمه الله ــ نبات **الفاونيا**، وما ذُكر فيه، ورأينا كلام ديسقوريدس وجالينوس، وأن صفة ماذكره الشيخان مطابق لصفة **ورد الحمير**، فقال الشيخ، نعم، قد وجدت من **ورد الحمير** صفةً امتحنتها في مصروع فزال صرعه عنه بأن علّقتها عليه وسقيته منها، وذكر أن كثيراً ما يوجد هذا النوع في العمارات، وأن زهره أبيض».

وذكر المؤلف أنواع الاهليلج ــ ومنه صِنفٌ يأتي من الهند ــ فقال : «ولم أر من الهندي إلا حَبَّة واحدة كانت عند شيخي الذي قرأت عليه الصناعة، وهو أبو الحسن ابن اللونقة ــ رحمه الله ــ ذكر لي أنه أخذها من جُملةٍ كانت عند الحكيم ابن وافد ــ رحمه الله ــ وكان يفخر بها لغرابتها» وقال في مكان آخر عن **الاهليلج** : «وأراني منه الحكيم أبو الحسن ابن اللونقة ثلاث حبّات، وذكر أنها جُلبت للمأمون[9] بطليطلة من الهند، وهو عزيز الوجود».

وقال عقب وصفه للقرنفل : «وقد جُلِب إلينا من ورقه ثلاث أَوَاقٍ فاشتُرِيَت للرئيس فرأيت منها ورقةً واحدة».

وذكر في باب **القيصوم** نوعاً منه فقال : «وهذا النَّوع جُلِب إلينا من بجاية، وهو كثير بجبال الصّوف، ويعرف **بالأفسنتين الساحلي.**»

ووصف في باب **اللوبيا** صنفاً يُعرف بالشركية، وقال : «ثمرها قدر بيض النعام، وهي على ألوان، وقد رأيتها عندنا في جنَّة السلطان، كان قد ازدرعها الشيخ الفلاح ابن بصّال».

وفي معرض الكلام على **البيروح** ذكر منه صنفاً بستانياً وقال : «وأراني هذا النوع ابنُ بصال وأخبرني أنه جَلَبَ بزْره من الشام وازدرعه بطليطلة فأنجب».

ووصف المؤلف النبات المسمى بالأمازيغية **تازرت،** ثم قال : «هو مشهور بالعدوة، وزعم بعضهم أنه **الكرمة البيضاء،** وهو الصحيح بما قد وقفت عليه من معاينة البربر له وسؤالي لهم عنه.»

ــ وفسَّر المؤلف ماهية النبات المسمى بالأمازيغية **تكّاوت** ــ وهو **الفربيون** في اصطلاح العشّابين والأطباء ــ وعَقَّب على ذلك بقوله : «وأخبرني شيخ مصمودي من أهل نفيس عن نبات **الفربيون،** سألته عنه لأنه من نبات بلادهم، فقال : اسمه عندنا **تيكوت،** وسألته عن حبّ **الأثل** فقال : اسمه **تيكوت.**»

وقال عن **تيزست** ــ وهو اسم أمازيغي أيضا ــ «وهو نبات ينبت بالصحراء

---

(9) يحيى المأمون ابن ذي النون أمير طليطلة (429 ــ 467 هـ/1038 م ــ 1075 م)

شبه **اللُّوبيا الصيني**، ذو ثمر يُشبه **الخروب**، يستعمل المرابطون حبَّه، يشربونه باللَّبن فيقطع الإسهال، وقد وقفت عليه مراراً، وعندنا منه في الأندلس أصناف».

ومن الأمثلة التي تدلّ على عناية المؤلف بشؤون الفلاحة والغِراسة ومزاولة أعمالها بنفسه قوله في باب **السوسن**، وقد ذكر منه نوعاً يعرف **بالسوسن** البحري : «إنه كثير بناحية قرطبة وجزيرة قادس، وهناك جمعته، ومنها جلبته وغرسته فأنجب، ولاينبت إلا بقرب البحر، ويعرف أيضا بالمجوسي.» ووصف نبات القلب (بضم القاف) ثم قال : «وهو كثير بجبل شلير، وقد وقفت عليه وجمعته وزرعته فنبت عندي وانتهى، وجمعت بزره»، وبعد تفسير ماهية **ورد الحمار** عقّب المؤلف بقوله : «وقد جلب إلينا منه شيء ونبت في جنَّة السلطان فرأيته شجيرة أطول من القامة، ونَورها في قدر **ورد الزينة**».

الأسماء الاسبانية في كتاب العمدة

حينما اطلع المستشرق الاسباني الراحل ميكْيل أسين بلاثيوس على النسخة المحفوظة بالأكاديمية الملكية للتاريخ من مخطوطة كتاب العمدة لفت نظره ما اشتمل عليه من أسماء النبات باللغة الرومانصية (الاسبانية القديمة) باختلاف لهجاتها، فعمد إلى استخلاص هذه الأسماء العجمية المكتوبة بحروف عربية وردِّها إلى أصولها وصياغَتِها بالحروف اللاتينية مع تعليقات مفيدة وهوامش يقتضيها التحقيق، فتحصَّل له من ذلك كتاب صدر في مدريد عام 1943 عن مدرستَيْ الدراسات العربية بمدريد وغرناطة (المجلس الأعلى للبحوث العلمية) واسم هذا الكتاب معجم الألفاظ الرومانصية التي سجلها نباتي أندلسي مسلم مجهول (القرن الحادي عشر ــ الثاني عشر)[10].

وقد صدَّر أسين بلاثيوس هذا المعجم بمقدمة قيمة طويلة وصفَ فيها مخطوطة مدريد، ثم تكلم على المؤلف «المجهول» وعصره، مؤكدا أنه أندلسي بلا شك وأنه عاش بين القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلادي، وعرض من القرائن والدلائل المستخلصة من كلام مؤلف «العمدة» ما يثبت أنه أندلسي وأن نسبة الكتاب إلى

---

(10) Asin Palacios, Miguel - Glosario de voces romances registrados por un botánico anómino hispano-musulman (siglos XI - XII), Escuelas de estudios arabes de Madrid y Granada, 1943.

ابن بطلان وَهمٌ وخطأ، ثم انتقل المستشرق الاسباني إلى ذكر أهمّ المصادر التي اعتمد عليها وذكرها مؤلّف كتاب العمدة، ثم تكلّم على أهمية الكتاب وقيمته العلمية والجغرافية، وذكر في هذا الصّدد ما لاحظه هـ.ب.ج. رونو الفرنسي حينما اطَّلع على مخطوطة كتاب «حديقة الأزهار» للغساني الوزير (وقد سبقت الإشارة إليه) من أن هذا الطبيب المغربي اتَّبع في وصف المفردات طريقةً لتصنيف النبات وتجنيسه لم يَسبقه إليها غيره من المؤلفين في البلاد العربية والإسلامية، مما جعل رونو يميل إلى الظنّ بأن الغساني قد يكون أخذَ هذا النظام التصنيفي عن أحد النباتيين الإيطاليين من رجال عصر النهضة ومنهم سيسالبينو الذي سبقت الإشارة إليه، أو من أحد الفرنسيين الذين كانوا في خدمة سلاطين المغرب في القرن السادس عشر الميلادي[11] وتعقيباً على ذلك أكَّد أسين بلاثيوس أن الغساني إنما اقتدى بسلفه الاشبيلي صاحب كتاب «العمدة» الذي سبق عصرَ النهضة الأوروبية بعدّة قرون، وقال : «إن مؤلف كتاب العمدة الأندلسي ابتكر نظاماً للتصنيف النباتي هو أقرب من غيره إلى نظام التَّصنيف الحديث، وأنه لم يسبقه إلى ذلك أحد فيما يُعْرف.»

وبعد المقدمة الطويلة رتّب أسين بلاثيوس معجمه على حروف الأبجدية الاسبانية، وحقّق 683 لفظاً من ألفاظ اللُّغة الرومانصية الواردة في العمدة، ثم أتبع ذلك بـ 88 لفظاً رومانصياً من الألفاظ التي لم يتبين لصاحب المعجم أصلُها ولم يجد لها ذكراً في المراجع التي اعتمدها.

والحقيقة أن أسين بلاثيوس قد بذل جهداً علمياً مشكوراً بما استخلصه من كتاب «عمدة الطبيب» وقصر عمله على تحقيق الألفاظ الرومانصية الواردة فيه، ولكنه مع ذلك صاحب الفضل الأول ــ من بين المستشرقين ــ في التعريف بهذه الموسوعة النباتية الفريدة والتنبيه إلى أهميتها، وذلك في المقدمة الضافية التي صدَّر بها معجمه واستغرقَت نحو خمسين صفحة واستفدت منها كثيراً وقد عزمت

---

(11) Renaud, H.P.J. - Essai de classification botanique d'un medecin marocain... - Memorial Henri Basset (Paris Geuthner, 1928) pp. 197 - 206.

على ترجمتها لاثباتها — إن شاء الله — في كتاب العمدة الذي شَرَعت في تحقيقه.[12]

مقتطفات من الكتاب

قد يكون من المفيد أن نقتطف من كتاب «عمدة الطبيب في معرفة النّبات» طائفةً من الفصول الطويلة والمتوسطة التي توضح بعض الشيء منهجَ المؤلِّف وطريقتَه في وصف مفردات النَّبات وتجنيسه، وبعد ذلك ننتخب مجموعةً من الألفاظ اللغوية المتعلقة بالنبات وأحواله كما فسرها المؤلف.

ولابد من الإشارة قبل ذلك إلى أن المؤلف عمد إلى استعمال بعض الرموز الحرفية اختصاراً للأسماء والألفاظ التي تكرر ورودها كثيراً في الكتاب مثل (د) مكان ديسقوريدس و (ج) مكان جالينوس، و (سع) مكان اسحاق بن عمران، و (ي) معناها اللغة اليونانية، و (فس) الفارسية، و (س) السريانية و (عج) عجمية الأندلس، و (لط) اللاتينية، و (بر) البربرية و (ع) العربية و (ر) الرومية.

تفسير ماهية المفردات النباتية.
أمثلة

آذريون

لم يذكره ديسقوريدس ولا جالينوس، وبعض الأطباء غلط فيه فجعله **العرطنيثا**، قاله ما سرجويه والرازي ومسيح والزهراوي وابن جناح وابن جلجل، وليس كما قالوا وإنما هو غيره وإنما أشْكِل عليهم لأن الآذريون قد يسميه بعض الرواة **العرطنيثا**، ومع ذلك فيه بعض صفاته، فمن هنا جعلوهما شيئاً واحداً وغلطوا. أبو حنيفة وأبو حرشن : الآذريون **العرار**. ابن جلجل : العرار **الطبَّاقة**.

والأذريون نوعان : بستاني وبري، فالبستاني ورقه كورق الخيري الأبيض، إلا

---

(12) تفضل صديقنا وزميلنا المستعرب إيميلو غارسيا غوميث بتزويد أكاديمية المملكة المغربية بنسخة مصورة من مخطوطة «العمدة» المحفوظة بالأكاديمية الملكية للتاريخ، وهي الآن بين يدي مع صورة من نسخة الخزانة العامة للكتب والوثائق بالرباط، وعليهما أعتمد في تحقيق الكتاب.

أنها أعرض وأمتن وأطول، وكأنّ عليها زغباً أبيض كالغبار، وقضبانه مرتفعة تُشبه الباقلاء، إلا أنها أصغر، وهي مجوفة رقيقة كثيرة تخرج من أصل واحد في الأكثر، وقد تقوم على ساق واحدة ثم تتفرع إلى أغصان كثيرة، وتعلو نحو الذراع، وله رؤوس ذات زهر مشرَّف بشرفات دقاق دائرة بتلك الرؤوس، ذهبية اللون إلى الحمرة، وفي وسطها لمعة سوداء، وشبَّهها الشعراء بمداهن ذهب في وسطها غالية، ويسمى بالعجمية **قُلُنبة قْوِلُّه** أي عنق الحمامة، ورُنْبُنْتُقه وبالعربية **الحنوة**، ويعرف ببعض البوادي **بالذهبي**، وتسميه العامة **بالتَّاجر** لأنه ينفتح نوره بالنهار وينغلق بالليل، وبعض العرب يسميه **العرار** وبَهار البرّ، وهو البهار الأصفر اللون المعروف بالنرجس، ويسمّى عين العجل، **وكفّ الأسد** لأن رؤوسه إذا سقط منها الزهر شبه بكفّ الأسد وأظفاره.

وأما الآذريون البرّي فمثل المتقدم إلاّ أنه أصغر ورقاً وأرقّ أغصاناً وأدقّ نوراً وأكثر زغباً، ويظهر زهره في آخر الشتاء وفي الربيع، وهما معروفان عند النّاس.

1 ـــ أســـــارون

هو من جنس اللبلاب ومن نوع **القسّوس**، مشهور عند الأطباء، اسمه باليونانية **أسارون** وبالعجمية أَشَرُ وَأَشَرُه، وبالعربية **قُرعان** ـــ وهو فارسي ـــ وبالبربرية **القرنة**، وبعجمية الثغر **أفرقه دلف**، ويسميها أهل بلدنا **اللوبيانية** ويسمى أيضا **ناردينا برياً** لشبه رائحته برائحة **الناردين** البرّي، وأما قوته وشكله فبعيدان عن **النّاردين**.

وهذا النبات يشبه ورق **القسّوس** غير أنه أصغر بكثير وأصلب وخضرتها مائلة إلى السواد والغبرة، ولها أغصان رقاق مزواة ترتقي في الشجر وتتعصب عليها وتتعلق بها، وزهرها بين الورق فرفيري اللّون على شكل **الزراوند**، وأطراف زهره تشبه رؤوس البراطيل يطلع ذلك عليها في زمن الربيع، ويخلفه جماعة مثل ثمر **الكَبَر** سواء، مُعرقة فيها بزر يشبه بزر **ورد الزينة**، مفرطخ؛ وأصوله مثل أصول **الثيل**، كثيرة معقَّدة تدبّ تحت الأرض في كل ناحية ولونها أصفر بغبرة، وبعضها كمدة إلى السواد ماهي، وله رائحة طيبة؛ مرّ الطعم يلذعُ اللسان قليلاً. منابته الجبال المكَلَّلَة بالشجر، وأجوده ما جُلب من الصين وبعده الأندلسي، وخير الأندلسي ما جمع بناحية الجزيرة الخضراء.

نوع آخر، يسمى **دار اميران** له ورق يشبه ورق الراوند إلا أنه أصغر بكثير، لينة، على أغصان صغار رقاق تمتد على وجه الأرض قدر شبر، وله زهر وثمر مثل زهرِ الأول وثمرِه إلا أنها أصغر، وله أصول كثيرة معقَّدة لونها أصفر في رقة الميل وأرق تخرج من أصل واحد مثل أصل **الخربق** الأسود، مُرَّةَ الطعم، عَطِرة الرائحة منابتها التربة البيضاء من الجبال، وقد وقفتُ على النوعين وجمعتهما مراراً.

نوع آخر ينبت بالجزيرة الخضراء له ورق مثل ورق **القنطوريون** الرقيق أخضر اللون إلى السواد، وساقه تشبه قُضُب **الخرطال** في شكله، متباعد العُقد، مدوَّر، خوَّار، مجوف، يعلو نحو الذراع، في أعلاه جُمَّة من شُعَبٍ بعضها فوق بعض، في أطرافها رؤوس صغار مثل حبِّ **الحنطة**، داخلها شيء يشبه الزغب الذي يخرج من رؤوس الهندباء يتطاير مع الرياح، وزهره مثل زهر **الثيل**، فرفيري اللون، وأصله يشبه أصل **الورس الجبلي**، أرقّ من الخنصر، تتشعب منه شعب في رقة الميل، تشبه الأصابع التي تخرج من أصل كفّ السبع، مدورة، في طول أنملة، طيبة الرائحة والطّعم، وهذا النوع لذيذ الطعم مادام غضاً. منابته الجبال الصخرية، وهو كثير بجبل الربله من جبال الجزيرة الخضراء.

2 ــ بصــل

ينقسم إلى أجناس أُوَّل، ثم إلى أجناس أُخر، ثم إلى أنواع.

فأجناسه ثلاثة : بستاني وبرّي ذوات لفائف، وأحمر مُصْمت لا طاقات له.

فالبستاني **بصل الأكل**، وينقسم إلى أنواع كثيرة، فمنه الأبيض المدحرج وهو **البيضي** لأنه شبه البيض في الشكل والقدر واللون والدحرجة، **والزُّبْدي** هو بصل جليل مفرطح من جانبيه، لونه لون الزّبد، ويسمى أيضا المجوسي، كثير **بقلعة أيوب**، وهو قليل الحرافة، في قدر بيض الدّجاج، **وآخر** أبيض، عظيم الجرم، مفرطح الشكل، يغطي بواحدة منه فم قِدْرٌ، وربما كان في دورها ثلاثة أشبار، ويعرف **بالخراساني** لأنه يزرع بخراسان كثيراً، وطعمه إلى الحلاوة والعذوبة، ويسمى بالفارسية **طرخسان**، وهو البصل الفارسي، وهو موجود بجهة **وشقة وطرطوشة وقلعة أيوب**، وهو أضعف أنواع البصل توليداً.

والأحمر أنواعه كثيرة : منه صغير اسمه **الشوطي**، وهو مدحرج، ويعرف

بالمقشلان، وآخر طويل شبه مثانة الضأن قدراً وشكلاً، يعرف **بالشرغلي**؛ وآخر مُبضّع مُعَرَّق يَعظُم في نباته، وهو مثل القُرَصِ[12] الصغار يغطّى بالواحدة منه فمُ قِدْر، ويعرف **بالشلوبيني**، وهذا النوع كثير **بالجزيرة الخضراء** وبباجة من عمل **شاذونة**، وهو البصل الرومي.

وأخبرني الثقة أنه رأى **بخرسا الدجاج** بصلا طويلاً طول كلّ واحدة شبر لا يغوص منه في الأرض إلا اليسير مثل ما يصنع **السلجم** و**الفجل** النخلي، ويعرف **بالعسقلاني**.

وأما البرية المأكولة فكثيرة أيضا :

فمنها **المولد**، وهو مدوّر الشكل يقوم حوله أولاد صغار كأسنان **الثوم الكُرَّاثي**، وهذا النوع مركّب من كراث وثوم، ذكره (د) و (ج).

ومن البصل نوعٌ يعرف **بالجِبُلين** ــ وهو اسم عجمي ــ أي بصل صغير، يشبه في شكله وقَدره البصل المهيأ لأن يغرس، وهو في غلظ الإبهام ــ أعني أصله ــ وطعمه طعم البصل سواء، ولا فرق بينه وبين البستاني إلا أنه لا يعظم.

وعلى اختلاف هذه الأنواع في شكلها وهيئتها وألوانها يكون اختلاف قواها وطعومها، فما كان منها مستطيلاً أحمر فهو أشدّ حرافةً وأكثر رطوبة، والأبيض أقل حرافة، واليابس أشدّ حرافة من الرطب، والنيءُ أشدّ حرافة من المشوي. وزعم (سع) أن المستطيل أقل حرافة من المدوّر لأنه أغزر رطوبة، ولذلك طال، وهي كلها شكلُ ورقها قريب الشبه، واختلافها في الطولِ والعرض والرقة، وساق الكلّ مجوفة، وزهرها أبيض، وبراعمها كثيرة صغار مثل الجُمَّة، فإذا سقط الزهر صار في كل برعمة ثلاث حبات من بزر أسود **كالشونيز**.

والبستاني يزرع البكير منه في أكتوبر، ويغرس نقله في فبراير، ويؤكل في مايه، ويزرع المؤخر في يناير وينقل في أبريل ويؤكل في أغشت، وهو الصالح للخزن. وذكر (د) و (ج) هذا الجنس، ويسمى باليونانية قرميديا، وبالعجمية جِبُلَة وبالبربرية تاصلمت، والجمع أزاليم بتفخيم الزاي.

---

(13) قرص (جمع قرصة) : خبزة صغيرة مدورة.

ومن نوع البصل **الكرّاث**، وهو ستة أنواع، قال أبو زياد : هو من العُشب وليس من البقل، وقال ابن الندا : هو من البقل، وهو الصحيح، لأن كل ما يُزرع من بزره وينحطم فرعه وأصله من عامه فهو **بقل**، وما لم يزرع فهو جَنْبة، ولو ترك هذا في الأرض إلى العام المقبل لفسد إلا البري منه.

والبستاني ثلاثة أصناف، أحدها يسمى **فراسن**، ومنه **الكراث الشامي والملوكي والأندلسي** وهو **القلفوط**، وهذا النوع ينسب إلى **طرطوشة** لأنه يُتَّخذ بها كثيراً، وهو عريض الورق، كبير الرأس، طويل العنق، ناعم، حلو الطعم مع شيء من حرافة، يُشبه طعم البصل الحلو، وهو شديد البياض وساقه كساق الثوم وجُمَّته كجمة البصل ذات زهرأبيض مائل إلى الحمرة. ونوع آخر أقل من الأول في جميع أحواله، وأشد حرافة، وأقصر عنقاً، يُعرف **بالريفي والجليقي** لكثرة زرعه بها (أي بجليقية).

وثالث يعرف **بالمولّد** لأنه ينبت حول رأسه حَبّ في قدر الحمَّص صغار كأسنان الثوم وهو شبه الجليقي البَتَّة.

وهذه الأنواع كلها تزرع في يناير، وتنقل في أكتوبر، وتؤكل في مارس، والولد إذا بقي تحت الأرض نحواً من خمسة أعوام نبت من أرومته كالجنبة، ويؤخذ منه البزر في كل عام ثم ينحطم بعد ذلك، وليس النوعان الآخران كذلك.

والبرّي وهو **النبطي** أو **الشامي** أو **كُرَّاث الروم والجبلي**، وهو أشدّ حرافة من الشامي، وفيه قَبضٌ يسيرٌ، وهو دقيق الرؤوس والورق، وورقه مفترشة على الأرض، وينبت في الجبال والسهل ويسمى باليونانية **دراقيسقرديون**.

ونوع آخر هو المولّد أيضا لشبه رؤوسه برؤوس الثوم، ولأن طعمه مركّب من طعم البصل والثوم، ونباته بالسهل والجبل وبين الزروع وبالمروج الرملة، ويسمى باليونانية **سقودرنواس**، وهو **الكراث الثومي**.

ونوع آخر، وهو كبير الرؤوس في قدر بصل **الأشقلال** أبيض ورقه عريض كورق الخنثى، تعلو ساقه نحو القامة، ذات جُمَّة حمراء، مائلة إلى البياض، فيها بزر أسود كبزر الكُرَّاث إلا أنه أعظم، ورائحته كرائحة **الكُرّاث**، ورأيت هذا النوع بقرب الديموس الذي بطالقة. وأوراقُ هذه الأنواع كلّها وزهرُها وطعمُها متقارب، ونباتها في الربيع.

ونَوْع آخر له ورق دقيق يلتوي في نباته وتصير تلك الورقة كأنها دوائر لكثرة التوائه، طول الورقة نحو شبر، ولا ساق له، يخرج في وسط نباته بين الورق جُمَّة صغيرة من زهر أبيض، وله أصل صغير أبيض ذو طاقات، وطعمه ورائحته كالكراث، ونباته بالرمل والمروج الرطبة الرملة، ويسمى **يربه أو ناله** أي عشبة الخروف ــ لأنه مرعى الخرفان، ويسْمن عليه الضأن، وهو مرعى معروف عند الرعاة، ويقال **يربه أو نالّه** لنبات **العصّاب** ــ نوع من **الشيطرج** وذكر (د) و (ج) الكُراث، ويسمى باليونانية **فراسن وقافالوطن**، وبالسريانية **قلفوط وعلفوط** (بالعين غير معجمة)، **وبالقطلونية طيطان**، ويسميه بعض العجم **سقودقران**، ويسمى بالعجمية بورّه، وبالبربرية **تراست**، وبالعربية **كاؤل**، وبعض الناس يسميه **بُلْبُس** طويل، وبلابس وكراث الروم وهو **الراسن**.

ومن نوع البصل : **بلبوس**، وفيه اختلاف بين الأطباء، يوقعون هذا الاسم على أنواع كثيرة من البصل، قال حبيش : هو بصل النرجس النابت في الحقول ومجاري المياه، وقال أريباسيون : هو بصل أفزير، وزعما أنهما فيه على مذهب جالينوس، وقال أبو جريج : هو بصل صغير يشبه بصل **الزعفران** في دقته، وقال ابن جناح : هو الصرين الذي يسمى بسرقسطة **قُنتيه**، وهذا خطأ لأني وقفت على النباتين جميعاً، والفرق بينهما بيّن، **فالبلبوس** ذو لطائف ــ أي طاقات ــ والصرين مصمت، وعلى أن ماقاله اليهودي لا يقتضي ماوصفه ديوسقوريدس في **البلبوس** حيث قال : هو ثلاثة أصناف أحدها ريفي والآخر بري ــ وهما غير مستعملين ــ والثالث مأكول وهو صنفان : حلو ومرّ، والحلو أحمر القشر، والمرّ أبيض القشر شبه قشر **الأشقيلال**، فالمرُّ منه أبيض، مائل إلى الصفرة، في قدر بصل الأكل، مدحرج ذو طاقات، وهو بصلتان إحداهما فوق الأخرى، فالعليا ذات طاقات كلفائف بصل الأكل، والأخرى مُصْمَتة لا طاقات لها، ولها ساق رقيقة نحو شبر وأكثر، مدوَّرة، ملساء، يخرج من بين الورق في أعلاها نَوْر بنفسجي مشرّف، شكله شكل **الخيري** إلا أنه أصغر منه، وورقه كورق **النيلوفر** الأبيض البستاني إلا أنه أقصر منه وأعرض، وفي طعمه مرارة وقبض، ونباته في المواضع الرطبة وبقرب المياه. ورأيت منه كثيراً بجنب قرية تُعرف بلقلندر، وبجهة برشنّانه من عمل اشبيلية. وذكر ديوسقوريدس البلبوس وسماه باليونانية **بلبسا**؛ في

مائيته مرارة ولا قبض، وفي كتابه «أغذية المرضى» أن الزير فيه مرارة وقبض بيّن، فكيف يكون بصل الزير ؟

والنوع الحلو المأكول هو الذي وصفنا، وهو مدحرج الشكل إلى الطول قليلاً، وله لفائف كثيرة، وقشر خارجي إلى الحُمرة، وورقه أدقّ وأطول من ورق النّوع الأول، وساقه مدوّرة مجوّفة تعلو نحو عظم الذّراع في أعلاها شبه صنوبرة اسمانجونية، منظمة من براعم صِغار — أعني غلف النّوى — ثم تتفتح عن بزر أزرق دقيق مشرَّف، وأما أصله ففيه لزوجة تتمطّط ورطوبة كثيرة، وطعمها حلو، ويسمى بالرومية **بلبسا** وبالعجمية **ماغره**، ويسمى **البُطْن**، ويعرف **بفضل الجواري** من أجل أنه يحمّر الوجوه إذا ضمد به كالأول. وقال ديوسقوريدس : إن هذا النوع الأحمر أفضل لتنقية المعدة وتقويتها من غيره، ويجب أن لايتجاوز منه أكثر من بصلتين، وخاصته تقوية شهوة الطعام.

نوع ثالث مثل الموصوف سواء إلا أن زهره أبيض وكذلك أصله، وهو ذو طاقات، ويعرف **بالماغره** (وصفته في حرف الميم).

نوع آخر يُقَيِّءُ إذا أُكِل، ويسميه بعض الناس **بصل القيء**، وهو **بصل الزير** أيضا، ذكره ديوسقوريديس وجالينوس، وورقه أزرق وأطول من ورق **البلبوس** المأكول بكثير، وأصله كأصله إلا أنَّ قشره الخارج مائل إلى السواد، وفيه لزوجة كثيرة، وساقه دقيقة رخصة، مائلة إلى البياض، تعلو نحو شبر، في أعلاها شُعَبٌ ثلاث أو أربع لينة، عليها زهر أبيض كلون الحشيش، فإذا تفتَّح كان لون داخله شبيهاً باللبن، أبيض، وفي وسط الزهر شبه البزر، أسود، يخْبزُ به الخبز مكان **الشونيز**،وقد ظنَّ قوم أنه **البلبوس** — بصل النرجس — من أجل تقيئته، وليس به إلا أنه يشبهه، لأن بصل **النرجس** يقيء أيضاً، ويسمى هذا النوع باليونانية **أربينوس علابلبوس**.

بلبوس بريّ، هو نبات له ورق شبه ورق **البلبوس** إلا أنّها أرقّ وأطول، وفيه يسير رطوبة تدْبق باليد، وله ساق في طول شبر، ملساء، أرق من الخنصر، عليها زهر أحمر مائل إلى السواد، وأصلٌ مستدير يشبه بصل **البلبوس**، ليّن، حلو ملئان رطوبة، وعليه قشر أحمر، فإذا قشر كان لونه أبيض، وإذا أُكِل هذا النوع قتل

بالخنق **كالفُطُر**، فَلْيُحذَر، ويعرض لشاربه حكَّة شديدة في جميع بدنه كما يعرض لِلاَمِسِ الحُريق وآكِلِ بصل **الأشقيل**، ويجدون لذعاً في أجوافهم وحرقة في رؤوس معدهم، فإذا قَوي سمُّهم أسهلهم خُراطة دمٍ، وعلاجه بشرب لبن البقر والمخيط المكوي بالحديد. اسمه باليونانية فلجيقن سروار اقينوس، وذكره ديوسقريدس.

بصل الطاقات ــ أي ذو طاقات ــ ويقال الطافات (بالفاء)، ولا أعرف معنى هذه اللفظة، ولعلّه سُمِّي بذلك لنباته منفرداً فيكون كل واحد منها طائف، أو لكونه بصلاً مستديراً من طاف إذا استدار، وينبت جماعة لا منفرداً من لفظ الطائفة، وهي الجماعة، وقد يقع الطائفة على الواحد، وهو بصل صغير كبصل **الزعفران** إلا أنه أدقّ بكثير وألين، وطاقاتها دقاق بيض، وطول ورقها شبر كورق بصل الأكل، وزهرها دقيق بنفسجي، وينبت جماعةً ــ العشرون والأربعون ــ على نقطة واحدة، يتولد من أصل واحد كرؤوس **الثوم**، نباته في السهل، لاسيما الأرض المختلطة برمل؛ وغلط فيه قوم أن جعلوه **البلبوس**، وهو بصل صغير يشبه بصل **الزعفران** شكلاً وصلابةً، وورقه كورق الزعفران إلا أنه أعرض وأصلب، أخضر، فيه ملاسة، منبسط على الأرض، له ساق دقيقة معقّدة، عليها ليف، تعلو نحو شبر، في أعلاها زهر أزرق، على أصله ليف كثير كليف **الدّوم**، وينبت على قرب الطرق وفي المروج الرملة مع البصل المعروف بالخُرَّم، (ذكر مع السّوسن في س).

ومن نوع البصل **بصل الهام** لأن الهام تأكله في بعض الأوقات وهو صغير أقل من بصل **الزعفران** عليه قشر أسود **ووَرَقٌ** دقيق كأطراف **الحلفا** من رقته، يمتدّ على الأرض نحو أصبع، تخرج من وسطه ساقٌ طول أصبع، في أعلاها سنبلة طول الأنملة كحبة توتة، صنوبرية الشكل، زرقاء اللّون، يظهر في زمن الشتاء، وهو كثير بشرف الزيتون، ويسمى **ذكر الهر** لشبه سنبلته بذكره قدراً وشكلاً، ويسمى باليونانية **أرثيوس**، قال الزهراوي : هو **القشطنيولا**، أي قسطلة صغيرة.

بــهـــار :

اختلف فيه، فمنهم من يوقعه على نوع من البصل، ومنهم من يوقعه على نوع من الأقاحي، ومنهم من يجعله نوعاً من **الأغافت**، قال أحمد بن داود : «بهار البرهو

العرار، وهو نبات زهره شديد الصفرة، مائل إلى الحمرة». وكأنه أراد البنتشتر، وهكذا حكى ابن وافد : وهو طيب الرائحة، واسع النَّوْر، وليس **بالعرار** وقال مسيح : «البهار من الفُجل»، وقال بولش والبصري : «هو عين الثور». وعين الثور عندنا البُبُلْيه. وقال ابن الهيثم[13] «البهار يشبه البابون»، وقال حبيش : «هو النرجس الأبيض»، وقال أبو حاتم : «هو دواء حريف حار، قوي التحليل، يخلط في المراهم» وأشار إلى أنه **الببليه**، وزعم أنه نوعان : أحدهما الببليه ــ وهو الأكبر، والأصفر المقارجه وهو **الأقحوان**.

قلت : هذا الإسم ــ أي **البهار** ــ يقع على نوعين من النبات : أحدهما **العرار** وهو مذهب أبي حنيفة وأبي حرشن والأصمعي وأحمد بن داود وغيرهم من الرواة عن الأعراب إذ هما إسمان عربيان، والآخر ذكره ديوسقوريدس وجالينوس. وحكى ديوسقوريدس أنه نبات ورقه كورق **الكرّاث** غير أنها أرق بكثير لا انحفار فيها، ولكنها تشبه **الكُراث** وتخرج من وسطها ساق ناعمة، رخصة، مجوفة، عريضة، فيها تعريق، تعلو نحو شبر وتنقسم في أعلاها إلى فرعين صغيرين كرقة الميل، في كل فرع عقدة مثلثة الشكل، فيها بزر أسود كبزر **الكُرّاث**، على كل فرع زهرة بيضاء أكبر من زهر **البابونج** منفرش الشكل، في وسطها قُصَيْعات صُفْر تشبه العيون، ولذلك يسميه بعضهم **عين الثور**، وأصله بصلة ذات طاقات مملوءة رطوبة لزجة، بيضاء، متمططة؛ تنبت بقرب المياه، وقد تنبت في البساتين.

قلت : أما الذي ينبت منه بالبساتين فهو الذي وصفنا، وبينه وبين البري بون كثير، وذلك أن القُصَيْعة الصفراء التي في وسط الزهرة لاتكون في البري، ولكن مكانها شِبه شعرات صفر، ويسمى باليونانية **بقتلمن**، وبالفارسية **فجلن** وبالعجمية **طبلاله وزنبقيرش**، وتعرفه العامة بالزنبق، واسمه بالعربية **بهار أبيض**، ويقال **بهار الرياض**، وبالسريانية **قليمونة**، والعرب تقول بهار لكل شيء باهر، ويسمى بعين الثور **والأذريون** أيضا عند بعضهم.

---

(14) المقصود هو عبد الرحمان بن إسحاق بن الهيثم، طبيب من أهل قرطبة عاش في أيام الحاجب محمد بن أبي عامر (أواخر القرن الرابع) وله مؤلفات في الأدوية (انظر «عيون الأنباء» 3 : 74).

بصل النرجس

هو خمسة أصناف : أصفر وأبيض ومجزّع وبواقي ومقودس.

فأما الأصفر المنقرس فورقه كورق الزعفران إلا أنها أصفر وأقل، وقد تلتوي أطراف الورق وترجع إلى جانب الأصل، وهي منبسطة على الأرض، تعلو ساقها نحو شبر، في رقة الميل، خضراء، ملساء، مجوفة، لاورق عليها، تشبه قصب الزمرُّد، ويتفرع في أعلاها إلى فرعين أو ثلاثة، في أطراف تلك الفروع عقد خضر مثلثة قدر حبّ البرّ، والبزر في داخلها، وفوق تلكَ العُقَد زهرة صفراء مشرَّفة، قد دارت تلك الشرفات بقُصَيْعة صفراء ذهبية، عطرة الرائحة، وأصلها بُصَيْلة قدر زيتونة، ذات طاقات، مملوءة رطوبة، عليها قشر أسود، يظهر ذلك الزهر في مارس، وهو كثير عندنا في السباخ، ويجلب إلى اشبيلية من جهة الغرب منها.

وذكر ديوسقوريديس وجالينوس هذا النبات ويسمى باليونانية **بركسوس وبرنسيس** مأخوذ من البرك الذي ينبت فيها، وبالرومية **ونيريون** من أجل صفرته شبه لون النيرون، وبالسريانية**مريث**، وبالعربية **نرجس** وباللطينية **نرجسينوس** وبالعجمية **نبقيرس وفلور أورُو**، أي نوار الذهب.

نرجس أبيض : ورقه كورق أطراف الحلفاء، وقد تمتدُّ على الأرض نحو طول الإبهام، وسويقه أرق من الميل[14]، تعلو نحو أصبع، في أعلاها زهرة بيضاء، ذات خمس شرفات، عطرة الرائحة، في وسطها شيء أصفر، وتحت الزهرة عقيدة مثلثة الشكل في قدر **البُرَّة**، وأصله بُصيلة في قدر **الباقلاء**، مدحرجة، بيضاء، ذات لفائف، نباتها في الأودية الشتوية بالقرب منها وفي المواضع الرطبة من المروج، ورأيت هذا النوع عند رحى بني كنانة من عمل اشبيلية.

وقد يجعل بعض الناس **النرجس** الأبيض **البهار** المذكور قبل. وهذا ذكره ديوسقوريدس وسماه باليونانية **بركسوس**، وهو النرجس.

نرجس بواقي : يشبه ورقه ورق الكُرّاث إلا أنه أدقّ وأقصر وأرقّ وساقه مدورة مجوفة، في رقة الميل، ملساء، تعلو نحو شبر، في أعلاها زهرة صفراء ذهبية

(15) الميل هو المرود الذي يكتحل به.

في شكل فم البوق الشامي، في داخل تلك الزهرة زهرة أخرى أصغر منها على شكلها، وبينهما فراغ، ولا يتماس إلا أواخرهما كأنهما قِمعان أُدْخِل الواحد في الآخر، في داخل الزهرة الصغيرة شيء شبه الشعر، لكل شعرة رأس كرأس الخلال وكأنه لسان ناقوس قد خرج من وسط تلك الزهرة، وهي عطرة، وأصلها بُصَيْلَة قدر زيتونة، ذات لفائف، عليها قشر أصهب تشبه ليف **الدوم**، ويسمَّى **بالنرجس البواقي** لشبهه بالأبواق. نباته في المواضع الرطبة من الجبال وبقرب المياه الجارية. [رأيت] هذا النوع بقرب جبل العيون في قرية اليصارى من غرب الأندلس في أول الربيع.

نرجس مقودس : ورقه كورق الثوم رقة وطولاً، فيها انحفار، وخضرتها إلى الدهمة، وفي لونها فرفيرية، وفي وسطها حبّ أبيض، عَسِرُ الفَرْك، وترجع في نباتها إلى ناحية الأصل، وتصير على وجه الأرض كأنها دوائر، تقوم من وسطها ساق أغلظ من الميل، تعلو نحو شبر، في أعلاها زهر كزهر **السوسن** الأبيض، وهو ذو طبقتين، لكل ورقة غاشية حمراء أو في ورقة لاصقة بها، لون الخارجة حمراء قانية والداخلة صفراء ذهبية، وإذا نظرت إلى حسن هذا الزهر رأيت شيئا عجيباً : نورا أحمر في داخل نور أصفر، وهي عطرة الرائحة. وأصله بصلة في قدر بصل **البلبوس** وفيها لطأ، ولون قشرها الخارج أسود على شكل ليف **الدوم**، وإنما يعرف بالمُقَوْدَس لأن زهره شبه القواديس، ويعرف بصقلية وافريقية **مقدونس**، ويقال أيضا مقدونس لنوع من **الكرفس**، ويظهر هذا النوع في زمن الربيع، ورأيته بمُنْتِ ميو، ومُونْتِ بير وجبال الجزيرة الخضراء، ويسمى باليونانية **أماروقالاس**، ، ذكره (د)، وجعله من أنواع **السوسن**.

ومن نوع البصل **بصل الزعفران**، ومنه صغير وكبير، ومنه مايزرع ومنه ما لايزرع (يذكر في حرف ز).

ومن نوع البصل بصل الفأر، وهو بصل البر وبصل الخنزير والعُنْصُل والأشقيل (يذكر في ع).

ومن نوع البصل **الثوم** وهو خمسة أنواع. فمنه بستاني وهو ثلاثة أنواع، والبري نوعان.

فمن البستاني نوع يعرف **بالقشطنيولي**، ذو رأس كبير وحب كثير، **مُورَّد** اللون، جليل الورق، عظيم الجِرْم. ونوع ثان يُعرف **بالعُقابي** ذو رأس صغير وحب دقيق، مهلل الشكل، مورد اللون، ونوع ثالث يعرف **بالبستاني** يشبه أنياب الكلاب والسباع، وحَبُّه دقيق طويل، فيه تهليل يسير، ولونه أبيض، ومنه نوع آخر يعرف **بالصقلي**، ذو رأس كبير، وحبّ جليل، وورق هذه الأنواع كلّها متشابهة معروفة.

وأما البري فأحدهما **أسقودريوس**، والناس مختلفون في هذا الاسم، فمنهم من قال إنها **الحشيشة الثومية** التي تقع في الترياق (تذكر في حرف ح) ومنه من يجعله نوعاً من **الشكاعي** (تذكر في ش)، والصحيح أنه **الثوم الجبلي**، وهو ينبت سنّا واحدة عليها قشر مورَّد، وساقه صلبة دقيقة. نباته بالجبال. **والثاني** يسمى باليونانية سقودقراسن، وهو ثوم مركَّب من كراث وثوم، [له] قشر مورد، وساقه صلبة دقيقة، نباته بالجبال.

والثوم والبصل [ذكرهما] (د).

ومن خاصة الثوم إذا طبخت أعناقه بالخل وخلط معه نخال الحنطة وصنع منه ضماد حلل الأورام البلغمية والصلابات حيث كانت، وإذا ضمد به نفع من النقرس، وهو موافق لكل وجع. وإدا دقّ وخلط بالتين ووضع على الأذن نفع من السمع، وإذا اكتحل به نفع من الغشاوة.

ومن نوع البصل **بصل نسرين المروج**، وهو المنكوس، وهو نوعان : أبيض وأصفر، وهو صغير يُشبه بصل **النرجس** الأصفر، وطاقات ورقه دقيقة كأطراف الحلفاء دِقَّةً، وسُويقته دقيقة كسوق **النرجس** الأصفر في رقّه الميل، تعلو نحو أصبع، في أعلاها زهرتان مشرَّفتان بأربع شرافات، وذلك الزهر منكوس إلى أسفل يظهر في أول الخريف وفي زمن الشتاء. نباته في المروج الرملة والقيعان.

والنوع الآخر الأصفر كالمتقدم سواء إلا في لون الزهر فقط.

ومن أنواع البصل **بصل الخُصى**، وأنواعه كثيرة، فمنه **خُصى الكلب**، وهو ثمانية أصناف، فمنه الخلي وهو نوعان أحدهما ذو زهر فرفيري والآخر أسود، ومنه الدبيراني وله زهر أصفر، ومنه **الديكي** ونَوْره كبير فرفيري، ومنه **الثومي** وزهره

كزهر الثوم سواء، ومنه **الفرفيري** وزهره أقل نوراً من الديكي، ومنه **الكُرَّاثي** وزهره أبيض إلى الحمرة وفيه ترقيط، وأصله كبير.

ومنه **خصى الثعلب** وله زهر أبيض (وصفة زهر هذه الأنواع في حرف خ).

ومن نوع الخصى : **الخنثى** وهو الأبجّه (تقدم في حرف الألف).

ومن أنواع البصل : **بصل اللوف**، وهو أيضا من نوع الخصى (يذكر في حرف اللاّم)

ومن نوع البصل : **بصل السنجار** (يذكر في حرف السّين مع السَّوسن).

ومن البصل أيضا : **بصل السوسن** وأنواعه كثيرة : ومنها بصل وغير بصل، فالذي من نوع البصل **السوسن البستاني**، وبصله أبيض شبه ثمر الخرشف (يذكر في حرف س). ونوع آخر من السوسن أصله بصل وهو **السوسن البحري** (في حرف س)، ونوع آخر من السوسن أصله بصل الخُرم (في حرف خ) ورأيت هذا النوع بجهة لبلة وبكنتش الشعراء من عمل اشبيلية.

ومن نوع البصل : **السّورنجان** وهو نوعان : أبيض وأسود (يذكر في حرف س).

ومن نوع البصل : **بصل النيلوفر** وأنواعه كثيرة، فمنها ماأصله بصل وغير بصل، فالذي أصله بصل ثلاثة أنواع، أحدها ذو نَوْر منقرس الشكل في وسط الزهر فُطرة[15] سوداء كأنها ثُؤلول في قدر الحمص، وورقه كورق **الكُراث**، وفيها انحفار، تخرج من وسطها قصبة ملساء، غضة ناعمة، مُعرَّاة من الورق، طول ذراع، تتفرع في أعلاها إلى أغصان دقاق، ثلاثة أو أربعة في طول أصبع، وفي أطرافها يكون الزهر ويعرف **بالنيلوفر المجوسي** (بالفارسية **سفتا**) ويعرف أيضا بالتركي وبالفارسي، وأصله بصلة بيضاء ذات طاقات في قدر بصل الأكل، ونباته بقرب المياه، ويُتَّخذ في البساتين والدور.

ومنه نوع آخر زهره أبيض وليس من نوع البصل يظهر في زمن الربيع (في حرف ن)

(16) الفُطرة، بضم الفاء، والجمع فُطْر : هي حبّات العنب أول ماتبدو.

3 ــ ثُــراء

(جمع ثُراءة)

شجيرة لها ورق كورق الكَراث[16] (بفتح الكاف)، وقُضبانها طِوال يدقُّها الناس ويتّخذون منها أرشية، وزهرها أبيض، صغير، وأصلها أبيض، هذا قول أبي حنيفة وأما أبو حرشن فقال : نبات يُشبه نبات **الإذخر** إلا أنه أطول وأغلظ، وزهره كزهر **الخطمي** الأبيض صغير، في أصله شيء من حمرة، يَنْبت في أضعافه الطراثيث والضغابيس، وإذا جفّ قيل له **المصاص**، وله زجل عند هبوب الريح عليه. وقيل إن **المصاص** نبات آخر أدق من الثُراء، ونباته كنبات الكَراث (بفتح الكاف)، إلا أن أغصانه كثيرة تخرج من أصل واحد، وورقه منتن، صلب، تتخذ منه الأرشية. وزعم قوم أن **المصاص والثراء والعيشوم** شيء واحد. [وقال] أبو نصر : هو نوع من الحماض دقيق النبتة، شديد الحمضة : وهو **النزف** وهذا كله من نبات أرض العرب لابلادنا.

4 ــ جَــولــق

من جنس التَّمنس، ومن نوع الشوك، وهو خمسة أضرب، أحدها **الدار شيشعان**.

فالنوع الأول لاورق له وإنما هو شوك كلّه، حاد كأطراف الإبر رقة وحدة، وهو مشتبك بعضه ببعض كعنقود شوك، وساقه حشبية، صلبة، معرقة، تعلو نحو العقدة، وزهره أصفر ذهبي يظهر في زمن الربيع، تخلفه خراريب صغار جداً، عريضة، فيها حبّ لاطيء شبه بزر **الخيري**، أصفر، نباته بالجبال.

والثاني يُشبه الأول إلا أن شوكه ليِّن، وخضرته مائلة إلى الصفرة.

والثالث مثل المتقدم إلا أنه لا يقوم على ساق واحدة كغيره لكن له أغصان كثيرة تخرج من أصل واحد، وشوكه غليظ حادّ قريب الشبه من ورق **حيّ العالم**

---

(17) الكُرّاث (بضم الكاف وتشديد الراء) نبات من الفصيلة الزنبقية، شبيه بالبصل، والكراث (بفتح الكاف وتخفيف الراء) من الشجر الكبار ينبث ببلاد العرب.

الأوسط، وزهره أصفر كزهر الأول، وأصوله كأصول **الخنثى** إلاّ أنها أرقّ وأطول، ولونها أبيض، ونباته الرمل بقرب الأنهار والبحر.

والرابع لاورق له وإنما هو شوك كالأول لا ساق له مرتفعة، وإنما هي أغصان كثيرة قصار تخرج من أصل واحد، وهو متدوح كقبة شوك فرغت في موضع من الأرض، ولونها بين الخضرة والغبرة في خضرة ورق **الكرنب**، وأغصانها ممتدة، ولونها أحمر كاللكّ أو الفرفير، وفيه عطرية. وهذا النوع هو **الدارشيشعان**، ورأيته كثيراً بناحية **شلب** وبجهة تارتله وبجبال **الجزيرة الخضراء**.

والخامس له ورق دقيق جداً بين أضعاف الشوك، وشوك حادّ دقيق، كثيف، وله ساق في غلظ الساعد تعلو نحو القعدة، خشبية، صلبة، معرقة، لون خارجها أصفر وداخلها أحمر، عَطرة الرائحة، في أعلاها جُمَّة متدوحة من ورق شبه ورق **الكَتَم**، وهو أطول من ورق **حي العالم** الأوسط، وأطرافها حادة، مشوكة، وزهرها أصفر ذهبي بين أضعاف الشوك، وله خراريب صغار فيها ثلاث حبات لاطئة، صُفر، ونباته بالجبال المكلّلة بالشجر، ورأيت هذا النوع بجبال **الجزيرة الخضراء** وبناحية **جيان**، ولخشب هذا النوع فوح طيب عجيب، والناس يزعمون أن **قوس قزح** يقع على هذا النبات وعلى نوع من **الرَّتم** الأسود، ومن أجل ذلك يفوح، وهذا عندي من كلام العوام. وذكر **الجولق ديسقوريدس** وجالينوس، ويسمى باليونانية **اصعالانوس** وبالفارسية **الدار شيشعان**، وبالسريانية **بلسذيان وقسقابن**، وبالعجمية **بلاقة، وأزاوند**، وبالعربية **جولق**، ويسمى **شوكة رهاوية وقندول**، وهو معروف عندَ الناس.

5 ــ حنطة

يقع [هذا الاسم] على **القمح والشعير والسلت والخندروس** بأنواعه. **والقمح** : **البرُّ**، وهو أنواع :

منه **اللطرجالي**، وهو حبّ أصفر قصير مُحدودب، يصنع منه السميد والدَّرْمَك.

ومنه **الزوبري**، ولهذا النوع قصب بازغ كقصب **الشعير** وغلف كغلف **العدس** وزغب يميل إلى الحمرة، حَبُّه قصير غليظ محدودب.

ومنه **الزيون** لون حبّه وسنبله مائل إلى الحمرة، ولذلك سمي بهذا الإسم، وحبه على خلقة **اللطرجال**، وزرعه إذا يبس يندرس بأهون سعي.

ومنه **النقرون**، حبّه قصير غليظ جداً، وهو أغلظ أنواع الحنطة حباً، فيه حروشة، وأطراف سنابله سود.

ومنه **الأركه**، أسمر الحبّ، هذا النوع يزرع عندنا بناحية **شذونه**، ومن هذا النوع يُستخرج الدهن لا من غيره، ويعرف عندنا **بالشذوني**، قصير الحب، أسمر، رقيق، فيه ملاسة، وكذلك يأتي منه الخبز أسمر.

ومنه **ذنب الجمل** وهو **الشمرة**، حبّه طويل كالدود الكائنة في الحنطة، وهو أشدّ صفرة من غيره وكأنه قد دُهِنَ بِدُهْنٍ لصفائه، وليس في أنواع القمح أطول حباً منه ولاأصفى لوناً، وسنابله في طول شبر وأكثر، ولذلك سمي **ذنب الجمل**.

ومنه **الصيني**، له حبّ صغير قصير جداً إلى البياض، وليس في أنواع البرّ أصغر حباً منه ولا أدقّ ولا أزكى منه في الزريعة.

ذكر الحنطة ديسقوريدس وجالينوس، ويسمى باليونانية **رفوري**، **وربوري**، وبالفارسية **بيرس** وبالعجمية **برطردقه** وسبيره وجبيره ــ أي لاشيء يقوم في الشبع مقامه ــ وبالبربرية **انردن**، وباللطينية **برمانتي**، وبالسريانية **قمح** وبالعربية البُرّ والفوم والثوم وبالرومية **شطار**.

ومن نوع الحنطة **السلت** ــ وهو الحنطة الفارسية ــ ذكره ديسقوريدس وجالينوس، ويسمى باليونانية **طراغيس**، وبالفارسية بِنجه (بكسر الباء وإسكان النون) لا **بَنجه** بفتح الباء وكسر النون، وتفسير بنجه **الشعير العاري** وبالسريانية **سلطاري**، ونباته معروف، ومنه مايزرع، ومالا يزرع.

ومن الحنطة **طرمش** القمح، وهو قمح دقيق الحبّ شبه **الأركة** شكلا ولوناً، إلا أنه أخضر وأدقّ، ويرجع حبه بعد زراعته من أربعين يوماً، وهو كثير بناحية شنترين، وقد جُلِبَ إلينا وزرع فأنجب، وقد وقفت عليه.

ومن الحنطة **قمح الصقالبة**، نوع من البرّ إلاّ أن له حبّا كبيراً قصيراً محدودباً سريع الانفراك، إذا قُلِيَ منه شيء في المقلى انفلق وظهر باطنه الأبيض فتراه أبرش لذلك، وهو كثير بناحية شرق الأندلس.

ومن الحنطة **الحنطة الرومية**،وهو **الخندروس** وهي الحنطة السذاب، وهو الشعير الرومي، وقال الإسكندراني : هو الكنيث [الكنبيث ؟]، وهو **الأشقاليا**، وهو **العلس**، ذكره ديسقوريدس وجالينوس، اسمه باليونانية **خندروس** وكندروس وكنجروس، وبالفارسية **راءا**، وبالسريانية **قرشادوقوتا**،وهو ذو الغلافين، وهو نوعان يزرعان ونوعان بريان لايزرعان، فأحد المزروعين أحمر ينقشر من غلفه سريعاً كما يصنع البُرّ، وهو كثير بوادي واره، والنوع الآخر وهو عندنا عسر التقميح لايتقشر إلا بعنف وجهد، وهما معروفان عند أهل الزراعة، **والبري** نوعان أيضاً، وهو **الدوسر**، فمنه جبلي وريفي.

ومن الحنطة **الشعير**، وأنواعه كثيرة، فمنه الأملس، والأحرش، وهو قصير الحبّ، ومنه شعير النبي — ﷺ — وهو حبّ قصير ينعزل عن قشره سريعاً، ومنه المعروف **بالطرمش**، وهو **الأشبطاله**، له سنبلة لاطئة فيها صفّان من الحبّ فقط، اسمه باليونانية **سطانيق**.

والشعير الفارسي له ستة صفوف من الحبّ، والشعير الرومي هو الاشقليا، وهي كلها معروفة. وذكر الشعير ديسقوريدس وجالينوس اسمه باليونانية **نوتا**، وبالعجمية **وربه وورسه وتمصين**، وبالعربية **الشعير** وباللطينية **أودؤم**.

ومن نوع الحنطة **الأرز**، وهو شبه نبات الحنطة إلاّ أن ورقه بين الخضرة والصفرة، فإذا طلع نحو ذراع كان شكلُ نباته كشكل نبات **الدُّخن** سواء في جميع أحواله، وله سنابل متدلية كسنابل **الدُّخن**، وحب في غلف مفرطخة مدورة الطرفين، عسر التقميح، لايتقمح إلاّ بالدق العنيف، وهوعمل السقي والعمارة. ذكره ديسقوريدس في ح، اسمه باليونانية **أوريزا**، وهي الحنطة الحبشية.

ومن نوع الحنطة وصنف الشعير **الخرطال** بنوعيه، وهو من جنس **راءا** ومن نوع الحبّ الذي له غلافان، ونباته يشبه نبات **الخابور**، ذكره ديسقوريدس وجالينوس، وبالجملة فإن نباته يشبه نبات **الشيلم** سواء، وله ساق غليظة وأنابيب طوال تعلو نحو القامة في أعلاه سنابل كسنابل **الدخن** إلاّ أنها أطول، متفرقة الحبّ، وحبّه في غلف مقسومة يشبه **البُرّ** إلاّ أنه أصغر وأرقّ، وهو ضاو. واسمه باليونانية **برومس**، وبالسريانية **قرطمان** وبالعجمية **إينه**، وبالبربرية **أسقّول** وبالعربية **خرطال**، وهو نوعان : دقيق وجليل ويسمى بروميقون.

6 ـــ شبث

من جنس الهَدبات، ومن نوع البقل، ومن ذوي الجُمم[17]، وهو نوعان : أحدهما له ورق مهدب طويل الهدب، سبط، خضرته إلى الغبرة، وله ساق ملساء مجوفة يبدو في ظاهرها تعريق، تعلو نحو القعدة، وله أغصان رقاق قصار في أطرافها أكاليل كأنها جُمَم عليها زهرٌ أصفر يخلفه بزر دقيق بين الصفرة والسواد يشبه بزر البسناج الأملس، وله عرق أبيض غائر في الأرض.

والنوع الآخر مثل هذا سواء إلاّ في البزر، فإن بزر هذا عدسي الشكل، أصغر من القُراد، فيه تعريق ظاهر، لونها بين الخضرة والصفرة. وهذا النوع كثير **بطليطلة**، وقد وقفت عليهما جميعاً، وهذا النوع إذا فُرِك بزره أدى رائحة **الكرويا**، وقد غلط فيه قوم أن جعلوه **القردمانا** لِما ذكرناه، وليس بها.

وذكر **الشِّبث** ديسقوريدس وجالينوس، ويسمى باليونانية **أنيتون**، وبالعجمية **أنيطُه**، وبالسريانية **أنيطون**، وبالبربرية **آسْليلي**، وبالعربية **شبث**.

7 ـــ قَـرع

القرع من اليقطين[18]، واليقطين كلّ نبات لا ساق له **كالحنظل والقثّاء والقرع والخيار والدُّلاَّع**.

ومنه بري وبستاني، فالبري هو**الفشري** وهي **الكرمة البيضاء**، والبستاني أنواع كثيرة كلها تزدرع، فمنه **العناني**، له ثمر طويل رقيق أملس، وهو كثير بقرطبة واشبيلية، ومنه **الصقلي**، وهو **الغرناطي** أيضا، قرع طوله ذراع، معرق، مخروط الشكل ـــ أعني أن طرفه الواحد أغلظ من الآخر ـــ شديد البياض، كثير اللحم، عذب المذاق، وهو كثير بغرناطة، ومنه نوع آخر يعرف **بالمعناق** شكله شكل

---

(17) يقصد المؤلف بذوي الجُمم أجناس الفصيلة التي تسمى اليوم بالفصيلة الخيمية، ويندرج تحتها البسباس والشبث والمعدونس والكمون والكرويا والانيسون وغيرها، والاسم العلمي اللاثيني لهذه الفصيلة Umbelliferae

(18) يقصد المؤلف باليقطين مايسمى اليوم بالفصيلة القرعية Cucurbitaceae ويدخل فيها القرع والبطيخ والدباء وغيرها.

البطيخ السكري المعروف بالعقابي، وهو قرع له جثة مدحرجة الشكل لها عنق طويل رقيق كالكوز الذي يجعل فيه الزيت ويستعمله البقالون للخل، ومنه نوع آخر يعرف **بالمرسي وبالمصاوري**، لأنه على شكل مصورة، فيه تفرطح قليل، يُجْعل له عنق ومقابض فتأتي على شكل البَهطّ، ومنه نوع آخر يعرف **بالجراري**، سمي بذلك لأنه يشبه الجرة المعروفة عندنا بالبراني، ومنه نوع آخر يعرف **بالنجاصي**، لأنه على شكل ثمر **الكمثري**.

8 ـــ كرمة بيضاء

من جِنْس اللبلاب، ورقه كورق **الكرم** شكلاً إلا أنها ألْين وأصغر، ولا يَبْعد شبهها من وَرق **القثاء**، ولها أذرع كأذرع القَرع، إلاّ أنها أرقّ، تتعلّق بما قرب منها من النبات، وزهرها دقيق مشرَّف أبيض يخلفه حبّ في قدر **الحمّص** يشبه حبّ العنب، فإذا نضج احمرّ، وهو مثل العناقيد، مجتمعة، يستعملها الدباغون في حلق شعر الجلود، وله أصل في قدر ثمر **القرع** كأنه فجلة عظيمة، وقد يعظم حتى يكون كفخذ الإنسان، أبيض، في صلابة أصل **الفجل**، ذكره (د) و (ج)، ويسمى (ي) **أبراغوز**، (فس) **هزار حَسّان** (عج) **أبزالّه** ـــ أي قريعة ـــ وبعضهم يسميه طنه، ويسمى (بر) تازّرت (بتشديد الزاي) وبالعربية **اللّوف** وبعض المفسرين يسميها **حماض الارنب** وهو الصحيح ـــ ويسمى القريعة البرية، وبالسريانية **البشرى** ويسمى **الكشوت الرومي**، وهذا الإسم يقع على نبات آخر، وهو **الرشكة أيضا**، وبعجمية الثغر **أبلاّش** أي عنبية، وبعض العجم يسميها **أبيالش لوقي** وبعضهم يقول أغريا ـــ ومعنى لوقي : أبيض، وأغريا : بري، ويسمى بوسطافولون وميلومون وأغروسطن وبربوليا، ويسمى بجليقية رابنُه غليسكه ـــ أي فجل جليقي ـــ ويسمى حالق الشعر، ويسمى حبُّه عند بعض الأطباء **عنب الحية**.

9 ـــ كرمة حمراء

من جنس اللّبلاب ومن نوع الجنبة، له ورق كورق **القسّوس** شكلاً إلاّ أنه ألين وأرطب وأعظم، وهي ذات ثلاث زوايا وفيه ملاسة، وخضرتها مائلة إلى الصفرة، وتخرج من أصله خيطان معرّقة مدورة تتعلّق بالشجر، وزهره أبيض دقيق

كزهر **الظيان** شكلاً، إلاّ أنّه أصغر، وثمُره في عناقيد صغار، خضر، في قدر الحمص، فإذا نضج احمرّ، وله أصل أبيض الباطن أغبر الخارج، مائل إلى السواد، مملوء رطوبة تدْبق باليد كالشحم رطوبةً ولدونة. منابته الجبال والمواضع المظللة والغياض. ذكره (د) و (ج)، ويسمى باليونانية **قاشرشتين وسبيسداس وسبيسدار**، وبالفارسية **أقامون**، وبالعجمية **بوطانه**، وبالعربية **الكرمة الحمراء** وبالعجمية أبيالش وبرواوينا وبروينا، وعن بعض الأطباء **إنه البهمن الأحمر** وهو غلط.

10 ــ مــوز

مَوْز، ومُوزْ، والصواب مزّ، هو من جنس الشجر الخوار، له ورق كورق **القُلْقاص** إلا أنه أطول وأشد ملاسة على شكل التروس الديلمية، باطنها أخضر إلى الصفرة، وظاهرها أشدّخضرة، وكأن فيها آثارا بيضاً، وله ساق كساق النخلة شكلاً إلاّ أنها رخوة، ولها ليف كليف النخل تعلو مثل الراية، ولها زَهر أزرق ناقوسي الشكل يظهر في زمن الربيع ويثمر ثمراً على شكل **القثاء** الصغار ينقسم ثلاثة أقسام بعد أن يعفن القشر الذي عليها، وهو لاينضج سريعاً، فإذا قُطف ترِك في أزيار مغموماً حتى يأخذ في النضج، وهذا الشجر بمنزلة أب وبنين، لأنها تقوم حول أصلها فراخ صغار، فلا تزال تعظم حتى تثمر فإذا بدأت تثمر انحطم الأب، ويقطع من أصله إذ لاخير فيه، ثم يثمر الإبن ويصير كأب لما يقوم من أصله ولايثمر الفرع منه إلا عاماً واحداً، أخبرني بذلك ابن بصّال. وهذا الشجر كثير عندنا بمالقة وقرطبة، ومن حين يبدأ نشوء الموزة إلى حين إثمارها ــ فيما حكاه أبو حنيفة ــ في بلاد العرب شهران وبين إطلاعها وإحرازها أربعون يوماً، وفي القنو منها من ثلاثين إلى خمسين، وإذا حَمَلت رُبِطت بالشرائط ليَلاً تتجفف.

11 ــ يبــروح

هو من جنس الألسن ومن نوع الجنبة، وهو ثلاثة أنواع : بستاني وبرِّيان.

فالبستاني ورقه كورق الخسّ في الشكل إلا أنه أطول وأعرض، ويفترش على وجه الأرض ويخرج من بينها شُعبٌ كثيرة في أطرافها زهر فرفيري يشبه زهر الزعفران يَخلفه ثمرٌ أعظم من الشاهلوك يشبه **الباذنجان** في الشكل، مشمشية اللون

كأنها لطخت بزعفران مذاب، وهي براقة في داخلها بزر عدسي الشكل، خشن، عطر الرائحة، يتخذ في البساتين لحمرة شجره وجمال منظره وطيب رائحة ثمره، ويُتهادى ثمره ويؤكل. وأراني هذا النوع (ابن بصال)، وأخبرني أنه جلب بزره من الشام وازدرعه بطليطلة فأنجب.

وأما **البري** فنوعان، منه ذَكر لايثمر وأنثى تُثمر، فالذكر ورقه كورق **السلق** إلا أن أطرافه محدّدة أطول من ورق السلق، وله أذرع بيض كثيرة تخرج من أصل واحد، مفترشة على الأرض، فيها ملاسة، تخرج من وسطها شُعب رقاق في طول أنملة، عليها زهر يشبه زهر **الزعفران** فما كان منه في المواضع الظليلة كان أبيض الزهر، وما كان في المواضع الشمسية كان فرفيرياً، وله أصل واحد سبط مصمت بين الحمرة والصفرة والبياض، عليها قشر غليظ مائل إلى الحمرة، غائر في الأرض **كالجزرة** الكبيرة، ويعرف هذا النوع في اليونانية **موروقون** ومورثون و (فس) **يبروح**، وبالرومية **مندراغورس** وبالعجمية **أرج بلطيه** (معناه سلق حار حريف) وبعجمية الثغر **لرجة بليطة** (أي أذن كبيرة). وبالبربرية **تانغيت و تاريالت**. ولاساق له البتة. وسمي ذكراً لوجهين أحدهما أن له أصلاً واحدا، والآخر أنه لايثمر، ويعرف بعشبة الكلب.

والنوع الآخر الأنثى ورقه كورق الخس إلا أنها أعرض وأطول وخضرتها مائلة إلى السواد، جعد كله، ينبسط على الأرض، وله زهر كزهر الأول على شُعبٍ كثيرة جداً، تخرج من موضع واحد في طول الأصبع، يظهر في أول الخريف وإن لم تنزل على الأرض قطرة ماء، تشقّ الأرض اليابسة ويخرج منها ذلك الزهر قبل خروج الورق، وقد يخرج مع الورق، وإنما نباته يكون بتغير الهواء من الحَر إلى البرد، يخلفه ثمر في قدر الزيتون الجليل يشبه **البادنجان** في الشكل، مشمشية اللون، عطرة الرائحة كرائحة البطيخ وأذكى، وكأن فيها شيئاً من رائحة الخمر، في داخلها بزر عدسي الشكل، دقيق، أبيض، فيه حروشة، تأكله الرعاة فيعرض لهم السبات، وله أصل ظاهر بين الحمرة والصفرة، وله شعبتان اثنتان أو ثلاث، وقد يكون أصل هذا النوع على شكل جثة إنسان له يدان ورجلان كجثة قائمة، وهذا يكون في الأغلب، ولذلك يسميه بعض الأطباء **اللعبة**، عن جالينوس. واللعبة هي البنات التي تلعب بها الأطفال، ويسمى هذا الأصل لما قلنا **العرسالّة** تصغير

عروسة، ويسمى هذا النبات بالخسي لشبه ورقه بورق الخس، ويسمى ثمره **اللفاح**، وأصله **اليبروح** وقشره **الشابيرد**، ذكره ديسقوريدوس وجالينوس، ويسمى باليونانية**مندراغوس موريوش** أي الأسود، والعجم تقول عن التوت الأسود موراس براقوش أي الخسي، وبالرومية **سوخيلن**، وبالعجمية **أرج أبليطه**، وبالعربية **المغد**، و(فس) أبطيموطس وباللطينية **قرقا ودرقا**، ويسمى **شابروح**، ويسمى ثمره **تفاح الجن** وفاكهة الغراب لأنه يأكلها كثيراً، وبالبربرية **تاريال**، ويسمى **بزره حبّ الإلب**، لشبه فعله بالإلب، والإلب غير هذا. ويسمى حبه حبّ التأليف، ويسمى ثمره في بعض المدن **البطخياله** لشبه صفرتها بصفرة البطيخ، ورائحته كرائحته، ويقع بطخياله على نبات آخر.

قال ديسقوريدس : زعم قوم أن من اليبروح نوعاً آخر ينبت في الدِمَن والمقابر والمواضع الظليلة، له ورق كورق اليبروح إلا أنها مائلة إلى البياض، وأطرافها إلى التدوير، يفترش على الأرض، وفي طول الورقة قدر شبر، ولا ساق له، وله أصل في غلظ الإبهام أبيض طول شبرين، ويسمى باليونانية **آلوريوش**، معناه آذان، الواحد أرنه أي أذن.

أمثلة من تفسير ألفاظ اللغة

أُشنان : اسمٌ يقع على كل ما يُجعل في الأشانين، وهي آنية تُصنع من الصُّفر يُجعل فيها النُّقاوَى وكل ما تُجْلَى به اليدان من الدَّسم وغيره، فسُميت الآنية باسمه، وهو ضَرب من **الحَمض**، وهو جنسٌ لما تحته.

بُرشون (بضم الباء ويروى بفتحها وبالميم) : أبكر النخل، قال **الأصمعي** : ويسمى أيضا **الشقمة**، وأهل نجد يسمونه العرف والمعجال.

بارَضَ الزرع : إذا ظهر نباته، وأول ما يكون بذرا ثم بارضاً.

بذر : نبات الزرع أول ما يخرج من الأرض، والبذر أيضا كل ما أُعدَّ للزريعة في الأرض.

باكور : كل ما أسرع إدراكه من الثمر والنبات، ويسمى المعجال أيضا، وأكثر مايوقعه الناس على بكّير التين، ويسمى **الفخيث والوخيص**.

بَعل : كل زرع أو شجر لايسقى.

بَغْو : كلُّ ثمرة غضَّة خضراء صغيرة لم تطعم.

بَقل : كل نبات ينبت من بزره لا من أرومته الباقية تحت الأرض. فكل ما يزرع من بزره وينحطم فرعه وأصله من عامه فهو بقل، ومالم يزرع فهو **جنبة**.

جنبة : ماكان من النبات جنباً عن البقل وعن الشجر، وينبت من أرومته في العام المقبل.

جِل (بكسر الجيم) : قصب الزرع مالم ينكسر، فإذا انكسر فهو تِبن.

جَثم الزرع : إذا طال نباته.

جميم : إذا ارتفع العشب في أول نباته حتى يصير كأنه الجُمم قيل جَمَّم النبات تجميماً.

جفيف : ما يبس من البقل.

حومر : كل ما احمرّ من النور فهو حومر.

حبرة (ج حبر) هي السلعة ـــ أعني العقدة التي تخرج في العود، وهي الأبنة أيضا فتقطع وتخرط منها الآنية فتكون موشاة حشنة.

حميل : حطام العشب إذا تقادم واسودّ.

حنّون : اسم لكل نَوْر ماخلا النور الأبيض فهو زهر.

خِطوة (بكسر الخاء وإسكان الطاء) : الغصن الناعم من الشجرة.

خَضِر : ما اخضرّ من النبات، ويقال **خضرة** أيضا، وهو من السّطاح. والخضرة كل ما اخضر من البقل وانبسط على الأرض، قال الله تعالى : ﴿فأخرجنا منه خضراً﴾، والخضرة : النبات الأخضر كلّه، والخضير : الخضرة أيضا.

خوصة : (ج خوص) : هي ليف النخل والدوم والنرجيل والقرم والكادي وما أشبه نبات النخلة، ويقال أيضا للقصب والبردي خوص، عن الرواة.

دويح : (جمع دويحة) : وهي كل شجرة لاتعظم، وتتسع.

دقون : قال أبو نصر : إذا اسودّ النبت من القدم **فهو الدقون**.

راءا : يقع على كلّ نبات يشبه الحنطة ويكون له غلافان كالدوسر والعدس والأرز والخرطال. [واللفظ من الدخيل].

رَتمه : كل نبات تكون أغصانه كالخيوط ينبسط على الأرض كنبات البخور أو شبهه ويكون قائما كالرتم وشبهه.

زغف (عن أبي حنيفة، ويروى بالراء) : هو أطراف الشجر الضعيف ويسمى أيضا **الرمث**، وقيل الزغف حطب العرفج، وهو ضريم لا جمر له.

زرع : يقع على ورق **الحنطة** وعلى الحنطة نفسها، ويقال في اللغة : إذا جُمع حبّ الحنطة في الأرض للزراعة سمي **بزرا**، وإذا بدأ يخرج وينبت سُمِّي **حقلاً** (جمع حقلة)، فإذا طلع قليلاً سمي سمراً، وإذا طلع أكثر من ذلك سمي مجثما، فإذا انتهى وسنبل سمي زرعاً.

سطّاح (الواحدة سطَّاحة) : كل نبات يفترش على الأرض ولايقوم على ساق البتة فهو سطَّاح، ولا ينبت إلاّ في السّهل **كلسان الفرس وظفر الفرس والدُلاَّع والقِثاء والدُّباء** وشبه ذلك.

سفا : شوك مثل سنبل الحنطة وماكان من شكله من نبات غيره.

سنم : ماكان على أطراف النبات بمنزلة سنبل القصب ومكاسحه.

سِنفة (ج سنف) : هي الخرائط التي يكون فيها البزر كخراريب الترمس واللوبيا والباقلي.

سُلاّء : شوك النخل.

سنبل : اسم يقع على سنابل الزرع وغيره من النبات مما له سنابل من ضروب المرعى وغيره.

شعابيب : خيوط الكرم وخيوط اللوبيا والقرع وشبهها مما له من النبات خيوط.

شعبة : غصن كل نابتة.

شَعْراء (وشعارى) : الشجر الكثيف الملتفُّ يكون في موضع واحد، ومنه يقال أرض مشعَّرة أي كثيرة الشعر، فإذا لم يكن بها شجر سميت جلحاء.

شرس : ما صغر شوكه من النبات وكثر حتى لايكاد أحد أن يلمسه.

شطء : فراخ الزرع إذا تولد.

شكير : مانبت من الأغصان في القضبان الرطبة اللينة وغيرها، ويقال لصغير النبت **شكير** أيضا.

شظيف : الشجر الذي لم يأخذ ريه من المطر فخشن بذلك.

شجر : يقع على الشجر العظيم والتمنس والجنبة، وبالجملة ماقام على ساق بقلاً كان أو غيره، صغيراً كان أو كبيراً، والأشهر به الشجر العظام، ومنه كبير كالجوز والحور، ومتوسط كالخوخ والتفاح، وصغير كالجولق والافسنتين، ويسمى هذا النوع عند اليونانيين **تمنس**، ومعناه المتوسط بين الشجر والبقل، لأن من البقل ما له ساق ويسمى شجراً، ويسمى **الحبك** ويسمى الشجر **الدندان**، ويسمى القشر **القِرف** والنجب، وتسمى الشجرة التي لاورق لها ولا تظل شيئاً **العشّة** من أي الشجر كان، ويقال للتي لاظل لها **ضاحية وضحيانة**، والدوحة الشجرة العظيمة الطويلة الأغصان المظلة.

شياع : هو كل ماكان من الحطب لاضرم له ولاجمر له باق، ولا يكون إلا من التمنس والبقل.

صريع هو ما سقط من أغصان الشجر على الأرض فيصيبه التراب ويداس بالأقدام، فذلك هو **الصريع**، ويقال **صريع** للجنتورية — عن أبي حنيفة — سميت بذلك لسقوط زهرها سريعا.

عشة : هي الشجرة التي لاورق لها.

عِضاه : (جمع عضة) : وهو كل شجر فيه شوك، وهو أطول من القامة.

عَنم : (ج عنمة) : الخيوط التي تتعلق بها قضبان الكرم في تعاريشه.

عيشوم : ماهاج من نبات الحماض ويبس قبل بلوغه.

عسيب : جريد النخلة من حيث تتشعب الشماريخ، وهي السعفة أيضا.

عَجم : يقال لنوى الزبيب والعنب.

عدامس : ماكثر من الكلإ بمكان واحد.

عجرد : الشجر العاري من ورقه.

عطب : القطن المنفوش.

عسلوج : (ج عساليج) يقع على كل مايؤكل من سوق البقل وعلى نوعين من **الكلخ** وصنفين من **الكاشم**.

عود :اسم مشترك يقع على كل خشب وكل غصن وكل أصل خشبي وعلى عود **المجمر** وهو اسمُ عَلَمٍ له فيقال : عود نيء وعود صرف وعود خام وعود مُطَرّي وعود المجمر.

غِرقِد (بكسر الغين) : هو الناعم من كل نبات.

غَرقَد (بفتح الغين والقاف) : ماعظم من شجر العَوسج، ويروى بالعين غير المعجمة.

غيضة : مجتمع أي شجر كان.

غُلُف : أكِنَّة النبت وأخبيته.

غملوج : هو الغضّ الناعم من كل نبات.

غلقَه : (بفتح اللام) : يقع على مجتمع الشجر لاسيما من **الزيتون والبلّوط والشاهبلوط**.

غلث : كل ماكان من النبات ليس ببقل ولا حمض ولا يرعاه حيوان، **كالعشرق والسنا والأسل والحلفاء واللوف والدفلى**.

فسيل : ذكر النخل الذي يُذَكَّر به، وهو دون النخل في الطول، والفسيل أيضا فراخ النخل الصّغار منها.

فحال : كل شجر يُذَكَّر بثمره شجرٌ آخر، ومنه فحال النخل بمنزلة الذكار لشجر **التين** عندنا.

فرخ : يقال للزرع مادام في البذر حبّ، فإذا انشقت عنه الأرض وبدأ خروجه قيل له **فرخ**، فإذا طلع قليلاً قيل له **حقل**.

فاغية : زهر كل نبات، **والفغو** : الزهر الطيب الريح، وأكثر ما يستعمل في زهر**الحِنَّاء** فيقال **فاغية**.

قطمير : قشرُ نوى التمر، أبيض رقيق.

قَنْد : ما جَمُد من عصارة قصب السكر دون تدبير، وكذلك يسمى **نبات الجُلاَّب** لأنه سكر مُقنَّد، أي منعقد.

طوط : هو القطن الموجود في أنابيب القصب الفارسي، ويسمى الشيء الموجود أيضا بقرب العُقد في القصب الفارسي **البيلم** وكذلك يسمّى الشيء الموجود في داخل البردية.

طُحلب : يقع على كل خضرة تعلو الماء الدائم، وعلى الحجارة الندية، وهو نبات يتكون على الماء الراكد.

نُضار : كل شجر يُتَّخذ منه آنية وقصاع فهو نضار.

ظفيرة : شيء يتكون على الحجارة الندية **كالارجالة، في** قدر الترمس.

كَمّ (بفتح الكاف) : غطاء كل نَوْر، وهي البراعم أيضا، وهي أخبية النور، وهي الأكمام.

لفاع : أبو حنيفة : هو كل بقل ناعم يكون من العشب بقدر ما يكون بارضاً.

لُوَي : كل ما يلتوي من النبات على الشجر.

لَثى : حليبٌ يخرج من سوق الشجر من زمن الشتاء.

لباس : هو المرعى الدقيق الذي لاتقدر البهيمة عليه إلا بالأضراس لدقته من أي عشب كان.

لبن العشر : هو لبن **الشُّبْرم** (من كتاب اسحاق) والعشر غيره.

لِنْجين : هو الإرجالة. [وهو خرز الصخور]

لَقَط (بفتح اللاّم والقاف) : ما انتثر من ثمر كل شجر، وهو السنبل الذي تحطبه المناجل عند الحصاد.

مِعلاق : هو البجون من الورق ومن الثمر، ويسمى الأهان.

نُقاوى : يقع على كل ما تُجلى به اليد عند الغسل مثل الحمض وسائر الأشانين.

نَوْر : هو الزهر والورد والبَهار، وتناويره وأنواره ونوره كلها الزهر، لكن يقال زهر للنوْر الأبيض، ولغير الأبيض نَوْر من أيّ لون كان.

هَدَب (بفتح الدال) : كل ورق غير مستعرض كورق **الأثل والطرفاء والسّرو** مأخوذ من هدب الثوب وهدب العين.

وَقْل : يقع على يبيس **المُقل**، ويسمى رطبه **البهش**، ويقال للمقل الذي هو حمل الدّوم : **الحشل**.

وهف : اهتزاز النبات وشدة خضرته.

وقْد : حمل كل شجرة.

يراع (ج يراعة) : القصب المجوف.

يقطين : كل نبات لايقوم على ساق وإنما يمتد على الأرض حبالاً.

وجه من الثغر الأعلى
عبد الله ابن قاسم الثغري[1]

محمد ابن شريفة

أودّ في بداية عرضي أن أتقدم بخالص التهنئة وجزيل الشكر إلى إدارة «المعهد الغربي للثقافة الإسلامية» على تنظيم هذه «الأيام الثقافية الإسلامية» ودعوتهم إيانا للإسهام في هذه التظاهرة العلمية المفيدة التي تعقد في تروال هذه البلدة الجميلة الأصلية التي يذكرنا اسمها ببلدة تروال المغربية، وما هي إلاّ واحدة من أسماء أخرى تذكرنا بماضي المغاربة في هذا الإقليم الذي كان مجرّ عواليهم ومجرى سوابقهم، وماتزال مدينة بني رزين Albarracin شاهدة بما كان لهذه الأسرة المغربية من بأو في الهمّة وشأو في المدنيّة.

إن انعقاد هذه الأيام الثقافية الاسلامية في أرض أرغون التي كانت تدعى بالثغر الأعلى في العهد الإسلامي لهو ذو دلالة كبيرة وهي تتجلى في أن استذكار تاريخ الإسلام واستحضار حضارته الزاهية في اسبانيا هذه الأيام ليس مقصورا على سكان ما يعرف حاليا بالأندلس، وإنما هو اهتمام يشترك فيه جميع الذين عاش الإسلام زمنا على أرضهم في شبه الجزيرة الإيبيرية، وهذا ما نراه بوضوح في المناسبات والندوات العديدة التي تمت خلال السنوات الأخيرة، وهي مناسبات يتجاوب فيها الفكر الإسباني مع الفكر العربي، ويتواشج بها الماضي بالحاضر، وإني

---

(1) عرض ألقي خلال «الأيام الثقافية الاسلامية»، المنعقدة في مدينة تروال باسبانيا من 22 شتنبر الى 25 منه 1988.

ــ كواحد ممن شاركوا في عدد من هذه الندوات ــ أحيي بحرارة هذه الظاهرة الإيجابية.

وبما أن مدار الحديث في هذه الأيام الثقافية الإسلامية بمدينة تروال على تاريخ أرغون الإسلامي، فسيكون موضوع عرضي متصلا بهذا المحور العام، وقد وقع اختياري على شخصية من شخصيات الثغر الأعلى هي شخصية عبد الله ابن قاسم الثغري الذي يذكر كلما ذكر الثغر، ولا تنصرف نسبة الثغري بإطلاق إلا إليه، وآية ذلك أن ياقوت كتب تحت مادة ثغر الأندلس في معجمه ما نصه : «وأما ثغر الأندلس فينسب إليه أبو محمد عبد الله بن محمد بن القاسم بن حزم بن خلف الثغري».

ولم يكن هذا الثغري وجها متميّزا من وجوه الثغر الأعلى في القرن الرابع الهجري أو علما من أبرز الاعلام الذين أنجبتهم مدينة قلعة أيوب فحسب، ولكنه يكاد يكون أغرب شخصية في تاريخ الثغر الأعلى، فقد جمع بين السيف، والقلم اجتمعت لديه أدوات الفارس وأدوات الفقيه، فكان المعول عليه في بلده لفك حصار أو صدّ عدوان، كما كان المرجع إليه في طلب العلم من جميع نواحي الثغر، وقد وصف في شجاعته بأنه كان يقف وحده للفئة، ويهزم بمفرده الكتيبة، ورويت في فروسيته أخبار تلحقه بالفرسان، الذين سارت بذكرهم الركبان، وكان الى فروسيته وعلمه آية في الزهد والورع والعبادة، قال فيه معاصروه ومنهم المؤرخ المحدث ابن الفرضي : «ماكنّا نشبّهه إلاّ بسفيان الثوري في زمانه»(2)، ووصفه الفقيه المحدث القاضي ابن مفرّج بأنه كان «ذا علم بارع وعمل صالح وورع صادق واجتهاد لازم وصلاح تام» وأنه «لا يشبّه إلاّ بالصدر الأول من هذه الأمة»(3). وقد أضاف إلى هذا كله صراحة في الرأي وصرامة في الموقف وصلابة في الحق، ولم يكن يخاف في الله لومة لائم، وباختصار فقد كان نمطا من رجال

(2) تاريخ العلماء، 1 : 245.

(3) اقتباس الأنوار للرشاطي (مخطوط) وابن مفرج أبو عبد الله محمد بن أحمد كان من أعلم أهل الأندلس بالحديث وأقومهم عليه وأوثقهم فيه، ت. 380هـ. وترجمته في ابن الفرضي، 2 : 91 ــ 92، و«جذوة المقتبس» 38، و«ترتيب المدارك» 6 : 143.

كانوا عماد الإسلام في الثغر الأعلى ونموذجا لأولئك الثغريين الذين كانوا يرابطون فيه.

وردت ترجمة أبي محمّد عبد الله بن محمد بن القاسم بن حزم بن خلف الثغري القلعي في المصادر التالية :

— تاريخ العلماء لابن الفرضي 1 : 285 — 286.
— جذوة المقتبس للحميدي ورقم الترجمة 537.
— بغية الملتمس للضبّي : 321 رقم الترجمة 886.
— ترتيب المدارك للقاضي عياض 7 : 24 — 27.
— اقتباس الأنوار للرشاطي (مادة البطريولي — كذا —).
— معجم البلدان لياقوت (مادة ثغر الأندلس).
— معجم البلدان لياقوت (مادة قلعة أيوب).

وجاءت بعض أخباره في المصادر التالية :

— المقتبس لابن حيان (تحقيق الحجي).
— اقتباس الأنوار للرشاطي (مادة البطريولي — كذا —) مخطوط.
— شرح ابن زاكور على قلائد العقيان (مخطوط).

وفي المصدرين الأخيرين حكاية من حكايات بطولة الرجل وشجاعته، وأحب أن أسوق نصها وأنطلق منها الى تفصيل القول في حياته وشخصيته.

أما الرشاطي فقد أورد الحكاية بعد تعريف ببطلها، وساقها في سياق التدليل على ما يروى من شجاعته الخارقة للعادة، وقد مهّد لها بقوله : «فمن ذلك ما حدّث به عنه الرجل من قلعة أيوب من جيرانه».

وأما ابن زاكور فقد عرض لها عند شرحه فقرة من رسالة لأبي عبد الرحمان محمد بن طاهر كتب بها الى المعتصم يصف العدوّ العائث بجزيرة الأندلس هي : «وذلك أنّ فِرْديناند وقمه الله نزل على قلعة أيوب محاصرا لمن فيها، ومغيرا على نواحيها بجموع يضيق عنها الفضاء، وتتساقط لملاحظتها الأعضاء»[4].

(4) «قلائد العقيان» 58.

قال ابن زاكور : «قلعة أيوب هي من الثغر الأعلى، ولم تزل مطمعا للعدوّ على قديم الزمان من أيام الخلائف بني مروان، وكان يكيّف الله تعالى لأهلها النصر على من نزل بهم».

ثم أورد الحكاية كما يلي : «فمن عجيب ما جرى لهم إذ ذاك أن الطاغية ابن شنجة صاحب البشكنس[5] نزل عليهم بجمع كبير، وأحدق بمدينتهم، فهالهم ذلك، وسقط في يد أميرهم إذ ذاك، وهو أبو العاصي التجيبي الملقب بالشّويرب[6]، فأحجم عن لقائه، وجمع وجوه أهل العلم والرأي بالبلد فشاورهم في الخروج لدفاعه أو الاحتجاز عنه بالحصن [والاقتصار على ضبطه][7]، فأجمعوا على عدم الخروج[8]. وكان الفقيه أبو محمد عبد الله بن محمد بن قاسم البطريولي ــ كذا ــ[9] معهم، فنظر إليه الأمير ساكتا [لا يقول بقولهم]، فقال له : تكلم يا أبا محمد فليس يسعك السكوت في مثل هذه النازلة وألح عليه، فقال : يحتاج الكلام في هذا إلى مقدمة نُصحٍ نُعدّها : قال له : وما هي ؟ قال : أن تمتحن كم عدد عدونا، وكم عددنا ؟ قال : قد فعلت ذلك وأحكمت علمه، قال له : فكم هم وكم نحن ؟ قال : هم [في] ستة آلاف، ونحن شطرهم ثلاثة آلاف، قال : فقد وجب علينا الخروج اليهم وقتالهم بحكم التنزيل، يقول الله تعالى : «فإن تكن منكم مائة صابرة يغلبون مائتين، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله» الآية.

[قال] فنظر الناس بعضهم الى بعض وسكتوا. قال صاحب الحكاية : فلم نشك أنهم لم يرضوا قوله، ولا صوّبوا رأيه. فقال : أيها الأمير، فلو كنا موازين لعدد القوم، هل كنت تخرج إليهم ؟ قال : إي والله، ولو كنا مثل ثُلثيهم. فقال له : فأنا أجمع لك الساعة عسكرا يوازي عدّتهم، ويكون مثلهم، فقال له : ومن

(5) هي بلاد الباسك.

(6) أسماء ولاة قلعة أيوب من التجيبيين وأخبارهم في «المقتبس» لابن حيان و«الجمهرة» لابن حزم و«ترصيع الأخبار» للعذري و«البيان» لابن عذارى.

(7) زيادة في «اقتباس الأنوار».

(8) في الاقتباس : فأجمعوا له على الأخرى.

(9) تعرضت هذه النسبة لأشكال مختلفة من التحريف في نسخ «المدارك» و«شرح القلائد».

أين تجيء بهم ؟ قال : فإنهم حضور بعون الله، هل تقوم أصلحك الله، بألف فارس منهم ؟ قال : لاو الله ما أتعاطى هذا، ولا أنا ها هنا، قال : فتقوم بخمسمائة فارس ؟ قال : لا، ولا هذا، فثلاثمائة فارس ؟ قال : لا، ولا ذلك، قال : فبمائتي فارس ؟ لا، ولا هذا. قال : فتقوم بمائة فارس ؟ قال : أما هذا فنعم والله، أنا أقاتل منهم مائة فارس ولا أهابهم. فقال له : الحمد لله الذي شرح صدرك، وأشار الى بعض من حضرهم من أبطال المسلمين الفضلاء فقال : وهذا فلان يقوم بألف فارس، أبا فلان ! أتفي بضماني وتواسيني اليوم بصدق صبرك، وتُقْدم على ألف من هؤلاء الكفرة ؟ فقال له : نعم ان شاء الله. فقال أبو محمد، وأنا إنشاء الله أقوم مقام ألفي فارس. فقال له الأمير : ماذا تقول أبا محمد ؟ وفي الناس من يدعي هذا ؟ قال : أنا أدعيه بقوة الله وعزّة الاسلام، وإن لم أوفّ بذلك وأبل في الله بلاء جميلا، فلا قبل الله منّي صرفا ولا عدلا، قال : فألقى الله الحميّة في نفس الأمير أبي العاصي، ووثب من فوره وقال :

بسم الله الرحمان الرحيم، معاشر المسلمين، من هنا الى الله ! اركبوا على اسم الله ! فاحتمى المسلمون واشتدت نحائزهم، وأمر بفتح الباب، فخرج على العدو وأنشب معهم القتال، وتقدمه الفقيه أبو محمد على فرس له أنثى، وأكب على جمع العدو [وتعجر فيهم طعنا وضربا فشلهم شلا] وقد ائتسى به أهل الحفاظ، فلم يقصروا عن الغاية. وأجمع من شهد اليوم أنه لم يكن فيهم من بلغ جدّ أبي محمد البطريولي — كذا —، ولا رأوا أحدا قط من بُهَم الرجال قد عمل عمله، ولم يكن إلا نحو ساعتين حتى ولّى العدو دبره، وتبعهم المسلمون يقتلونهم كيف شاءوا، فلولا حؤول اللّيل بينهم لاستأصلوهم، فأتوا الى بلدهم بنصر عزيز. وزعموا أن الفقيه أبا محمد انصرف في تلك الليلة الى منزله وقد انعقدت يده على رئاس سيفه، وتجمّد الدم عليه، فلم يقدر على إلقائه من يده، ولا استطاع فتحها حتى أدخل يده في الماء الفاتر ومرخت حتى لانت فانحلّت أصابعه على قائم السيف، وسقط من يده. وظلّ أهل قلعة أيّوب ثلاثة أيام يأتون بأسرى المشركين مقرنين في الحبال، إذا كان المشركون قد أطلقوا المغيرات في البلد يمينا وشمالا، فكانوا يرجعون الى معسكرهم ولا علم عندهم بما حدث عليه، فيتخطّفهم المسلمون كيف شاءوا. قد فتح الله عليهم فتحا لا كفاء له ببركة هذا الشيخ. انتهت الحكاية.

هذه هي الحكاية كما وردت عند الرّشاطي وابن زاكور ولفظها واحد في المصدرين، وإن كان قد أصابها محو وتلف في المصدر الأول، ويبدو أن ابن زاكور نقلها عن الرشاطي وإن لم يذكره.

وقد أشار القاضي عياض في المدارك إلى هذه الحكاية، وأوردها ملخّصة بشيء من الاختلاف نقلا عن القاضي أبي عمر أحمد بن محمد بن يحيى المعروف بابن الحذّاء الذي له كتاب في الرجال الذين لقيهم ينقل عنه ابن بشكوال وعياض وابن الأبار[10]، وهذا نص ما في المدارك :

قال ابن الحذّاء : «يذكر عنه أهل جهته في هذا الباب **مقامات مشهورة**، منها أن العدوّ قصد بلدهم في نحو ثلاثة آلاف فارس، وكان قائد القلعة شجاعا أيضا فاجتمعا، فقال له أبو محمد : معنا خمسمائة فارس، وأنت تعدّ بخمسمائة فارس، وأنا بخمسمائة فارس، فقد وجب علينا لقاؤهم بنصّ الكتاب، فأطاعه القائد وبرزوا اليهم فظهروا عليهم وانهزم العدو وتحكّموا فيهم قتلا وغنيمة بحسن ظنّ الشيخ».

وهذا كما نرى تلخيص للحكاية أو رواية لها باختصار، ويلاحظ الاختلاف في العدد بين الحكاية كما ذكرناها وبين ما في الملخّص، فعدد القوة المهاجمة في الحكاية ستة آلاف، وفي الملخص ثلاثة آلاف، والحكاية كما نرى ملحمية تمثل عنف الملاحم في ذلك الزمن الذي اشتدت فيه المواجهة بين أهل الثغر وجيرانهم، وهي بدون تاريخ، ولكن يمكن الوصول إلى شيء من ذلك من خلال الأعلام الوارد ذكرهم في الحكاية، وهم ثلاثة : أولهم ــ وهو بطل الحكاية ــ هو الشيخ أبو محمد عبد الله بن محمد بن قاسم، وسأعود إلى التعريف به فيما بعد. والثاني هو أمير قلعة أيوب الذي يرد اسمه في الحكاية هكذا : أبو العاصي التجيبي الملقب بالشويرب، والذي يصدق عليه هذا اللقب هو مطرّف بن منذر المنبوز بالشويرب كما في المقتبس لابن حيان (ج 5 ص 11). غير أن في هذا إشكالا لأن مطرّفا هذا قتل عام 325 هـ، ــ وكان بطل الحكاية عندئذ صبيا صغيرا عمره خمس سنوات كما سنرى ــ وأغلب الظن أن تحريفا أصاب الإسم في الحكاية وأرجّح

(10) «التكملة» 2 : 99.

أن يكون صوابه كالآتي : **العاصي الملقب بابن الشويرب**، والعاصي هذا الذي ينعت في المقتبس والجمهرة لابن حزم بالوزير هو العاصي بن حكم بن المنذر التّجيبي، فقد ولي إمارة قلعة أيوب من سنة 338 هـ واستمرّ على ولايتها إلى سنة 361 هـ[11] وهذا هو الأشبه أن تكون الحكاية وقعت في مدة حكمه.

والشخص الثالث في الحكاية هو المسمّى هكذا : «الطاغية صاحب البشكنس»، وشنجو أو سانشو اسم لعدد من ملوك البشكنس، ولكن الأنسب إلى جو الحكاية أنه «شانجه بن غرسية بن شانجه البشكنسي صاحب بنبلونة كما في المقتبس[12]»، فهو الذي كان يقود الحملات على مدن الثغر وحصونه في هذا التاريخ، ومنها حملته مع حلفائه على حصن غرماج من ثغور مدينة سالم، وهي الحملة التي واجهت فيها سنة 364 هـ، حامية الحصن الإسلامية ستين ألفا وقيل أكثر من ذلك من مختلف الممالك المسيحية، وكان فيها النصر الباهر لحماية الحصن عليهم تماما كما حدث في حكايتنا هذه[13]. وأرجع بعد هذا الى الشخصية المحورية في الحكاية وهي شخصية أبي محمد عبد الله بن محمد بن القاسم بن حزم بن خلف الثغري نسبة إلى الثغر الأعلى، وتحت مادة ثغر الأندلس ترجم به ياقوت في معجم البلدان، ويقال في نسبته أيضا القلعي نسبة الى قلعة أيوب، وقد عرّف به أيضا وبوالده لياقوت في معجم البلدان تحت مادة قلعة أيوب.

أما الرشاطي فعرّف بصاحبنا تحت النسبة التالية : البطرويري أو البطروبري[14] وقال نقلا عن أبي عمر ابن الحذّاء انها نسبة الى قرية من قرى قلعة أيوب تقع على وادي شلوقة (Rio Jiloca) وقد تعرضت هذه النسبة الى تحريفات متعددة في نسخ مدارك القاضي ونسخ شرح القلائد لابن زاكور، وورد اسمها في المقتبس لابن حيان هكذا : البطريولي[15]، بينما تكرّر ذكرها في تكملة ابن الابّار على هذا الشكل : البطروري[16].

(11) «ترصيع الأخبار» : 52 و«المقتبس» : 75 (تحقيق الحجي العراقي).

(12) المقتبس 234 (تحقيق الحجي العراقي).

(13) المصدر نفسه : 234 — 236.

(14) النسبة غير واضحة في الأصل المخطوط.

(15) المقتبس 75.

(16) «التكملة» 2 : 785 — 799.

هل يمكن أن أستنتج من الاقتصار على نسبة الرجل الى هذه المواضع وعدم وجود نسبته إلى قبيلة عربية أو غيرها أنه ليس عربي الأصل وأنه من أهل البلد الأصليين ؟ قد يكون ذلك ! لا سيما أن كتب التراجم الأندلسيّة تعنى عادة بالنسب العربي للمترجم إذا كان عربيا.

لقد ذكرت من قبل المصادر التي ترجمت لصاحبنا، وفيما يلي تلخيص وتحليل لما ورد فيها :

لا نعرف متى انتقلت أسرة أبي محمد من قريتهم الواقعة على وادي شلوقة الى قلعة أيوب، ومن المؤكد أن والده، وربّما بعض أجداده ولدوا في القلعة أما هو فقد وُلد في سنة 320 هـ بهذه المدينة التي ما تزال تحمل اسم التابعي الجليل أيوب بن حبيب اللخمي، وهي موصوفة في كتب البلدان بكثرة الخصب ورخص الأسعار وجودة الصّناعة، كما انها انجبت عددا من الاعلام أشهرهم أبو محمد هذا، وكانت هذه المدينة التي جدّد بناءها الأمير محمد عام 248 هـ قاعدة لإمارة أسرة تجيبية تخضع لسيادة قرطبة أحيانا وتخرج عنها أحيانا أخرى[17].

وفي هذا التاريخ الذي ولد فيه أبو محمد كان على رأس البلد مطرف بن المنذر بن عبد الرحمان التجيبي وقد بدأ عهده بإظهار الطاعة لعبد الرحمان الناصر، ثم أعلن العصيان واستعان بالنصارى فحاصره وشيعته الخليفة الناصر وقضى عليه وعليهم سنة 325 هـ[18].

وهكذا ولد هذا الثغري في أيام يسودها صراع أهل قلعة أيوب مع الخلافة تارة وجيرانهم النصارى تارة أخرى. وقد تربى في حجر والده الفقيه أبي عبد الله محمد الذي درس في القيروان، وكان من فقهاء بلده[19].

ولهذا كان الشيخ الأول لولده، كما درس على علماء الثغر الأعلى في تطيلة ومدينة الفرج ثم في طليطلة، وقد ذكرت منهم كتب التراجم محمد بن شبل التطيلي حاكم

---

(17) راجع مادة «قلعة أيوب» في دائرة المعارف الإسلامية.

(18) «ترصيع الأخبار» 51 (تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهواني).

(19) ترجمته في «ترتيب المدارك»، 7 : 27 و«تاريخ العلماء» 2 : 63.

تطيلة. وأحمد بن عابس السرقسطي، ووهب بن مسرّة الحجاري، شيخ الجيل في وقته، ووهب بن عيسى الطليطلي، وأحمد بن خالد التاجر، وأبا الحسن علي بن محمد الأنطاكي الوافد على الأندلس، وما من واحد من هؤلاء الشيوخ الاّ له مقام معلوم وذكر معروف في كتب التراجم. وألاحظ أن شيوخ الرّجل وشيوخ الثغريين عامة الذين نجدهم في تاريخ ابن الفرضي كلهم من أهل الثغر نفسه أو الوافدين عليه.

كما نجد الثغريين يرحلون مباشرة بعد دراستهم في الثغر الى المشرق، ولا نراهم يرحلون لطلب العلم في قرطبة العاصمة أو غيرها من مدن الموسطة والغرب والشرق في الأندلس الاّ نادرا.

ولهذا نجد صاحبنا يرحل الى المشرق في السنة التي توفي فيها الخليفة الناصر وهي سنة 350 هـ بعد وفاة والده بسنة.

فبعد وفاة والده سنة 349 هـ رحل الى المشرق، وقد طاف خلال هذه الرحلة بأرجاء إفريقية ومصر والشام والعراق، وسمع من شيوخ القيروان ومصر ودمشق وبغداد والبصرة والكوفة، ثم حجّ ورجع الى بلده بعلم كثير.

وكان من الشيوخ المشارقة الذين سمع منهم أبو اسحاق الهجيمي بالبصرة وأبو علي ابن الصوّاف ببغداد وجماعة من أهل البصرة وبغداد ودمشق ومصر، ومن الكتب التي رواها العلل والمسند والتاريخ لأحمد بن حنبل وغيرها.

لا يذكر المترجمون له تاريخ عودته من رحلته ولكنهم يذكرون أنه لزم العبادة والجهاد بعد عودته، ثم عينه الحكم المستنصر قاضيا على قلعة أيوب في سنة 361 هـ.

ونجد خبر ولايته القضاء وظروفها في المقتبس لابن حيان قال :

«وفي يوم الخميس لثمان بقين من شهر رجب منها (أي من سنة 361 هـ) قدم قرطبة أولاد الوزير القائد العاصي بن حكم التجيبي صاحب قلعة أيوب المتوفّى في هذا الوقت، وهم حكم وأحمد وعبد العزيز ولب، وأقبل معهم قاضي البلد : محمد بن داوود، وصاحب الصلاة فيه : يوسف بن محمد النافذ عزلهما عمّا كانا يتوليانه والاستبدال منهما بالفقيه أبي محمد بن قاسم الحاج المعروف

بالبطريولي ـــ كذا ـــ، جمعا له معا، وقد كان متقدما في العلم والزهد والفضل، فأدنى الخليفة المستنصر بالله مكان الفتية أولاد العاصي وكرّم مثواهم وأقرّهم على أحوالهم، وأمر بسحب محمد ابن داوود المعزول عن قضاء قلعة أيوب ويوسف ابن محمد صاحب الصلاة بها ومحمد بن عبد الله كاتب العاصي القادم معهم لجرائر نقمها عليهم»[20].

ويخبرنا ابن الفرضي أن صاحبنا الثغري استعفى من القضاء ليتفرّغ الى العبادة والجهاد فأعفي، ولا نعرف متى كان ذلك، والواقع أن توجّهه كان بعيدا عن الخطط والوظائف.

ونظرا لصلابة الرجل في قول الحق وشدته في النهي عن المنكر، فقد نفي الى قرطبة سنة 375 هـ، ولا نعرف من الذي نفاه، غير أن ابن الفرضي يقول : «وأنكر على بعض أصحاب السلطان في ناحيته شيئا فسعي به، وعهد بإسكانه قرطبة، فقدمها سنة 375 هـ»[21].

واذا كنا لا نعرف شيئا عن طبيعة هذا «الشيء» الذي أنكره، فإن الغالب أن المقصود ببعض أصحاب السلطان هو والي قلعة أيوب، وأغلب الظن أنه عبد العزيز ولد العاصي بن حكم بن المنذر التجيبي، وقد ولاّه المنصور ابن أبي عامر على قلعة أيوب مكان أخيه هاشم الذي أعدمه المنصور لتآمره مع القائد غالب ضده في سنة 371 هـ[22] ومعنى هذا أن نفي أبي محمد من قلعة أيوب واستقدامه الى قرطبة كان بأمر المنصور.

ومهما يكن من أمر، فقد كان حلول الرجل بالعاصمة حدثا مهما في الأوساط العلمية يومئذ، إذ أقبل عليه شيوخ العلم وطلبته في قرطبة يأخذون عنه خلال المدة، التي أقامها مغرّبا بين ظهرانيْهم، وقرأوا عليه كتبا لم تكن عندهم، ومنها كتاب معاني القرآن للزجّاج، وكان من هؤلاء الشيوخ القرطبيين ابن الفرضي

---

(20) «المقتبس» 75.

(21) «تاريخ العلماء» 1 : 245 و«ترتيب المدارك»، 7 : 25.

(22) «الجمهرة» لابن حزم 431.

صاحب تاريخ العلماء في الأندلس الذي يقول في ترجمته : «وقرأت عليه علما كثيرا».

ونحن نجد آثار هذا الاعتراف في مواطن عديدة من تاريخ ابن الفرضي، وهو يعتمد على أبي محمد الثغري في أخبار علماء الثغر الأعلى على الخصوص.

فقد روى عنه في ترجمة ابراهيم بن النعمان (1 : 19).
وروى عنه في ترجمة أحمد بن يوسف بن عابس (1 : 52).
وروى عنه في ترجمة حنش الصنعاني التابعي (1 : 151).
وروى عنه في ترجمة سهل بن محمد الورّاق (1 : 226).
وروى عنه في ترجمة عبد الله بن أبي عطاء (1 : 257).
وروى عنه في ترجمة عتّاب بن هارون (1 : 345).
وروى عنه في ترجمة عمر بن عمروس (1 : 365).
وروى عنه في ترجمة محمد بن سلمة التطيلي (1 : 14).
وروى عنه في ترجمة محمد بن أسامة (2 : 19).
وروى عنه في ترجمة محمد بن عبد العزيز (2 : 21).
وروى عنه في ترجمة محمد بن سليمان الوشقي (2 : 23).
وروى عنه في ترجمة محمد بن عبيد الله الدبّاج (2 : 39).
وروى عنه في ترجمة محمد بن عزرة الحجاري (2 : 35).
وروى عنه في ترجمة محمد بن قاسم والده (2 : 66).
وروى عنه في ترجمة محمد بن نصر (2 : 66).
وروى عنه في ترجمة محمد بن الشبل (2 : 68).
وروى عنه في ترجمة مهاصر بن ربيل (2 : 152).
وروى عنه في ترجمة وهب بن مسرّة (2 : 162).
وروى عنه في ترجمة أبي وهب بن أبي نخيلة (2 : 163).

ومن هذا المسرد يبدو إسهام أبي محمّد الثغري في التدوين والتوثيق، ويخيّل

الى أن الرجل لو لم يكن متجها بكليته الى الجهاد والعبادة لكان له في ميدان التأليف مجال ومشاركة، ولولا خوف الإطالة لأوردنا هذه الروايات ووقفنا عند دلالاتها على أسلوب الرجل في نعت أولئك الشيوخ وذكر سماتهم.

وثمة مؤرخ أندلسي آخر أخذ عن أبي محمد الثغري وهو الحسن بن محمد بن مفرج المعروف بالقبّشي مؤلف كتاب «الاحتفال في تاريخ أعلام الرجال»، ولعلّ في كتابه المفقود روايات عن هذا الشيخ الجليل.

أما اسهامه في الحركة العلمية فيدلّ عليه قول ابن الفرضي : «وكانت الرحلة اليه من جميع نواحي الثغر، نفع الله به عالما كثيرا». وقد سمى عددا من أشهر هؤلاء المنتفعين بعلمه كما ذكر القاضي عياض، وابن بشكوال، وابن الأبار عددا آخر منهم.[23]

ومن شيوخ قرطبة الذين رووا عنه علاوة على ابن الفرضي أبو جعفر أحمد ابن عون الله زعيم المحدّثين في بلده ووقته، وتلميذه أبو عمر الطّلمنكي وابن الطحان وابن الشقّاق والقاضي أبو عبد الله ابن مفرج، وهذا الأخير يروي لنا خبرا مفصّلا عن مقدم الشيخ أبي محمد الى قرطبة ومقامه فيها قال :

«قدم علينا هذا الشيخ سنة أربع وسبعين وثلاثمائة فكان ضيفا على الفقيه أبي جعفر أحمد بن عون الله، وكنا نسمع منهما معا في مسجد الأمير هشام في الرحبة المنسوبة الى الباهلي بالربض الغربي في مدة مقام أبي محمد بقرطبة .. وقد سمعنا منه أياما بمسجد متعة من هذا الربض على مقربة من مسجد هشام»[24]. ثم حكى حكاية تدلّ على ولايته وصلاحه، وأنه كان مجاب الدعوة.

كانت الساحة العلمية في قرطبة عند حلول أبي محمد فيها تتميز بوجود حزبين يمثلان تيارين فكريين متصارعين، وهذان الحزبان هما حزب ابن عون الله وتلميذه أبي عمر الطلْمنكي وجماعة من الفقهاء والمحدّثين، أما الحزب الثاني فهو حزب محمد بن موهب القبري والامام الاصيلي وابن ذكوان وطائفة من نحارير العلماء، وقد جرت بين الحزبين «قصص ومجاوبات في مسألة الكرامات، فان ابن موهب

(23) نجدهم منبثين في المصادر المذكورة.

(24) اقتباس الأنوار للرشاطي (مخطوط).

كان يذهب فيها مذهب شيخه أبي محمد بن أبي زيد في انكار الغلو فيها، وكان أولئك يجيزونها ويتّسعون في رواية أشياء كثيرة منها، وكان يثبت نبوة النساء ويقول بصحة نبوة مريم وباحالة بقاء الخضر أبدا وجرت بينهم في هذه المسائل فتن لا سيما عند موت ابن عون الله تداركها ابن أبي عامر فسيّر جماعة من الطائفتين عن الأندلس الى العدوة»[25] ومهما يكون دور المنصور في هذا الأمر فان الذي يعنينا هنا هو أن نزول الثغري ضيفا على ابن عون الله والتفاف عدد من أتباع هذا حوله يجعلنا نعده من هذا الحزب.

بعد سنة أو سنتين سرّح الشيخ إلى بلده، وذلك في ذي القعدة سنة **376** هـ واستمر على حاله آية في الفضل والصلاح منقطع القرين في الزّهد والتبتل، لا نظير له في الشجاعة والبسالة الى أن لقي ربّه «لثمان عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة بقلعة أيوب وهو ابن ثلاث وستين سنة»[26].

قال : القاضي عياض :

«وترك حملا جاء بعده، وسمّي باسمه وشبّ فكان صالحا حسن السيرة كريما ورعا لم يكن كثير العلم، ولي قضاء بلده نحو أربعين عاما، ثم توفّي وترك ولدا ولي أيضا أحكام بلده ولم تزل رئاسة بلدهم فيهم من القضاء والتقدم الى وقتنا هذا — يقول القاضي عياض — الى أن تغلّب العدوّ عليها»[27].

وقال في موضع آخر :

«وكان ولده الى اليوم بها ذوي ظهور ورئاسة الى أن تغلّب عليها العدوّ فيما تغلب عليه من تلك الثغور سنة أربع عشرة وخمسمائة»[28].

---

(25) «ترتيب المدارك»، 7 : 190، وفي كتب التراجم إشارات إلى شهادات متعارضة حول الطلمنكي في سرقسطة.

(26) «تاريخ العلماء»، 1 : 245.

(27) «ترتيب المدارك» 7 : 27.

(28) المصدر نفسه : 24 — 25.

أما ولد أبي محمد وحفيده اللذان أشار اليهما القاضي عياض، فنجد لكل منهما ترجمة في تكملة ابن الأبار، قال في ترجمة ولده :

«عبد الله بن عبد الله بن محمد بن قاسم بن حزم، من أهل قلعة أيوب، عمل سرقسطة، يكنّى أبا بكر، ويعرف بالبطروري نسبة الى قرية منها بوادي شلوقة، وهو ولد القاضي أبي محمد القلعي، تركه أبوه حملا فسمّي باسمه، ونشأ طالبا للعلم وولي قضاء بلده نحو أربعين عاما، وكان مقتصدا متواضعا حسن السيرة، ولم يكن له كبير علم الاّ أنه كان كريما صالحا ورعا، وقد حدث عن أبيه ولم يسمع منه، ورأيت السماع عليه بجامع مدينة قلعة أيوب سنة 439 هـ، وتوفي في رجب 445 هـ ومولده سنة 383 هـ»[29].

وقال في ترجمة الحفيد :

«عبد الله بن عبد الله بن عبد الله (ثلاثة) بن محمد بن قاسم القلعي، يكنى أبا محمد. ولي قضاء قلعة أيّوب بعد أبيه عبد الله بن عبد الله، ولم يكن له كبير علم، وتوفي سنة 487 هـ»[30].

ويبدو من الترجمتين أن ولد أبي محمد وحفيده إنما عاشا على مجده وأفادا من سمعته، وقد تسلسل القضاء في أسرته بفضله، ولما جلا المسلمون عن قلعة أيوب اثر معركة كتندة سنة 514 هـ[31]، تفرق آل بيت أبي محمد الثغري في أرجاء الأندلس، ووجدنا بعضهم يستقرّ في بلنسية[32].

لقد عاش الثغري ــ كما رأينا ــ في حقبة بلغ فيها الاسلام أوجه في الأندلس وهي حقبة عبد الرحمان الناصر والحكم المستنصر والمنصور ابن أبي عامر، وبما أنه كان يمثل نموذجا للفقيه الثغري فاني أود أن استخلص في الأخير بعض الملامح العامة لهذا الطراز من الفقهاء.

---

(29) «التكملة»، 2 : 799.

(30) المصدر نفسه، 2 : 807.

(31) انظر في هذه المعركة التي استشهد فيها عدد من العلماء.

(32) «التكملة»، 2 : 651.

أول هذه الملامح هو الحرص على طلب العلم والتماسه ولو في أقصى بلاد المشرق، وعندما نتتبع تراجم الثغريين عند ابن الفرضي، نجد أن جلهم ان لم نقل كلهم رحلوا في طلب العلم الى المشرق بالرغم من أنهم كانوا يقطنون في أقصى العالم الاسلامي، وكان في وسعهم الاكتفاء بما يجدونه في مدن الثغري، فقد كانت برغم كونها جبهة عسكرية تعج بأعلام العلم سواء من أهل الثغر أو من الوافدين عليه بقصد الرباط والجهاد.

وثانيها أن الفقيه الثغري كان مجاهدا ومتطوّعا، وما أكثر ما نفق في تاريخ ابن الفرضي وغيره على أخبار فقهاء كانوا يخرجون في السّرايا ويرابطون في الثغور، يقول في ترجمة احدهم : «ولمّا انصرف الى الأندلس لزم الثغر، فكان يغادي العدوّ ويدخل في السرايا حتى رزقه الله الشهادة مقبلا غير مدبر سنة 378 هـ في غزوة استرقة»[33]، وكان بعضهم يقدم للرباط في الثغر الأعلى من بلدان العدوة المغربية، ومن هؤلاء على سبيل المثال : أحمد بن خلوف المسيلي، أحد حفاظ المذهب المالكي في وقته، فقد «سكن الثغر أعواما كثيرة مجاهدا، وكان منسوبا الى البأس، شهر في الثغر وعلا ذكره هناك»[34]، وتوفي بالأندلس سنة 393 هـ، ومنهم أيضا يحيى بن خلف الصدفي السبتي «الذي دخل الأندلس غير مرة مرابطا في ثغرها ومجاهدا وتاجرا»[35]، ويقول ابن بشكوال في ترجمة ثغري آخر : «فرّق جميع ماله، ولزم الثغور وتوفي بحصن غرماج .. وذكر أن النّصارى يقصدونه ويتبركون بقبره»[36] وهذا موقف غريب يذكرني بموقف المنصورابن أبي عامر عندما فتح شنت ياقب سنة 387 هـ وفر عنها أهلها، فقد أمر بصون قبر الحواري المذكور ودفع الأذى عنه «ولم يجد بالكنيسة الا رجلا واحداً من شيوخ الرهبان جالسا عند القبر فسأله عن سبب مقامه فقال : «أؤنس ياقب، فأمر، فأمر بحفظه والكفّ عنه»[37]، والموقفان معا يمثلان روح الشهامة والسّماحة، ويعكسان القاعدة التي يعبّر عنها المثل المغربي : «العداوة ثابتة والصواب يكون».

(33) «تاريخ ابن الفرضي».

(34) المصدر نفسه، 1 : 77.

(35) المصدر نفسه، 2 : 194.

(36) «صلة» ابن بشكوال، 1 : 196.

(37) «إعمال الأعلام».

والسمة الثالثة المشتركة بين هذه الفئة من الثغريين هي الزهد في المناصب أو الزهد بصفة عامة، والزهد هنا ليس معناه التواكل والانقطاع عن العمل، وانما معناه عدم حب العاجلة وانفاق المال في وجوه البر والقناعة بالقليل، وسمة الزهد يوصف بها جميع أضراب عبد الله الثغري وشيوخه، وتجدر الاشارة هنا إلى أن أقدم زاهد أندلسي هو ثغري، ونعني به يمن بن رزق التطيلي، وقد كان لكتابه في الزهد أثر بعيد في التربية الروحية لعدة أجيال أندلسية،(38) وقد ذكروا أن علماء الثغر وأهله كانوا يحرثون على خيلهم قياما بمعاشهم واستعداداً لعدوهم.

والسمة الرابعة المشتركة بين الثغريين هي الشجاعة، فقد نعت عدد منهم بالبأس والبطولة، كصاحبنا أبي محمد وأحمد بن خلوف الآنف الذكر وغيرهما.

وذكر ابن الفرضي في ترجمة عبد الله بن يحيى الوشقي أنه «كسب مالا عظيما .. ثم أخرجه على نفسه ولزم الجهاد الى أن مات، وكان من الأبطال»(39).

وهكذا كان صاحبنا أبو محمّد الثغري، فقد كانت شهرته بالشجاعة الخارقة تثير الرعب لدى العدو، وهنا أسوق الحكاية الثانية نقلا عن الرشاطي بشيء من التصرف.

قال رواية عن أحد أصحاب أبي محمد : «مضى (أي أبو محمد) في بعض الأوقات الى ناحية وشقة لشراء بقر احتاج اليه لضيعته، فاشتراه وأقبل به مع أعوان له يسوقونه، فلما كانوا في الصحراء التي بين وشقة وبين بلدة قلعة أيوب طلعت عليهم سرية للعدو، فلمّا رآهم أبو محمد زاحفين اليه دفع البقر والرجالة الذين معه الى أكمة ناحية الطريق، وقال لهم : قفوا كما أنتم لا تبرحوا الاّ أن تروني وقعت فخذوا حينئذ برأيكم ووقف حتى غشيه سرعان خيل السرية فاذا معها دليل من المُتَنصِّرين كان أصله من قلعة أيوب ونزع الى العدوّ وصار عونا له على المسلمين، يقود سرايا العدو اليهم، فعرف الفقيه أبا محمد ونادى أصحابه أن

(38) «تاريخ ابن الفرضي»، 2 : 198 — 199.

(39) المصدر نفسه، 1 : 268.

قفوا وارجعوا، وعرّفهم باسم أبي محمد وشجاعته، وأن من التهوّر الاقدام عليه، فما كان منهم الا أن تراجعوا وخلّوا سبيله»[40].

وأرى أن هذه الحكاية والتي سبقتها ليستا من قبيل المبالغة، ولهما نظائر تروى عن بعض فرسان الثغر الأعلى بعد هذا التاريخ مثل حكاية الفارس سعادة، وحكاية الفارس ابن فتحون، الأول كان في عهد المقتدر ابن هود، والثاني عاش في عهد والده المستعين، وقد ذكر حكايتهما مع حكايات أخرى الطرطوشي في كتابه سراج الملوك ومهد لسردها بقول ابن دريد في مقصورته :

والناس ألف منهم كواحد وواحد كالألف ان أمر عنى

ثم قال :

«بل قد جرب ذلك فوجد أن الواحد منهم خير من عشرة آلاف وسأحكي لك من ذلك ما تقضي منه العجب»[41]، وفي مثل هؤلاء يقول الشاعر :

ولم أر أمثال الرجال تهافتوا على المجد حتى عدّ ألفٌ بواحد

ومن هؤلاء الثغريين الاندلسيين غير من ذكر أبو عبد الله مردنيش جد ابن مردنيش، فقد كانت له مغازي ومواقف مشهورة روى المؤرخ اليسع عددا منها، والمجاهد أبو محمد ابن عياض كان النصارى يعدونه بمائة فارس، ويحيى ابن غانية الذي كان يعد بخمسمائة فارس، وجميع هؤلاء يذكّرون بالصحابي خارجة بن حذافة الذي كان يعد بألف فارس، وهو الذي شير إليه ابن عبدون في رائيته :

فليتها إذ فدتْ عَمْرا بخارجة فدت عليا بمن شاءت من البشر

رحم الله «الامام الحافظ، المجوّد الزاهد، القدوة المجاهد»[42] عبد الله بن قاسم الذي كان وجها متوجها في الثغر الأعلى.

---

(40) «اقتباس الأنوار للرشاطي» (مخطوط).

(41) «سراج الملوك» : 330 — 338 — 340.

(42) هكذا حلاّه الحافظ الذهبي في «سير أعلام النبلاء»، 16 : 444.

علم من يافا
في القرن الثالث عشر الهجري

أحمد صدقي الدجاني

أهدي هذا المقال إلى الأخ الكبير والصديق العزيز الدكتور إسحاق موسى الحسيني شيخ أدباء فلسطين وأساتذتها. وذلك بمناسبة احتفال إخوانه وأصدقائه وتلاميذه ببلوغه الثمانين. وإذا كان قد فاتني أن أشارك به في الكتاب الذي صدر بهذه المناسبة، فلكم يسعدني أن أنشره هنا. ونسأل الله أن يطيل عمر شيخنا ويمده بقوة من عنده ليتابع القيام بدوره في الحفاظ على تراثنا العربي الإسلامي ببيت المقدس.

العلم هو «حسين سليم الدجاني» المولود عام 1202 هـ، ومفتي يافا بين عامي 1236 و 1274 هـ على مدى ثمان وثلاثين سنة. والانطلاق في كتابة هذا البحث عنه هو من استشعار لأهمية دراسة «الاعلام» في تاريخنا، بغية توفير فهم أفضل لمختلف جوانب الحياة في مجتمعنا، ورصد ظاهرة «الإبداع» فيه، وتحقيق تواصل الأجيال الجديدة مع تاريخهم. وقد حرص أجدادنا على إيفاء هذا اللون من الدراسة التاريخية حقه، فكانت كتبهم عن الأعلام والتراجم والطبقات والأعيان.

حذوت في اختيار عنوان البحث حذو «شيخنا» اسحاق موسى الحسيني أطال الله عمره الذي كتب بحث «علم من بيت المقدس» عن الحاج محمد بن بدير

ابن محمد بن محمود، وألقاه على مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة 1396هـ ـــ 1976م كما حذوت حذوه في اعتمادنا في كتابة البحث على مجموعات مخطوطات لم تطبع، لأعرب عمليا عن تقديري للحملة المباركة التي يقودها الدكتور الحسيني لانقاذ مخطوطاتنا من الضياع، وإحياء تراثنا وربطنا به من خلال نشر هذه المخطوطات.

يرد ذكر «الشيخ حسين بن الشيخ سليم بن سلامة الدجاني» في كتب أعلام القرن الثالث عشر الهجري. وقد أثبته مصطفى مراد الدباغ بين «شخصيات بارزة من يافا في القرنين الأخيرين» في كتابه «بلادنا فلسطين». وترجم له عبد الرزاق البيطار في كتابه «حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر» وذكره اسماعيل البغدادي في كتابه «ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» وعمر رضا كحالة في «معجم المؤلفين». وجاء الحديث عنه في جميع هذه الكتب موجزا.

إن المعلومات عن هذا العلم متوافرة. وقد حفظتها لنا مجموعة مخطوطات تتضمن حديثا وافيا عنه وعن بلدته يافا في القرن الثالث عشر الهجري. وأذكر من بين هذه المخطوطات مخطوطة كتبها أخوه «أبو الاقبال» السيد حسن سليم الدجاني ونسخها تلميذه الشيخ عبد الرزاق أفندي اللاذقي وعنوانها «ترجمة شيخنا القطب الداني ولي الله السيد الشيخ حسين سليم الدجاني قدس سره»، وهي في المكتبة الظاهرية بدمشق تحت رقم 6351 وتضم واحدا وستين صفحة. وهناك مخطوطة أخرى تحت رقم 4627 للكاتب نفسه تضم أربعاً وعشرين صفحة علق عليها ابن الشيخ حسين الأصغر محمد أبو السعادات الدجاني الذي ترجم له في مخطوطة رقمها 10980 كما أشير إلى مجموعة مخطوطات أخرى في المكتبة الظاهرية ولدى بعض أحفاده تتضمن تآليفه في الفقه والتاريخ وما نظمه من شعر. وأشير بخاصة إلى فتاواه التي تحمل إسم «الفتاوي الحسينية السليمية» وهي مخطوطة تضم مائتين واثنين وتسعين صفحة موجودة في المكتبة الإسلامية في يافا التي حمل لواء تصوير مخطوطاتها ومخطوطات مكتبات أخرى في فلسطين الدكتور محمد عدنان بخيت، وأصدر مجمع اللغة العربية الأردني فهارس مخطوطات تلك المكتبات من إعداد محمود علي عطا الله.

يافا في مطلع القرن الثالث عشر :

ولد حسين على رأس الاثنين بعد المائتين وألف من الهجرة النبوية «لعائلة الدجاني» في يافا التي كان يكتبها العثمانيون «يافه» وفقا لما ورد في بعض كتب التاريخ والجغرافية العربية القديمة.

كانت «يافه» قبل ولادته قد عاشت أحداثا تتالت عليها في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري. فقد تعرضت لانتشار وباء الكوليرا فيها وفي بلاد الشام عموما سنة 1174 هـ ــ 1760 م. في عهد السلطان مصطفى الثالث. وذكر الدمشقي أنها كانت تضم عام 1766 م من أربعمائة إلى خمسمائة بيت وبضعة جوامع. ووقعت يافه منذ عام 1185 هـ ــ 1771 م فريسة حروب نشبت بين علي بك الكبير صاحب مصر وحليفه الشيخ ضاهر العمر وبين الباب العالي. فقد حاصرها علي بك الكبير وضيّق عليها الخناق «حتى ملكها بعد أيام كثيرة» على حدّ قول الجبرتي. و لم يلبث أن استولى عليها محمد بك أبو الذهب أحد مماليك علي بك الكبير الذي ثار على سيده والتزم بالولاء للباب العالي. وعاد علي بك الكبير الذي استقر في عكا إلى محاصرتها عام 1186 هـ ــ 1772 م فصمدت أمام الحصار شهورا ثم سلمت. وما أسرع ما عانت من حصار جديد عام 1189 هـ ــ 1775 م ضربه عليها هذه المرة محمد أبو الذهب وقد ترك لنا الجبرتي وصفا لهذا الحصار «فلما وصل ــ أي أبو الذهب ــ إلى يافا حاصرها وضيق عليها، وامتنع أهل يافا هم أيضا عليه، وحاربوا من داخل وحاربهم من خارج... فلم يزالوا بالحرب حتى نقبوا أسوارها وهجموا عليها من كل ناحية وملكوها عنوة، ونهبوها وقبضوا على أهلها وربطوهم في الحبال والجنازير، وسبوا النساء والصبيان وقتلوا منهم مقتلة عظيمة. ثم جمعوا الأسرى خارج البلد ودوروا فيهم السيف وقتلوهم عن آخرهم. و لم يميزوا بين الشريف والنصراني واليهودي والعالم والجاهل والعالي والسوقي، ولابين الظالم والمظلوم، وربما عوقب من لاجنى، وبنوا من رؤوس القتلى عدة صوامع ووجوهها بارزة تنسف عليها الأتربة والرياح والزوابع». وأرسل أبو الذهب إلى بر مصر من أراده من النساء والأولاد و لم يسلم من الذبح والقتل الا أناس قلائل. ونزل من بقي الرملة والقرى المجاورة، و لم يبق في «يافه» إلا نفر قليل وأخذت البلدة بعد مدة تفيق من صدمتها شيئا فشيئا فعاد

إليها بعض أهلها، ونزلها أناس من القرى المجاورة ومن مختلف المدن الشامية ومن مصر والمغرب جذبهم إليها ما جذب من سكنوها منذ أقدم العصور، وهو ما تتميز به من موقع ومناخ[1].

لقد مر الرحالة س.ف فولتي بيافا بعد عقد من السنين أثناء رحلته لمصر والشام التي قام بها بين عامي 1783 و 1785، وتحدث عن البلدة والسهل المحيط بها، فأشار إلى موقعها المتميز «على أكمة مخروطة الشكل ترتفع عموديا نحو مائة وثلاثين قدما. وللبيوت القائمة على منحدرها منظر جميل وعلى ذروتها قلعة صغيرة تشرف على حولها. والأكمة يحيط بها سور عند أسفلها لامتاريس عليه... ولا خنادق له، تمتد أمامه حدائق حيث شجر البرتقال والليمون ينمو نموا مدهشا. «وذكر فولتي أن يافا كانت اقطاعاً من اقطاعات السلطانة الوالدة، وأن مرفأها كان في أسوأ حال ولكن عيني الماء العذب اللتين فيها قرب الشاطىء تجعلانها أجمل مدن ذلك الساحل،» وقد مكنتاها في الحروب الأخيرة من مقاومة المغيرين عليها، ولاحظ فولتي أن يافا كانت قبل الحصارين الأخيرين أجمل مدينة على الساحل تكثر في جوارها بساتين البرتقال والليمون والكباد والنخيل والزيتون الذي يشبه شجرة دوح الجوز. ثم حدث أن قطع المماليك الذين حاصروا البلدة جميع تلك الأشجار للاستدفاء أو التسلية. غير أنهم لم يستطيعوا حرمان يافا الماء الطيب الذي يروي بساتينها، والذي أحيا جراثيم تلك الأشجار فأخذت تنمو بسرعة.[2]

قدّر ليافا أن تعيش أحداثا خطيرة أخرى في النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري فقد غزاها نابليون بونابرت عام 1213 هـ ــ 1799 م بعد أن احتل مصر، وحاصرها وهو متجه شمالاً إلى عكا فصمدت. وحين نجح في دخولها بعد أن شدد الحصار عليها أباحها لجنوده في أول أيام عيد الفطر فنهبوها وفتكوا

---

(1) مصطفى مراد الدباغ «بلادنا فلسطين» الجزء الرابع ــ القسم الثاني في (الديار اليافية) ص 136 ــ ص 144، وهو يشير إلى الجبرتي «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» 3 / 29 القاهرة 1964، وإلى ادوار لوكروا «الجزار قاهر نابليون» من منشورات دار الثقافة بيروت، وإلى الدمشقي بريك الخوري ميخائيل «تاريخ الشام. 1720 ــ 1782»

(2) المصدر نفسه ص 145، نقلا عن فولتي سوريا ولبنان وفلسطين في القرن 18 تعريب السيوفي.

بالكثيرين من أهلها. واقترف بونابرت فيها جريمة الغدر بحامية يافا وأهلها بعد أن استؤمنوا فأمنوا، وقتل منهم في ثلاثة أيام 2441 جنديا رميا بالرصاص. وقد وصف الضابط الفرنسي «ميو» مشاهد تلك المذبحة وسجل الضابط الفرنسي «ديتروا» بياناً بعدد من أعدموا يوما بعد يوم[3]. وحفظ أهل يافا ذكريات مريرة لجرائم بونابرت وجنوده. ومن ذلك ماروته لي إحدى معمرات العائلة عن أمها أن أخت جد الراوية سمعت أصوات الجنود الفرنسيين وهم يصعدون سلم الدار في البلدة القديمة، فأسرعت تغلق البوابة وحين نظرت من ثقب فيها سدّد أحد الجنود حربته وطعنها من الثقب في عينها ففقدتها. وأنهى بونابرت احتلاله ليافا بعد أقل من ثلاثة شهور إثر هزيمته أمام عكا، وقد نسف حصونها قبل رحيله عنها وأحرق المراكب الراسية في الميناء[4].

تعرضت يافا في مطلع عام 1217 هـ ـــ 1802 م لحصار أحمد باشا الجزار والي صيدا إثر خلافه مع والي القدس محمد باشا ابو مرق. واستقر الأمر فيها بعد وفاة الجزار لمحمد آغا أبو نبوت الذي عينه عليها سليمان باشا خليفة الجزار على ولاية صيدا، فحكمها أبو نبوت بين عامي 1222 هـ و 1234 هـ : 1807 م ـــ 1818 م. وقد تقدمت في عهده في عمرانها وثروتها وتحصيناتها وعانت من وباء الطاعون عام 1226 ـــ 1811 م، ثم من مظالم ابي نبوت وجمعه أموال الناس وقام الوالي سليمان باشا بعزله وعين عليها ابن أخيه مصطفى بك وزارها بنفسه زيارة مشهوذة وصفها إبراهيم العورة في كتابه «تاريخ سليمان باشا العادل». وعانت يافا في تلك الفترة من زحف الجراد عليها عام 1227هـ ـــ 1812 م وعام 1232 هـ ـــ 1816 وعام 1235 هـ 1819 م.

لم تلبث يافا أن عاشت حكم إبراهيم باشا بن محمد علي باشا بين عامي 1247 هـ و 1256 هـ : 1831 م و 1841 م. وقد جاءها إبراهيم باشا بأسطول فعرض وجهاء المدينة عليه تسليم بلدهم فتسلمها وأبقى متسلمها حاكما

---

(3) المصدر نفسه ص 149 وهو يشير إلى لوكروا والجبرتي هيرولد في كتابه «بونابرت في مصر»

(4) سمعت الرواية من حسيبة الدجاني عن أمها حرم توفيق الدجاني وأخت جدها هي السيدة فاطمة بيبي وكانت دارهم على مرتفع في البلدة القديمة.

عليها. ولم يمكث فيها طويلا بسبب اندلاع الثورة في جبال القدس والخليل على حكمه عام 1250 هـ ــ 1834 م بعد أن فرض التجنيد الإجباري ونزع السلاح من السكان. ووصل إليها محمد علي باشا لمساندة ابنه وبقي فيها حوالي شهر. وقد وصف مؤرخ مجهول لقاء الرجلين. وحين أجبر إبراهيم باشا على إخلاء بلاد الشام عام 1256 هـ ــ 1840 م شق الجنود المرابطون في يافا عصا الطاعة. ودخل البلدة الجنود العثمانيون في رمضان 1256، وتلا ذلك انسحاب جنود إبراهيم باشا منها بصورة نهائية. وقد استقر فيها بعض المصريين الذين أتوا مع حملة إبراهيم باشا حاذين حذو مصريين آخرين نزحوا إليها قبل الحملة[5]. وحمل من جاء من هؤلاء من الاسكندرية اسم «العجمي» إليها فأصبح علما على أحد احيائها. كما حمل من جاء من رشيد اسم بلدهم فعرف الحي الذي سكنوا فيه باسم «إرْشيد». واشتهر فيها سوق «البلابسة» نسبة إلى التجار الذين جاءوها من بلبيس. ويستدل من وصف الرحالة الانجليزي طومسون ليافا، وقد زارها عام 1251 هـ ــ 1834 م، أن البلدة كانت مزدهرة. وقد بلغ عدد سكانها خمسة عشر ألف نسمة على الأقل بعد أن كانت ستة آلاف قبل خمس وعشرين سنة. وكان من أسباب ازدهارها وفود الحجيج إليها في طريقهم لزيارة القدس، وقيام صناعة الصابون فيها وتصديره منها إلى المدن الساحلية الأخرى ومصر، وتصدير محاصيل الحبوب والفاكهة منها. وقد اشتهرت بساتينها وبياراتها بأشجارها المثمرة. وكان فيه شارع رئيسي واحد يزدحم بأهلها وبمن يغشاها من البدو ومن ينزلها من الحجاج الأجانب وهم راكبون الجمال والحمير والبغال والخيل[6].

تلك هي «يافه» التي ولد فيها حسين ونشأ وترعرع ثم أصبح مفتيها. وقد قصدنا من استحضار الأحداث التي مرت بها أن تكون فكرة عن العصر الذي عاش فيه علمنا، وهو كما رأينا عصر حافل بالمعاناة، وبالتحديات، اشتدت فيه الحاجة إلى رجال ينهضون بمسؤوليات جسام.

---

(5) الدباغ، ص 175.

(6) المصدر نفسه، ص 179.

نسبه :

ينتسب حسين لعائلة الدجاني. وهو كما جاء في ترجمته «ابن العلامة السيد سليم» وجدّه الثامن هو «العارف الرباني السيد أحمد الدجاني دفين بيت المقدس» الذي ينتسب لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وقد حرصت الترجمة على إثبات النسب كاملا مع إشارات إلى مدافن بعض رجالاتها. فهو حسين بن سليم بن سلامة بن سليمان بن عوض بن داود بن سليمان بن ولي الله المشهور عبد الله دفين الدامون ببلاد صفد بن محمد بن العارف الرباني السيد أحمد الدجاني دفين بيت المقدس ابن السيد علاء الدين الشيخ علي دفين قرية بديا من أعمال نابلس ابن حسن ابن يس البدري ابن الولي المشهور السيد بدر الدين دفين واد النسور ببلاد القدس الشريف ابن محمد بن يوسف بن بدر بن يعقوب بن مطر بن غانم بن محمد بن زيد بن علي بن عوض الأكبر بن زيد بن علي زين العابدين بن الحسين ابن أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه وابن بنت رسول الله ﷺ السيدة فاطمة الزهراء البتول رضي الله عنها.[7]

والدجاني ــ كما يقول من ترجم لحسين «نسبة إلى دجانية بفتح الدال والجيم المخففة بعدها ألف قرية من أعمال القدس سكنها الشيخ أحمد بن علي وأقام بها زمنا فاشتهر هو وذريته بالانتساب إليها، وأما من قبله من آبائه فكانوا ينسبون إلى السيد بدير بن محمد دفين واد النسور فيقال فلان البديري ولما هاجر منها حذفوا دالها فصارت تدعى الجانيه حتى الآن»[8].

كان سليم والد حسين رجل علم، شافعي المذهب ومتصوفا. وقد وصفته الترجمة بالعارف الرباني. ويظهر أنه كان من شيوخ الطريقة الشاذلية لأنه هو الذي أجازها ابنه ــ كما جاء في الترجمة ــ وكان يتنقل بين يافا وبيت دجن التي ولد

---

(7) «حسن سليم الدجاني» ترجمة شيخنا حسين سليم الدجاني مخطوطة بالمكتبة الظاهرية بدمشق رقم 6351.
«محمد أبو السعادات الدجاني» ترجمة حسين الدجاني مخطوطة بالمكتبة الظاهرية بدمشق رقم 10980 وجميع مايرد بين قوسين في النص هو من إحدى هاتين المخطوطتين.

(8) يمكن أن نلاحظ أن تحوير اسم القرية جاء بفعل تسكين حرف الدال وادغامه بالجيم فلم يعد يظهر مستقلا في النطق.

فيها ابنه حسين. وقد أنجب أيضا خمسة أولاد وبنتا. وتشير روايات العائلة الشفهية إلى أنه كان في يافا عند غزو بونابرت لها. وقد قام بدور في إنقاذ من بقي على قيد الحياة من جنود حامية يافا بعد يوم المذبحة الثالث من الموت. وتقول الرواية أنه دخل على بونابرت يرافقه كبير عائلة دمياني الذي كان يعمل قنصلا لدولة أوروبية. وطلب من القائد الفرنسي أن يبقي على حياة من بقي من الجنود لأنهم استؤمنوا وأمنوا، وعرض أن يتولى هو والسيد دمياني إعاشتهم، فتأثر بونابرت لحديث الشيخ واستجاب لطلبهما[9] وتوفي سليم عام تسع وثلاثين وقد ناهز من العمر الثمانين.

دراستـــه :

نشأ حسين في حجر والده ودرس أول مادرس على يديه «فقرأ عليه النحو والصرف وعدة كتب من الفنون الأدبية. وتلقى عنه معظم الكتب المتداولة في فقه السادة الشافعية حتى ترعرع وبرع وشملته بركته وبه انتفع. ومن طريف مايرويه ابنه محمد أبو السعادات في ترجمته له أنه في ابتداء الأمر لم يثابر على تعلم القرآن الشريف وتحصيل العلم الحنيف فلامه والده وضربه.. فرأى السيد الأعظم نبينا المصطفى... في المنام وقال له دع تربية حسين فعلينا تربيته، فتركه والده وشأنه امتثالا.. وعرف أن الله سيهديه إلى الصراط المستقيم. ثم أنه بعد ذلك من تلقاء نفسه سار إلى شيخ من المعلمين وقال أريد أن تعلمني كتاب رب العالمين فقال مرحبا بك على الرحب والسعة، فلازمه واتعب نفسه فحصل له تعلم القرآن المجيد بأربعة أشهر وبشهرين التجويد.» وتكشف هذه القصة عن أسلوب التفكير السائد آنذاك. وقد كان منهج التعليم يشمل دراسة القرآن الكريم والحديث الشريف والسيرة النبوية وعلوم اللغة والفقه والفنون الأدبية. وكان طالب العلم يدرس على علماء شيوخ فيجيزونه.

---

(9) سمعت هذه الرواية من أستاذي حمدي زكي الدجاني الذي ذكر أنه كان مع والده الشيخ زكي بيافا في طريقهم إلى الجامع الكبير حين لقي والده أحد أفراد أسرة دمياني الذي قال له وجدت في أوراق جدي القنصل تفصيل ماجرى بين سليم وبونابرت وعائلة دمياني من عائلات يافا النصرانية التي تعود في أصولها إلى الفرنجة. وقد بقيت هذه العائلات الفرنجية في يافا بعد انحسار موجات الغزو الفرنجي «الصليبي» وتعرّبت.

فـي الأزهـــر :

كان حسين في الخامسة والعشرين من عمره حين رحل «لسلطان الجوامع الأزهر والمحل الأنور سنة سبع وعشرين» وكان الأزهر هو الجامعة التي يتجه إليها أبناء يافا وفلسطين وبلاد الشام عموما لاستكمال تحصيل العلم فيها. ويتضح من الترجمة أن حُسيْنا عرف بعض علماء الأزهر الذين نزلوا يافا «عند دهم الفرنسيس البلاد المصرية» واستضافهم والده سليم ومن هؤلاء الشيخ عمر مكرم والشيخ أحمد الطحطاوي شيخ الحنفية بالديار المصرية.

مكث حسين في الأزهر «مثابرا على التحصيل نحو تسع سنين، فأدرك الطبقة العليا من كبار المشايخ من لهم في علوم الاستناد القدم الراسخ.» وقد حفظت لنا ترجمة أسماء أساتذته، فمنهم «الأستاذ الفضالي والشيخ القويسني والشيخ البخاتي والشيخ محمد العابدي الشهير والعلامة الأمير وشبله البدر المنير، وغيرهم من الجهابذة النحارير كالعلامة الشيخ حسن العطار، والفهامة الشيخ محمد الدمنهوري. وأدرك العارف الشيخ عبد الله الشرقاوي وحضر بعض دروس على الشيخ أحمد الطحطاوي شيخ الحنفية، ولازم الشيخ إبراهيم الباجوري».

الشافعي المذهب يدرس الفقه الحنفي :

كان حسين شافعيا كأبيه، وقد تعرف في الأزهر على الفقه الحنفي. وتوضح الترجمة كيف حدث ذلك وتكشف عن العلاقة بين المذاهب في ذلك الوقت. فقد دعاه الشيخ الطحطاوي «للحضور عليه حين شرع في قراءة حاشيته على الدرّ المختار، فامتنع وأجابه بأنه شافعي المذهب فلا أتحول عنه فقال شيخه التحول عن مذهب لآخر لابأس به بقصد حسن، فإن بلادكم خالية من علماء الأحناف، فيحتاجك الناس وإن والدك يحبّ ذلك، كان الشيخ بينه وبين والده كمال صحبة». وبقي حسين مترددا والدعوة تشغله، «وغب أن حضر شرح المنهج في فقه الشافعية حصلت له إشارة باطنية بالحضور في مذهب الإمام الأعظم والحبر المقدم أبي حنيفة النعمان، صب على ضريحه سحائب الرضوان. ورأى نفسه معيدا على حضرة والده المومى إليه في مراق الفلاح فتفاءل بالنجاح». ويبدو أن ذهن حسين تهيأ لهذا التحول فحصلت له هذه الإشارة ورأى في المنام ما يشجعه عليه. ويبدو أيضا

أن أمر انشغاله بالموضوع بات معروفا بين أصحابه، لأن أحدهم وهو الشيخ عمر البغدادي «وكان من أهل الجذب والصلاح مشهورا بالكشف الصريح» صار يستقبله قائلا «أهلا بشيخ الاسلام مفتي يافا وبلاد الشام». ولم يلبث أن تلقى حسين كتابا من والده «يأمره بالحضور على شيخه الطحطاوي، ويذكر له أن قضاة زمانه عمهم الجهل وينظرون الأقضية على مذهب الامام الأعظم على جهل منهم، وإذا عارضناهم قالوا أنت أجنبي في المذهب» وتمضي الترجمة في تصوير عملية التحول التي يبدو أنها لم تكن سهلة وفق مفاهيم ذلك العصر، فتحكي أنه «استشار بعض أشياخه الكرام فأذنوا له كوالده بالحضور بقصد نفع الأنام،» وتستدرك أنه «بقي يتعبّد على مذهب إمامه النفيس عالم قريش محمد بن إدريس نفعنا الله بجميع الأئمة. ولاشك أن اختلافهم رحمة للأمة». ويسعد المرء النتيجة التي أسفرت عنها هذه العملية وهي إدراك أن اختلاف الأئمة رحمة للأمة وكلهم ينهل من نبع واحد.

درس حسين الفقه الحنفي ثلاث سنوات وكان من أشياخه فيه الشيخ منصور اليافي شيخ الحنفية بالديار المصرية، والشيخ محمد بن حسين الكتبي مفتي السادة الحنفية ببيت الله الحرام حين جاء إلى الأزهر ليصف بعض مؤلفاته.

تصوفه :

يهمنا ونحن نتابع تكوين حسين «العلمي» أن نلاحظ أن علم ذلك العصر جمع بين العلوم الباطنة والعلوم الظاهرة، وبين ما اصطلح على تسميته «الشريعة والحقيقة». وقد اهتم حسين وهو فتى بالطرق الصوفية بفعل نشأته في كنف والده الذي كان «عالما» في الفقه وعارفاً ربّانيا وأخذ الفتى عن والده «الطريقة الشاذلية وأورادها العلية» كما أخذ «العهد في الطريقة الخلوتية البكرية عن العارف بالله الشيخ أبي السعود القدسي خليفة السيد كمال الدين نجل السيد مصطفى البكري الصديقي». ثم تابع وهو بالأزهر السير في هذا الطريق «فأخذ الطريقة الخلوتية عن الشيخ أحمد الصاوي، ثم لبس التاج والخرقة على يد الشيخ محمد فتح الله المالكي خليفة الأستاذ الصاوي حينما قدم ليافه عام مائتين وأربعين لزيارة القدس فأذن له بالخلافة والإرشاد. وكذلك أخذ عنه الخلافة في الطريقة الدسوقية الإبراهيمية وحرر له بخطه إجازة سنية. واما الطريقة القادرية فقد أخذها عن شيخه

محمد العمادي الفالوجي. وأما الطريقة الأحمدية البدوية فقد أخذها عن صالح العلاري المجذوب. وأما الطريقة الرفاعية فعن الشيخ حسن الغزالي الرفاعي. «وتوضح الترجمة أن حسينا لم يوغل في الجذب الصوفي». بل كان في غاية الصحو لاينفك عن قراءة الدروس ونفع البرية بأفصح تقرير ومقال، وإنما يحصل له أحيانا وجد وهيام»

رجوعه إلى يافا :

رجع حسين إلى يافا عام خمس وثلاثين هجرية، وهو رجل في الثالثة والثلاثين من عمره، وقد أخذ نصيبه من العلم، وخبر الارتحال، فأقام على الاقراء والتدريس. ولم يلبث أن أصبح المفتي حين «توجه عليه منصب الفتوى بيافه المحمية على مذهب السادة الحنفية بمنشور من مقام المشيخة الكبرى في الدولة العثمانية وذلك في حياة أبيه سنة ست وثلاثين. واستمر في خدمة الفتيا الجليلة لوفاته ما ينوف من الأعوام عن أربعين».

تولية الافتاء :

بدأ الشيخ حسين مرحلة جديدة من حياته بتولية «الافتاء» سنة 1236 هـ 1820 م، انشغل خلالها بعمله وبالتدريس والتأليف وبالعمل العام فأصبح علما في بلده ووجها من وجوهها وقد مرت بيافا في تلك الفترة أحداث جليلة، من بينها انتشار الطاعون فيها سنة 1243 هـ وإعلان الحرب بين روسيا والدولة العثمانية عام 1245 هـ وقدوم إبراهيم باشا عام 1247 هـ ـــ 1831 م واندلاع الثورة في البلاد على حكمه عام 1250 هـ ثم خروجه وجنوده عام 1256 هـ. وكان للشيخ حسين دوره في توجيه الناس وإرشادهم وسط هذه الأحداث.

اشتهر المفتي بالورع والتقوى. واشتهرت فتاواه بتحري الصواب فيها واتباع الحق وعدم خشية لومة الخلق، وكان عليه أن ينتصر للضعفاء ويتصدى بالمخالفة لأصحاب الجاه والسلطان وقد تناقل الناس أمثلة على ذلك حفظتها لنا ترجمته.

انتصاره للحق :

حدث أن استفتاه خصمان في حادثة أمام ضريح سيدنا علي بن عليم ففصل

بينهما، وإذا بشيخ ناحية بني صعب وهو الشيخ عبد الوهاب الحبوسي يقول «أما علمت أن هذه بلادي ! أتحكم بها وأنا موجود ؟ فأجابه الشيخ مغضبا وكان بيده كراسة حكمتُ بسيف الله وهو يقصم ظهور الجبارين وأهوى بالكراسة». وتحكي الرواية أن شيخ الناحية حين أراد الانصراف وهمّ ليركب فرسه فأحس بآلام في ظهره.

وحدث أن «وقعت حادثة شرعية بين عبد الله أفندي النشاشيبي من أهالي القدس الشريف، وبين رجل ذمي هو نقولا غرغور، ورفعت الحادثة للاستفتاء من المفتي. فكتب مايفيد الحكم الشرعي وكان لصالح الذمّي. فمرّ عليه وهو جالس في المسجد الحاج مصطفى أبو غوش وكان من أمراءالجبال نافذ السطوة والمقال، فالتفت إلى الشيخ وقال له إن لم تحكم لعبد الله على هذا النصراني والا أحكم به سيفي وكان متقلدا سيفه. فقال له المفتي مغاضبا نحكم بما جاء به الشرع ونغير عليه. «وتمضي الرواية فتحكي كيف صادف ذلك اليوم حضور متصرف لواء القدس محمد باشا القبرصلي إلى يافا بمن معه من الأمراء والعسكر، وقبضه على الحاج مصطفى ومن معه قرب يازور وإعادته إلى يافا مهانا ثم تسفيره إلى جهات دربزون ونفيه هناك مدة سنتين.

تتحدث روايات أخرى عن تصدي المفتي لقاضي القدس الذي أمر بضبط تركة أحد الموسرين مع أن هذا الموسر أقام وصيا مختارا عليها قبل وفاته. وقد أفتى الشيخ بأنه ليس للقاضي التعرض للتركة مع وجود الوصي المختار. كما تتحدث عن الجفوة التي قامت بين المفتي وبين إبراهيم باشا الذي «أمر بإبطال بيع السلم وحلّ الفائظ فعارضه الشيخ معلنا أن الشريعة جاءت بحل بيع السلم وإبطال «الفائظ». وقد أراد إبراهيم باشا قتل جماعة فعارضه الشيخ قائلا «لايحل قتل مسلم إلا أن يقْتُلَ مسلما أو أن يكون محصنا وزنى» وتمضي الرواية فتحكي كيف أراد إبراهيم باشا التخلص منه ثم كيف تصالح معه حين تأثر بصدقه وإخلاصه «وصار يحتفل بالشيخ غاية الاحتفال».

يلفت النظر في جميع هذه الروايات أنها تنتهي بنجاح المفتي في إحقاق الحق، وبنجاته من مكر الماكرين. وقد زوّقها انتقالها على الألسنة فصارت نهايتها تبدو وكأنها كرامات للشيخ، ويتراءى لنا أن العقل الشعبي عمد إلى تصور العلماء

الأتقياء العزّل، وهم يواجهون أصحاب الجاه والسلطان، مزودين بقوة روحية تتغلب آخر الأمر على القوة المادية. وينتشر مثل هذا التصور حين يفتقد المجتمع الأمن. ويمكننا ونحن نمحص هذه الروايات أن نستنتج بأن الأحداث وقعت وهي صحيحة ولكن شيئا من التزويق لحق بها.

ورعـــه وتـقـــواه :

تطلب القيام بهذا الدور على صعيد العمل العام تقوى وورعاً واضحين للعيان وقد جسدهما الشيخ حسين في حياته حتى ضرب المثل بتقواه وورعه. وتصور لنا الترجمة كيف عاش حياة صوفية «فكان زاهدا في الدنيا مُعرضاً عمّا فيها من الحطام، قانعا بما حضر وتيسر من الطعام، كثير التحمل وله على مولاه غاية التوكل. ما اتخذ له حانوتا ولا دارا ولو للسكنى مع علو جاهه بين الورى مع العرض عليه من الأمرا والكبرا بل كان يسكن بيتا بالكرى وله صحبة تامة بالأخيار والفقراء». «وتحكي الروايات كيف كان يؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة» وأخبر في حياته أنه لايعرف نفسه من أربعين سنة بات معه «قمري» ولايملك «بارةً». «وقد نظر في بعض الأيام في صندوق زوجته فوجد فيه شيئا من الدراهم فأخذها ورماها وقال «هؤلاء الذين قطعوا رزقنا هذا النهار» ونهاها أن تكتنز وقال لها اجعلي رزقك على الله تعالى يرزقك».

فتح الشيخ حسين «ديوان» داره للضيوف. وكان لايحب أن يأكل إلا معهم. وقد قصده الناس من الأطراف وأقاصي البلاد وأدناها، وزاره عدد من العلماء والأشراف، كما لازمه عدد من التلاميذ والمريدين. واشتهر مجلسه بأنه مجلس علم «محفوظ من الهزل والفحش والهذيان».

تعميرُه المساجد والمشاهد :

كانتْ يافا ومنطقتها بعامّة قد تعرضت بسبب ما ألمّ بها من أحداث إلى نزول الخراب بمساجدها ومشاهدها، فانشغل مفتيها بتعمير ماخرب أو ترميمه. وقد انفق على ذلك مّما كان يأتيه «وبالسعي من أهل الخيرات وتذكر الترجمة من هذه المساجد والمشاهد مقام سيدنا الافراد وقطب أهل الامداد على الاسم والهمة وعمري الأرث والنسبة سيدنا علي بن عليم قدس الله اسراره». وهو عالم صالح

من سلالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه توفي عام 474 هـ ويرد اسمه علي بن عليل، ومن أحفاده العليمي شهاب الدين أحمد بن محمد المتوفى عام 900 هـ ويعرف أهل يافا منطقة المقام باسم «سيدنا علي». ومنها مسجد الصحابي الجليل سيدنا سلمه بن سلامه بن وقش البديري الأنصاري الكائن بقرب يافه، ومسجد أسيادنا أهل الغار الشريف الصحابة الكرام سعد وسعيد الكائن بقرية بيت دجن وقد ترك الشيخ حسين بعض آثار في مقام النبي داود الذي تولى الاشراف عليه جده الأكبر الشيخ أحمد الدجاني في عهد السلطان سليمان القانوني. كما «عمر في مقام سيدنا موسى الكليم ما بصحراه من الآبار لمنفعة الزوار». وعمر المقام المنسوب لسيدنا سعد الأنصاري في بيت دجن.

وكان من عادة الشيخ حسين أن «يتوجه كل عام للقدس والخليل برسم الزيارة» وكان يصحبه جمع من الدراويش والأخيار بعض أكابر أهل العلم والطريق من الديار «كالأستاذ المفضل الشيخ محمد الجسر الطرابلسي، والعارف الشيخ محمود الرافعي، والعالم الشيخ صالح اللاذقي الطويل، والأستاذ الشيخ محمد القاوقجي الشاذلي ابن خليل، وكثير من أهل العلم والتحقيق».

مـؤلـفـاتـــه :

لم يصرف الانشغال بالعمل العام الشيخ حسين عن الانشغال بالتأليف. وقد خصص المفتي له نصيبا وافيا من وقته، فكان أن أخرج عدداً من المؤلفات. وننظر في بيان هذه المؤلفات فنجد في مقدمتها فتاواه التي عرفت باسم «الفتاوي الحسينية السليمية» وهي في الفقه الحنفي وتتناول مختلف موضوعاته «مشتملة على كثير من المشكلات والوقائع». ونجد حاشية على شرح الطائي الصغير لكنز الدقائق سماها التجريد الفائق، وحاشية على شرح الشيخ خالد الأزهري في العربية سماها الكواكب الدرية، وحاشية أكبر منها سماها الزوائد على شرح الشيخ خالد، وحاشية في البيان على متن السمرقندية سماها اللطائف الأزهرية، وحاشية لطيفة على متن الكافي في علمي العروض والقوافي سماها المنهل الشافي. وحاشية على شرح منظومة الطبلاوي التي في علم البيان لشيخه محمد زقوت المجدلي المسماة بتحفة الاخوان سماها عقود الجمان.

وله شرح على فضائل رمضان للأجهوري سماه فتح الرحمان، وله منظومة في العقائد سماها درة التوحيد وشرحها شقيقه الشيخ عبد الله سليم بشرح سماه فتوحات الرشيد، وقد حشى الشرح المذكور شيخه الباجوري بحاشية لم يتمها وقد أتمها شيخنا الناظم. وله وهو في الجامع الأزهر حاشية الكواكب واللطائف والمنهل الشافي وعقود الجمان ودرة التوحيد، وعدا ذلك من مؤلفاته عملهم لما رجع إلى أوطانه. وله حاشية سنية على رسالة النجم الغيطي في ليلة النصف من شعبان سماها العرائس الحسان، وكتاب وعظ سماه الأنوار الزاهرة في أحوال الآخرة ومنظومة في العقائد السنية سماها بتحفة المريد جمع بها بين الجوهرة والسنوسية وذيلها بخاتمة في التصوف وكتب على هامش هذه المنظومة هوامش لو جردت لكانت حاشية صغيرة وشرح الخاتمة بتقييدات بهية، ونظم اسيادنا أهل بدر الكرام بأحسن نظام سماها الشافية من الأسقام.

وله تخميس بانت سعاد ومعارضتها. وله حاشية على شرح شيخه الباجوري المسمى بفتح رب البرية على الدرة البهية نظم الاجرومية للشرف العمريطي. وله شرح على صغرى الصغرى للسنوسي في العقائد. وله عدة رسائل متفرقة.. وأما تعليقاته وكتابته على هوامش الكتب فلا تكاد تحصى.

شعره

نظم الشيخ حسين الشعر، ضمنَه ديواناً شعرياً لطيفاً أغلبه في مدح الأنبياء والسادات الأصفياء واشتهرت منظومته المسماة بالنصيحة الدجانية في التحلي بالأخلاق المرضية[10] وطبعت ومطلعها :

الا بالصبر تبلغ ما تريد وبالتقوى يلين لك الحديد

وكثيرٌ من شعره في الحنين، إذ «كان يحن حنين الطير للديار الحجازية ومن كثرة ماقام به الشوق والحنين جعل ورده التوسل بمدح سيد المرسلين، وطالما نظم فيه قصائد وأبيات ويحمل النسيم وغيره ماعنده من الأشواق والصبابات.»

(10) طبعت القصيدة عام 1320هـ باسم (النصائح الدجانية في الأخلاق المرضية).

مكتبتُه :

اشتهرت مكتبة الشيخ حسين التي كان يأنس إليها. وقد «عرف برغبته في جمع الكتب، فاقتنى منها كتبا قيمة من كل فن من العلوم الحقها بوقفية كتب والده الشيخ سليم». ويلفت نظرنا هذا الحرص على حفظ الكتب من الضياع بجعلها وقفية.

فتـاواه :

عاش الشيخ حسين أيامه في يافا حريصا على نشر العلم، وانتظم في إعطاء الدروس، كما انتظم في تثقيف المريدين من الصوفية، وكان يخرج معهم لزيارة المشاهد في بقاع فلسطين المختلفة. وقد أعمل فكره في المشكلات التي استفتي فيها، وبلور آراء محدودة فيها تطرقت إلى مختلف جوانب الحياة. ويضم فهرس الفتاوي تسعة وثمانين كتابا في العبادات من صلاة وصوم وزكاة، وفي النكاح والأمور الأسرية، وفي الحدود، وفي الجهاد والجزية والمرتدين، وفي الشركة والمضاربة، وفي الاستحقاق والتحكيم إلـخ... وتستحق هذه الفتاوي دراسة خاصة تكشف عن أحوال الناس الاجتماعية والاقتصادية في تلك الفترة. وكان المفتي يعيش وسط الناس يؤدي واجبه في توجيههم، وتتحدث الترجمة أنه «لما وقع الطاعون في سنة ثلاثة وأربعين بعد المائتين والألف صار يدور في أسواق البلدة ويدعو برفع هذه الشدة» ويثبت الناس.

وتتحدث الترجمة عن إنصافه للضعفاء وتصديه للحكام حين ينزلون بالناس الظلم. وقد اشتهرت بين الناس مواقفه هذه فتحدثوا عن كراماته وفقا لما كان سائدا في ذلك العصر. وخاف بعض المتنفذين من هذه الكرامات أن تصيبهم إذا ظلموا بضرر، فعملوا على إرضائه واحترموا حماه. وطبيعي أن يتعرض من هذا مسلكه إلى التآمر عليه وإلى أن يكون عرضة للوشاية. وتشير الترجمة إلى ذلك في مواضع مختلفة فتقول «ورام قتله بعض أرباب الوزرا من الصدور والأمرا حينما رد أحكامهم لمخالفتها الشريعة المظلل بالغمامة ووشى له بعض المفسدين وقال له أوامرك لاتمشي مع وجود هذا الحبر المتين، فعند ذلك تَحيَّل لقتله والله أعلم بفعله ووضع سماً في القهوة... «وتتابع فتشرح كيف نجا. ويلفت النظر أن الشيخ كان

يتوقع رحيل كل حاكم اشتدت وطأته على الناس» من يافا ونواحيها فالله حافظها وحاميها».

حجّه ووفاته

كان الشيخ حسين في الثانية والسبعين من عمره حين عزم على الحج، فدعا خاصته إلى مرافقته وتقول الترجمة : «... قاده الشوق والغرام لحج بيت الله الحرام، ورأى المصطفى ﷺ في المنام وتشكى له من الفاقة فتعهد له بالنفقة، وتيسر المرام. فعند ذاك شد إزاء السفر»... وطلب إلى أخيه حسن أن يسافر معه. كما رافقه ابن عمه الشيخ أبو رباح وهو من الصوفية المعروفين، وبعد «أن قضى وطره وأدى الفريضة لبى نداء مولاه في مكة المكرمة يوم الأحد الحادي والعشرين من ذي الحجة ختام سنة أربع وسبعين. ودفن بالمعلا مابين آمنة الرضا وخديجة أم المؤمنين بجوار قبر الشيخ عبد الرحمان الكزبري قدوة المحدثين» وكان قد أوصى بدفنه هناك في مكة حين تمرَّض نحو ثلاثة أيام «وكان يلهج في مرضه بدعاء سيدنا ذي النون عليه السلام» ويتوسل بآل البيت بهذا البيت :

زماني رماني في مراتع حيّكم   فلا تحرموا المسكين من حسن نظرة

وعند الاستحضار «أوصى أخاه بدفنه بذلك الجوار وقال ياولدي كنت أتمنى الانتقال بجوار المختار ولكن بهذا جرت الأقدار ومكة أفضل من المدينة عند الأئمة الأخيار.. وبشّر رفاقه بالعود الأحمد بالسلامة لدار الوطن والإقامة.»

تأثر الكثيرون حين علموا بوفاة الشيخ حسين. وقد رثاه جملة من الأدباء والعلماء بديار الشام. ومن هؤلاء مفتي عكا الشيخ يوسف الأسير، وعلامة بيروت الشيخ محمد الحوت، والأديب الشيخ عبد الرحمان النحاس، والأديب حسين أفندي به، ومفتي الخليل الشيخ محمد علي الحموري، والشيخ محمد صالح الباقاني، والأديب محمد سعيد الدجاني، والشاعر السالمي الشيخ إبراهيم من غزه هاشم، والشيخ عبد الغني الرافعي من طرابلس الشام.

توفي المفتي عن خمسة أنجال. أكبرهم رشيدهم محمد رشيد أفندي وهو المفتي من بعده، ثم الصاوي الشيخ أحمد، ثم علي أفندي أبو المواهب، ثم الشيخ عبد الرحمان، وأصغرهم محمد أبو السعادات. وقد كتب ترجمة وافية لحياته أخوه أبو

الاقبال حسن سليم الدجاني الذي تولى أمانة الفتيا بيافه. وفرغ منها عام أربع وثمانين ومائتين. وكان حسن قد نشأ في كنف أخيه حيث كان طفلا حين عاد حسين من الأزهر. واشتهر بالفصاحة حين شب وأحسن فضلا عن اللغة العربية اللغة التركية كتابة وتكلما وبعض الفارسية. ثم أضاف محمد أبو السعادات أصغر أولاد حسين إضافات على ماكتبه عمه وأعاد ترتيبه.

اقترن اسم حسين سليم الدجاني ببلده يافا، وبقي ذكره يتردد بين الناس وكثر الحديث عن علمه وتقاه واختلط بالحديث عن كراماته، وأصبح علما من أعلام يافا.

وبعد.. فإن معرفة هذا العَلَم عن كتب من خلال دراسة ترجمته ومؤلفاته تبين أنه كان تعبيراً صادقا عن عصره، وتذكرنا بأعلام آخرين برزوا في ذلك العصر. وقد تداعى إلى خاطري اسم محمد بن علي السنوسي من بينهم الذي عاش في الفترة نفسها بين ربيع الأول 1202 وشعبان 1275. وأذكر أنني في كتابي عنه أبرزت خطوطا ثلاثة في شخصيته هي الخطوط الثلاثة التي نراها في شخصية حسين الدجاني، وهي خط الفقه وخط التصوف وخط العمل العام[11]. ويستحق التشابه الذي نراه بين هؤلاء الأعلام اجراء دراسة مقارنة، وهو يؤكد وحدة الحياة الفكرية في المنطقة، وقد شرحنا ملامحها في كتابنا، عن السنوسي، ويسلط أضواء على طبيعة الانبعاث الذي عاشته أمتنا في القرن الثالث عشر الهجري. ورحم الله مفتي يافا حسين الدجاني رحمة واسعة.

---

(11) أحمد صدقي الدجاني «الحركة السنوسية» بيروت 1967.

تنظيمات الجيش العربي الإسلامي في العصر الأموي

محمد ابراهيم الكتاني

صدر للدكتور خالد جاسم الجنابي ضمن منشورات وزارة الثقافة والاعلام العراقي كتاب «تنظيمات الجيش العربي الإسلامي في العصر الأموي» ولقد حاول المؤلف ــ ومن خلال استقراء النصوص والاستناد الى الحقائق التاريخية ــ أن يتوصل الى أن :

الدولة العربية الإسلامية خلال العصر الأموي، كانت لها مؤسساتها العسكرية الكاملة بتنظيماتها، وقياداتها، وأساليبها القيادية المميّزة.

فتكلم على : العناصر التي تألف منها الجيش العربي الإسلامي، وبين دور العرب كعنصر أساسي وغالب في الجيش، ومساهمة البربر مع العرب في استكمال تحرير افريقية والأندلس، وتوطيد أركان الإسلام هناك.

وتطرق في موضوع إعداد المقاتلين الى عهد الرسول ﷺ، وإجراءات الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في استنفار المقاتلين، ثم تطور هذه العملية الى التجنيد بشكله الإلزامي في العصر الأموي.

وبحثَ العطاء ومصادره وتوزيعه ووراثته، وكذلك الأرزاق والغنائم. وتكلم على صنوف الجيش وأسلحته، والصنوف الجديدة التي استحدثها الأمويون، وتطور الأسلحة وبراعتهم في استخدام أنواعها، وقابليتهم الفذة في الابتكار والتطوير، وتفوقهم على أعدائهم في هذا المجال.

وتكلم على التعبئة وأساليب القتال وتطور النظم الحربية في القتال وأساليبه، وتطبيق العرب السليم لمبادىء الحرب، وأوضح أن الأسلوب الهجومي التعرضي الهادف الى الدفاع عن النفس وعن الدين وعن حرية العقيدة وعن الأرض كان هو الغالب في جميع أعمالهم الحربية، بسبب رسوخ الإيمان عند المقاتل العربي وشجاعته النادرة وثباته في القتال، وإصراره على تحقيق النصر أو الشهادة.

وتطرق في موضوع (القيادة) الى قيادة الرسول ﷺ العسكرية باعتبارها النموذج الكامل للقائد الممتاز، واختيار الرسول والخلفاء للقواد والصفات والمميزات الواجب توفرها في القائد، والرتب القيادية، وتعيين القواد.

ولخص في (الخاتمة النتائج التي توصل اليها في بحثه وختم بقائمة المصادر والمراجع وفهرس للأعلام).

وكان المؤلف قد بحث في رسالته للماجستير «تنظيمات الجيش في العصر العباسي الثاني» فوجد من خلال البحث والدراسة أن النظم العسكرية ــ التي بلغت الذروة في التنظيم خلال العصر العباسي ــ لابد أن يكون لها أسس ومبادىء وتنظيمات وضعت في العصور السابقة.

لذا أصبح من الضروري الكشف عنها وإبرازها لإعطاء صورة واضحة عن التطور الذي وصل اليه الجيش المغربي الإسلامي، وأصبح من واجب المعنيين بكتابة التاريخ العربي الإسلامي إبراز دور العرب الحضاري والإنساني الذي حاول كثير من الكتاب والباحثين الأجانب طمس معالمه كجزء من الحرب الحضارية التي تشن على الأمة العربية.

فتاريخ العرب العسكري حافل بكل ما يستحق الدراسة والتسجيل بكل اعتزاز وفخر، سواء من حيث الفنون الحربية، على مستوياتها المختلفة، أو بما زخر به من أمثلة رائعة في العبقرية العسكرية في القيادة وقيادة الحرب، ومن ءايات الشجاعة والبطولة والفداء (ص / 7 ــ 8).

ونظرا للروح الطيبة النبيلة التي تحدث بها المؤلف عن الأمة المغربية النبيلة وموقفها من الفاتحين العرب المحررين، والامتزاج التام الذي تمّ بين الفئتين في خوض معارك التحرير ــ وذلك ما أهله لأن يدخل في نطاق (مجلة الأكاديمية)

فقد ارتأيت أن أعرض على القارىء فيما يلي الصفحات التي وردت فيه عن هذا الموضوع الحيوي البالغ الأهمية.

فقد جاء في ص (42 ــ 45) مايلي :

«وتطالعنا ظاهرة اشتراك البربر كعنصر فعال من عناصر الجيش الإسلامي في شمال أفريقية والأندلس».

«وقد بدأ دخول البربر في الإسلام تدريجيا مع دخول القوات العربية الى المغرب، وبعد إنشاء القيروان كانت السرايا والغزوات تخرج الى المناطق المجاورة، فبدأ الإسلام يتغلغل بين صفوف البربر بواسطة كبار التابعين، الذين كان القادة والولاة كأبي المهاجر، وعقبة بن نافع وحسان بن النعمان، وموسى بن نصير يبعثون بهم الى مختلف مناطق المغرب لتعليم البربر مبادىء الإسلام».

«وعندما كان عقبة بن نافع مقيما في برقة في ولاية عمرو بن العاص على مصر جمع اليه من أسلم من البربر وضمهم الى الجيش الوارد اليه من الشام من قبل معاوية، وسار الى افريقية، فأسلم على يده خلق من البربر وفشا فيهم دين الله..» (ياقوت، معجم).

وفي خلافة عمر بن عبد العزيز ولى المغرب اسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر، في سنة 100 هـ / 718 م فسار فيهم أحسن سيرة، وقرأ عليهم كتب الخليفة عمر بن عبد العزيز التي يدعوهم فيها الى الإسلام، فغلب الإسلام على المغرب. (ابن عبد الحكم : فتوح مصر).

كانت الدعوة الى الاسلام في المغرب قد أدت مهمتها فأخذت جماعات من البربر بعد اعتناقها الإسلام تقاتل الى جانب المسلمين، ونتيجة لسياسة القائد حسان بن النعمان القائمة على فهم العقلية البربرية والتودد الى البربر واحترام استقلالية قبائلهم، وقف البربر موقف الترحيب من حملة حسان على مناطق البربر، بعد أن سئموا من سياسة زعيمة البربر (الكاهنة) بسبب ما نزل بهم من خراب، وطلب قسم كبير منهم الأمان من حسان، وقد اشترط حسان مقابل هذا الأمان أن يعطوه من جميع قبائلهم اثنى عشر ألفاً ليكونوا مع العرب مجاهدين فأجابوه، وأسلموا على يديه، فعقد لواءين لولدي الكاهنة كل منهما على ستة آلاف فارس وأخلطهم مع العرب يجولون في أفريقية يقاتلون الروم ومن كفر من البربر.

وحرص موسى بن نصير على تعليم البربر مبادىء الإسلام فترك جماعة من العرب يعلمونهم القرآن، ويفقهونهم في الدين.

وكان للفتح العربي الإسلامي الأثر الكبير في استثارة حماس هؤلاء البربر وتفتح نشاطهم بعد أن حاولت السيطرة الرومانية الطويلة أن تفرض عليهم العزلة حتى يظلوا في مكانهم من حياتهم الأولى.

وقد شارك البربر في هذه الفتوح بأعداد كبيرة، وكان لهم فيها النصيب الأوفر، ففي بداية فتح الأندلس كانت القوة التي قادها طارق بن زياد قبيل عبوره الى الأندلس تتألف من اثنى عشر ألفا جميعهم من البربر، عدا بعض كبار الجند العرب وموالي الأمويين (ابن عبد الحكم) ممّا يعطي الدليل القاطع على تغلغل الإسلام في نفوس البربر واطمئنان العرب اليهم.

ومما لاشك فيه أن تعزيز الجيش العربي وتطعيمه بعناصر من البربر على معرفة جيدة بطبيعة الأرض. واتقان لأساليب حرب الجبال كان له نتائج إيجابية في استكمال فتح المغرب والأندلس. وقد دخلت أفواج البربر تقاتل الى جنب العرب معلنة بداية الانقلاب الجذري في تاريخ البربر وارتباط الفريقين بمصير واحد، وقضية واحدة، منذ ذلك الحين. كما أن اختلاط الدماء بين العرب والبربر كان كفيلا بأن يمد الدم العربي بدفقة جديدة حارة من النشاط والقوة، وهي التي مهدت لانسياح العرب في بلاد الأندلس.

والبربر جنس محارب، شديد الغيرة على حريته، وهم يشبهون العرب في نواح عدة، فهم ــ مثلهم ــ بدوٌ رحّل في أرض محدودة. يشنون الحرب على منوالهم، وهم ــ مثل العرب ــ قوم ألفوا الاستقلال منذ القدم، لأن الاحتلال الروماني ظل في العادة مقصورا على الساحل في أقصى الغرب من افريقية الشمالية. وهم يتبعون نفس النظام السياسي القائم على حرية الرأي المتأثر بالنظام القبلي، (دوزي : «تاريخ مسلمي اسبانيا»)، ومن الأمثلة على شدة تمسكهم بالحرية وغيرتهم عليها أن والي أفريقية يزيد بن أبي مسلم عندما أراد أن يضع حرسه من البربر في أيديهم ويضع عليها كلمة (خرسى) غضبوا وثاروا عليه وقتلوه. (البلاذري : «فتوح البلدان»).

لقد تتابعت هجرات البربر الى الأندلس مشاركين العرب في الفتوحات والاستيطان، الا أن هجرات البربر كانت أوسع، وأعدادهم أكثر. يدفعهم الى ذلك تمسكهم بالإسلام، وحماسهم للفتح، بالرغم من حداثة عهدهم بالإسلام، وكانوا يعتبرونه الأساس الأول في النهوض بأنفسهم، والاحتفاظ بحقهم كأنداد للعرب، وسادة في البلاد المفتوحة وأصحاب حق في الغنائم والأرضين. ولهذا فالفضل في إسلام أهل الأندلس يرجع الى هؤلاء البربر الذين آمنوا بالدين الجديد بقوة وصدق، واحتفظوا بهذا الإيمان لأنه يكسبهم حقوقا معنوية ومادية لا يبلغونها بدونه، (فونس : «فتح الأندلس»).

ونحن بدراستنا لعناصر الجيش في بلاد المغرب والأندلس في هذه الفترة لا يمكننا أن نعتبر العرب والبربر عنصرين مختلفين، لأن الروابط الدينية والاجتماعية والمصيرية المشتركة التي جمعت بينهما، واشتراكهما في الفتح والاستيطان جعلتهما عنصرا واحدا، بخلاف العناصر الأجنبية في المشرق من الموالي وخصوصا الفرس...).

وقال في ص 54 :

«وقد دخل في ولاء بني أمية عدد كبير من أهل المغرب، كما دخل عدد كبير في ولاء عمالهم من أمثال موسى بن نصير...»

«وزادت أعداد الموالي في الأندلس زيادة عظيمة...»

و لم يكن وضع الموالي في الأندلس في نفس الوضع الذي كان فيه موالي المشرق، فهناك كان المولى في وضع اجتماعي أقل من وضع الحر، أما في الأندلس فقد كان الولاء شارة امتياز. وكان للموالي منزلة عالية بين عرب الأندلس، ويرجع لزعماء الموالي... الفضل في انتصار عبد الرحمان الداخل وظهور الدولة الأموية في الأندلس، (أخبار مجموعة).

وقال في ص 74 :

«وممّا يلفت النظر أن تجنيد المقاتلين في المغرب والأندلس لم يكن الزاميا أو خاضعا لإجراءات وقواعد صارمة، كما هو الحال في الأقاليم الشرقية، وإنما كان طوعيا واختياريا بسبب تمسك البربر بالإسلام، وحماسهم للجهاد».

وقال في ص 217 :

«وكان لاختيار قادة تحرير أفريقيا وبلاد الأندلس من أمثال عقبة ابن نافع، وحسان بن النعمان، وموسى بن نصير، الأثر الكبير في تلك الربوع، فقد ساهموا بنصيب وافر في كسب قبائل البربر وتعليمهم مبادىء الإسلام فتسارعوا للانضمام اليه. والجهاد تحت رايته، وقد أدت جهود عقبة بن نافع وسياسته المستمدة من مبادىء الإسلام أثناء ولايته لبرقة في سنة 21 هـ / 641 م الى قيام أهلها بإرسال خراجهم الى والي مصر من غير أن ياتيهم حادث أو مستحث».

«ويشير البلاذري (فتوح) الى أن عمرو بن العاص كتب الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعلمه بأنه قد ولى عقبة بن نافع الفهري المغرب فبلغ زويلة وأرقن بين زويلة وبرقة أسلم كلهم، حسنة طاعتهم، قد أدى مسلمهم الصدقة، وأقر معاهدهم بالجزية، وأنه قد وضع على أهل زويلة ومن بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه، وأمر عماله جميعا أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء فيردوها الى الفقراء».

ويعود في الخاتمة التي لخصّ فيها النتائج التي توصل اليها في دراسته الى التركيز على الالتحام بين العرب والبربر فيقول :

«وتشكل مساهمة البربر مع العرب في تحرير المغرب وفتح الأندلس ظاهرة مميزة ومشرقة في التاريخ العربي الإسلامي حيث كان لجهود القادة الأوائل من أمثال عقبة ابن نافع، وحسان بن النعمان، وموسى بن نصير، الدور الكبير في دخول البربر الى الاسلام والإيمان به بقوة وصدق، فشاركوا العرب في حمل رسالة الإسلام، وتوطيد أركانه في المغرب والأندلس، وارتبطوا مع العرب منذ ذلك الحين برباط الأخوة الحقيقية والمصير الواحد، والمصالح والأهداف المشتركة». انتهى.

ونظرا الى أن النسخة التي بين يدي من الكتاب سقطت منها كراسة عند جمع أوراقها وخياطتها، فإني لا أدري ما إذا كان المؤلف قد تناول الموضوع مرة أخرى في الكراسة المحذوفة من هذه النسخة فيما بين الصفحات 129 ــ 160.

بقي أن أشير ــ إضافة الى ما ذكره المؤلف ــ الى فضل هذا الامتزاج الذي تمّ منذ أوائل الفتح الاسلامي بين العنصرين، في قيام الخلافات الإسلامية التي قامت في المغرب : فاطمية، وإدريسية، وقيام دولة المرابطين العظيمة ودورها العظيم في نشر الإسلام في الصحراء الكبرى وجنوبها، زيادة على دورها في إنقاذ الأندلس

وتوحيدها مع أفريقيا الشمالية والغربية، وفي قيام الخلافة الموحدية العظيمة، وفضلها في الدفاع عن الأندلس ودور شعبها الباسل في التطوع في جيش صلاح الدين الأيوبي لتحرير فلسطين والقدس الشريف من براثن الصليبيين المتوحشين. والدولة المرينية، والخلافتين السعدية والعلوية.

وقد كان من بين آثار تغلغل الإسلام في النفوس أن لم يبق في بلاد المغرب العربي مسيحي مغربي واحد، من غير أن يرغم أي مسيحي على التخلي على دينه، مع أن النصارى العرب بقوا في مصر والشام وفلسطين والعراق متمتعين بحريتهم الدينية الكاملة.

ويظهر أن المغاربة اعتبروا النصرانية دين المستعمر الروماني، فلما حررهم الإسلام من استعماره، نبذوا ديانته أيضا !

والى جانب ما امتاز به الإسلام من كونه (دين الفطرة) التي فطر الله الناس عليها، التي لا تثليث فيها ولا صلب ولا فداء، ولا تماثيل ولا ايكليروس ولا صكوك غفران ! ــ وقد لفتت هذه الظاهرة نظر المؤرخ المستشرق الفرنسي جورج مارسيه فعلق عليها قائلا :

«في أقل من قرن واحد اعتنق العدد الأعظم من أبناء أولائك المسيحيين الإسلام، في حماس يجعلهم راغبين في اغتنام الشهادة، وقد تمت النقلة بصورة نهائية خلال القرنيين الأول والثاني الهجريين... غير تاركة في بلاد المغرب سوى بقع ضئيلة، أصبح حتى مجرد الاعتقاد في وجودها أمراً مشكوكا فيه !.

وبينما كانت معظم البلاد التي انتشر فيها الإسلام، تحتفظ بطوائف مسيحية ــ كانت لها مكانة مرموقة في الدولة احيانا ــ مثلما هو الحال في جبل لبنان في الشام، ونصارى مصر، والمعاهدين المستعمرين في الأندلس... الا أن وطن القديس أغسطين (بلاد المغرب) لم يعرف لذلك نظيرا». (بنقل صابر محمد دياب حسين في «بلاد المغرب في القرن الأول الهجري» ص 139 مكتبة السلام العالمية ش الفلكي القاهرة، 1404 ــ 1984). ويلاحظ أن تعبير مارسيه عن العدد الأعظم من المغاربة الداخلين في الإسلام بأنهم من أبناء أولائك المسيحيين ! مع أن الواقع التاريخي يثبت أن انتشار المسيحية في المغرب كان محدودا جدا ممّا يجعل تعبيره غير دقيق.

هذا وقد كان يعيش في المغرب في أغلب الأحيان نصارى أجانب ديبلوماسيون وتجار وأطباء ونحوهم، في نطاق نظام المعاهدين الاسلامي كما أن اليهود المغاربة كانوا متمتعين بحريتهم الدينية الكاملة التي كفلها لهم نظام (الذمة) الإسلامي العادل.

ومن جهة أخرى، فقد ساهم سكان (بلاد المغرب) — عربا وبربرا — في إقامة صرح الحضارة الإسلامية العربية المغربية ذات الطابع المتميز في مختلف الميادين المادية والروحية والفكرية والجهادية لنشر الإسلام والدفاع بين الحين والحين.

وناهيك بالنضال البطولي المتواصل على امتداد ساحة المنطقة الشاسعة لمقاومة الاستعمار الاستيطاني الصليبي العنصري الوحشي : البرتغالي والأنجليزي والفرنسي والإسباني والإيطالي والدولي.

وقد اعتمدت هذه الأنواع الاستعمارية الخبيثة كلها على ما عرف (بالسياسة البربرية) الشهيرة، القائمة على التفرقة العنصرية بين العرب والبربر، والبداية بتحويل هؤلاء عن الإسلام الى المسيحية، في سبيل القضاء على الإسلام في المنطقة كلها، على غرار ما تم في بلاد الأندلس الشهيدة.

وقد قاوم هذا المخطط الجهنمي المغرق في الخيال المريض، كل من العنصرين الملتحمين بلحمة العقيدة الإسلامية السمحاء، والثقافة والفكر الإسلاميين، والتاريخ البطولي الطويل المشترك والخئولة والتحام المصالح الحيوية.

وفي غمرة هذا الجهاد الملائكي لرد العدوان الأثيم، استطاع مغاربة (المغرب الأقصى) أن يقضوا — نهائيا، والى الأبد ! — على الامبراطورية البرتغالية العالمية !

وكان الشعار الذي كانت تهتف به الجماهير المحتجة في جنبات جامعة القرويين بمدينة فاس، وبقية المساجد الكثيرة من المدن المغربية ضد الظهير البربري المقنن لهذه التفرقة المجرمة : (ولا تفرق بيننا وبين إخواننا البرابر).

وقد قدم إلى جلالة ملك المغرب محمد الخامس رحمه الله وفد يمثل علماء فاس ووجهاءها، برياسة أحد كبار علماء المغرب ووزير العدل سابقا عريضة احتجاج ضد السياسة البربرية الإجرامية — مذيَّلة بتوقيعات كثيرة وكان من بين المطالب التي تضمنتها :

(اعتبار جميع المغاربة مسلمين، — ما عدى اليهود — بمعنى أنه لا توجد ملة ثالثة للمغاربة الوطنيين).

وقد وقع سكان مدن أخرى عرائض تتضمن نفس المطالب.

وكان تلاميذ مدارس جمعية العلماء المسلمين بالجزائر يغنون

شعب الجزائـــــر مسلـــــــم والى العروبــــــة ينـــــــتسب

بينما كنا نحن في المملكة المغربية نتغنى بنشيد يقول :

مسلمـــــاً عشت وحسبـــــي أن أرى في المسلـــــــمين
مـــــن أقامـــوا ديـــــن ربي رغـــــم أنـــــف الكافريــــــن
مسلمـــــاً عشت وحسبـــــي ذاك فخـــــــراً وكفـــــى !

وكان طلبة شمال افريقيا المسلمون في فرنسا يتغنون بنشيد جمعيتهم :

حيــــــــو أفريقيـــــــــا حيــــو أفريقيــــا يـــــا عبـــــاد
شمالها يبغـــــــــــــي الاتحاد أبطـــالها تـــأبى الاضطهــــاد
أيــــن رومــــــا وقواهـــــــا واستعمارهـــــا الشديـــــد ؟
أيــــن اسبانيــــا ودهاهـــــا وصلـــــيبها الحقــــــود
قـــــد حطمنــــا أغـــــلالها واستقـــــلت منها البــــــلاد

وها هي البلاد قد استقلت بالفعل، ومازالت وحدة شمال افريقيا — المغرب العربي — لم تتحقق لحد الآن، نتيجة رواسب استعمارية لم يتم بعد التغلب عليها ومازالت جهود المخلصين متواصلة في هذا السبيل(*).

لقد زود الإسلام سكان المنطقة بطاقة نضالية روحية خارقة، مكنتهم من تحقيق المعجزات التي لم تكن تخطر ببال كثير من الناس، وهي الطاقة التي تتواصل جهود الأعداء للقضاء عليها.

(*) كتب الله سبحانه وتعالى أن تتحقق أمنية قيام الوحدة بين دول المغرب العربي، فأُعلن بمراكش عن إنشاء «اتحاد المغرب العربي» يوم الجمعة 11 رجب 1409 الموافق 17 فبراير 1989، عقب لقاء قمة بين قادة الدول الخمس : المغرب والجزائر وتونس وليبيا وموريطانيا.

من ندوات أكاديمية المملكة المغربية

ازدهار العلوم عند العرب

الربـــاط

الخميس 16 رجب 1406هـ / 27 مارس 1986م

ازدهار العلوم عند العرب

فؤاد سزكين

لقد مضى أكثر من قرنين على الدراسات الحديثة للعلوم العربية والإسلامية منذ بداية تلك المرحلة للتفكير البشري التي يرى معظم المؤرخين أن مبدأ التاريخ النقدي أصبح مسيطراً فيها. ووفقا لهذا المبدأ فالرأي المميز لتلك المرحلة هو أنه ليس كل شيء ممكناً في كل وقت وأن الإنسان لايجوز أن يعتبر بعد منفرداً أو مجرداً عن بيئته بل يجب أن ينظر إليه في ظروف عصره وخصائصه. ويسمى نشوء مثل هذه الظاهرة عادة مرحلة «الإنسانية» (Humanismus) أو «التنور» (Information). «فتحت تأثير مثل هذا الموقف أخذ يظهر هنا وهناك وبالتدريج رأي بأن الإسلام الذي توسع في آسيا وأفريقيا وحتى في أوروبا توسعاً كبيراً للغاية لايمكن أن يكون ظاهرة سخيفة كما يتصور الأوروبيون على الإطلاق ولايمكن أن يرفض بمجرد تجنيد الوسائط الجدلية وإنما يجب أن يجري نقاش تلك الظاهرة العظيمة نقاشاً جاداً كما يجب أن تدرس مبادؤها وأدلتها بصورة رصينة ودون تحيز»[1]

إن العمل الذي تمّ منذ ذاك الوقت من نشر النصوص وتحليل محتواها ومدلولها ومقارنة ماجاء فيها بإنتاجات البيئات الأخرى ونقاش نشأة تلك العلوم وتطورها وتأريخ فروعها المختلفة هو إنجاز ليس بالقليل بصرف النظر عن واقع انتقال تلك العلوم إلى أوروبا الذي ترجع أوائله إلى القرن العاشر الميلادي على الأقل، وبصرف

---

(1) J. Fück : Du arabischen in Europa, Leipzig. 1955. pp 97 - 98

النظر كذلك عن الاشتغال ببعض تلك العلوم كأداة للكفاح العقائدي أو بغرض التبشير.

إنه لمن الطبيعي أن آلافا من الدراسات التي تمت في تلك الفترة لم تكن كلها لصالح العلوم العربية والإسلامية و لم تكن كلها تجري وفقا للمبدأ المذكور آنفا، و لم تكن كلها تستهدف مجرد الوصول إلى النتيجة الموضوعية، كما لم يراع فيها كل النتائج المتوصل إليها فيما سبق إما عناداً أو جهلاً لوجودها وكذلك لم يكن هناك تطور مستمر طبيعي في الدراسات بل كان هناك الكثير من الرجوع والتأخر والتدني. بيد أن قانون التطور يأخذ مجراه فيتبقى في آخر هذا السير بالطفرات والتنميات شوط طيب قطع في قضية العلوم العربية والإسلامية : إن تعرف العرب والمسلمين على تلك الأعمال الإستشراقية لم يكن الاّ متأخرا جداً وربما ابتدأ في العشرينات من هذا القرن. ولكنه كان بصورة عشوائية انفرادية و لم يكن شاملاً أو قريباً من الشمول فلم ينتبه إلى تقدير سليم و لم يسلك سبيل وضع هذه الأعمال في خدمة القارىء العربي والمسلم، بل توجه الاهتمام على عكس ذلك إلى رد بعض آراء المستشرقين في نواح عقائدية وكلامية (ثيولوجية) والتي لايمكن للمسلم أن يقبلها وربما تكون جارحة له ولابد للمسلم المختص من أن يردها. أما المساهمة في قضية تبيين مكانة العرب والمسلمين في تاريخ العلوم بناء على ما تُوصِّل إليه ونقاشِهِ وردِّ ماهو سقيم منه والدفاع عن السليم وتنميته فلم يجر منها الشيء الكثير و لم يعتن بالتهيئة لها لتصبح ممكنة في مستقبل قريب. فانحصر الاهتمام على ترجمة كتب لم يكن اختيارها ناجحاً تماماً. ربما لايجد رأيي هذا موافقة الجميع، ولكن مسؤوليتي كمؤرخ العلوم العربية والإسلامية من جهة وتضامني مع الأمة التي أنتمي إليها من جهة أخرى يقتضي أن أصرح به.

بعد هذه المقدمة أشرع في عرض كلامي المجمل إليكم عن ازدهار العلوم في الاسلام فأقول : إن الدراسات التي تمّت إلى الآن تعطينا مادة كبيرة لمعالجة هذا الموضوع لكنها مليئة بالاختلافات والتناقضات ولذلك لايمكن أن تعطينا أيّ محاولة لعرضه صورةً تكون أو تكاد أن تكون نهائية. وهناك حقيقة أخرى مهمة في هذا السياق وهي وجود تصورين موروثين من القرون الماضية لايزال لهما تأثير في

أحيان كثيرة على الباحثين وعلى نتائج الأبحاث وهما تصور المكانة العظيمة للإغريق دون تحفظ، ثم تصور ما يسمى بمرحلة النهضة والتعريف المصطنع لنشوئها.

إن إحدى مسائل موضوعنا التي نوقشت كثيرا دون التوصل إلى اتفاق هي مسألة تحديد الوقت الذي نشأت فيه العلوم في العالم الإسلامي سواءً النقلية أو الطبيعية منها. فلا يعرف منذ متى تسلط على أكثرية الباحثين التصور بأن التدوين والتأليف قد ابتدأ في العالم الإسلامي في منقلب القرن الثاني إلى الثالث للهجرة. وحين يتوصل الباحث إلى ما يخالف ذلك ويرى أن ابتداء العلوم في الإسلام يبدو أنه يرجع إلى أقدم مما يفترضه هذا التصور المعتاد يصطدم بمقاومة شديدة وتضامن غريب عند الآخرين.

فمن أخطر نواحي هذا الموقف العنيد ما يصادفنا في قضية كتابة الحديث النبوي وتدوينه وتصنيفه وما يتبع ذلك من تحديد أوائل التدوين في التاريخ والفقه والعقيدة. إن الدراسة الاستشراقية في هذا الموضوع ابتدأت في أواسط القرن التاسع عشر وبلغت قمتها العليا في أواخره بكتاب أجناس جولدتسهير المعنون «دراسات إسلامية (Mohammedanishe Studien) حيث أصبحت نتائج هذا الكتاب في القرن العشرين أساسا لايقبل الشك. وفحواها أن كثيراً من الصحابة سجلوا الأحاديث النبوية في كتيبات دعيت صحفاً أو أجزاءاً ثم جاء بعدهم تيار كان يكره كتابة الحديث أو تسجيله فتركت الأحاديث للرواية الشفوية مدة قرنين من الزمن إلى أن جاء المحدثون في القرن الثالث للهجرة مثل البخاري ومسلم وغيرهما فسجلوا الروايات من أفواه الرجال. فبعد عرضه لهذه القضية على هذا النحو يأخذ جولدتسهير يتساءل عن القيمة التاريخية لمثل هذه الأخبار التي رويت شفويا طوال قرنين كاملين وعن نصيبها من الصحة فيجيب بأن هذه الروايات كلها ليست لها أي قيمة سوى أنها تعكس الآراء السائدة في عهد المصنف الذي جمعها. إن إطار هذه المحاضرة لايسمح لي بمناقشة صحة هذا التصور فأكتفي بعرض تصوري الخاص مجملاً أن الأحاديث النبوية شرع في كتابتها في عهد الصحابة ثم تبعت مرحلة الكتابة تلك مرحلة التدوين في النصف الثاني من القرن الأول للهجرة أي مرحلة تدوين محتوى الصحف والأجزاء في كتب أكبر حجماً فتلتها مرحلة التصنيف على الأبواب في النصف الأول والثاني من القرن الثاني لما دون من قبل

إما بدون ترتيب أو على أساس المواضيع المفردة. فأما الكتب المصنفة للأحاديث النبوية في القرن الثالث للهجرة فكانت عبارة عن انتقاء الأحاديث من المصنفات السابقة وتصنيفها تصنيفا أدق. والأسانيد الموجودة في المصنفات المتأخرة وما قبلها تدل على حقوق الروايات فكانت التعبيرات مثل «حدثنا» و «أخبرنا» تستعمل في الأسانيد على أساس قواعد تحمّل العلم الموضوعة في مصطلح الحديث. لقد نشرت نتائج بحثي في هذا الموضوع في كتاب مستقل قبل ثلاثين عاماً ولخصتها وعالجتها مرة أخرى في مقدمتي للقسم الخاص بعلم الحديث في المجلد الأول من كتابي «تاريخ التراث العربي» وقد نشر هذا المجلد سنة 1967 م وترجمته إلى اللغة العربية معروضة لاستفادتكم.

فتبعاً لنتائج هذا البحث وصلت إلى التيقن من أن التأليف في الفقه وتفسير القرآن والعقيدة واللغة والنحو ابتدأ في القرن الأول للهجرة.

لعلكم ترغبون في معرفة صدى مثل هذا التصور المخالف لما هو معتاد عند المختصين. لقد ابتدأ النقاش حوله فوراً في أوروبا. فاكتفى كثير من الباحثين بمجرد ذكر أهميته دون إبداء رأي إيجابي أو سلبي منه، كما لاحظت تأثر كثير من الباحثين به وتطبيقهم له على دراستهم ربما دون شعور واضح باتباعهم للعرض الجديد. وكبرت دائرة النقاش في السنوات الأخيرة فبعض الباحثين يقبل به وأكثرهم يميل إلى رفضه. أما موقفي مما يجري في هذا الصدد فموقف المشاهد المنتظر ممّا يسر الله تعالى له أن يراه في حياته من كل هذا القبول والرد متمنيا أن يبين موقفه منه ذات يوم.

نظراً لضيق الوقت أنتقل الآن من الكلام في العلوم العقلية إلى العلوم الطبيعية. إن الرأي السائد في هذا الصدد هو أن الاشتغال بالعلوم الطبيعية في العالم الإسلامي ابتدأ بعد ترجمات الكتب الإغريقية منذ منقلب القرن الثاني إلى الثالث الهجري. فخلافاً لهذا التصور أعتقد أن تلك العلوم قد ابتدأت في العالم الإسلامي في النصف الثاني من القرن الأول وأرى يقينا أن الترجمات الأولى من الإغريقية والفهلوية (الفارسية المتوسطة) ترجع إلى نفس القرن ملاحظاً أن العرب والمسلمين قد تعرفوا على علوم البيئات الأجنبية بواسطة ممثليها بعد انضمام تلك البيئات إلى العالم الإسلامي بالاتصال المباشر بهم. وأن الترجمات الأولى تمت على يد ممثلي تلك

البيئات سواء أكانوا معتنقين للإسلام أو من أهل الذمة. ثم تبعث تلك الترجمات الأولى زمنياً الترجمات من السريانية والسنسكريتية.

وهناك بالنسبة لتاريخ الترجمة ونشأة العلوم في الإسلام قضية هامة جداً يجب أن أتعرض لها ولو بإيجاز شديد. فمنذ القرن التاسع عشر يصادف بعض الباحثين ضمن المخطوطات العربية في ميادين العلوم الطبيعية والفلسفة بعض كتب مزيفة منسوبة إلى أساطين العلوم عند الإغريق أوغيرهم مثل أرسطوطاليس وبقراطيس... إلخ. فلم يمض وقت طويل على نقاش مؤلفي تلك الكتب حتى استحكم الرأي بأن العرب هم الذين ألفوها ونسبوها إلى الآخرين. وبعدما توسع الاشتغال بتلك الكتب كمصادر لهم ويستفيدون منها أخذ أصحاب هذا الرأي يعللون الأمر بأن العرب ألفت تلك الكتب مزيفة أولاً ثم صنفوا بعد ذلك الكتب بأسمائهم اعتماداً عليها. فلا أريد أن أطيل في الكلام في غرابة مثل هذا الرأي الذي لم يفقد اعتباره إلى الآن بل أعرض عليكم رأيي الخاص في الموضوع الذي تجدون تفاصيله في بعض المجلدات من «تاريخ التراث العربي». إنني أعتقد أن تلك الكتب المزيفة التي بقي معظمها باللغة العربية (بينما حفظت أصول بعضها باللغة الإغريقية) كانت متداولة قبل الإسلام في المراكز العلمية، مكتوبة باللغة الإغريقية وغيرها في إطار تقليد كان موجوداً عادة عند الأمم الأخرى وخاصة عند الإغريق منذ قرون. وكانت تلك الكتب المزيفة تحتوي على شيء من إنتاجات القرون المتأخرة قبل الإسلام وكان فيها استفادات من الكتب الإغريقية الصحيحة وغير الصحيحة. إن تلك الكتب كانت من المصادر الأولى التي وصلت معرفتها إلى المسلمين وترجمت إلى العربية ثم تبعتها معرفتهم بالكتب الإغريقية الصحيحة.

قبل أن أنتقل إلى عرض صورة عابرة عن التطور الذي تيسر للعلوم في العالم الإسلامي أود أن أشير إلى بعض الظروف التي سهلت سرعة عملية أخذ معارف الأجانب وتطويرها فيه. لقد أشار أحد المستشرقين في أوائل السبعينات إلى أن الدافع النفعي العملي أو النظري لايكفي ليعلل لنا ظاهرة العملية الواسعة لترجمة الكتب الأجنبية وإنما هو موقف الدين الإسلامي ذاته من العلم كالمحرك الكبير للحياة الإنسانية في جميع جوانبها وحثه إلى السعي وراء العلم.

وهناك واقع آخر فيما يتعلق بنشأة العلوم في الإسلام وهو أنه كانت هناك مراكز

علمية كثيرة في حيز البحر الأبيض المتوسط كان يتيسر للعلوم فيها تطور مّا، لكن إنتاجاتها كانت تبقى مقتصرة على بيئة ضيقة دون تأثير وتأثر سريع ومستمر بين تلك المدارس خلافا لما تيسر للإسلام من جمعها في إطار دولة كبيرة اهتمت بها اهتماما خاصا ووفرت واسطة الاتصال بينها ثم جمعت معظم منسوبيها مع مرور الزمن في بغداد.

ثم هناك واقع ثالث هام في ازدهار العلوم في الإسلام وهو أن أخذ علوم البيئات الأجنبية ابتدأ بانتقال معظم تلك البيئات إلى العالم الإسلامي سواء أكان المنتسبون الأولون لها معتنقين للإسلام أو غير مسلمين، أي أن الأخذ قد جرى بصورة طبيعية ودون ضغط أو تعسف ودون عقدة نفسية بل بصلة واضحة بأصحاب العلوم الأولين وحامليها ونتيجة لهذا بدون الانتحال أو إخفاء أسماء أصحابها والتعسف في النقد والردّ بل بكل تقدير واحترام وامتنان تام، خلافاً تاماً لما حصل في انتقال العلوم العربية إلى أوروبا بواسطة الترجمات اللاتينية والعبرية وغيرها. وللأسف فإن تاريخ العلوم لم يلتفت إلى هذا الواقع بعد ولم يُجر المقارنة بين هذين الشكلين المختلفين لعملية أخذ العلوم.

فبعد هذه الملاحظات أنتقل إلى قضية تطوير المسلمين لما أخذوه من الأمم الأخرى مختاراً بعض نواحي العلوم كأمثلة.

لقد ذكرت آنفا أن الترجمات من اللغة الإغريقية والفهلوية إلى العربية قد ابتدأت في القرن الأول للهجرة. فاتسعت مرحلة الأخذ التي ابتدأت على هذا الأساس اتساعا سريعا وتطور الأمر إلى أن رافقتها في النصف الثاني من القرن الثاني مرحلة التمثل. وكان من الطبيعي أن الظروف الخاصة ببعض نواحي العلوم اقتضت اختلاف بعضها عن بعض من حيث سرعة التطور. لكنه يجوز لنا على أي حال أن نرى بداية مرحلة الإبداع في جميع نواحي العلوم في أواسط القرن الثالث الهجري مخالفين بذلك بعض المختصين الذين يرجحون تأخيرها ما يقرب من قرن كامل تبعاً لتأخيرهم بداية مرحلة الأخذ كما أشرنا إليه.

إن نتائج الدراسات التي تمت إلى يومنا هذا واضحة وكافية لإقناعنا بأن التطور الشامل في جميع نواحي العلوم استمر إلى أواخر القرن الثامن أو أوائل القرن التاسع

الهجري حيث أخلى مكانه لمرحلة الركود التي لم يشعر المسلمون بحلولها إلاّ بعد نحو قرنين.

فأكتفي هنا بالإشارة إلى الطابع العام للتطور الذي تحقق في بعض نواحي العلوم مبتدئاً بالرياضيات : إن المسلمين ابتدأوا بحساب الأصبع أو بالحساب الذهني ومن المعروف أن الدولة الأموية كانت مضطرة إلى إجراء حسابات الدواوين في مصر باللغة القبطية وفي الشام بالاغريقية وفي العراق وفارس بالفهلوية إلى أن ترجمت كلها في أواخر القرن الأول إلى العربية (انظر تاريخ التراث العربي، الأصل الألماني ج 5 ص 21). فنرى أن المسلمين يصلون في تطور سريع إلى مرحلة تحليل المعادلات الجبرية من الدرجة الثانية في أواسط القرن الثاني وإلى فهم الحسابات الهندية بما فيها حساب الجيب وأخذ الأرقام الهندية بما فيها الصفر.

ثم نراهم في النصف الثاني من القرن الثاني يترجمون كتاب «الأصول في الهندسة» لأقليدس، ويأخذون في أواخر القرن الثاني في تأليف شروح له يتبعها تصحيحاته وتعليل بعض مصادراته. ومن علامات هذا التطور السريع أن يرى أبناء موسى الثلاثة أنفسهم قادرين في أواسط القرن الثالث على تصحيح كتب أقليدس وأرخميدس وأبلونيوس.

ونشأت في النصف الأول من القرن الثالث أول كتب يعالج فيها الجبر كعلم مستقل فكان المؤلفون الأولون في ذلك : محمد بن موسى الخوارزمي وسند ابن علي وعبد الحميد التركي. إن معالجتهم للجبر كانت في ذاك الوقت مقتصرة على المعادلات من الدرجة الأولى والثانية ولكن ما أن مضى نصف قرن على تلك المحاولات حتى نشاهد المحاولة الأولى لإرجاع مشكلة هندسية إلى معادلة من الدرجة الثالثة. إن الرياضي الذي يرجع إليه هذا الشرف في تاريخ الرياضيات هو محمد بن عيسى الماهاني ولكن الوقت لم يكن ناضجاً بعد ليتيسر له حل المعادلة فكان لابدّ من مرور نصف قرن آخر من الزمان حتى أتى أبو جعفر الخازن لأول مرة بطريق حل لمعادلة من الدرجة الثالثة، فتبعه إيجاد طرق عديدة إلى أن وصل التطور عند عمر الخيام في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري إلى معالجتها معالجة مستقلة وتطوير منهج عام للمعادلات من الدرجة الثالثة. ولم يقف التطور عند هذا الحد بل استمر إلى معالجة المعادلات من الدرجة الرابعة في القرن السابع

على يد شرف الدين الطوسي وإلى عرضها عرضا شاملا على يد غياث الدين الكاشي في القرن الثامن الهجري.

أقول بكل اختصار إن التطور في الناحية الهندسية كان تطوراً عظيماً. فمن أهم جوانبه أن نوعاً من فلسفة الهندسة وجد كيانه على يد ابن الهيثم في النصف الأول من القرن الخامس الهجري. ثم وصل العلماء العرب والمسلمون باشتغالهم الطويل بقضايا الخطوط المتوازية إلى حدود الهندسة غير الأقليدية ويدخل في إطار مساهمتهم في علم الهندسة عملهم الهائل في تاريخ المثلثات. فبعدما وصل إليهم حساب الأقواس البسيط من الإغريق وحساب الجيب المحدود من الهند شرعوا في تطويرهم السريع منذ أواسط القرن الثالث من الهجرة حتى اكتشفوا في أواخر القرن الرابع حساب المثلثات الكروية. وأدت بهم معالجتهم الواسعة لتلك المثلثات وللمثلثات المسطحة إلى تأسيس علم حساب المثلثات علماً مستقلاً وذلك في النصف الثاني من القرن السابع للهجرة على يد نصير الدين الطوسي. لكنه لايزال يتكرر في تاريخ الرياضيات اتباعاً لتقليد قديم أن هذا الشرف يرجع إما إلى لفي بن جرسون من القرن الرابع عشر أو إلى رجيومونتانوس من القرن الخامس عشر على الرغم من أن مؤرخ علم الرياضيات براونمول Braun-mühl قد كشف هذه الحقيقة وأعلنها في بداية القرن الحالي.

ولنختر مجال علم الفلك مثالاً آخر لما تيسر من التطوير في العالم الإسلامي : إن العرب قبل الإسلام كانت تتصور أن الأرض مسطحة وأن السماء قبة فوقها. ولقد وصل إلى العرب تصور الإغريق بأن الأرض كروية وساكنة في مركز العالم بينما تدور السماء وما فيها حولها قبل آخر القرن الأول للهجرة. وكان من حظ المسلمين أن المعلومات الفلكية الإغريقية كانت قد وجدت عند الإيرانيين الساسانيين قبولاً ودمجاً بالنظريات الفلكية البابلية والهندية. إن انتقال هذا التراث الأكلكتي الإيراني مع حامليه إلى العالم الإسلامي لعب دوراً هاماً في التطور المبكر والسريع لعلمي الفلك والرياضيات، فنرى أن الخليفة المنصور كانت لديه فكرة عن الفلكيين الهنديين في أواسط القرن الثاني ودعى بعضهم إلى القدوم إلى بغداد، وجعل فلكيين مسلمين يترجمان كتابهم «السند هند» بحجمه الكبير ومسائله الفلكية الرياضية المعقدة إلى العربية سنة 161 هـ. ثم نرى أن المعلومات الفلكية والرياضية

التي توافرت وتوسعت عندهم بسرعة تمكنهم من ترجمة وشرح كتاب «المجسطي» في الفلك لبطلميوس ربع قرن بعد ترجمة كتاب الفلك الهندي. ونرى العلماء المسلمين قد وصلوا في العقدين الأولين من القرن الثالث إلى تطور يمكنهم من تصحيح ما وصل إليهم من بطلميوس نظرياً وعملياً ببنائهم دور الرصد وتحسينها واختراعهم الآلات الفلكية باستمرار حتى أنهم أخذوا يشكون في صحة عرض بطلميوس لهيئة العالم ودوران السيارات منذ أوائل القرن الخامس الهجري. إن نظرياتهم الجديدة ومحاولاتهم في وضع نظام جديد محل النظام البطلميوسي انتقلت من شرق العالم الإسلامي عن طريق بيزنطة ومن غرب العالم الإسلامي عن طريق الأندلس إلى أوروبا وأدت إلى ظهور نظام فلكي جديد على يد كوبرنكوس.

أما عن نتائجهم من الناحية العملية والحسابية في علم الفلك فيكفينا أن نقول إن مناهجهم فيها لاتزال تستعمل في علم الفلك الحديث. وأذكر هنا مثالين على ما أحرزوه من نجاح باهر : فلقد لاحظوا لأول مرة أن نقطة المسافة الكبرى لبعد الشمس عن الأرض (نقطة الأوج) تتغير كل سنة وحسبوا مقدار هذا التغير باستمرار إلى أن توصلوا في القرن السادس إلى مقدرا 9,12 ثانية سنوياً وهو لايختلف إلاّ اختلافاً ضئيلاً عمّا توصل إليه علم الفلك الحديث، حيث ثبت التغير السنوي بمقدار 6,11 ثانية. والمثال الثاني هو ملاحظتهم في النصف الأول من القرن الرابع الهجري أن ميل محور الأرض يتغير. ولامتحان هذه الظاهرة قام أحدهم بتركيب آلة بلغ ارتفاعها أربعين متراً للرصد على مدى زمني طويل فوجد أن هذا الميل يقل بمرور الزمن، الأمر الذي أكده علم الفلك الحديث في القرن التاسع عشر.

بعد هذه اللمحة عن علم الفلك أنتقل إلى علم الجغرافيا لما بينهما من ارتباط وثيق. إن لدينا أسباباً كافية تدعونا إلى الانطلاق مبدئيا من أن اهتمام العرب والمسلمين بمسائل الجغرافيا قد ابتدأ في القرن الأول. وبدون الخوض في نقاش هذا المنطلق أقول إن المعلومات الجغرافية الإغريقية قد وصلت إلى العالم الاسلامي بطرق مختلفة قبل خلافة المأمون. وكان معروفاً عند الخليفة وبعض علمائه أن بيانات درجات الأطوال والعروض في الجغرافيا الفلكية البطلميوسية لم تكن ــ باستثناء ثلاثة أو أربعة أمكنة ــ حصيلة قياسات فلكية وإنما مجرد تخمينات. فأراد

الخليفة أن تكتب جغرافيا العالم من جديد وأن ترسم خريطة للعالم استناداً إلى القياسات الفلكية. فاختار مجموعة كبيرة من علماء عصره لهذا الغرض وأوكل إلى ثلاثة منهم مهمة استخراج طول خط الاستواء بالقياس الدقيق. إن العمل الذي جرى بناءً على ذلك بين تدمر والرقة كان أول قياس علمي لهذا الغرض في العالم. ونتيجة ذلك القياس لطول خط الاستواء لاتختلف عن النتيجة المعروفة اليوم إلاّ بنحو مئة كيلومتر. إن تلك المحاولة لتأليف كتاب جغرافيا للعالم ووضع خريطة له استناداً على قياسات تجري في نواح مختلفة من العالم يجب أن تفهم كما ينبغي بمعنى أن المسلمين في ذلك الوقت أصبحوا يرون أنفسهم في ظروفهم الجديدة قادرين على أن ينجزوا ماهو أحسن من الأمم التي سبقتهم كالإغريق وغيرهم بل غدوا يعتبرون تصحيح كل ماوصل إليهم من العلم رسالتهم وواجبا عليهم. إن النتائج التي توصل إليها هؤلاء العلماء في عهد المأمون بمثل هذا الشعور بالثقة بالنفس وأداء الرسالة كانت عظيمة جداً ولعلها جديرة بأن تعتبر من أكبر مساهمات المسلمين في تاريخ العلوم والحضارة الإنسانية، غير أنها لم تقدر على هذا الأساس في القرن الحالي لأسباب مختلفة لا أستطيع الخوض في شرحها هنا.

إن التطور في علم الجغرافيا كان واسعاً وسريعاً والإنتاج الذي استمر من البداية وحتى القرن التاسع الهجري كان عظيماً، ولايسعني في إطار محاضرتي هذه الاّ أن أذكر طرفاً منه. فلقد نشأت في القرن الثالث للهجرة الجغرافيا البشرية. والحقيقة أن التطور الذي وصل إليه هذا النوع من الجغرافيا شيء مدهش. إن المقدسي وهو الممثل الأخير لهذا النوع في القرن الرابع الهجري كان المستشرق شبرنجر (A. Sprenger) في أواسط القرن الماضي يعتبره أكبر جغرافي في العالم. ربما كان في ذلك شيء من المبالغة ولكنه لايبعد عن الحقيقة كثيراً. وبعد المقدسي بزمن قليل أسس البيروني بكتابه «تحديد نهايات الأماكن وتصحيح مسافات المساكن» الجغرافيا الرياضية فرعاً مستقلاً وعلى أسس متينة. ونتيجة لمناهجهم العالية للأرصاد الفلكية، وتأسيسهم المثلثات الكروية مثلا، استطاع العرب والمسلمون أن يصلوا إلى تحديد طول البحر الأبيض بمقدار أصح مما وصل إليه بطلميوس بعشرين درجة ولايختلف عما توصل إليه القرن الحالي الاّ ببضعة كليومترات. وأخيرا أقول إن الاكتشافات الجغرافية في القرن الخامس عشر والسادس عشر الميلادي في أوروبا

رَحِيما﴾[7]﴿وَلاَيُكَلِّفُ الله نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ، رَبَّنَا لاتُؤَاخِذْنَا إنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[8] وأكد هذا الدعاء رسول الله ﷺ في صيغة تقريرية بقوله «إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان...»[9]

ثم زاد الاسلام على كل ذلك فضلا آخر، فأربى على كل ما يخطر على بال العلماء وما يجول في أمانيهم، فلم يقتصر على التجاوز عن خطأ المخطىء وعلى الصفح عنه، بل نراه يكتب لهم الحسنة والثواب حين يخطئون وهم سائرون في طريق العلم، فيجعل للمخطىء أجرا واحدا وللمصيب أجرين[10].

وهكذا اطمأن العالم على نفسه ومصيره، وازداد انطلاقا في ميادين البحث المختلفة دون ماخوف ولا تردّد.

* * *

لقد فهم سلفنا الصالح منهج الاسلام في التفكير والبحث، وتدبّروا ما في كتاب الله تعالى من آيات محكمات، وما في سنة رسوله ﷺ من أقوال وأفعال، وظهر كل ذلك في مواقفهم. وحسبي أن أختم هذه الكلمة بالاستشهاد بآراء نفر منهم :

فقد نُقِل عن الفقيه الامام أبي حنيفة قوله : عِلْمُنا هذا رأي، وهو أحسن ماقَدَرْنا عليه، فمن قَدَر على غير ذلك فله ما رأى، ولنا ما رأيناه». ونقل عن الامام الشافعي قوله : «ما ناظرتُ أحدا فأحببتُ أن يخطىء. ومافي قلبي من علم الاّ ودِدتُ أنه عند كل أحد و لايُنْسَبُ إليّ» وقوله عن أهل الأهواء : «إذا خالف أحدُهم صاحبَه قال له : كفرتَ : والعلمُ انما يقال فيه أخطأت».

ومن أقوال أديبنا الكبير الجاحظ «تعلّم الشكَّ في المشكوك فيه تعلُّما. فلو لم يكن في ذلك الا تعرُّفُ التوقف، ثم التثبّت، لقد كان ذلك مما يُحْتاجُ إليه». ومنها

(7) الأحزاب : 5

(8) البقرة : 286

(9) رواه ابن ماجه والطبراني والحاكم

(10) روى الحديث البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد، قال الخطابي : «انما يؤجر المخطىء على اجتهاده في طلب الحق لأن اجتهاده عبادة، ولا يؤجر على الخطأ بل يوضع عنه الاثم فقط» (السيد سابق، فقه السنة 3 : 401 ــ دار الكتاب العربي، بيروت).

وذلك مالم يجد حظه من تقدير البحث الحديث كما ينبغي. ثم أشير إلى أهمية تقديرهم لعمل أسلافهم من الأمم الأخرى واحترامهم في كل عهد لمن يعتبر أستاذا لهم، وكذلك ذكرهم عمل السابقين شاكرين لهم وأمانتهم في النقل من المصادر وإنصافهم في نقد وتصحيح أخطاء الآخرين. كل ذلك من المبادىء العالية التي لن يتأخر تاريخ العلوم في تقديرها حق قدرها في المستقبل، فينصفون من الجور الذي هو نتيجة لسوء فهم موقفهم في النقد ووصفه بالتبعية للأسلاف. فالدراسة العميقة المستوعبة تبين أن كتبهم مليئة بالنقد والتصحيح ولكن بأسلوب خاص بهم وموقف سليم لعله الأسلوب المثالي لكل زمن.

نعم، إننا نعرف قدراً لابأس به من إنتاج العرب والمسلمين في تاريخ العلوم لكنه ضئيل جداً بالنسبة لهذا التراث الكبير الواسع الذي خلفوه لنا. وإن معظم معرفتنا عنه ندين بها للمستشرقين فواجب علينا أن نقدر عملهم ونحترمه اقتداءً بموقف أسلافنا المسلمين ممن سبقهم. إن هذا المحاضر الذي يتحدث إليكم مشيرا إلى هذا الواقع قد تيسر له بالضرورة أن يطلع على أعمال المستشرقين، وأن يرى بكل وضوح أنها لم تكن مصيبة دائماً ولم تكن دائماً ملتزمة بالإنصاف والبعد عن التعصب والجور. إن هذا الموقف من دراسة التراث الإسلامي العربي سيستمر، كما أن دراسة هذاالتراث ستستمر أيضا طالما ظل تراثاً غنيا مشبعاً لحب الاستطلاع. وربما ستفقد دراسته قدراً أكبر من الموضوعية بتزايد اهتمام الأمم بالتمسك بما لها من المكانة في تاريخ الحضارة الانسانية. فعلى كل العرب والمسلمين المسؤولين الذين يتضح لهم هذا الواقع أن يؤدوا واجبهم في تهيئة الظروف للمساهمة في تبيين الحقيقة.

الحضارة الاسلامية
من وحي الذكر الحكيم

محمد المكي الناصري

عندما أكرم الله الإنسانية بنزول القرآن كان نزوله بالنسبة إليها نقطة تحول وانطلاق نحو مرحلة جديدة لم تعرف لها نظيرا في العصور السابقة، واستطاعت أمة القرآن أن تستوعب رسالته الحضارية العظمى، فاتخذته رائدها وقائدها، وجعلت منه المفتاح الذي تفتح به أقفال المعرفة والمصباح الذي تخترق بنوره حجب الكون المجهول.

وقياما بواجبها نحو هذا الكتاب المقدس، ليعم نوره العالمين من العرب والعجم، كرّست جهودها وسخّرت طاقاتها لتمهيد كل الطرق والوسائل، حتى يتمكن الجميع من الاهتداء بهديه والاغتراف من بحره، والعمل بتعليماته، واتباع توجيهاته.

وتحقيقا للوعد الالهي بحفظه من كل تحريف أو خلل، مصداقا لقوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، (الحجر،9) أخد فريق من أبنائها على عاتقهم أن يبتكروا وينشئوا من العلوم ما يكون وافيا بهذا الغرض، فوجهوا دراساتهم الأولى إلى الأبحاث التي لها علاقة وثيقة بالقرآن، وفي ظرف وجيز من الزمن خرجوا على الناس بعلوم جديدة لم تكن معروفة قبل الاسلام، منها ماهو موجَّه لخدمة النص القرآني والمساعدة على فهمه كيفما كان محتواه، مثل علوم اللغة والنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والتجويد والقراءات والتفسير، ومنها ماهو مخصص للتعاليم التي جاء بها القرآن، مصنفةً حسب موضوعاتها، فاستخرجوا من الآيات المتعلقة بالعقائد علم أصول الدين، واستنبطوا من الآيات

المتعلقة بالمواعظ والسلوك علم التصوف والأخلاق، وكذلك الأمر بالنسبة للعلوم الخادمة للحديث.

وإلى جانب هذا العمل العلمي والحيوي للملة الاسلامية اتجه فريق آخر من أبناء الأمة الاسلامية وجهة قرآنية أخرى، فقد لفت أنظار هذا الفريق مايزخر به كتاب الله من مآت الآيات التي تشير من قريب أو بعيد إلى مايملأ الكون من ظواهر طبيعية وغيرها، وراعهم ما ترمز إليه تلك الآيات من حقائق علمية، فاعتبروها مؤشرات مشجعة على وجوب البحث عن كل ما له صلة بها من المعارف والعلوم التي اهتدى إليها الفكر الانساني في الحضارات القديمة.

فمثلا عندما تدبروا قول الله تعالى، حكاية عن إبراهيم، ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (الشعراء، 80) وقوله تعالى عن عسل النحل ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ (النحل، 69)، وقوله تعالى ﴿وَكُلُوا واشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا﴾ (الاعراف، 31) دار في خلدهم أنه لا يدرك معنى هذه الآيات على الوجه الأكمل الا من أحاط علما بالطب، وإذن فليقبلوا عليه بكل جوارحهم حتى يصبحوا من أئمته البارزين.

وعندما تلوا بإمعان قول الله تعالى ﴿الشَّمْسُ وَالقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ (الرحمان، 3) وقوله تعالى ﴿وَهُوَ الّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيّاءً وَالقَمَرَ نُوراً وقَدرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ والحِسَاب﴾ (يونس، 5) وقولَه تعالى ﴿يُولِجُ اللّيْلَ فِي النَّهَارِ ويُولِجُ النَّهَارَ فِي اللّيْلِ﴾ (لقمان، 29)، تيقنوا انه لايعرف حقيقة ما تشير إليه هذه الآيات من شؤون الشمس والقمر وولوج الليل في النهار الا من عرف علم الهيئة، وإذن فليقبلوا على دراسة علم الفلك إلى أن يصبحوا في قمة الفلكيين المعدودين. (وقد حكى الفخر الرازي ان بعض العلماء مر بيهودي وبين يديه مسلم يقرأ عليه علم هيئة العالم، فسأل اليهودي عمّا يقرأ عليه المسلم فقال له : أنا أفسر له آية من كتاب الله، فسأله ماهي وهو متعجب فقال له : هي قوله تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إلى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوج﴾ (ق،6) قال اليهودي : فأنا أبين له كيفية بنائها وتزيينها، فاستحسن العالم ذلك منه ــ «الموافقات» للشاطبي ج 1، ص 23، طبعة المطبعة السلفية القاهرة)

وعندما استحضروا بانتباه قول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الانْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَّلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَاشَاءَ رَكَّبَكَ،﴾ (الانفطار، 6 ـــ 8) تأكدوا من أن هذه الآيات لا يعرف معناها على وجه التحقيق الا من عرف تشريح أعضاء الانسان ظاهرا وباطنا، وعرف عددها وأنواعها ومنافعها وحكمتها، وإذن فليولوا وجوههم شطر هذا العلم الطريف، إلى أن يصبحوا على رأس علمائه الخالدين.

وعندما اكتشفوا قول الله تعالى ﴿أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وَمَا خَلَقَ الله مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأعراف، 185) اقتنعوا بصورة نهائية أن الله وجه إليهم دعوة عامة للكشف عن كل ما يحتوي عليه الكون، دون تخصيص لشيء دون آخر، وللبحث عن كل علم ظهر ويظهر في الوجود، دون تمييز بين صنف وآخر، وبناء على ذلك اعتبر حجة الاسلام أبو حامد الغزالي، وشرف الدين ابن أبي الفضل المُرسي، وجلال الدين عبد الرحمان السيوطي، أن من تفكر في القرآن والتمس غرائبه صادف فيه دلالات وإشارات من «أوائل ومجامع» علم الأولين و «الاخرين»، ثم صرح الغزالي في كتابه «جواهر القرآن» وهذا التصريح يعتبر من تنبؤاته العجيبة والصادقة ـــ حيث قال مانصه : «ظهر لنا بالبصيرة الواضحة التي لايتمارى فيها أنّ في الامكان والقوة أصنافا من العلوم لم تخرج بعد إلى الوجود وإن كان في قوة الآدمي الوصول إليها، كما أن علوما أخرى كانت قد خرجت إلى الوجود واندرست الآن، فلن يوجد في هذه الاعصار على بسيط الأرض من يعرفها» «جواهر القرآن» (ص 26، طبعة بيروت).

وهكذا وجدنا فريقا من المسلمين تعمقوا في فهم الآيات البينات المتضمنة للعقائد والشعائر والشرائع والأخلاق، وبنوا على أساسها صروحا شامخة من العلوم الإسلامية الصرفة، ووجدنا فريقا آخر من المسلمين تعاملوا ـــ بنفس الطريقة ـــ مع الآيات البينات التي تشير إلى المعارف الإنسانية الأخرى، فاتخذوها منطلقا للبحث عن بقايا العلوم والفنون التي عرفت قبل الإسلام، إيمانا منهم بأن الله تعالى أقامهم حرّاسا أمناء على تراث الانسانية جمعاء، ثم قاموا بتصحيح ما وجدوا فيها من اغلاط وأخطاء، وتنقيتها من شوائب الأوهام والخرافات، واستحدثوا منهجا علمياً جديدا استمدوه من روح القرآن، التي تعتمد على المشاهدة والتجربة ولا

تقبل سوى الحجة والبرهان، وبفضل المنهج القرآني ابتكروا علوما عديدة فتحت في وجه الإنسانية آفاقا جديدة.

وللمزيد من الكشف عن هذه الظاهرة الإسلامية والتعمق في دراستها، وتحديد الحوافز والمغريات التي حفزت المسلمين إلى إنشاء حضارتهم الرائعة والشاملة في أقصر فترة من الزمن أرى من المفيد أن أعرض على أنظاركم جملة من الحوافز والدوافع التي استعملها القرآن الكريم، متوسلا بها إلى أداء رسالته المقدسة في هذا المجال مجال الكونيات والعلميات.

أولا

إن القرآن العظيم هو أول كتاب إلٰهي دعا الانسان دعوة ملحة ومتواصلة إلى مائدة العلم، وأغراه بالجلوس على بساطها، وتناول غذائه الكامل منها. وللوصول إلى هذه الغاية استعمل كل الوسائل النافعة، والأساليب الناجعة، الملائمة لطبيعة الانسان وتكوينه المادي والروحي، وفي طليعة تلك الوسائل والأساليب :

1 ــ إثارة ماهو كامن في الانسان من غريزة حب الاستطلاع.

2 ــ إثارة ما هو مجبول عليه من حب التظاهر بالعلم، والتمكن من المعرفة وكراهية الجهل.

3 ــ إثارة ما فيه من حبّ لذاته، وحرص على استمرار نوعه، وسعي إلى التوصل بجميع الوسائل لقضاء مآربه وتحقيق مصالحه، وتعريفه بأن الأشياء التي يطالبه القرآن بالنظر فيها وتتبع أطوارها إنما هي مخلوقة من أجله، ومسخرة لمنفعته، وان الغاية المباشرة منها هي توفير كل ما يحتاج إليه من ضروريات وحاجيات وكماليات.

ولم ينتظر كتاب الله أن تمر العصور تلو العصور على الانسان، حتى تتحرك فيه ــ من تلقاء نفسه ــ غريزة حب الاستطلاع، وما ارتبط بها من الدوافع الأخرى، بل إنه أثارها وحرّكها في الانسان منذ اليوم الأول من نزول القرآن، وخصص لما عالجه من كونيات وعلميات أكثر من ربع آياته البيّنات.

ــ فمن شواهد الأسلوب الأول ــ وهو إثارة ماهو كامن في الانسان من غريزة حب الاستطلاع قوله تعالى في سورة (الفرقان، 45) : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ، وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنا﴾ (مكية).

وقوله تعالى في سورة (النور ، 43 ــ مدنية) ﴿أَلَمْ تَرَ أنَّ الله يُزْجِي سَحاباً، ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ، ثُمَّ يَجْعَلُه رُكَاما﴾.

ــ ومن شواهد الأسلوب الثاني ــ وهو إثارة ما جبل عليه الانسان من حب التظاهر بالعلم وكراهية الجهل ــ قوله تعالى في سورة (الزمر، 9 ــ مكية) ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ وقوله تعالى في سورة (الأنعام، 50 ــ مكية) ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَٱلْبَصِير، أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

ــ ومن شواهد الأسلوب الثالث ــ وهو إثارة ما في الانسان من حب لذاته، وحرص على استمرار نوعه ــ قوله تعالى في سورة (عبس، 24 ــ 32) ﴿فَلْيَنْظُرِ الإنْسَانُ إلى طَعَامِهِ، إنَّا صَبَبْنا الماءَ صَباًّ، ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقاًّ، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَباًّ وَعِنَباً وَقَضْباً، وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً، وَحَدَائِقَ غُلْبا، وفَاكِهَةً وأَباًّ، مَتَاعاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾.

ثانيا

إن كتاب الله جرت سنته في نظم آياته البينات على أن يبرز بشكل قوي مشاهد الكون وظواهر الطبيعة، ويجذب نحوها البصائر والأبصار، بل على أن يضعها غير ما مرة في مكان الصدارة، ويخصها بالأولوية والأسبقية في غير ما آية، وذلك كلما أراد توكيد معنى **خلقي**، أو تقرير مبدأ اعتقادي من أصول الدين، وكثيرا ما يجدد الحديث عن نفس المشاهد والظواهر في عدة آيات وعدة سور مكية ومدنية، هذا مع أن المؤمنين الذين انزل عليهم القرآن لايكذبون بآياته، ولا يشكُّون في تعاليمه وتوجيهاته، وفي امكانه أن يعرض عليهم حقائقه ورقائقه رأسا دون تمهيد ولا مقدمات، ودون حاجة إلى تدعيمها بالمشاهد الكونية، والظواهر الطبيعية.

ومادام كتاب الله منزها عن اللغو والحشو والتكرار — إذن هو منزه عن كل نقص — وما من كلمة من كلماته، أو حرف من حروفه، الا ووراءه سرّ دفين وحكمة بالغة، فقد أصبح لزاما على الذهن الفاحص أن يلتمس الحكمة في ذلك، مستندا إلى ما يقتضيه المقام، ويدل عليه السياق، وهو أن كتاب الله أراد أن يجعل الكون الذي هو «صنع الله» حاضرا أمام المومنين دائما في ثنايا ما يتلوه عليهم من «كلام الله» حتى يرتبط الانسان بالكون الذي هو جزء منه ارتباطا محكماً وثيقا، وحتى يمتد بينه وبين العالم من حوله جسر متين من الألفة والاندماج يؤدي بهما إلى التعارف والتكاثف، والتقارب والتجاوب، والأخذ والعطاء، لخير الدنيا والدين.

ومن شواهد هذا الأسلوب المتبع في القرآن الكريم قوله تعالى في سورة (الحجر، 19 — 23 مكية) :
﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ، وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُون، وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُه. وَمَا نُنَزِّلُهُ الاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُوم، وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ، وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الوَارِثُون﴾.

ثالثا

إن كتاب الله عندما يأخذ في عرض آياته الكونية لا يعرضها منعزلة مقتضبة، بل يعرضها مصحوبة بتنبيه سابق، أو تعقيب لاحق، ويقدمها للنوع الانساني محفوفة بأسلوب فريد لايكاد يفارقها بحال.

فهي في نظامه الخاص إما أن تأتي مسبوقة بصيغة الأمر بالنظر (انظروا) أو بما يفيد مجرد الحض على النظر، (أَفَلاَ يَنْظُرُون)، (أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا)

وإما أن تأتي متبوعة بالنتائج التي تترتب على النظر، من تفكّر وتذكّر وتدبّر واعتبار، ﴿فَانْظُرْ إلى آثارِ رَحْمَةِ الله كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (الروم، 50)

وإما أن تأتي مسبوقة بالوسيلة التي هي النظر، ومتبوعة بالغاية المتوخاة من

النظر في آن واحد، ولاشك أن هذه الأساليب كلها تلتقي حول نقطة واحدة هي الاغراء بمحاولة الكشف عن خصائص الطبيعة، والتعرف على آثارها ومنافعها، واستخلاص العبرة منها :

1 ـــ مثال الأمر بالنظر قوله تعالى في سورة (يونس، 101) ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ والأَرْض﴾

ومثال الحضِّ على النظر قوله تعالى في سورة (الاعراف، 185) ﴿أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ والأَرْض وَمَا خَلَقَ الله مِنْ شَيْءٍ﴾.

2 ـــ ومثال التنبيه إلى نتائج النظر قوله تعالى في (سورة ق 7 ـــ 8) : ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ، تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾.

3 ـــ ومثال الجمع بين الوسيلة والغاية : النظر أولا، والاعتبار أخيرا، قولُه تعالى في في سورة (الأنعام، 65) ﴿انْظُر كَيْفَ نُصَرِّفُ الايَاتِ، لَعَلَّهُم يَفْقَهُونَ﴾ وقوله تعالى في سورة (آل عمران، 191) : ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ. رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبحانَك﴾.

رابعـــا

ان كتاب الله عندما دعا الانسان إلى النظر في «ملكوت» السماوات والأرض وما خلق الله من شيء، لم يكن من المعقول ولا من المنتظر أن يكتفي منه بالنظرة الخاطفة، والرؤية العابرة، والنظر السطحي البسيط، كمن يكتفي من الكتاب برؤية جِلده الظاهر، والاعجاب بشكله الفاخر، دون أن يعرف أي شيء مما في باطن الكتاب من الحكمة والعلم، ودون أن يذوق له أيّ طعم، لأن ملكوت الله، بما يحتوي عليه من بدائع الصنائع أجل وأكبر، وأسمى وأخطر، من أن يُلِمّ به النظر القاصر، والفكر العابر.

وإذا كان الاسلام بوصفه دين السماحة واليسر يكتفي من عوّام الناس، بما تشاهده العين المجردة، وتلهمه الفكرة الساذجة، من إيمان «كإيمان العجائز»، فإن من هم فوق هذا المستوى من الخواص لا يقبل الله منهم إلا النظر النافذ الدقيق،

والفكر العميق، واستعمال كافة المواهب والملكات، واستثمار جميع الإمكانات، لاستجلاء آياته البينات في كتاب الكون العظيم وكتابه الكريم، وبذلك وحده يستطيع الانسان أن يصرخ من أعماق قلبه ــ وقد تملّى من النظر في عجائب الكون والاعجاب بها ــ قائلا تمجيدا لله وتقديسا : ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ﴾ (آل عمران، 191).

وتيسيراً للانسان، سبل الخوض في هذا الميدان على بصيرة من أمره لم يتركْهُ كتاب الله مكتوف اليد، بل علمه ما لم يكن يعلم ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ (الأعراف، 52) وارشده إلى الكيفية الصحيحة التي يتم بها النظر، ضاربا له الأمثال، ومقدما له النماذج ضمن آياته البينات :

أولا : عرفه بوسيلة النظر ــ وهي العقل والحواس.

ومن شواهدها قولُه تعالى : ﴿والله أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَتَعْلَمُونَ شَيْئاً، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأَبصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل، 78﴾ و«الأفئدة» هنا جمع فؤاد وهو في لغة القرآن : العقل الذي يفقه به الانسانُ حقائق الأمور، وقولُه تعالى : ﴿وَلاَ تقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْم، إنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولا﴾ (الاسراء، 36).

ثانيا: عرفه بموضوع النظر ــ وهو الكون كله بجميع ما فيه من الكائنات، ومن شواهده قولُه تعالى : ﴿أو لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وَمَا خَلَقَ الله مِنْ شَيْءٍ﴾ (الاعراف 185)، وقولُه تعالى : ﴿وَفِي الأَرْضِ آياتٌ لِلْموقِنِينَ، وَفِي أَنْفُسِكُم أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ (الذاريات 21). وقولُه تعالى : ﴿قُل انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ وَمَا تُغْنِي الآياتُ والنُّذُر عَنْ قَوْمٍ لاَيومِنُونَ﴾ (يونس ، 101). أي انظروا أيَّ شيء فيهما، فهناك شيء غامض بالنسبة لكم لابد من كشف الستار عنه وتجليته. وتعميم معرفته، و لم يقل «انظروا السماوات» فالنظر إلى الشيء هو غير النظر في الشيء.

ثالثا : عرفه بطريقة النظر، وقدم له عدة نماذج من هذه الطريقة :

أ ــ **النموذج الأول** : مِمَّ خُلِقَ ــ ؟ ومن شواهده قوله تعالى : ﴿فَلْيَنْظُرِ الانْسَانُ مِمَّ خُلِق، خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ... الآية﴾ (الطارق، 5 ــ 6).

ب ــ **النموذج الثاني** : كيف خُلق ؟ ومن شواهده قوله تعالى ﴿أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى ٱلسَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ، وَإِلَى ٱلأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الغاشية، 17 ــ 20) وقوله تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ (ق، 6).

ج ــ **النموذج الثالث** : كيف بدأ الخلق ؟ ومن شواهده قولُه تعالى : ﴿أَوَ لَم يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِىءُ الله الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ (العنكبوت، 19) وقوله تعالى ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الخَلْقَ﴾ (نفس السورة، 20).

د ــ **النموذج الرابع** : كيف تطور الخلق ؟ ومن شواهده قوله تعالى في وصف الأطوار التي تسبق نزول المطر : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يُزْجِي سَحاباً، ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ، ثُمَّ يَجْعَلُه رُكَاماً، فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ، وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ، وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاء، يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بالأَبْصَارِ﴾ (النور، 43 ــ 44) وقوله تعالى في وصف أطوار الجنين : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً، فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً، فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَاماً، فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْماً، ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ، فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الخَالِقِينَ﴾ (المومنون، 12 ــ 14).

رابعا : عرف الانسان بالغاية المتوخاة من النظر ــ ألا وهي نفع الانسانية، وتمجيد الربوبية، فقد جعل معرفة الكون وسيلة لتسخيره لمنفعة الانسان، وسبيلا قاصدا لمعرفة ربه وخالقه، ومن شواهد هذه الغاية السامية بالنسبة لمنفعتنا قوله تعالى : ﴿أَو لَمْ تَرَوْا أَنَّ الله سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (لقمان، 20) ومن شواهد هذه الغاية السامية بالنسبة لمعرفة ربنا قوله تعالى : ﴿سَنُرِيهُم آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِم حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ. أَو لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٍ﴾ (فصلت، 53).

خامسا

إن كتاب الله عندما دعا الإنسان للنظر في شؤون نفسه وشؤون الكون المحيط به لم يكلفه بما لايطيق، بل دعاه إلى استعمال أيسر الوسائل عنده، وألصقها به

وهي الحواس والعقل، وندد بِمَن لاينتبه إلى ما حوله، ومن لايستعمل حواسه وعقله، بالغ التنديد، واعتبره في مستوى الانعام أو أشد، ومن شواهد هذا الموقف قوله تعالى : ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لايَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أعينٌ لايُبْصِرُونَ بِهَا، وَلَهُمْ آذانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا، أُولَئِكَ كَالانْعَامِ بَلْ هُمُ أضَلُّ، أُولَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ﴾ (الاعراف، 179).

و لم يقف كتاب الله عند هذا الحد، بل حرض الانسان على أن يرفض كل مالم يقم عليه دليل، وجعله أحق بالسخرية والاستهزاء إذا ارتضى لنفسه القناعة بمجرد الظنون والأوهام، أو رضي لنفسه بالتقليد الأعمى.

ومن شواهد هذه الحقيقة القرآنية قوله تعالى : ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِين﴾ (الانعام، 143) وقوله تعالى : ﴿وَتَقُولُونَ بأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ (النور، 15) وقوله تعالى : ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمُ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِين﴾ (البقرة، 111) وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَدْعُ مع الله إلٰهاً آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإنَّمَا حِسَابُه عِنْدَ رَبِّهِ﴾ (المومنون، 117) وقوله تعالى : ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ من عِلْمٍ فَتُخرِجُوهُ لَنَا إنْ تَتَّبِعُون إلاَّ الظنَّ، وَإن أَنْتُمْ إلاَّ تَخْرُصُون﴾ (الانعام، 148).

وليُبيِّنَ كتابُ الله مكانة الحجة والبرهان، وضرورة الاعتماد عليهما، وتأثيرهما البالغ في إحقاق الحق وإزهاق الباطل أطلق عليهما لفظ «السلطان» في كثير من الآيات، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ (إبراهيم، 10) وقوله تعالى : ﴿لَوْلاَ يَاتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بيِّن﴾ (الكهف، 15﴾. وانما سمى كتاب الله البرهان «سلطانا» لقوته على دفع الباطل، كما سمى الأمير «سلطانا» لما يتمتع به عادة من قوة وقدرة على تصريف الشؤون العامة، وصيانة لحقوق الرعية وضبط لمصالحها، مما يجعله أقوى ظهير للضعيف وناصر للمظلوم.

ثم ان كتاب الله كلما استعرض ظواهر الكون ومشاهد الطبيعة نبه الاذهان إلى حقيقة كونية ثابتة سارية المفعول : ألاَ وهي أن لله سُننا في خلقه، ونواميس في كونه لاتتبدل ولا تتخلف، وتحتها تندرج الأسباب والمسببات، والوسائل والمقاصد، والمقدمات والنتائج، وفي ذلك تربية للفرد والجماعة على التفكير المنطقي السليم، والتقيد بالنظام في السلوك والعمل، وتنفير من الاعتماد على الصُّدَف

والمفاجآت، وتحصينٌ ضد الفوضى الفكرية والحياة الخرافية. ومن نتائج تلك التربية القرآنية أن أصبح كل من يقرأ القرآن بتدبر وروية وفهم، لايمكن أن يركن إلى الخرافة والخيال والوهم. وبذلك توسل القرآن الكريم إلى تكوين «الأمة العِلْمية» المثالية، كبديل عن «الأمة الأمية» الخرافية، التي عرفتها الجاهلية، إذ لم يبق لها مكان ولامبرر، بعدما أرسل الله إلى الناس رسولا من أنفسهم، «يعلمهم الكتاب والحكمة ويُزكيِّهم».

ومن شواهد هذه الحقيقة الكونية التي بشر بها كتاب الله قولُه تعالى : ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا، وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾ (الاسراء، 77).

وقوله تعالى : ﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْل، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب، 62). وقوله تعالى : ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلا﴾ (فاطر، 43﴾.

سادسا

إن كتاب الله عندما دعا الانسان إلى النظر في نفسه وفي الكون المحيط به لم يكن من المعقول أن يدعوه إلى النظر فيما هو خارج عن حدود طاقته، لأن ذلك يُعدُّ من باب **التكليف بما لايطاق**، وإنما دعاه إلى النظر فيما يتأتَّى له النظر فيه بالوسائل التي يتوفر عليها، مما هو داخل في نطاق استعداده وقدرته، وملائم لتكوينه وطبيعته، وبذلك فتح القرآن في وجه الانسان ــ أيَّ إنسان كان ــ باب البحث العلمي على مصراعيه دون تقييد ولا تحديد. أما إذا كان الأمر فوق طاقته،، أو لا يتوفر على وسائل معرفته، فإنه لا يدعوه إلى النظر فيه أصلا، أو يكشف له عن بعض ملامحه بطريق الوحي والخبر. لا بطريق الفكر والنظر، ومن شواهد الحالة الأولى قوله تعالى في سورة الاسراء (85) : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي، وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إلاَّ قَلِيلا﴾، وقوله تعالى في سورة (يونس، 20) : ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الغَيْبُ للهِ﴾، ومن شواهد الحالة الثانية قوله تعالى في (سورة هود، 49) : ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ، مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَومُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ وقولُه تعالى في سورة (آل عمران، 179) : ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الغَيْبِ، وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

ثم إن الأمر بالنظر والحضّ عليه من قبل الله عزّ وجل يتضمن الإذن للناظر في مواصلة النظر إلى النهاية، سواء أخطأ أم أصاب، مادام الأمر يتعلق بمحاولة تفسير وتسخير ظواهر الكون والوجود، دون انكار للخالق ولا جحود، ونفس الأمر بالنظر يقتضي أن موضوع النظر غير مُحرم على الناس ولا محجوب عنهم، إذ أن مايريد الله أن يستأثر بعلمه لايدعو الناس إلى النظر فيه بل يوقفهم عند حدهم ويعرِّفهم بعجزهم، وهو سبحانه وحده الذي انفرد بكونه «عالم الغيب والشهادة» قال تعالى : ﴿قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إلاَّ اللهُ﴾ (النمل، 65).

وقال تعالى : ﴿عَالِمُ الغَيْبِ لاَيَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ، وَلاَ أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إلاَّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (سبأ، 3﴾.

سابعا

إن كتاب الله عندما دعا الانسان إلى النظر في الكون وجه نظره بالخصوص ــ علما وعملا ــ إلى العالم المحيط به والقريب منه، الذي ينتمي إليه ويتوقف في حياته عليه، وهو «عالم الشهادة» الفسيح، الذي جعله الله مختبراً للانسان يُدرّب فيه عقله، وورْشاً يمارس فيه نشاطه، وآتاه من الاستعدادات والملكات ما يساعده على كشف خفاياه، وحل ألغازه وخباياه، وتسخير عناصره ومكوناته، والتعرف على حكمة الصانع من خلال مصنوعاته، وعلى العكس من ذلك لم يدفع الإنسان العادي إلى المجازفة والمخاطرة باستعمال نظره فيما هو فوق طاقته، من العوالم الأخرى التي لاينفذُ إليها عقله، او استأثر الله بعلمها دون خلقه، لكونها فوق عقل الإنسان وليست من مشمولات نظره، ومحاولةُ كشف أسرارها تُعدُّ من التخرص على علم الغيب، والتَّجذيف في متاهات الشك والرَّيب.

وإذا كانت المعرفة بالله وبصفاته وأفعاله على مقدار المعرفة بمصنوعاته، وإذا كانت هذه المعرفة مطلبا ساميأ من مطالب الانسان وأعز رغباته، فإن حكماء الاسلام ينصحون طالبها والراغب فيها بأن يطلبها بالخصوص من «عالم الشهادة» الذي هو العالم المألوف للانسان، والقريب من مستوى عقله ونظره، بدلا من

«عالَم الغيب» الذي هو فوق مستوى إدراكه العادي، قال ابن عطاء الله في كتابه «الحِكَم» : «أمرك في هذه الدار بالنظر في مكوناته، وسيكشف لك في تلك الدار عن كمال ذاته»، وقال أبو اسحاق الشاطبي في كتابه «الموافقات» جـ : 2، ص : 283 ــ 284 : «لا يقال إن المعرفة بالله وبصفاته وأفعاله على مقدار المعرفة بمصنوعاته، ومن جملتها : العوالم الروحانية، وخوارق العادات، فيها تقوية للنفس، واتساعٌ في درجة العلم بالله تعالى، لأنا نقول : إنما يُطلب العلم شرعا لأجل العلم، وما في «عالم الشهادة» كاف وفوق الكفاية، فالزيادة على ذلك فضل... ولو لم نجد مانستدل به على ذلك لكان لنا بعض العذر في التخطي عن «عالم الشهادة» إلى «عالم الغيب»، فكيف وفي «عالم الشهادة» من العجائب والغرائب القريبة المأخذ، السهلة الملتمس، ما يفني الدهر وهي باقية لم يبلغ منها في الاطلاع والمعرفة عشر المعشار، ولو نظر العاقل في أقل الآيات، وأذل المخلوقات، وما أودع بارئها فيها من الحكم والعجائب لقضى العجب، وانتهى إلى العجز في إدراكه، وعلى ذلك نبه الله تعالى في كتابه ان ننظر فيه كقوله تعالى : ﴿أَو لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوات والأَرْضِ الآية»

ثامنـــا

إن كتاب الله تحدث في غير ما سورة من سوره المكية والمدنية عن «تسخير مافي السماوات وما في الأرض للانسان، وامتن عليه بذلك في غير ما آية من آياته البينات، ولا يمتن الحق سبحانه وتعالى على خلقه إلا بنعمه الظاهرة والباطنة. ونعمة «التسخير» التي امتن بها على الانسان تستلزم وَضْعَ الشيء «المُسخَّر» رَهْن إشارته، وطَوْع يديه وفي قبضته، وجَعْله مَسُوقاً لتحقيق أغراضه وخدمة مصلحته، حتى يتمكن من الانتفاع به، وتوجيهه الوجهة التي يريد دون عائق ولا مانع.

غير أن الانسان لايمكنه الحصول على هذه النعمة الكبرى، والوصول إلى هذه الغاية القصوى إلا إذا كرس جهوده وطاقاته، وواصل محاولاته للكشف عما في الطبيعة من خبايا وأسرار، واستطاع أن يقطع المراحل اللازمة للتعرف على دخائلها واستقراء خصائصها أولا بأول، وبذلك وحده يهتدي إلى طرق استعمالها، ووجوه

الانتفاع بها في مختلف الأغراض والمقاصد فلا بد للانسان إذن من تَخَطِّي هذه العقبة الكأداء. حتى تتم له نعمة «التسخير» التي منَّ الله بها عليه، ووكلها إليه، ومقتضى ذلك ان الانسان مدعو من ربه إلى استعمال فكره ونظره في البحث والاستكشاف والاستطلاع، ومطالب باسْتِكناه ما تمثله ظواهر الكون ومشاهد الطبيعة من حقائق وسُنن ونواميس وقوانين.

وواضح أن كتاب الله عندما امتن على الانسان «بتسخير الكون» له يكون قد أعلن على رؤوس الملأ أن تسخير الطبيعة للانسان ليس بشيء مستحيل، وإنما هو أمر داخل في حدود الامكان وحيِّز الواقع، وأن تسخير الانسان للطبيعة بإذن الله وحوله وقوته، ليس فوق طاقة الإنسان وقدرته، وإنما عليه أن يمرن عقله، ويصقُل فكره، ويبذل جهده، ويمارس حقه في الكشف عن الحقائق الكونية والنواميس الطبيعية، حتى تنقاد له تمام الانقياد، ويبلغ منها المراد، الذي هو خدمةُ البلاد والعباد، وليكن واثقا بأن هذا العمل من جانبه لايُعدُّ تطاولا على الله، وإنما هو امتثال لأمر الله، وأن الدور الذي يقوم به هو دور «البستاني» الحاذق الذي يعمل في «حديقة الله» بإذن من الله.

قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾ (البقرة، 29) وقال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ، والفُلْكُ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ (الحج، 65) وقال تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي ٱلسَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الجاثية 13) وهكذا كان كتاب الله بأساليبه المُغرية والمشجعة مصدر الإلهام والتوجيه للمسلمين في مختلف الميادين الفكرية والعلمية، ماجد منها وما قدُم.

ألا وإن لله كتابين في الوجود : كتاباً مسطورا أحكمت آياته في الذكر الحكيم ﴿بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ﴾ (العنكبوت، 49) وكتاباً منظورا فصّلت آياته في آفاق الكون العظيم ﴿سَنُرِيهِم آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِم حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ﴾ (فصلت، 53) وعن هذا الكتاب المنظور يقول الله تعالى حكايةً عن إبراهيم الخليل : ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ والأرضِ، وَلِيَكُونَ مِنَ المُوقِنِينَ﴾ (الانعام، 75) ويقولُ الله تعالى حكايةً عن خاتم الأنبياء والمرسلين، : ﴿مَازَاغَ البَصَرُ وَمَا طَغَى، لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكُبْرَى﴾

(النجم، 18)، الكتاب الأول تنطق آياته بلسان المقال، وهو شِبْهُ المدخل والمقدمة، والكتاب الثاني تنطق آياته بلسان الحال، وهو المقصود والخاتمة ﴿وأن إلى ربِّك المنتهى﴾.

وفي كل شيء لـه آيـة تـدل على أنـه الواحـد

الكتاب الأول : اقتضت حكمة الله أن يكمل ويبلغ حد التمام، فأحصَى آياته عددا، والكتاب الثاني اقتضته إرادة الله أن يبقى مفتوحا إلى الأبد، وأن تظل الكتابةُ فيه دائما سَرْمدا ﴿ألاَ لَهُ الْخَلْقُ والأمْرُ﴾.

التجربة عند العرب :
الحسن ابن الهيثم والبصريات

محمد البغدادي

I ــ تطور الأفكار في الفيزياء : نريد في هذه العجالة تتبع الخطوط العريضة التي رسمها الفكر الفيزيائي في تطوره عبر العصور. لقد قامت الفيزياء اليونانية على وضع، فرضيات أولية، مقولات، مصادرات، أو مبادىء، وبنت عليها بطريق الاستنتاج المنطقي وحده علم الطبيعة. وهكذا تأتي الفيزياء في تصنيف أرسطو للعلوم النظريانية ــ التي تسبق التطبيقية والشاعرية ــ بين الرياضيات والإلاهيات. ولم يكن يعنيها في هذا البناء الا انعدام التناقض الصريح بينه وبين الحياة اليومية. أما الرياضيات فهي غائبة تماما في المفاهيم الفيزيائية لأن الكم هو سطح الأشياء وليس جوهرها، وهكذا فإن العلاقة بين القوة والسرعة خاطئة عند أرسطو ولكن هذا لم يكن ليقلقه. وأما الفرضية الأساسية فقد تكون أن الأشياء كانت مجمعة وفي حالة السكون في زمن سحيق لانهاية له، وأن قوة ما، إلاهية L'intelligence قد أعطت الدفعة الأولى للحركة وعملت على تمييز الأشياء كما يرى آناكساكور (Anaxagore) أو أن الحركة موجودة في كل الكائنات الطبيعية ــ وهي حركة بالمعنى الواسع تشمل التغيير، وليس لها أي محتوى رياضي ــ ثم يبرهن انطلاقا من هذه الفرضية على وجود محرك أول أزلي وغير متحرك وغير ممتد هو سبب الحركة كما يبرهن انطلاقا من وحدة الحركة على وحدة المحرك الأول وهذا ما فعله المعلم الأول أرسطو.

ثم جاءت النهضة بعد قرون طويلة من الانحطاط العلمي والفكري واستطاعت

من جهة التعرف على الكنوز اليونانية التي حافظ عليها العرب وترجموها ووضعت أسس الفيزياء الحديثة القائمة على التجربة من جهة أخرى. وهي ان أدخلت التجربة فذلك لأن تطور الانتاج وتكاثر المهندسين قد سمحا بذلك أو لأن الفكر المسيحي ونظرية التفحص قد ساعدا عليه أو لأن جيمس باكون وغيره قد أسسوا الطرق التجريبية أو لهذه الأسباب كلها مجتمعة. ولما كانت التجربة الحقة تعني القياس، فلا بد إذن من وجود علاقات رياضية بين المقادير الفيزيائية أو بمعنى آخر لابدّ من وجود تماثل بنيوي بالمعنى الرياضي الحديث بين الرياضيات والفيزياء، بين التعاريف والمفاهيم الرياضية ومقابلاتها الفيزيائية. ألم يقل غاليليه أن كتاب الطبيعة مكتوب بلغة رياضية، وأن الفلسفة مكتوبة في هذا الكتاب الكبير المفتوح على الدوام أمام أعيننا.. ولكن هذا الكتاب المفتوح، هذا الكون، لا يقرأه ولا يفهمه الا من تعلم أولا فهم اللغة التي كتب بها وتفسير الرموز الهندسية التي يحتويها.

وبالفعل فقد أسهمت التجربة بتطوير الفيزياء تطويرا كبيرا وسريعا وجعلتها تتفاعل مؤثرة ومتأثرة بنتائج الفيزياء التكنولوجي، وأعطت للفيزياء الصورة التي نعرفها اليوم. وقد أدى هذا التطور السريع ببعض الفيزيائيين إلى إعطاء التجربة مركز الصدارة في الفيزياء، وإلى إعادة النظرية الفيزيائية — ونعني بذلك مجموعة المبادىء وما ينتج عنها منطقيا — أي رياضيا — إلى التجربة وحدها. يقول آنشتاين في هذا الصدد : «يتضح لنا اليوم بجلاءٍ كم كان خطأ النظريين الذين يظنون أن النظرية ناشئة عن التجربة كبيرا... وحتى قوانين ذلك الرجل العظيم لم يستطع أن يعصم نفسه من هذا الخطأ... ويضيف : لا يستطيع التفكير المنطقي وحده أن يؤدي إلى أي معرفة للعالم التجريبي. إن كل معرفة للواقع تبدأ بالتجربة وتنتهي بها، فالتجربة وحدها هي التي تقرر الحقيقة ولكن الأساس المصادراتي Axiomatique للفيزياء لا يستخلص من التجربة.

يبدو لي أنه يمكن تلخيص نظرة آنشتاين هذه بقولنا إن الفكر الفيزيائي اليوم هو التجربة مضافا إليها أرسطو جديد ملم بالرياضيات، يقول آنشتاين أيضا : «تبقى الهندسة علما رياضيا مادام استنتاج النظريات من المصادرة مسألة منطقية بحتة. ولكنها في الوقت نفسه علم فيزيائي بقدرما تحوي مصادراتها على تأكيدات تخص الأشياء الطبيعية ولايمكن التحقق من صحتها إلا بالتجربة».

وهكذا فإن بين تجربة البداية وتجربة النهاية إنسان خلاق يصنع المفاهيم ويخترع الجسيمات ويكتشف طرق إثبات وجودها.

II ـــ العلم والتجربة عند العرب : ما هو موقع المعترضة العربية في تطور الأخطار الفيزيائية ؟ لنذكر أولا أن هذه المعترضة قد أنارت وحدها العالم كله ردحا من الزمن دام 350 عاما متواصلا وبقي وميضها مشتعلا قرنين آخرين. يقسم جورج سارتون في مجلداته الخمس عن تاريخ العلوم تاريخ الانجازات العلمية إلى عصور يمتد كل عصر منها فترة نصف قرن ويتميز بشخصية علمية مركزية واحدة. وهكذا تتتابع عصور أفلاطون وأرسطو واقليدس وأرخميدس، فالحقبة الصينية ثم الحقبة العربية بين عام 750 وعام 1100 ميلادية، وهي سلسلة مستمرة تلمع فيها أسماء جابر بن حيان والخوارزمي والرازي والمسعودي وأبي الوفاء والبيروني وابن سينا وابن الهيثم وعمر الخيام. وهم كلهم ينتمون إلى العربية كلغة، وإلى الاسلام كعقيدة. بدأت أسماء غربية تظهر بعد هذه الحقبة وبقي العرب والمسلمون يقاسمونهم الأمجاد كابن رشد وناصر الدين الطوسي وابن النفيس وذلك حتى عام 1350. ثم يختفي العالم الإسلامي بعد هذا التاريخ إلا في ومضات نادرة وحتى يومنا هذا. وأود هنا أخذ الحسن ابن الهيثم 1039 ـــ 965 الفيزيائي الرياضي كمثل في وضع المفاهيم وفي الربط المتين بين الرياضيات والفيزياء الذي عبر عنه في السطور الأولى من خطاب «في الضوء» وفي إدخال التجربة كصفة للإثبات ومصدر المعرفة. كما أود البدء بالإشارة إلى أنه بالرغم من وعي العرب لتعاليم الأولين واحترامهم لها فإنهم لم يتقيدوا بها ولم يتبعوها اتباعا أعمى، وكانوا يرون أنه يمكن للمعرفة أن تكون علما ولو لم تتبع منهج أرسطو أوأقليدس. ألم يشك البيروني تجاه المبالغة في الاحترام الذي كان البعض يبديه لأفكار أرسطو، وكأنه لايمكن وضعها موضع التساؤل، رغم أنهم يعرفون قول البيروني بأن أرسطو لم يدّع يوما أنه معصوم عن الخطأ. ألم يرفض ابن ميمون مبدأ أرسطو في المحرك الأول الأزلي لا لتعارضه مع فكرة خلق الكون ـــ وجود نقطة بداية ـــ وحسب كما فعل كثيرون غيره قبله، وانما لتعارضها أصلا مع فكرة حرية الخالق وإرادته.

لقد ميز ابن الهيثم منذ البداية بين كنه الضوء الذي تعالجه الفيزياء وبين كيفية انتشاره (تمدده بلغة ابن الهيثم) التي تعالجها الرياضيات، فقد فرق بين مفهومي

الخطوط الهندسية والخطوط المادية وعرف الشعاع بقوله إنه «مؤلف من خطوط متوهمة لامحسوسة فالخطوط المتوهمة مع الضوء الممتد عليها لمجموعها هو الذي يسمى الشعاع». وقارن مفهومه مع المفاهيم السابقة قائلا : «فالشعاع هو صورة جوهرية ممتدة على خطوط مستقيمة، وإنما سمي أصحاب التعاليم شعاع البصر شعاعا شبيها بشعاع الشمس وشعاع النار، وذلك أن المتقدمين من أصحاب التعاليم يرون أن الإبصار يكون بشعاع يخرج من البصر وينتهي إلى المبصر، وبذلك الشعاع يكون الابصار، وأن ذلك الشعاع هو قوة نورية من جنس الضوء وأنها هي القوة الباصرة وأنها تمتد من البصر على سموت خطوط مستقيم مبدأها مركز البصر وهذا هو شعاع الابصار».

لقد درس ابن الهيثم كما هو معروف قوانين انعكاس الضوء وانكساره، وأعطى العلاقات بين زوايا الورود وزوايا الأفكار ـــ أو بالأحرى زوايا الانحراف عن زاوية الورود وان لم تكن هذه العلاقات صحيحة دوما في جوار الزاوية الحدية. ولكن المهم هنا في كل ما فعله هو العلاقات الكمية والتجربة ودحض مفهوم شعاع الإبصار بتجارب الإنكار.

كما ميز أيضا بين الأجسام المشفة الفيزيائية والأجسام المشفة الرياضية لأنه لاحد للشفيف في نظر الهندسة، وكرر برهانا لأبي العلا ابن سهيل لإثبات ذلك نعبر عنه اليوم بقولنا إن قرائن الانكسار أعداد حقيقية وبالتالي فهناك عدد لانهاية له من القرائن بين كل قرينتين. أما في نظر أصحاب العلوم الطبيعية فهم يقولون أن كل خاصة للأجسام الطبيعية تستلزم المحدود والمنتهي ولا يمكنها أن تكون لانهاية... ان الأجسام محدودة بصورتها، فإذا قسمت غيرت صورتها إلى صور أخرى... الماء إلى الهواء..

وبيِّنٌ أن تمدد الضوء في الأجسام المشفة هي خاصة طبيعية لكل الأضواء، ويضيف : يقول البعض ان امتداد الضوء على خطوط مستقيمة في الأجسام المشفة انما هي خاصة في الأجسام المشفة مادامت هذه الأجسام لاتنقل الضوء إلا على خطوط مستقيمة. ان هذا المفهوم **لايثبت أمام الفحص والتجربة**. إن خاصية الضوء هو أن يمتد على خطوط مستقيمة وخاصة الشفيف ألا يمانع في مرور الضوء عبر الجسم المشف : إن الشفيف هو صورة الجسم المشف.

ودرس انتشار الضوء وبيَّن أن الفضاء الذي نعيش فيه هو فضاء مُتناهي، وهي خاصية هامة كما نعلم لأنها تؤدي إلى وجود مقادير محافظة هي العزوم الزاوية يقول ابن الهيثم.

«إن الضوء يمتد من كل نقطة من (المبصر) على كل خط مستقيم يصح أن يمتد من تلك النقطة فإذا قابل البصر مبصرا من المبصرات، وكان في ذلك المبصر ضوء ما ذاتيا كان ذلك «لضوء أو عرضيا فإن كل نقطة من ذلك الضوء يمتد منها على خطوط مستقيمة بلا نهاية وعلى أوضاع مختلفة بلا نهاية، فتكون الخطوط المستقيمة المتوهمة الممتدة بين مركز البصر وسطح المبصر هي الخطوط التي امتد عليها الضوء فيدرك البصر صورة المبصر من الضوء الذي يرد إليه على سموت هذه الخطوط فقط».

وقد اخترع ابن الهيثم جُسيما أصغر الأضواء. وذلك على ما يبدو في إطار الحفاظ على الصورة ـــ ككائن مادي ـــ خارج عن الإبصار يتحرك ويغير سرعته بتغير الوسط الذي يمر فيه وذلك عبر الطريق الأسهل وتتناقض شدته بازدياد بعده عن مصدر الضوء. وهكذا نرى أن ابن الهيثم لم يكتف بوضع المفاهيم، وبالربط الوثيق بين الرياضيات والفيزياء وبالتالي إعطاء التجربة المكانة التي احتلتها في الغرب ماينيف عن ستة قرون بعده، بل وصاغ أيضا مبدأ الطريق الأسهل وبالتالي الزمن الأصغر في الضوء الذي وضعه فيرما في القرن السابع عشر. ونحن نعلم الأهمية القصوى التي تحتلها المبادىء الأصغرية ـــ الفعل الأصغر والزمن الأصغر ـــ كشكل من أشكاله وفي اشتقاق كل القوانين الفيزيائية انطلاقا منها.

واستطاع ابن الهيثم عبر النموذج الرياضي مقارنة الضوء بالأجسام الثقيلة وشكل مدرسة تجريبية لا تكتفي بالرصد والمراقبة والتحقق والقياس، وإنما تنتقل إلى إنشاء أجهزة لتحقيق فكرة لم يكن تحقيقها ممكنا في السابق كأن نقصر مثلا امتداد الضوء في الأجسام الطبيعية على امتداده في الأجسام المصنوعة كما فعل الفارسي بصنعه بكرة الزجاج المملوءة بالماء لدراسة قوس قزح.

لاغرو بعد هذا كله أن نجد روجي بيكون وهو الذي عرف كتاب البصريات، واقتبس منه يكرر ويقول أن معرفة اللغة العربية والعلم العربي كفيلان وحدهما بالوصول إلى المعرفة الحقة.

III — موقف الغرب من العلم العربي : إن السؤال الأول الذي يطرح نفسه هنا هو لماذا كان العرب أول من أدخل التجربة في العلوم الطبيعية ؟ لاشك أن الأجوبة ستختلف هنا بقدر اختلافها عندما طرح السؤال ذاته عن عصر النهضة. يقول صديقنا الأستاذ رشدي راشد «أنه لايمكن الإجابة على هذا السؤال الا بمعرفة تاريخ العلاقات بين العلم والصنعة وتاريخ العلاقة بين الرياضيات والفيزياء وهما تاريخان لم يكتبا بعد... وهكذا فإن منشأ النظم التجريبية يبقى غامضا ومثيرا للجدل».

ونحن وإن كنا لاندعي أي اختصاص في هذا الموضوع، نرى أنه يمكن الإشارة إلى التطور الطبيعي للمعرفة وضرورة ربط المعرفة بقواعد عملية خاصة عندما تكون الحضارة ناشطة ومفتوحة ونتاج الصنعة خليقا بالثقة. كما يمكن الإشارة إلى الدور الذي لعبته التيارات الفكرية في الطور العربي بما في ذلك الفلاسفة أصحاب المذاهب اليونانية كالكندي والفارابي لتخفيف حدة المعارضة التقليدية للعلم بالصنعة. يعد هذا الدور نفسه نابع من تعاليم الإسلام حيث أعطى القرآن الكريم نفس الأهمية للتفكر والتسخير، مما أضفى على العلماء العرب صبغة الواقعية والاتجاه العملي وأدخل قواعد الصنعة ودراستها في العلم وفي المحاكمة، وفي استنباط النتائج سواء في الكيمياء أو في الطب والصيدلة أو في الموسيقى أو في صنعة القواميس. كما يمكن الإشارة إلى الوقائع الثلاثة التي ذكرها الأستاذ سزكين في عرضه القيم لتحيل ازدهار العلوم في الاسلام، وبالتالي لتفسير التطور الهائل في الرياضيات، وما إلى ذلك من أثر على التجربة.

إن قولنا بالتطور الطبيعي للمعرفة كمصادرة لايعني أن التطور يسير على خط مستقيم دون توقف أو انعكاس أو أنه يتزامن في مختلف بقع الأرض، فهذه ميكانيكية يصعب على العقل قبولها ولا تتفق مع التطور الذي شهده تاريخ البشرية. إنه يعني فقط أن المصادرة القائلة بحصر هذا التطور العلمي على نقطة محدودة من العالم ينشط فيها ثم يخمد ثم ينشط هي فرضية يصعب على العقل قبولها من جهة، ولا تتفق مع الواقع التاريخي من جهة أخرى. ولا تتفق مع الواقع التاريخي من جهة أخرى. تدعي هذا والمصادرة أن العلم التقليدي أوروبي تمتد جذوره في العلوم والفلسفة اليونانية، وأن عصر النهضة ماهو في الواقع الا عودة ثورية إلى العلم والفلسفة اليونانية.

وهي تقبل حتى لاتُظهر تعارضها الصارخ مع التاريخ بعض الحدود، يقول الأب بوسو Bossut مثلا في موسوعة الطرائقية في عام 1784 : «لقد أحبت كل شعوب العالم القديم ورعت الرياضيات كالكلدانيين والفراعنة والصينيين والإغريق والرومان والعرب، وفي الأزمنة الحديثة الأمم الغربية في أوروبا... إن العلوم الكلاسيكية أوروبية وغربية لأن التقدم الذي أحرزته هذه الأمم في العلوم منذ القرن السادس عشر حتى الآن يكاد يمحو كليا ما فعلته الشعوب الأخرى». وهكذا فعند ما تقبل هذه الفرضية أن لانسيات أخرى نشاطات علمية، فإنما لإبقاء هذه النشاطات خارج التاريخ أو لإدخالها في التاريخ على قدر ما قدمته إلى العلم الأوروبي، تدخل الإنسية العربية في هذا الإطار إذ أنها حفظت التراث الإغريقي ونقلته وأغنته ببعض التتمات.

يصعب على المرء تحليل وجود هذه الفرضية بغير العداء والكراهية للذين غذتهما الحروب الصليبية ومازالت علاقات تاريخية يتحكم فيها مفهوم التصارع والمجابهة تغذيها، وبغير الجهل الحقيقي وبالتالي اللاعقلاني بما أنتجته فعلا الانسيات الشرقية والانسية العربية خاصة. ان هذا لايمنع ما قاله الأستاذ سزكين في بدء عرضه أن دراسات قيمة قد تمَّت وأن قانون التطور يأخذ مجراه ويتبقى في آخر المطاف أن شوطا طيبا قد قطع في قضية العلوم العربية والاسلامية. ولكن يبقى أيضا أنه يجب أخذ هذه الفرضية في عين الاعتبار عندما يراد تقييم أعمال المستشرقين خاصة، وأنها وجدت منذ القرن الماضي أسسا علمية مزعومة في اللسنيات لتبريرها. خلاصة هذا الزعم أن هناك نوعين من اللغات، اللغات الأندو أوروبية من جهة، وكل اللغات الأخرى، ومنها اللغات السامية طبعا من جهة أخرى. الأولى Flexionnelle وبالتالي منظومية وتامة منذ منشأها على عكس الثانية. أما أساسه العلمي فهو النحو المقارن الذي يلعب في اللسنيات دور التشريح المقارن في علوم الأحياء. ولما كانت اللغة هي روح الأمة وعبقريتها ونظرتها للكون Weltanshawing فمن الممكن إذن تصنيف العقليات حسب تصنيف اللغات وتفسير الانقطاع التاريخي في تطور المعرفة مادامت اللغات الأولى لغات التجريد وما وراء الطبيعة، والثانية لغات الواقعية والحسبة وهكذا يرى أرنست رونان ـــ مقلدا في ذلك المدرسة الألمانية ـــ أن الآريين والساميين يتقاسمون الحضارة العنصرية ونعني

بها مجموعة القدرات والغرائز التي يمكن التعرف عليها بفضل اللسنيات وتاريخ الأديان، ويضيف «يكاد لايمكن التعرف على العنصر السامي إلا بفضل خصال سلبية، فلا تجد لهذا العنصر أسطورة أو ملحمة أوعلما أو حرافية أو فنونا تشكيلية أو حياة مدنية... أما الآرية فهي التي تعرّف الغرب... وأما العلم العربي فهو ارتداد للإغريق مع تأثيرات فارسية وهندية»، فهو يتفق في هذا مع دوهيم Duhem الذي يقول : «لم يفعل العلم العربي سوى إعادة التعاليم التي تلقاها من العلم الإغريقي». أما تانيه Tonney فيذهب أبعد من ذلك، إذ إنه يقول إنه كلما ازددنا تمعنا في تشخيص العلماء الهنود والعرب كلما بدوا لنا تابعين للإغريق وأقل شأنا من سابقيهم... فبينما اهتم الإغريق بالأسس النظرية لم يهدف الآخرون إلا إلى التطبيقات العملية وتنقصهم في كل الأحوال الدقة والصرامة في التفكير. والغريب في الأمر أنه حتى أولئك الذين يرون أن العرب قد جددوا، فإنهم يفتشون عن العلة في نفس الأسس العلمية المزعومة، يرى آرمالديز وماسينيون (L. Massignon, M. Arnaldez) أن العربية كلغة سامية قد نحت بالمعارف التي عبرت عنها في اتجاه وتفكير تحليلي ذراتي، تفكير مناسبات وأمثال.

أعتقد رغم كل ما تقدم أنه لا يجب المغالاة في إعطاء هذه الفرضية ومبرراتها أهمية أكبر مما نستحق، إذ أنها تعبر قبل كل شيء عن علاقة قوة بين مجموعات إنسانية، وقد يصعب الآن ترديد هذه المبررات في الغرب لأسباب لا علاقة للعرب بها، وليس هنا مجال إثارتها.

وقد ادعى العرب أنفسهم ادعاءات معاكسة في عصر ازدهار حضارتهم عندما حصروا لغات العلم بثلاثة : اليونانية والعربية والعبرية، كما أن ادعاءات مماثلة تتردد في الغرب نفسه لتفسير هيمنة لغة أوروبية على لغة أوروبية أخرى وإن كانت هذه الادعاءات لم تتسم بعد بالطابع النظرياتي الذي اتخذته تلك الفرضية. وهكذا فعلينا نحن — وهنا أضم صوتي إلى نداء الأستاذ سزكين — أن نغير في مجال التراث على الأقل علاقة القوة، وأن نعطي هذه الدراسة قدرا أكبر من الموضوعية متشبثين بالمكانة التي احتلتها حضارتنا وبمقومات هذه الحضارة. ولذا فإني أطرح فكرة إنشاء شهادة دراسات عليا مشتركة بين كليتي العلوم والآداب في الرباط تكون منطلقا للبحث في تطور المفاهيم العلمية والنظريات عند العرب.

ملاحظات بصدد التعريف بالتراث العلمي العربي

عبد الله المصلوت

نظرا لما يقتضيه المقام من التركيز والايجاز، فسأقتصر في كلمتي هذه على بعض النقط والملاحظات انطلاقا من العرض الرئيسي. وتدور هذه النقط حول محورين أساسيين.

الأول يتعلق بالاستشراق.

والثاني يتعلق بالكيمياء الإسلامية وبعض جوانب تطورها.

1 ـــ الاستشــراق

لقد تناول الأستاذ سزكين في مستهل حديثه جانبا من الدور الهام الذي لعبه المستشرقون في الكشف والتعريف بالتراث العلمي العربي وإحيائه بالدراسة والتحقيق والنشر. وبين أن اهتمام الباحثين العرب والمسلمين جاء كرد فعل وانصب بصفة خاصة على التصدي لما جاء في آراء المستشرقين من تحريف أو تزييف في مسائل العقيدة الإسلامية وأنهم أغفلوا الاعمال المهمة التي قدمها المستشرقون في مجالات تاريخ العلوم والتي كان ينبغي أن تعطى حظها من العناية بالترجمة والدراسة المنهجية والمناقشة العلمية رغم أنها لاتخلو من تعصب وأخطاء، نظرا لكونها رصيدا هاماً لايمكن بحال من الأحوال إهماله أو تجاهله.

ومن المعلوم أن موضوع الاستشراق كان مثار النقاش والجدل بين الأنصار المؤيدين المتحمسين من جهة، ويذكر على سبيل المثال منهم نجيب العقيقي في كتابه

بعنوان «المستشرقون» الذي جمع فيه جملة من الآراء التي تؤكد الدور الايجابي الرائد لاسهامات الاستشراق في إحياء التراث العربي الاسلامي باعتباره تراثا حضاريا إنسانيا. وعلى الرغم من كونه عربيا فإن العقيقي يعتبر نفسه مستشرقا تابعا للمدرسة المارونية.

ومن جهة أخرى ذكر المعارضين المبرزين للمواقف المعادية والخلفيات الاستعمارية للحركة الاستشراقية ودوافعها البعيدة كل البعد عن البراءة، وسمى على سبيل المثال منهم ادوارد سعيد في كتابه المسمى بـ «الاستشراق» والذي ترجم إلى العربية بعد ظهوره بالانجليزية.

وإلى جانب هؤلاء نرى اليوم مجموعة من المفكرين العرب والمسلمين ــ وخصوصا في الشرق ــ أخذوا يهتمون بعمق وموضوعية بقضايا الاستشراق ومقاصده ومناهجه كقاسم السامرائي في دراسته (الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية)، ومحمود زفزوف في كتابه «الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري» وكذا أطروحة أحمد سمايلوفيش ــ وهو مسلم يوغوسلافي ــ والتي نال بها الدكتوراه في الأزهر وعنوانها «فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر». أمثال هذه الدراسات التي ظهرت في السنوات الأخيرة حاولت أن تبرز إيجابيات الحركة الاستشراقية دون إغفال أخطارها وخلفياتها. كما بينت بوضوح أن المستشرقين، مهما كان دورهم الايجابي ورغم وجود فريق من بينهم يمتاز بالنزاهة العلمية والانصاف، فإن الأهداف الأساسية لهذه الحركة ودوافعها الدينية والاقتصادية والسياسية والعسكرية ستظل مستمرة وقارة لأنها مرتبطة بالسيطرة والصراع الحضاري الذي تتغير أنواعه وأنماطه ولكنه في جذوره وأصوله ثابت ومستقر، فلهذا دعت كثير من هذه الدراسات إلى استيعاب إسهامات المستشرقين وتحليلها ونقدها والرد عليها.

كما دعت من جملة ما دعت إليه إلى إنشاء مؤسسة علمية على صعيد العالم الإسلامي ونشر دائرة معارف إسلامية جديدة وإلى تكثيف المشاركة الاسلامية في كل مايجري في الغرب من بحوث علمية وترجمة وتدريس.

وبالفعل فإن عددا من الجامعات والمعاهد العربية والاسلامية خصصت أخيرا

بعض أقسامها وشعبها للاهتمام بالاستشراق وبحوثه، كما أن بعض المنظمات العربية والاسلامية جعلت بعض الجوانب التي ذكرنا من بين اهتماماتها.

واعتقد أن ما دعا إليه الأستاذ سزكين هو من هذا القبيل، واضم صوتي إليه وإلى صوت الأساتذة الذين تناولوا الكلمة قبلي وإلى كل صوت يسعى إلى إثبات الحقيقة والاستجابة للتجربة الاستشراقية بانطلاقة إسلامية دراسية علمية جديدة، والاستفادة مما تثيره فينا من اندفاع قوي لدراسة تاريخنا العلمي بأنفسنا.

2 ـــ العلوم الكيماوية العربية الاسلامية

ـــ برثلو وجابر

قبل ان اتطرق إلى موضوع الكيمياء الاسلامية وبعض مظاهر ازدهارها ورجوعا إلى ما قيل عن الاستشراق، أود أن أسوق هنا قصة العالم الفرنسي برثلو BERTHELOT (المتوفي سنة 1908) وهو من أشهر علماء القرن الماضي وأكثرهم اطلاعا وإنتاجا في مختلف الميادين الكيماوية. فقد كان هذا العالم مهتما بإعداد مؤلفه المعروف تحت عنوان «الكيمياء في العصور الوسطى» «La chimie au moyen âge» وكان ملما بكل المصادر العربية المترجمة إلى اللاتينية ومن بينها الكتاب الشهير Summa Perfections «الجامع الكامل» أو «المجموعة الحائزة للكمال» الذي كان ينسب لجابر بن حيان من غير أن تكون حقيقة النسبة إليه موثوقا بها لأن المصدر العربي الأصلي لم يكن معروفا.

ولما كان اعتماد برثلو أساساً على المصادر المنقولة إلى اللاتينية ولم يكن في استطاعته أن يطلع مباشرة على النصوص الأصلية لجهله باللغة العربية، فقد انتقى مجموعة من الرسائل العربية أغلبها لجابر بن حيان، واستعان بهودا O.Houdas ـــ مترجم صحيح البخاري ـــ ثم انكب على دراسة هذه المجموعة المترجمة دراسة عميقة بالمقارنة والموازنة مع النصوص اللاتينية.

وأهم استنتاجات برثلو أن المصادر اللاتينية لايمكن أن تنسب إلى جابر وإنما لمؤلف مجهول سماه «جابر اللاتيني» أو جابر القرن الثالث عشر (لأن جابر العربي من علماء القرن الثامن الميلادي) وكتب اسمه Geber لكي يميزه عن جابر بن حيان الذي يكتب اسمه JABIR

ومرت ثلاثون سنة على نشر مؤلف برثلو حين ظهر العالم الانجليزي هولميارد E-Y Holmyard وهو أستاذ جامعي للكيمياء، وعالم متمكن من اللغة العربية، وله معرفة فائقة بالمراجع العربية القديمة للكيمياء الاسلامية.

وقد خصص هولميارد هذا، دراسة لجابر بن حيان وحقق جملة هامة من رسائله وتصدى لآراء برثلو بالتحليل والمناقشة وإبراز مواقع الخطأ ومواطن الضعف فيها، ونذكر من بينها :

أ ــ جهل برثلو للعربية يجعله قاصرا على الاطلاع المباشر وكذا جهل المترجم هودا للكيمياء، رغم إتقانه للغة العربية، لايؤهله للترجمة المختصة. فقد وردت أخطاء كثيرة في كتاب برتلو ربما نشأت عن ضعف الترجمة، ككلمة «الاسطقس» أو كلمة أبي قلمون وقد ظن برثلو أنها من أسماء الاعلام، والمقصود من «الاسطقس» أحد العناصر الأربعة (الهواء والنار والماء والتراب) وأبو قلمون عند الكيماويين العرب هو اليشب Jaspe نوع من أنواع البلور الصخري Quartz.

ب ــ إن انتقاء عدد محدود من الرسائل ضئيل جدا بالنسبة للرصيد الكيماوي العربي المعروف لايجوز الاعتماد عليه في التوصل إلى حكم عام مبني على أساس، خصوصا وان اكثر المعلومات والمبادىء الموجودة في الكتب اللاتينية توجد بعينها في أصول عربية لم تكن ضمن الرسائل المترجمة التي اطلع عليها برثلو.

ومن مثل هذه الملاحظات يبين هولميارد صحة نسبة الكتب اللاتينية إلى جابر وانه لامجال للشك إلا إذا ظهرت فيما بعد من البراهين القاطعة ما يقتضي تغيير هذا النظر.

3 ــ تطور الكيمياء العربية الاسلامية

يضيق المجال بنا لو حاولنا أن نتطرق إلى توضيح مذاهب العلماء الكيماويين العرب والمسلمين وآرائهم العلمية وكيف استوعبوا المعارف الكيماوية التي ورثوها من الحضارات القديمة وكيف أضافوا إليها الشيء الكثير حتى تمكنوا في عصر الازدهار من رفع الكيمياء إلى مستوى رفيع، وكيف انتقل التراث الكيماوي العربي إلى أوروبا عن طريق الترجمة فكان من عوامل النهضة الأوروبية الحديثة.

بل يضيق بنا المجال لو حاولنا فقط جرد أهم أعمال الكيماويين العرب أو ذكر المعالم البارزة من حياتهم.

فلذلك سنقتصر في هذه العجالة على ذكر بعض الملاحظات بكل ايجاز :

1 ـــ البـــدايـــة

لقد حصل إجماع المصادر القديمة والحديثة كـ «الفهرست» لابن النديم والجاحظ في «البيان والتبيين» و«ابن خلكان» على أن اهتمام العرب بعلوم الكيمياء ابتدأ في أواسط القرن الأول وأن خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان (المتوفى سنة 85هـ) رائد العرب والمسلمين في الكيمياء وهو أول من أمر بنقل التراث اليوناني والقبطي إلى العربية فأعطى بذلك الانطلاقة الأولى لانتشار هذا العلم الجديد. وفي هذا بيان واضح على أن حركة الترجمة والتأليف ابتدأت بالفعل في القرن الأول.

2 ـــ الجوانب التجريبية

أ ـــ لقد تأثر العلماء الكيماويون العرب بالنظرية الكلاسيكية اليونانية حول تكوين المادة من العناصر الأربع والتي تعتبر أن الفلزات واحدة في نوعها نظرا لوجود المادة الأولية في كل منهما وأن الاختلاف الذي بينهما ليس في ماهيتها وإنما هو في أعراض معينة، بحيث يمكن تحويل هذه الفلزات بإزالة الأعراض التي تعتريها. وبالخصوص يمكن تحويل الفلزات الرخيصة إلى ذهب تحت تأثير الاكسير.

وانطلاقا من هذا التصور وما يترتب عنه من محاولات لتحويل المعادن إلى ذهب، تمَّ إنجاز تجارب لاحصر لها قام بها الكيماويون العرب، اكتشفوا من خلالها مجموعة من المركبات والأملاح، وخصوصا منها السوائل المذيبة التي اهتدوا إلى تحضير عدد منها كحمض الكبريتيك (زيت الزاج، نظرا لاستحضاره من الزاج الأخضر $Fe SO_4, 7H_2O$) والصودا والبوتاسا الكاويتين... إلخ.

وبما أن هذه التجارب تقتضي الاتقان في العمليات، فقد ادخل الكيماويين العرب والمسلمين تحسينات كثيرة على الآلات المعروفة لديهم وابتدعوا أجهزة أخرى جديدة ورسموا لها الأشكال (أبو بكر الرازي وغيره).

ب ــ كما أن الناحية التجريبية العلمية تبرز بوضوح في الوصف الدقيق للتجارب وطرق التحضير، والاهتمام باستعمال المقادير الموزونة بدقة تصل إلى الدانق والقيراط والحبة، والعناية بتحديد جميع الظروف والاجراءات اللازمة لكل عملية. (ويمكن أن نعطي أمثلة كثيرة على ذلك).

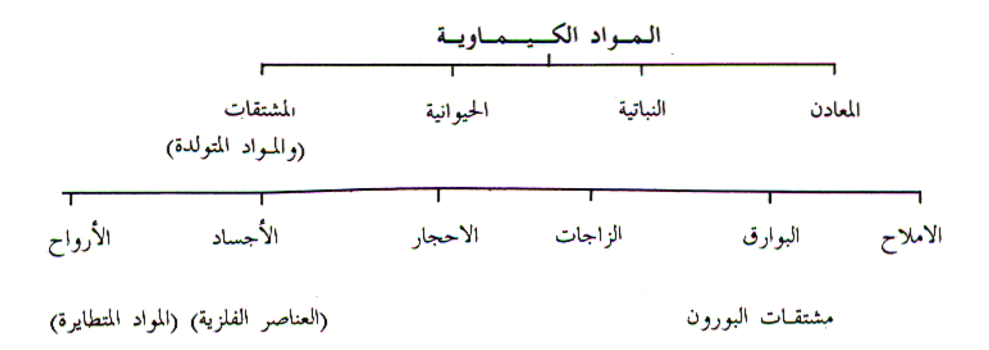
ج ــ لم ينحصر اهتمام الكيماويين العرب والمسلمين في تحضير الاكسير بل سرعان ما اتسع ميدان أبحاثهم إلى مختلف جوانب الكيمياء التطبيقية بالمعنى الحديث ويمكن اعتبارهم بحق أول من دخل هذا التخصص من بابه الواسع وجعل منه فرعا قائما بذاته. ولا أدل على ذلك من الرسائل العديدة في ميادين الصيدلة وتهيىء الأدوية والعقاقير (الاقرباذين) وتحضير العطور وتلوين الزجاج إلى غير ذلك.

3 ــ الجوانب النظرية

انتقل العلماء العرب والمسلمون إلى النواحي النظرية من خلال المشاهدة الدقيقة والتجارب وهذا أسلوب جديد في الاستنباط. (فنرى مثلا جابر في كتابه «الخواص الكبير» يقول إنه لم يشرح إلا ما شاهده ورآه بعينه)

ثم انهم توصلوا إلى تقسيم المواد الكيماوية تقسيما علميا بالمفهوم الحديث أي بمنهجية منظمة ومعرفة منسقة تعتمد على الخواص المعروفة انذاك للمركبات.

فقد أورد هولميارد نموذجا لهذا التقسيم وقد قرره أبو بكر الرازي.



كما أن الكيماويين المسلمين صنفوا العمليات والتدابير التي استعملوها بكل تنسيق وحكمة واهتموا بها أحيانا لحد ذاتها كالتنقية والتقطير والتصعيد والملغمة والتكليس والتشميع والترشيح، إلخ.

وأخيرا فإنهم اهتموا بالناحية. النظرية الصرف أي بابتداع تصورات عن المادة وتفاعلاتها. ومن أشهر النظريات نظرية جابر بن حيان حول تركيب المعادن من عنصرين وهما الزئبق والكبريت. وبدون أن ندخل في التفاصيل يكفي أن نعرف أن هذه النظرية بقيت سائدة في العالم لمدة تناهز 9 قرون. وقد أشار إلى ذلك الأستاذ سزگين في عرضه.

خاتمة

1 — إن الاهتمام بالتراث العلمي الاسلامي والتعرف على ما كان له من مكانة عالمية، وعلى موقعه من تطور العلوم وتاريخها أمر ذو أهمية قصوى، ويقتضي دراسات ميدانية عميقة كما يستلزم استقصاء المعرفة من منابعها الأصلية وتمحيص ما جاء فيها تمحيصا دقيقا، وإعادة قراءتها على ضوء مفاهيم العصر، وتقويم ومناقشة ما كتب حولها لأنها مازالت مليئة بالاختلافات والتناقضات.

ولا بد للمختصين المسلمين أن ينهضوا بهذا الجانب العلمي الحيوي وخصوصا في هذا الطرف الغربي من الوطن العربي الذي انتقل منه معظم التراث العربي الكيماوي إلى أوروبا عبر الأندلس.

2 — ينبغي النظر إلى تطور العلوم على شكل تسلسلي فقد تسلم العرب التراث الكيماوي اليوناني وأضافوا إليه كما تسلم اليونانيون قبلهم التراث المصري والآشوري القديم وأضافوا إليه، ثم جاء دور أوروبا التي نقلت التراث العربي وأضافت إليه. وهكذا تتكون حلقات سلسلة التطور في العلوم.

وبدون أن نرجع إلى أسباب هذه النهضات العلمية المتوالية اليونانية أو الإسلامية الأولى أو الأوروبية — نرى أن من أهم عواملها تلقي التراث الأجنبي والاقبال عليه بالترجمة والدراسة إلى جانب عوامل عديدة حضارية ولغوية وغيرها، ودوافع نفعية أو دينية استمعنا إلى جملة منها في العرض الشافي الكافي للعلامة الشيخ محمد المكي الناصري.

وفي اعتقادي أن هذه العوامل لم تكن مجتمعة في أي عصر من العصور أكثر مما هي مجتمعة الآن. فهل نحن على أبواب نهضة علمية إسلامية جديدة ؟

المراجع

نجيب العقيقي : «المستشرقون» ط 3، دار المعارف، مصر 1965

إدوار سعيد : «الاستشراق» ترجمة كمال أبو ديب — مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت 1981.

قاسم السمرائي : «الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية» دار الرفاعي، الرياض 1403 هـ.

محمد حمدي زقزوق : «الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري» سلسلة كتاب الأمة، قطر، 1404هـ.

أحمد سمايلوفيش : «فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر» رسالة دكتوراه، دار المعارف، 1980.

مساهمة في الحديث عن «ازدهار العلوم في العالم الاسلامي»

مصطفى بنيخلف

أتوجه بادىء ذي بدء بالشكر لآكاديمية المملكة المغربية التي شرفتنا وأتاحت لنا فرصة مناقشة هذا الموضوع الهام. وأشكر السيد الدكتور فؤاد سزگين، عضو الأكاديمية على العرض الذي متعنا بالاستماع إليه والاستفادة منه.

إن تاريخ العلوم في الحضارة العربية الاسلامية لايعرف عنه إلا القليل وذلك راجع لسببين أساسيين :

أولا : قلة البحث وندرة المؤرخين المختصين من أبناء هذه الحضارة

ثانيا : قلة الموضوعية التي تصل أحيانا إلى تحيز صارخ أو إلى عداء تاريخي من طرف بعض المؤلفين الغربيين.

فلقد تجاهل المؤرخون الأجانب النهضة العلمية التي تطبع الحضارة الإسلامية. وعندما يضطرون للاعتراف بما لايمكن حجبه يقفون عند إعطاء العلماء المسلمين دور المترجمين والناقلين للحضارة اليونانية أو الهندية. وذهب آخرون إلى التشكك وتعدد الأساطير السخيفة.

وهكذا قرأنا أن الجيوش المسلمة عند استيلائها على مدينة الاسكندرية سنة 641 ميلادية قد حطمت المكتبات ورمت الكتب والوثائق في لهيب النيران التي كانت حسب زعمهم تدفىء حمامات الاسكندرية. ونسبوا لقائد الجيش المنتصر علل نبه أمره بحرق الكتب قوله : «إذا كانت المؤلفات متفقة مع القرآن الكريم فلا حاجة لنا بها، أما إذا كانت مخالفة له فذلك أعسر ويجب حرقها».

لاحاجة هنا طبعا للتذكير بالمكانة الخاصة التي يمتاز بها العلم في الاسلام. فالآيات القرآنية والأحاديث النبوية حول طلب المعرفة واستكشاف الحقائق العلمية كلها تثبت ذلك. ولقد تفضل الشيخ العلامة السيد المكي الناصري وذكر في تدخله مايكفي في هذا الباب.

أما الحكاية التالية التي أوردها السيد أحمد عبد السلام فإنها تظهر بوضوح مدى تعطش العلماء المسلمين إلى اكتساب المعرفة قال : أن البيروني كان على فراش الموت عندما جاء أحد أصدقائه ليزوره، فسأل البيروني صديقه أين وصلت جهود الباحثين في حل مسألة معقدة كانت مطروحة آنذاك في علم الفرائض. فأجاب الصديق بأن ظروف الزيارة غير مناسبة للخوض في مثل هذا الموضوع. فقال البيروني :

«ألا تعتقد أنه من الأفضل أن أموت وأنا مطلع على حل المسألة، بدلا من أن أموت وأنا جاهلها ؟». وتوفي البيروني بعد لحظات فقط من استماعه إلى شروح زائره (أنظر إلى المرجع (1) ص 14)

فبعد امتداد العالم الإسلامي من أوروبا إلى آسيا انتشر العلم وتكاثر العلماء والمفكرون باللغة العربية رغم اختلاف انتماآتهم الاقليمية. ولنا في ازدهار الحضارة الاسلامية مثالا واضحا لخصوبة الانتاج الفكري عندما تتثاقف وتتفاعل أجناس مختلفة من البشر. فكثير من العلماء المنتمين لهذه الحضارة هم من غير العرب ولكنهم أغنوا الحضارة العربية الإسلامية بعبقريتهم، وكما قال أحد المفكرين المعاصرين العرب : «إن جنسية الفكر هي اللغة كما أن جنسية الانسان هي الدولة». فكل ما يكتب في لغة يصبح جزءا من تراثها مهما كانت الجنسية السياسية والحضارية للكاتب، وما كتبه العلماء من عرب وغير عرب باللغة العربية أصبح جزءا من الحضارة العربية.

ولا بأس، في هذا الصدد أن نشير أن ما يكتبه اليوم الباحثون والمفكرون العرب بلغة أجنبية، يُعدُّ من تراث تلك اللغة سواء تعلق الأمر بالفرنسية المهيمنة في المغرب العربي، أو بالانجليزية المهيمنة على العالم في عصرنا الحالي.

وأنتقل الآن إلى بعض الأمثلة الملموسة تزكية لما تفضل به السيد فؤاد سزكين

من حديث حول مساهمة العلماء المسلمين في الرياضيات :

محمد ابن موسى الخوارزمي من أبرز العباقرة الباحثين والمنتمين إلى بيت الحكمة في بغداد. وإن تضلعه في الأرقام العربية الهندية هو الذي قاده إلى وضع أسس الجبر كما نعرفه اليوم. فنجد في كتابه المشهور «الجبر والمقابلة» طريقة منطقية تربط بين الخطوات بدقة ووضوح وتؤدي إلى إيجاد جذور المقابلات بكيفية عملية. ويبدو أن كلمة الجبر زيادة على دلالتها اللغوية كانت تعني بالنسبة إليه تكملة وإصلاح طرفي المقابلة بعد طرح كميات معينة من الجانبين مع المحافظة على التساوي بين الطرفين. وينقسم كتابه إلى ستة أبواب : يتطرق الباب الأول إلى حل المقابلات التالية :

$$X^2 = 5X, \quad X^2 / 3 = 4X \quad 5X^2 = 10X$$

(نستخدم هنا الرموز كما نعرفها اليوم). وتجدر الاشارة إلى أن القيم المنعدمة أو السالبة كان غير معترف بها للتعبير عن الجذر.

أما الأبواب الأخرى فهي تغطي حالات مختلفة للتساوي بين المربعات والاعداد، وبين المربعات والكميات، بين «الشيء» ومربعه من جهة وأعداد من جهة أخرى. ففي الباب الخامس مثلا، نجد حلا كاملا للمقابلة :

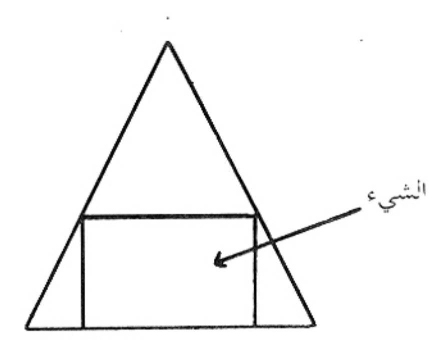
$x^2 + 21 = 10x$ مع الحلين $x = 5 \mp \sqrt{25 - 21}$

حيث يشير الخوارزمي إلى ضرورة إيجابية الكمية التي نعرفها اليوم تحت إسم «المميز» (Δ discriminant)

كل هذه الأشياء أصبحت مألوفة اليوم عند تلاميذنا ومسلم ببساطتها، ولكن يجب أن نتذكر أن الخوارزمي كان يكتب في بداية القرن التاسع الميلادي، بأسلوب يستعمل الكلمات والجمل الطويلة لا الرموز والعبارات المختصرة. فكان يقول مثلا :

«خذ نصف الجذر واضربه في نفسه فإذا كانت النتيجة أقل مما يصاحب المربع الذي سبق ذكره... وهكذا...»

وفي هذا الصدد يجب أن أشير إلى أن الرمز اللاتيني X الذي نستخدمه اليوم للإشارة إلى الكميات المجهولة يرجع إلى الحرف العربي «ش» وتأثير العربية في اسبانيا حيث يتطابق نطق x مع «ش» في «الشيء» كما كان يقول الخوارزمي. وحرف x نادر في القاموس الاسباني. مثلا في بحثه عن ضلع مربع محصور داخل مثلث، كان يسمى ضلع المربع «الشيء» ولمعرفة الشيء، يقوم بتربيعه ويقول أن مساحة المربع ماهي إلا فرق بين مساحة المثلث الكبير ومساحات المثلثات الصغيرة في الرسم التالي (أنظر المرجع (3) ص 257)

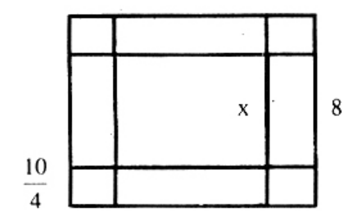


يقودنا هذا المثال في الهندسة والجبر إلى التذكير بتأثير الرياضيات الاغريقية على العلماء المسلمين. فرغم الطريقة الواضحة والمقنعة التي قدمها الخوارزمي لحل المقابلات، يعود للاعتقاد بأن الأمر لازال يحتاج إلى «برهان» هندسي. فيشرح طريقة التكميل والتربيع بذكائه البارع فيقول مثلا: في المقابلة : $X^2 + 10X = 39$

X^2 هي مساحة مربع مجهول، قسم 10 إلى أربعة أجزاء، فتصبح هي مساحة المربع مضافا لها مساحات أربع مستطيلات متساوية. إذا أضفت مساحات الأربع مربعات الصغيرة في الزوايا، حصلت على مساحة مربع كبير وهي :

$$39 + 10 \times (\frac{10}{4})^2 = 64$$

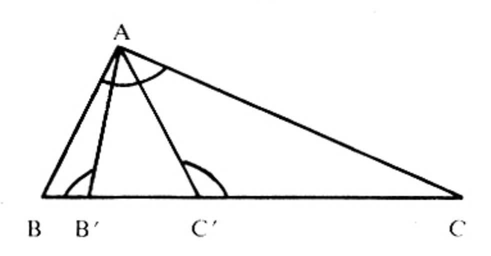
إذن طول ضلع المربع الكبير هو 8 وبالتالي يكون الشيء « X» مساوية لـ $8 - 2 \times \frac{10}{4}$ أي $X = 3$



بعد الحديث عن الخوارزمي، نشير بسرعة إلى أمثلة أخرى من مساهمات العلماء المسلمين : هناك تعميم نظرية فيثاغورس لثابت ابن قرة في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي. تقول النظرية (مع رموز اليوم).

$$\overline{AB}^2 + \overline{AC}^2 = \overline{BC}\,(\overline{BB'} + \overline{C'C}$$

حيث إن $\hat{A} = \hat{B}' = \hat{C}'$



وفي القرن الحادي عشر م. حصل إذ ذاك ربط الجبر بالهندسة لعمر الخيام سابقاً في ذلك ديكارت. أما أبحاث عمر الخيام في المعاملات ذات الحدين فهي سابقة لما يسمى اليوم بـ «مثلث باسكال» أي

1					
1	1				
1	2	1			
1	3	3	1		
1	4	6	4	1	
1	5	10	10	5	1
.	.	. .	. .	.	.

هناك كذلك وحتى القرن الخامس عشر م. براعة الكاشي في العمليات الحسابية وهو الذي أعطى قيمة عشرية دقيقة جدا للعدد π :

$$\pi = 3,1415926.............$$

الأمثلة في المساهمات العلمية للحضارة العربية الاسلامية عديدة، ولكنني أود أن أتوجه للسيد المحترم فؤاد سزكين بالسؤال التالي :

ألا تعتقدون أن علم الفرائض مع تشكل المسائل الإرثية في الشريعة الإسلامية كان من العوامل الأساسية التي دفعت العلماء المسلمين إلى البحث وإلى ابتكار الطرق الحسابية التي أغنت الرياضيات ؟ وأستدل بقول الخليفة المأمون الذي خاطب محمد أبو موسى الخوارزمي قائلا : عليك أن تؤلف مختصرا في قواعد الحساب حتى تبرز ما ينفع الناس وما يحتاجون إليه في حالات الإرث والوصية والتقسيم...»

وكتاب الجبر للخوارزمي مليىء في نصفه الثاني بمسائل حسابية تتعلق بالإرث. أذكر على سبيل المثال : «مات رجل تاركا ولدين وقد أوصى بالثلث لرجل غريب. فترك ملكا قدره عشرة دراهم ودينا قدره عشرة دراهم على أحد الولدين».

أما التساؤل الثاني الذي أطرحه أمام هذا الجمع المحترم هو الآتي : هل كانت الفرائض مبنية أصلا على النظام العشري لكتابة الأعداد، أم كان العدد 12 هو القاعدة للحساب (النظمة الإثنى عشرية) قبل الخوارزمي فجاء تأثير مؤلفاته التي طورت الأرقام الهندية فأصبح المختصون في شؤون الإرث يحسبون بالأعداد العشرية ؟ لعل تساؤلي نابع من الاعتبارات التالية : أولا إن الفروض في الإرث هي النصف، والثلث، والربع، والثلثان، والسدس، والثمن، مع العلم أن الكسور $\frac{1}{3}$ و $\frac{2}{3}$ و $\frac{1}{6}$ غير مضبوطة في النظام العشري والعكس صحيح بالنسبة للنظام الإثنى عشري.

فنكتب :

$$\frac{1}{3} = \frac{4}{12} \text{ ، } \frac{2}{3} = \frac{8}{12} \text{ ، } \frac{1}{2} = \frac{6}{12} \text{ ، } \frac{1}{6} = \frac{2}{12}$$

أو $\frac{1}{3} = 0,4$ ، $\frac{2}{3} = 0,8$ ، $\frac{1}{2} = 0,6$ ، $\frac{1}{6} = 0,2$

ثانياً إن استعمال النظام الإثنى عشري يجري به العمل في عدة مجالات، مثلا تقاس نسبة الذهب والمجوهرات بما يسمى «بالقيراط» وهو جزء من 24.

أما حساب الفرض في التركة واستعمال طريقة العول والرد فكلها تصبح أوضح في ضوء النظمة الاثنى عشرية (انظر إلى المرجع (2)) مثلا بدلا من

$$\frac{2}{3} = \frac{1}{6} + \frac{1}{2} \quad —$$

نرى فورا أن $0,8 = 0,2 + 0,6$

و (0,8) هو الثلثان في النظمة الاثنى عشرية $\frac{2}{3} = \frac{8}{12} = 0,8$

المراجـــع

1 — Abdus - Salam : Ideals and Realities (1984)....
Revue de L'INSEA, n° 7, p.1

2 — مصطفى بنيخلف : «الرياضيات وعلم الفرائض» (1985)
مجلة المعهد الوطني للاحصاء — العدد 8، ص 209

3 — Boyer, C.B : A history of Máthematics
John Wiley sons, 1968.

القسم الثاني

الملخصات

المستقبلية والغدية

محمد عزيز الحبابي

تهتم المستقبلية والغدية بالمستقبل، لكن المستقبلية تنزع إلى أن تكون علما، وليس فلسفة، على عكس الغدية.

ومن جهة أخرى فإن المستقبلية تخضع للإقليمية، بينما تنزع الغدية إلى العالمية.

يضاف إلى هذا أن المستقبلية تعارض النظر إلى الماضي وتركز على الحاضر لاكتناه المستقبل. إنها تحليل وليست عمل ومن ثم فإنها ليست كافية لبناء عالم الغد.

وهكذا، فإنه يجب عليها أن تعتمد على الغدية، من أجل فاعلية أكثر. وفي الواقع، فإنه إذا كانت المستقبلية جمعية، فإن الغدية تنظر إلى هذه التعددية، من وجهتي النظر الجغرافية والتاريخية، على حد سواء.

إن المطلب الأساسي، بالنسبة للمستقبلية والغدية هو إذن كشف النقاب عن جانب الحاضر، وبصفة خاصة عن جانب المستقبل، مستقبل للجميع.

ونظرا إلى أن المستقبلية قد تكون موغلة في التبعية للذاتية الغربية، فقد يكون من الضروري أن تتوسع عن طريق تعاون مع فلسفة يكون الإنسان فيها هو المركز والمرجع، بطريقة لا تمكن السلطات السياسية من استعادتها أو توجيهها أو مصادرتها.

إن الغدية فلسفة لا علاقة لها بالفلسفات القائمة، وبصفتها تنتمي إلى العالم الثالث، فإنها تنزع إلى التمفصل حول النظامية المتداخلة. ولكن بما أن جميع النظم محتكرة من طرف الغير، فإن العالم الثالث لا يمكن أن يسير على أي نظام، ويزداد الأمر صعوبة بالنسبة للنظامية المتداخلة.

وهكذا علينا أن نعي هذا التناقض، لننهض به بطريقة أفضل.

إن العالم الثالث يجب عليه أن يقطع الصلة بكل ما هو قائم. وفي هذا السياق، سيكون للمستقبلية دورها الذي يجب أن تلعبه.

الإسلام وحقوق الإنسان

محمد علال سيناصر

إن الاحترام العالمي لحقوق الإنسان يجر إلى مطلبين أساسيين :

— ضرورة وجود ضمانات لحمايته لدى كل أمة.

— وقوع الدفاع عن هذه الحقوق في دائرة اختصاص المجموعة الدولية. وعلى نفس الأسس، فإن الإسلام يعترف بهذه الحقوق ويدافع عنها.

وفي الواقع فإنه في الوقت الذي نجد فيه أن تبني فكرة حقوق الإنسان جاء مع تكوين الدول العصرية في أوروبا، فإن الإسلام قد سبق إلى ذلك، في الدساتير المعتمدة بعد إلغاء الخلافة سنة 1924.

وفي معظم البلدان الإسلامية، فإن المجابهة بين الإسلام وأوروبا، جعلت في المواجهة، حركة الاستشراق، والمذهب الغربي، والفكر الإصلاحي المطبوع بإشكالية حقوق الإنسان.

وقامت نخبة من المتحررين فجعلت من نفسها لسان حال هذه الأفكار، في ظل الأمبراطورية العثمانية.

وتمت الإصلاحات بطريقة تزيد من صلاحيات الخليفة. وكردة فعل، دخلت إلى العالم الإسلامي فكرة الأمة — دعامة فكرة المواطن — التي على أساسها أمكن فيما بعد وجود حقوق الإنسان، وإعلانها، والمصادقة عليها.

وكان تكوين القوميات غير الأوروبية يقابله «تيقظ المشرق» والذي من أجله كانت فكرة الأمة تتضمن فكرة الوطن، هذا الوطن الذي لا يمكن تصوره بدون حرية أو بدون تسامح.

وهكذا، فإن حقوق الإنسان لا يمكن أن تكون محترمة، إذا لم تكن الدولة دولة قانون.

إن إلغاء البيعة للخليفة العثماني أو على أية حال، حق تقرير المصير، هما جزء من المطالبة بحقوق الإنسان ولا يمكن أن يكون لهما معنى في تصور غير إقليمي للدولة، مثل التصور الإسلامي.

إن مبادىء الإسلام : رفض العنصرية، وفكرة خلاص الإنسان التي تكتسب بواسطة الفضل والعمل معا، هي مبادىء أساسية في الفلسفة الإسلامية لحقوق الإنسان، تلك الفلسفة التي تدعو إلى تجنب عقبتين أساسيتين هما : الفردانية المفرطة، والمادية المنحطة.

ومن جهة أخرى فإن التهالك على توسيع دائرة الحقوق يلغي معنى الإنسان.

وهكذا، فإنه من الضروري إعادة حقوق الإنسان إلى أسسها.

وأخيرا، فإنه ينبغي أن نشير إلى أن الفطرة أو العقل الطبيعي ـــ الطبيعة العامة للإنسان، والمذهب الذي أعده الإسلام ـــ تعتبر أساسية لفلسفة حقوق الإنسان.

وسائل الاعلام والاتصالات في إفريقيا
ثقل التكنولوجيا المتقدمة

المهدي المنجرة

إن النظام الإعلامي الدّولي بتحويله للعالم من مجتمع مبني على الإنتاج إلى مجتمع مؤسس على المعرفة تحلّ فيه تدريجياً الثورة البشرية والإعلام محلّ المواد الخام والرأسمال كوسائل للتنمية، إن هذا النظام يساهم في تكريس، بل في تعميق، التفاوت الحاصل بين الشمال والجنوب. ويكفي للدلالة على ذلك مقارنة نسبة إسهام افريقيا في الإعلام الدولي (2%) بمساهمتها في الدخل الإجمالي العالمي (3%).

إن أهمية الإعلاميات تكمن في كونها قد أصبحت ليس فقط وسيلة ومصدرا هاما من مصادر السلطة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتكنولوجية، بل هي في نفس الوقت صناعة في حدّ ذاتها، بل وأكبر صناعة في العالم، إذ تمثل 40% من الإنتاج الصناعي العالمي. وقد شكّلت الثورة الإعلامية كذلك تحوّلا كبيراً في مفاهيم «التنمية» و «الأولويات الاقتصادية»، وفرضت ضرورة خلق مجموعات اقتصادية كبرى تتوفّر فيها شروط التكامل.

لكن الشرط الأساسي لنجاح الثورة الإعلامية يكمن في ضمان الحريات الديموقراطية وحقوق الإنسان، التي من شأنها خلق جوّ يشجّع على الخلق والإبداع والبحث، ومساعدة المواطنين على التعبير بحرية عن آرائهم وقضاياهم وطموحاتهم، ومساعدة المجتمع على مواجهة القضايا الخلقية الناجمة عن التكنولوجيات الإعلامية الجديدة.

ومن المؤسف حقّا أن نرى إفريقيا قد تخلفت في هذا المجال كذلك. فهي لم تعط بعد الإعلام والإعلاميات الاهتمام اللائق بهما كعماد أساسي لسياستها التنموية. فإذا كانت نسبة مشاركتها في الإعلام الدولي التقليدي تقدر بـ 1/6، فإن تواجدها في قطاع الإعلاميات المتقدمة يكاد يكون منعدما (1/60).

ولعل امتحان قارتنا في هذا القطاع سيكون مدى نجاحها مستقبلا في تنشيط مشاريع مشتركة على الصعيد الجهوي.

دور العوامل البشرية
في تشخيص وعلاج
خصاص الجنوب وحيرة الشمال

بيرناردان ݣانتين

خصاص الجنوب وحيرة الشمال ظاهرتان تميزان العصر الحاضر كوجهين لرقعتين معزولتين وتُعمقان القطيعة بينهما. لذا فإنه من الأهمية بمكان التصدي لتحليل العوامل البشرية كمحور أساسي في الموضوع.

إن وضع العوامل البشرية على رأس ما ينبغي أن تهتم به أكاديميّة المملكة المغربية يجد تفسيره في أن الأزمات الحضارية هي إنذار للإنسان كي يبذل الجهد لتجاوز المشاكل ورصد الشر بأسلوب موضوعي دون أهواء ليكون التشخيص دقيقا والعلاج فعالا.

خطورة الموضوع، إذن، تلزمنا أن لا نكتفي بأسلوب التحليل الاقتصادي الجاف بل نضع اليد على المظاهر الحقيقية للخلل الحضاري، إذ كيف يعقل أن تكون القارة التي تُشيد تقاليدُها بالحياة عُرضةً للجوع القاتل، أو عدم التوازن المضر في التغذية ؟

إن الخلل الحضاري لايتجلى في البعد التكنولوجي فقط، ولكن له أبعاد أخلاقية، ولايمكن الاقتصار في مواجهته على بذل المعونات الفردية للذين هم في حالة خصاص، ولكن تأسيس بنيات تعاونية تحمل في طياتها بذرة التنمية المتكافئة كما أشار إلى ذلك قداسة البابا جون بول الثاني بقوله : «إن التنمية البشرية الحقيقية

هي التي لا تستهدف فقط خدمة الأهداف التقنية، ولكن تحقيق تنمية شاملة،من هنا ضرورة إرساء أسس نظام دولي جديد يتوافق والمهام الملقاة حاليا على كاهل مجموع الإنسانية

هكذا تكتسي العوامل البشرية أهمية قصوى سواء على مستوى البعد المهني أو البعد الروحي للتربية، فتتوافق من جهة مصالح الفرد ومصالح الجماعة، وتتوافق مصالح الدول من جهة أخرى، ولذلك تتفتح القلوب على الحقيقة الإلاهية وتسود المحبة بين البشر.

الوقاية من الكوارث الناتجة عن الهزّات الأرضية : تجربة مدينة مكسيكو

بيدرو راميريز فاسكيز

منذ أقدم العصور والإنسان يبحث عن الكيفية التي يدافع بها عن نفسه من الكوارث التي تحدثها الظواهر الطبيعية. في الوقت الحاضر نتوفر على الوسائل التي تتيح لنا التعرف على إتجاه العواصف ودرجة حدتها وظواهر أخرى طبيعية قبل حدوثها وبفضل ذلك تنجى أرواح عديدة من الهلاك. لكن الهزات الأرضية بسبب قصر مدتها وحدوثها المفاجىء ودون توقع مازالت مصدر خوف شديد وعنصر تهديم كبير.

إن الهزات الأرضية التي حدثت يوم 19 شتنبر 1985 والتي بلغت قوتها 8,1 درجة من سلسلة ريشتر تسببت في موت ما لا يقل عن 20 ألف شخص في مدينة مكسيكو، وحطمت 412 بناية وأصابت 5700 أخرى بأضرار. كما أحدثت أضراراً بليغة في مصالح الماء والكهرباء والمواصلات. وتجدر الإشارة إلى أن جزءا مهما من الأراضي المكسيكية توجد في مناطق للزلازل بها انقصافات جيولوجية تتقارب فيها وتصطدم الصفائح الأرضية فتتولد عن ذلك طاقة كبيرة.

بالإضافة لهذه المخاطر فإن منطقة العاصمة مكسيكو التي تعتبر مركزا اقتصاديا وسياسيا تعرف مشكلة تمركز كبير وهائل للسكان، يبلغ عددهم عشرون مليون نسمة، زيادة على مشكلة نموها الفوضوي والعشوائي توجد تحت قشرتها الأرضية أرض رملية بها حصى وبقايا بركانية ومناطق مجففة كانت بحيرات في السابق. لهذا السبب تعرضت إلى أضرار منذ عهد الاستيك نتيجة الهزات الأرضية والزلازل.

في هذا القرن نتذكر على الخصوص زلزال عام 1932 وكانت درجته 8,4 من سلسلة ريشتر وزلزال عام 1957 وكانت درجته 7,4 وزلزال شتنبر 1985 والذي كان الأكثر تخريبا وتدميرا. هذا الزلزال كان مصدر موجاته مركز سطحي يقع على بعد 480 كيلومتر وكانت سرعته، وتواتره، وقوته غير عادية ومازالت تدرس سواء في المكسيك أو الولايات المتحدة.

أعداد كبيرة من المباني أصيبت بأضرار بليغة بسبب هذه المميزات الخاصة للموجات بالإضافة إلى التربة المتنوعة للأرض والتي ضخمت الهزات فأحدثت «صدى» في المباني.

إن التقارير التقنية تبرز، مع ذلك، مقاومة جيدة لبعض المباني الواقعة في المنطقة الوسطى الأكثر تضررا، وذلك بسبب إلتقاء التصميم الهندسي المتناسب مع الحلول البنيوية التي تم اتخاذها نتيجة الزلازل السابقة والتي قوت بشكل كبير القدرة على المقاومة للمدينة. أخذت القوانين والأنظمة الحالية بالتجارب السابقة واتخذت إجراءات جديدة تزيد من درجة السلامة والأمن في البنيان. وتجدر الإشارة أن الممرات غير المستوية، وأنفاق الميترو وعناصر أخرى تابعة لتجهيزات أساسية حضرية تحملت بشكل جيد جدا الكارثة إذ أنه على الرغم من كون الأضرار كانت بليغة فإنه لو أخذنا بعين الاعتبار مميزات الزلزال والقشرة الأرضية فإنه كان من الممكن أن تكون أكبر وأعلى من ذلك.

إن عمليات إعادة البناء والتي بدأت في الحين حصلت على نجاح معترف به دوليا : في 18 شهر تمَّ بناء 45 ألف مسكن لإيواء الأشخاص ذوو الدخل المنخفض من ضحايا الزلزال.

ولكن الأمر المهم هو عملية تحسين الإجراءات الوقائية.

في المكسيك كما هو الأمر في كل منطقة زلازل فإنه من الضروري تطوير وتحسين هذه الإجراءات الوقائية لأن الزلازل ستعيد الكرَّة مرات أخرى، خصوصا وأن العلم مازال وسيبقى ولمدة طويلة، عاجزاً عن التعرف عليها يقينا، وقبل حدوثها. إن التوعية والتربية والتمرين والتهييء الجماهري من أجل مواجهة الزلازل لها أهمية بالغة وينبغي تعميقها ونشرها.

إن إدخال معايير متشددة ودقيقة في البناء بمساعدة التقدم الكبير للتقنولوجيا، يشكل جانبا آخر مهما من أجل تطبيق دروس الحاضر، خصوصا من خلال ذلك «المختبر الحي للزلازل» الذي أسسته مدينة مكسيكو بعد شتنبر 1985.

إن اللامركزية ستسجل خطوة ذات أبعاد كبيرة فيما يخص تخفيض المخاطر عند حدوث كارثة كبيرة نتيجة زلزال ضخم. وإن هذه السياسة الهادفة للقضاء على التركز والتجمع ستطبق بفعالية أكبر خلال السنوات المقبلة. وذلك من أجل التشجيع على انتشار المدن ذات الحجم المتوسط في مناطق مناسبة اقتصاديا وآمنة من حيث الزلازل.

وجهات نظر ابريطانية
حول مشكل آفة الجراد

اللورد شالفونت

تهدد آفة الجراد أهم المناطق الفلاحية بإفريقيا وبشبه الجزيرة العربية، حيث تنظم حملات منسقة للمكافحة. ولهذا فيجب اثبات فعالية المراقبة في المكافحة والقضاء على هذه الآفة.

إن المناهج البريطانية التقنية منها والمؤسسية والأبحاث الضرورية في مكافحة آفة الجراد هي التالية :

أ ــ أعمال عالمية متناسقة لمراقبة آفة الجراد، ومساهمة المتبرعين.

ب ــ تنظيمات وتدابير جهوية لمكافحة آفة الجراد.

ج ــ تدعيم مؤسسات مكافحة آفة الجراد وتدريب المستخدمين على ضبط الآليات المستعملة.

د ــ إدارة العمليات بطريقة فعالة.

هـ ــ التزود بمبيدات الحشرات واستعمالها بكيفية دقيقة.

و ــ مراقبة وتخفيف فعالية مبيدات الحشرات على الأجسام غير المستهدفة.

إن انجلترا تحبذ استعمال التقنيات الجد معاصرة لمحاصرة موقع الجراد وترقب هجرته، وتتجلى أهمية مساهمتها في حل مشكل آفة الجراد في قدرتها الوقائية، وذلك بفضل توفرها على آليات متخصصة في مكافحة الجراد، وشاحنات مجهزة برشاشات وخبراء أكفاء لإدارة الحملات ضد الجراد والإشراف على تدريب المستخدمين في هذه العملية.

هذا ويجب مقارنة هذه الآفة بما سبقها من آفات الجراد للتعريف بالتطورات والثوابت المحيطية المرتبطة ببدايتها وانتشارها. كما أن المعلومات الدقيقة حول الوقائع الحاضرة والمستقبلية، وحجم الجراد وتحركاته جد ضرورية للوحدات الوطنية والجهوية المكلفة بمحاربة الجراد ولمصلحة الأرصاد بالمنظمة الدولية للتغذية. كما تستلزم محاربة آفة الجراد وحدات وطنية قادرة — خاصة حين لا توجد منظمات جهوية — على مكافحة هذه الآفة.

القسم الثالث

أنشطة الأكاديمية

نشاط أكاديميّة المملكة المغربية

1987 — 1988

في هذا العدد الخامس من مجلّة الأكاديميّة نتطرق، في ملخص مقتضب، لمختلف أنشطة أكاديميّة المملكة المغربية خلال السنة الأكاديميّة 1987 — 1988 فنعرض للموضوعات الهامة التي تتولى الأكاديميّة دراستها خلال التظاهرات المختلفة التي تنظمها سواء على مستوى الدورات أو الندوات المتخصصة أو المحاضرات العمومية، أو أحاديث الخميس. وسنتناول هذه التظاهرات الهامة كل على حدة :

I — دورات الأكاديميّة :

عقدت أكاديميّة المملكة المغربية بمدينة طنجة خلال شهر أبريل دورتها الأولى لسنة 1988 التي خصصتها لمعالجة موضوع : «خصاص في الجنوب، حيرة في الشمال : تشخيص وعلاج». جاء الاختيار الملكي السامي لهذا الموضوع من وحي ما يعرفه العالم من أزمات مالية واقتصادية واجتماعية حادة، مسّت جميع البنيات والقطاعات مما نشأ عنه اضطراب في العلاقات الدولية، وخلل في الحياة الاجتماعية وفوضى في النشاط الاقتصادي والتجاري عمت البشرية كلها في جميع القارات. وقد تخلّلت هذه الدورة ندوة علميّة حضرها زيادة على السادة الأعضاء، خيرة من الخبراء من ذوي الاختصاص.

حيث قدمت الدراسات العلمية التالية :

— «الأزمة الاقتصادية الدولية بين التبعية في الجنوب والتكاثر في الشمال» للسيد عبد الهادي بوطالب، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

— «خصاص الدول النامية في العلوم والتقنيات : تشخيص وحلول ممكنة» للسيد عبد اللطيف بن عبد الجليل، عضو أكاديميّة المملكة المغربية.

— «الحيرة الناجمة عن التقدم العلمي والتكنولوجي» للسيد ادريس خليل، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

— «مسار الشمال والجنوب : مقاربة عالمية وجهوية» للسيد فتح الله ولعلو أستاذ العلوم الاقتصادية ورئيس جمعية الاقتصاديين المغاربية.

— «الخصاصة في الجنوب والحيرة في الشمال» للسيد عبد الله عمر نصيف عضو أكاديمِيّة المملكة المغربية.

— «الثقافة وإشكالية الخصاص والحيرة» للسيد عباس الجراري، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

— «الحريات العامة والديمقراطية كعوامل محرِّكة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية» للسيد عبد الكريم غلاّب، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

— «نقطة البداية في حوار الشمال والجنوب» للسيد محمد فاروق النبهان، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

— «مستقبل التعاون الدولي» للسيد أحمد صدقي الدجاني، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

— «مدخل حواري : معاينة البيولوجي ومعاينة المؤرخ» للسيد جان بيرنار وموريس دريون عضوا أكاديمِيّة المملكة المغربية.

— «من أجل علاج الخصاص في مجال التغذية» للسيد محمد هداية الله، عضو أكاديمِيّة المملكة المغربية.

— «التغيرات المناخية وأثرها على الخصاص في الجنوب والحيرة في الشمال» للسيد شارل ستوكتون، عضو أكاديمِيّة المملكة المغربية.

— «خصاص الماء في العالم، وخاصة في العالم الثالث : التشخيص والعلاج» للسيد روبير امبرودجي، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

— «العلوم والتكنولوجيا والتنمية» للسيد أحمد عبد السلام، عضو أكاديمِيّة المملكة المغربية.

— «مواجهة انتشار الحيرة : التجارة المتعددة الأطراف أداة إضافية لحصر

التوقعات» للسيد إيف بيرتيلو (فرنسا) الكاتب العام المساعد لصندوق الأمم المتحدة للتنمية.

ــ «خصاص الجنوب، حيرة الشال : التشخيص والعلاج» للسيد هيليو جاكواريبي (البرازيل) عميد معهد العلوم الاجتماعية والسياسية (ريودي جانيرو).

ــ «الصورة النقدية للعالم» للسيد محمد علال سيناصر، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

ــ «الفوضى المالية : المديونية والتعاون الدولي» للسيد حبيب المالكي (المغرب) أستاذ العلوم الاقتصادية، عضو اللجنة التنفيذية للبحث الاقتصادي والاجتماعي بافريقيا (دكار).

ــ «الجنوب والتدفقات المالية العكسية» للسيد إسماعيل صبري عبد الله، (مصر) رئيس منتدى العالم الثالث.

ــ «خصاص في الجنوب، حيرة في الشمال : تشخيص وعلاج» للسيد أحمد أحيدجو، عضو أكاديميّة المملكة المغربية.

ــ «آثار النزعة الحمائية على النماء والتطور» للسيد موريوكي موتونو، سفير اليابان بباريس.

ــ «المواجهة بين القوى العظمى وتدبير الأزمة العالمية» للسيد اللورد شالفونت، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

ــ «نزع السلاح من أجل التنمية» للسيد روني جان ديبوي، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

ــ «تأملات في التعاون الثقافي الدولي» للسيد ألفونصو دولاسيرنا، عضو أكاديميّة المملكة المغربية.

ــ «تعدد الخصاص وتنوع الحيرة : فعالية البحث عن الحلول الشاملة» للسيد عبد اللطيف بن أشنهو، (الجزائر)، نائب المدير العام المساعد لقسم العلوم الاجتماعية باليونسكو.

ــ «حضارة تلفظ أنفاسها : خيبة الدول المتقدمة وحسرة الدول المتخلفة» للسيد محمد عزيز الحبابي، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

ــ «علاج الأزمة الاقتصادية العالمية في ضوء خصاص الجنوب وحيرة الشمال» للسيد دينغ نيكوان (الصين)، عضو المكتب التنفيذي بمركز الدراسات الدولية لمجلس الدولة.

ــ «ثلاث سيناريوهات لمستقبل التعاون الدولي» للسيد المهدي المنجرة، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

«الوقاية من الكوارث الطبيعية وآفة الجراد» :

وعقدت أكاديمية المملكة المغربية دورتها الثانية لسنة 1988 بالرباط خلال أيام : 18 ــ 19 ــ 20 ربيع الثاني 1409هـ الموافق 28 ــ 29 ــ 30 نوفمبر 1988م، لدراسة موضوع : «الوقاية من الكوارث الطبيعية وآفة الجراد». إن هذا الموضوع الذي تفضل حضرة صاحب الجلالة بعرضه على أنظار أعضاء الأكاديمية، ليعد من مواضيع الساعة التي تشغل بال الإنسان كما شغلته منذ العصور الغابرة. ولقد سبق لجلالته أن وضع مشكلة آفة الجراد على المجتمع العالمي في مؤتمر دولي انعقد بفاس، وليس ذلك من قبيل المصادفة، بحيث عودنا حفظه الله على إثارة مثل هذه المواضيع المصيرية في غير ما مناسبة.

وقد تخلّلت هذه الدورة ندوة علمية حضرها إضافة إلى السادة الأعضاء خبراء من مختلف الأقطار، وقدمت أثناءها العروض القيمة التالية :

ــ «الوقاية من الكوارث الطبيعية : الحالة الراهنة والآفاق المستقبلية» للسيد إدريس بنصاري، مدير المركز الوطني لتخطيط وتنسيق البحث العلمي والتقني (المغرب).

ــ «نحو حق إنساني لاغاثة منكوبي الكوارث الطبيعية» للسيد روني ــ جان ديبوي عضو أكاديمية المملكة المغربية.

ــ «تحديد مفهوم الكارثة الطبيعية» للسيد أحمد صدقي الدجاني، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

ـــ «الجراد في تراثنا» للسيد ناصر الدين الأسد، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

ـــ «المياه الجوفية في الصحراء إحدى المعطيات البيئية المساعدة على وجود الجراد المهاجر» للسيد روبير امبرودجي عضو أكاديمية المملكة المغربية.

ـــ «التحولات المناخية وأثرها على الجراد الصحراوي في جنوب المغرب» للسيد شارل ستوكتون، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

ـــ «الجراد بين الدراسات الحديثة وبين التصورات الموروثة» للسيد محمد الحبيب ابن الخوجة، عضو أكاديميّة المملكة المغربية.

ـــ «ظاهرة الجراد ـــ عموميات مع التركيز على ظاهرة الجراد المهاجر (شيستوسركا كريكاريا)» للسيد التهامي بنحليمة، مدير المركز الوطني لمكافحة الجراد بأكادير (المغرب).

ـــ «المكافحة البيولوجية للجراد» للسيد دونالد فريدركسون، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

ـــ «التجربة المغربية في مكافحة الجراد (حملة 1987 ـــ 1988)» للسيد عبد العزيز العريفي، مدير وقاية النباتات، وزارة الفلاحة.

ـــ «استعمال مبيدات الجراد والاستراتيجية التونسية في مجال الوقاية والمكافحة» للسيد شبيل محرز، مهندس رئيس مصلحة مقاومة الحشرات بوزارة الفلاحة.

ـــ «الوقاية من آفة الجراد» للسيد يس عثمان، رئيس الإدارة المركزية لمكافحة الآفات وزارة الزراعة (القاهرة)(*).

ـــ «آفة الجراد : أسباب الوضعية الراهنة واستراتيجية الوقاية والمكافحة» للسيد شارة بشير، مهندس بوزارة الفلاحة (الجزائر).

ـــ «تجربة مالي في مجال مكافحة الجراد المهاجر» للسيد إسماعيل مودور، مدير وقاية النباتات وزارة الفلاحة والبيئة.

ـــ «تجربة التشاد في مجال مكافحة الجراد المهاجر» للسيد باكدرة كاك، أستاذ في علم البيئة، مدير الموارد المائية والأرصاد الجوية، وزارة الفلاحة.

(*) ألقى هذا البحث بالنيابة السيد محمد سعيد الجارحي.

ـــ «ظاهرة التعاون في التاريخ الدولي للمغرب : الجراد كحالة» للسيد عبد الهادي التازي، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

ـــ «مكافحة الجراد : استراتيجية الخطة الدولية وبنياتها وحاجياتها (دور منظمة الأغذية والزراعة الدولية)» للسيد ل. برادر، مدير مركز العمليات المستعجلة لمكافحة الجراد. منظمة التغذية والزراعة الدولية، (روما).

ـــ «التعاون الثنائي والجهوي والدولي ودوره في مكافحة الجراد والحد من انتشاره» للسيد أحمد عرفة، عامل صاحب الجلالة على إقليم الراشدية (المغرب).

ـــ «التعاون الجهوي والدولي في ميدان الوقاية من آفة الجراد ومكافحتها» للسيد أحمد مختار أمبو، عضو أكاديمية المملكة المغربية.

II ـــ أحاديث الخميس :

تابعت الأكاديمية في جلساتها العادية الاستماع إلى العروض والمناقشات التي تجري في «أحاديث الخميس» المقدمة من قبل أعضائها المقيمين، والاطلاع على نشاط اللجان الدائمة من خلال التقارير الدورية التي يقدمها مقررو هذه اللجان، وهكذا استمعت الأكاديمية إلى أحاديث الخميس التالية :

«ملاحظات على الطبعة الجديدة من كتاب «ألف ليلة وليلة»» :

قدم العضو السيد عبد الله العروي بعد ظهر يوم الخميس 19 ربيع الأول عام 1408 الموافق 12 نونبر سنة 1987 حديثا لفت فيه النظر إلى أهمية هذه الطبعة الجديدة من كتاب «ألف ليلة وليلة»، وإلى الجهد الذي بذله السيد محسن مهدي في تحقيق نص هذا الكتاب الذي لا يعرف له مؤلف كما لا يعرف له مخطوط أصلي.

وبعد أن أشار المتحدث إلى مختلف طبعات الكتاب الموجودة منها وغير الموجودة، وما يرد حولها من ملاحظات، ذكر أن النسخة الأم هي التي يمكن التوصل إليها بمقارنة النسخ الموجودة بعضها مع بعض، وهو ما توخاه السيد محسن مهدي في هذه الطبعة الجديدة.

ولم يفت المتحدث أن يتطرق باختصار إلى كل ما يثار بصدد مختلف نسخ الكتاب سواء من حيث الشكل أو الموضوع، وهكذا أشار إلى الزيادات التي أقحمها النّساخ في النص وإلى لغة الكتاب من عامية وفصحى، وإلى أصل بعض الكلمات وسبب ورودها في النص، وعن نشأة أصل الكتاب هل هو شفوي أم مكتوب ؟ وخلص إلى أن الكتاب على الشكل الذي قدمه السيد محسن مهدي يعتبر من الكتب ا لتي يمكن أن يقرأها كل واحد.

«وضعية المرأة في المجتمع الإسلامي المعاصر» :

وتحدث العضو السيد أبوبكر القادري بعد ظهر يوم الخميس 25 ربيع الثاني عام 1408هـ الموافق 17 دجنبر 1987م عن «وضعية المرأة في المجتمع الإسلامي المعاصر»، من خلال ما راج عن الموضوع في لجنة القيم الروحية والفكرية التي خصصت له عدة جلسات من اجتماعاتها على ضوء ورقتي العمل اللتين أعدهما في الموضوع مقرر اللجنة العضو السيد عبد الكريم غلاب.

ذكر المتحدث أنّ مكانة المرأة في المجتمع مكانة مرموقة لا يجوز التغاضي عنها ولا إهمالها، إذ لا يصلح المجتمع إلا بصلاحها، فهي والرجل سيان وإن كانت مسؤوليات كل واحد منهما قد تكون مختلفة في بعض القضايا، ولكنهما في الواقع يكمّل كل منهما الآخر.

وتطرق إلى تكريم الإسلام للمرأة وتحريرها من وزر الإهانات والاستعباد الذي لحقها عبر التاريخ، ومنحها حقوقا وفرض عليها واجبات، انطلاقا من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية.

وعالج المتحدث مختلف القضايا المتعلقة بالمرأة داخل المجتمع الإسلامي محللا أحكام الشريعة الإسلامية ومبينا الحكمة الإلهية في الأوامر والنواهي التي تحكم سلوك المرأة داخل المجتمع الإسلامي، سواء من الناحية الدينية أو الدنيوية. وهكذا تناول مسألة الزواج، والطلاق، والإرث، وحرية تصرف المرأة في مالها وضرورة إذْنِ الزوج عند سفرها، والنهي عن التبرج في اللباس وعدم إظهار الزينة للأجنبي. كما تطرق إلى مسألة تعدّد الزوجات وشروطها وما يُثار حولها من شبهات، ومسألة إمامة المرأة في الصلاة، ومسألة المرأة والشغل ومشاركة المرأة في المجال السياسي،

ومسألة الاختلاط بالرجال، منبها إلى أن ظاهرة احتذاء نسائنا حذو المرأة الغربية في كثير من مظاهر الحياة أضرّ بنا وبسلوكنا الاجتماعي والخلقي والديني.

إن الإسلام قد رسم للمرأة السبيل القويم وأعطاها مثل ما أعطى للرجل كل الضمانات كي تساهم في بناء المجتمع الإسلامي بجانب الرجل إذا هي ائتمرت بأوامر الله وانتهت بنواهيه.

«التاريخ المغربي بين الالتزام بالحقيقة والانسياق مع العاطفة» :

وتناول العضو السيد عبد الوهاب ابن منصور في حديثه يوم الخميس 16 شوال عام 1408هـ الموافق 2 يونيه 1988م موضوع : «التاريخ المغربي بين الالتزام بالحقيقة والانسياق مع العاطفة»، حيث قال بأن «كتابة التاريخ تقتضي من المؤرخ أن يلتزم بالحقيقة لا أن ينساق مع الهوى والعاطفة. ومحاولة إخفاء المعايب والمبالغة في إبراز المحاسن يدل على طبع بليد، والملاحظ أن الكاتبين في التاريخ يغلب على جلّهم التهور والمبالغة وأحيانا يخفون الحقيقة وهم يعرفونها. إن الأمم الواعية الراقية لم يضرها ولا يضيرها أن تعترف بأخطاء ماضيها، وأن تقول لمن أحسن من أبنائها أحسنت ولمن أساء منهم أسأت».

ثم قال : «إن لنا أمجاداً نعتز بها ونفاخر، ولكننا أيضا نحن الذين ارتكبوا أخطاء كثيرة وأغلاطا عديدة في التاريخ يجب أن لا نكررها وأن نعترف بها ونقرها». وزاد قائلا : «فإذا لم تقع لنا أخطاء، وإذا لم يوجد عندنا أشقياء، فكيف حلّ بنا ما حلّ ؟ وكيف وصلنا إلى الدرك الأسفل من الضعف المادّي والانحطاط الاجتماعي».

ثم ذكر أن «بعض الناس يحاولون في الوقت الحاضر تبرئة بعض الذين أساءوا إلى شعبنا ونحن على جرائمهم شهود، وآخرون يتحدثون عن بعض الوقائع التي انهزمنا فيها فيصفونها بالخالدة كأنما حققنا فيها انتصارا، وهذا أمر لا يليق».

وختم المتحدث بالقول إنما القصد أن نلتزم قول الحقيقة إذا حللنا واقعا تاريخيا لأن الالتزام بالحقيقة يشرف صاحبه، كما أن قول الزور وكتم الحقيقة يعرّض صاحبه للسخرية.

«مفهوم السلطة في مغرب ما قبل الحماية» :

وتحدث العضو السيد عبد الكريم غلاّب عن هذا الموضوع يوم الخميس 8 ذو القعدة 1408هـ موافق 23 يونيو 1988م، حيث استهل حديثه بالتركيز على أهمية الموضوع وإلحاحه على كل المشتغلين بالتاريخ، ثم فرق بين مفهوم الدولة ومفهوم السلطة في مغرب ما قبل الحماية، فقال : «إن الدولة كان لها مفهوم محدد يقوم على أُسس مستقاة من الإسلام والتاريخ المغربي وتقاليد الحكم في المغرب. وهو مفهوم تعيش فيه الدولة منظمة سواء على المستوى الأعلى أو على مستوى الموظفين الكبار كالوزراء والقواد والكتاب والقضاة والمحتسبين».

«أما مفهوم السلطة فقد كان مضببا : ونحن نقيس السلطة آنذاك بمفهومها الحديث الذي تضبطه الدساتير والقوانين. ومع ذلك فقد كانت السلطة مضبوطة في الإسلام، ومضبوطة في كثير من التقاليد المخزنية الطيبة التي عرفها المغرب في كثير من عهوده».

وأعطى أمثلة عن بعض مظاهر التضبيب التي عرفتها السلطة في مجال مالية الدولة، والتناقض بين قوة السلطان واستبداد الشخصية الأولى في الحكومة، إذ أن «السلطة كانت شخصية وليست مؤسسية فالوزير يستمد سلطته من شخصيته وليس من المؤسسة التي يعمل في إطارها». وعن القانون يقول المحاضر بأن «السلطة كانت توضع في يد الحاكمين من السلطان حتى آخر قائد، ولهذا كان القانون غائبا رغم أنه كان يُحترم في بعض الأحيان».

وختم المتحدث قائلا بأنه رغم هذه السلبيات فإننا نلاحظ أن المغرب في ذلك العهد عرف كثيراً من الظاهرات الايجابية من ذلك :

الحفاظ على استقلال المغرب والدفاع عنه ضد الأجانب في فترة كانت فيها الدولة في مرحلة هزال وضعف واقعة تحت المؤامرات الأجنبية والاتفاقات التآمرية الدولية.

«أشغال الاتحاد الدولي للأكاديميّات» :

وأعطى العضو السيد محمد علال سيناصر يوم الخميس 22 ذو القعدة 1408

الموافق 7 يوليوز سنة 1988 ملخصا عما راج في أشغال الاتحاد الدولي للأكاديميّات في الدورات التي حضرها كممثل لأكاديميّة المملكة المغربية.

فبعد أن أعطى لمحة عن كيفية سير أعمال الاتحاد وعن مختلف أنشطته ذكر بالخصوص المشاريع والمشكلات التي تهم أكاديميّة المملكة المغربية، والتي لها صلة مباشرة بها وخص بالذكر في هذا الصدد المشروع الخاص بمجموعة آنية الزهر القديمة الذي يبلغ عمره الآن حوالي ستين سنة مما يثير قضية اتساع نطاقه، فهل يقتصر على اليونان أو ينبغي أن يمتد إلى كل الأقاليم التي بلغتها الثقافة القديمة ؟

كما ذكر بأن خرائط الأمبراطورية الرومانية تثير مشكلة مختلفة، ذلك أن الأكاديميات والهيئات العربية لا تولي كبير اهتمام للفترات السابقة على انتشار الإسلام ممّا يفسح المجال لبعض الدول أن تصبح الشريك الأنشط في إعداد الخريطة التاريخية للأقاليم الرومانية بالشرق الأوسط، ويتكرر مثل هذا في مواضيع أخرى كثيرة مثل تاريخ اضطهاد المسيحية لغيرها من الأديان، يترتب عن ذلك ضرورة اشتراك العالم العربي، الشيء الذي يقتضي وجود تنسيق سابق بين الأكاديميّات العربية.

وكذلك الشأن بالنسبة لمجموعة المؤلفات الفلسفية الرشدية التي تثير مشكلة مماثلة، فبينما تعنى أوروبا بتحقيق النصوص اللاّتينية، وبينما يضطلع بتحقيق النصوص العبرية عدد من الاخصائيين تحت رعاية الأكاديميّة الإسرائيلية، يضم القسم العربي الذي يضطلع به مجمع اللغة العربية بالقاهرة فريقا من الأساتذة الأمريكيين.

كما اقترح المتحدث إمكانية مساهمة أكاديميّة المملكة المغربية في نشر المجلّد الخاص بمجموعة الدساتير بالإمارات العربية المتحدة ضمن مشروع مدونة الدساتير المعمول بها حاليا في العالم وهو مشروع مهم يتم تنفيذه تحت رعاية أكاديميّة العلوم الأخلاقية والسياسية. كما نادى بامكانية انجاز أطلس إفريقي من شأنه أن يلبي حاجة ماسة في العالم.

«تاريخ العلم وتقديم كتاب «الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية»» :

ودار حديث العضو السيد محمد العربي الخطابي يوم الخميس 3 صفر عام 1409، الموافق 15 شتنبر 1988 حول تاريخ العلم، حيث قدم كتابه قائلا :

«الغرض من هذا الحديث هو تقديم كتاب : «الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية»، الذي صدر حديثا في جزئين اثنين عن «دار الغرب الإسلامي» ببيروت، وهذا الكتاب مساهمة من مؤلفه، في توفير المادة الضرورية لكتابة تاريخ العلوم في العالم الإسلامي شرقيه وغربيه».

وعرض جملة من الأفكار في موضوع تاريخ العلم وأهميته في الإبانة عن إسهام الأجيال السالفة في تطور المعارف الإنسانية بما استحدثه العلماء من نظريات، وأجروه من بحوث وأنجزوه من تجارب ووصلوا إليه مِن مكتشفات، وألفوه من تصانيف، مما كان له الأثر البيّن في تقدم العلوم الرياضية والفلكية والطبيعية.

ان كل خطوة تخطوها الإنسانية في سبيل تقدم المعارف تسبقها خطوات أخرى قطعها السلف فأضافوا إلى البنيان العلمي لبنات كان لها أثرها في تمتين صرح الحضارة والثقافة، ممّا يدحض الموقف الذي يتجاهل ترابط حصيلة العقل الإنساني وتسلسل عطائه. لذلك نرى الدول المتقدمة تحرص على تسجيل تاريخ العلوم والعناية به ربطا للماضي بالحاضر والمستقبل وتوفيرا لفائدة الاستمتاع بثمرات الفكر الإنساني في أطواره المختلفة.

أما في الأقطار العربية فإن الاهتمام بتاريخ العلم بدأ يتزايد بعد أن كان هذا الميدان مقتصرا على قلة من المتخصصين، وقد ظهر في المدة الأخيرة عدد من المؤلفات التي تبشر بتطور الدراسات العربية في موضوع تاريخ العلم. ومع ذلك فهذه الجهود ماتزال قاصرة عن بلوغ الغاية المنشودة في ميدان تاريخ العلم عامة والعلم عند المسلمين بصفة خاصة.

أما عن كتابه فيقول : «إنه ليس في الحقيقة تاريخا لعلم الطب في إسبانيا المسلمة بل هو إسهام في توفير المادة الأساسية لكتابته على الوجه الصحيح، ذلك أن الاشتغال بتأليف تاريخ العلم يتطلب في مرحلة أولى نشر أكثر ما تصل إليه اليد من النصوص العلمية القديمة، مع حسن الانتقاء وتجنب الوقوع في التكرار والتشابه، وهو الاتجاه الذي اخترته لهذا الكتاب».

«وقد صدرته بمدخل لدراسة تاريخ الطب في الأندلس وأردفت ذلك بثبت لتراجم الأطباء، وقد راعيت في اختيار النصوص وتنوع مادتها ووفائها بتقديم

صورة متكاملة عن مختلف فروع التصنيف الطبي، من التشريح ومنافع الأعضاء إلى علم الأمراض والعلاج والجراحة، إلى الوقاية وتدبير الصحة».

«أما النصوص التي اخترتها فهي مأخوذة من مؤلفات في الطب ترجع إلى مختلف العصور، وتمثل بقدر كبير المدارس العلمية التي سادت في إسبانيا الإسلامية».

«المؤتمر الرابع لرابطة الجامعات الإسلامية» :

وتحدث العضو السيد محمد الفاسي يوم الخميس 16 صفر 1409 الموافق 29 شتنبر 1988 عن المؤتمر الرابع لرابطة الجامعات الإسلامية المنعقد في كوالا لمبور من ثاني شتنبر سنة 1988 إلى العاشر منه، فأعطى لمحة عن تأسيس الرابطة (في شتنبر 1969)، وعن انعقاد مؤتمرها الأول بفاس حيث تم الاتفاق على قوانينه وجعل مقره بالرباط. كما تحدث عن الجامعات العضو في الرابطة.

ومن أعمال الرابطة ونشاطها نشر برامج كليات الشريعة وكليات الدعوة، وإعطاء منح للطلبة خصوصا للمنتمين منهم إلى الأقليات، وعقد اجتماعات مجلسها التنفيذي مرة في السنة حيث تدرسُ القضايا الإدارية والقانونية، والمؤتمرات الدورية.

وفي اجتماع المجلس التنفيذي لهذه السنة درس المجلس قبول ترشيحات جامعات جديدة، إذ لم تكن الرابطة تجمع في حظيرتها إلا الجامعات الدينية، فوقع تعديل قوانينها الأساسية لتتمكن الجامعات التي لها فروع تهتم بالدراسات الإسلامية من العضوية فيها.

وقد اشتمل المؤتمر على ندوة مفيدة جدّا حول الثقافة الإسلامية استدعى إليها علماء متخصصون في الموضوع، وألقيت أثناءها دراسات قيمة تُكوِّن نظرة مفصلة عن واقع الثقافة الإسلامية وأهدافها المستقبلية. وقدم المتحدث لخزانة الأكاديميّة مجموعة كاملة من (المجلة الإسلامية) التي تصدرها الرابطة.

«قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي» :

أثار العضو السيد أبو بكر القادري يوم الخميس 2 ربيع الأول 1409هـ

الموافق 13 أكتوبر 1988م قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي من خلال تقديمه لكُتيب مفيد لمؤلفه الدكتور زغلول راغب النجار (أستاذ الجيولوجيا بجامعة الملك فهد للبترول والمعادن).

حيث يتعرض الدكتور زغلول في كتابه إلى الأسباب الحقيقية للتخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر فيجعل في طليعتها تمزق بلاد المسلمين إلى دويلات بعد القضاء على الخلافة الإسلامية وإهمال التعليم والتربية الصحية واهمال التنمية الزراعية والصناعية واخضاع الدول الإسلامية لمصالح إحدى الكتلتين العظميين، وإبعاد الإسلام عن مجالات الحياة، والتناحرات المذهبية، والانقلابات العسكرية، والخلافات الحدودية والقبلية والعرقية، والدسائس الاستعمارية الظاهرة والخفية ومنع تحرك المال الإسلامي داخل الدول الإسلامية (أكثر من 600 مليار دولار توضع داخل بنوك الدول الكبرى) حتى لا يحصل تعاون بين المسلمين.

ثم يعقد المؤلف مقارنات مفصلة بين الوضع في بعض الدول الإسلامية، وبين التقدم العلمي والتقني الذي وصلت إليه الدول الصناعية الغنية. ويعطي مثلا بنسبة العلماء والتقنيين من حيث توزيعهم في بعض البلدان. ويتعرض إلى ما ينفق على البحث العلمي، فبينما تنفق الدول الكبرى ما بين 2% و4% لا يتعدى انفاق الدول الإسلامية في هذا المجال 0,3%.

زيادة على انعدام التخطيط والتنسيق بين مختلف المؤسسات العلمية والتقنية في البلاد الإسلامية هناك عدم توفر الوسائل المتطورة للبحث العلمي والتقني، مما أدى إلى هجرة أعداد كبيرة من الأدمغة إلى البلاد الأجنبية. ويختم المتحدث قائلا : إن التقدم العلمي والتقني لا يمكن أن يكون عملية فردية، لأنها عملية فنية إدارية اجتماعية متكاملة. كما أن عملية التقدم لأمة من الأمم هي عملية شديدة الارتباط بواقع هذه الأمة السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي والعقائدي والفكري، وأن التجربة الإنسانية الطويلة وواقعها الراهن يؤكدان على أن العملية التنموية لابدّ لها من إطار روحي أخلاقي ديني متين.

إن أيّ تقدم إنساني لا يمكنه أن يعتبر تقدما إلا إذا كان يحقق سعادة الإنسان المثلى، وهذه السعادة لا تتحقق إلا إذا كانت الحياة متوازنة بين المادة والروح.

«دور شعراء الصحراء المغربية في نهضة الشعر العربي الحديث» :

وتحدث العضو السيد عباس الجراري خلال جلستين عاديتين يوم الخميس 22 ربيع الأول عام 1409هـ الموافق 3 نونبر سنة 1988م و6 ربيع الثاني 1409هـ الموافق 17 نونبر 1988م، حيث سعى إلى الكشف عن حركة إحياءٍ عرفها الشعر المغربي في الصحراء، أبرز من خلالها دور شعراءنا الصحراويين في بحث القديم وإحياءه مما ارتبطت به النهضة الحديثة في المشرق على يد شعراء كبار كالبارودي وشوقي وحافظ.

لقد بعث شعراؤنا الصحراويون كل القديم جاهليّه وأمويّه وعباسيّه مع تركيز في الغالب على الجاهليّ والأمويّ على خلاف شعراء مدرسة الاحياء المصرية الذين رجعوا إلى الشعر العباسي دون غيره، يستوحون جوّه الموسيقي وينفعلون به. ثم أنهم لم يكتفوا بالاستيحاء والانفعال ولكنهم زادوا أنهم اتخذوا هذا القديم نموذجا يحاكونه، وكانوا على عكس شعراء مصر مؤهلين لذلك بحكم البيئة الصحراوية في جوها وأشياءها ا لتي تذكر بالبيئة الجاهلية. إلى جانب هذا العنصر المؤثر كان شعراء الصحراء مؤهلين كذلك بحكم الثقافة التي كانت منتشرة بينهم والتي كانت تركز على القديم حتى أن بعضهم كان ينافس ويفاخر الشعراء الجاهليين.

وحدد المتحدث بعض الملامح التي تسم مدرسة الاحياء الصحراوية : أولاها تظهر في المفهوم الذي كانت تعطيه للشعر، إذ تربطه بالفحولة والطبع وعدم التكلف. أما الثانية فتظهر في الميل إلى الغريب، وذلك طابع بدوي صحراوي ناتج عن ثقافة الشاعر وعن ملاءمة بيئته وانعكاسها على حال نفسه ووجدانه. والثالثة تظهر في الوقوف على الأطلال والبكاء. أما الرابعة فتظهر في معارضة القديم بدافع الاستيحاء، ولكن كذلك بدافع المنافسة بقدرة التعبير والمفاخرة بالتفوق.

على أن هذا الارتباط بالقديم لم يحل دون معايشة مدرسة الاحياء في كل من مصر والصحراء للجديد في مجال المستحدثات الحضارية مسايرة منهم لروح النهضة. كما أن غير قليل من شعراء الصحراء وأدبائها رحلوا في أواخر القرن الماضي إلى القاهرة وأقاموا فيها مخلفين آثارا لا تنسى في اللغة والنحو والأدب وتحقيق

النصوص ومراجعتها مما سجل حركة إشعاع كان لها لاشك مفعول لا يستبعد أن يكون مسّ جانب الشعر ونقده.

* * *

أما بالنسبة للأعمال العادية لأكاديميّة المملكة المغربية، فقد أدار الجلسات العلمية لها منذ دورة يونيو 1987 السادة : عز الدين العراقي، ومحمد شفيق ومحمد فاروق النبهان والمهدي المنجرة وعبد العزيز بنعبد الله وإدريس خليل وبوبكر القادري. وقد أسهموا بجهود مشكورة في تقديم أعمال الأكاديمية خلال تسيير الجلسات وتنظيم الحوار أثناء المناقشات.

وهكذا توالى نشاط الأكاديميّة خلال جلساتها العادية التي يحضرها بانتظام الأعضاء المقيمون في مقرها بالرباط. وتُواكب اجتماعات الجلسات العادية عادة، اجتماعات اللجان الدائمة، بالإضافة إلى اجتماعات لجنة الأعمال، واللجنة الإدارية.

وشهدت السنة الأكاديمية نشاطا خاصا تمثل في اجتماع لجنة متخصصة لوضع القواعد والاجراءات المتعلقة بتنظيم جوائز الأكاديمية. وقد عقدت هذه اللجنة عدة اجتماعات لها خصصتها لوضع الإطار القانوني والتنظيمي لمنح جوائز الأكاديميّة.

وتميز كل من نشاط لجنة الأعمال واللجنة الإدارية بالنظر في مشروع تعديل النظام الداخلي المؤقت لسنة 1981، الذي عرض على الأكاديميّة خلال جلستين عاديتين، وتم إقراره في الجلسة العادية الثالثة لسنة 1988 (10 مارس 1988). وقد تكلفت أمانة السر الدائمة بوضعه في صيغته القانونية.

III ــ ندوات لجان الأكاديميّة :

وقد عرفت الأكاديميّة نشاطا آخر تمثل في تنظيم ندوات داخلية يحضرها أعضاء الأكاديميّة المقيمون وبعض الخبراء والجامعيين من ذوي الاختصاص لمدة يوم كامل تعرض خلاله ورقة عمل رئيسية مدخلا للموضوع يعدها أحد أعضاء الأكاديميّة مقرّراً، وتتوالى عروض المناقشات مكتوبة ثم تتكفل الأكاديميّة بنشر وقائعها تعميما لفائدتها.

وفيما يلي نقدم مواضيع هذه الندوات وأسماء الأعضاء الذين شاركوا فيها وأماكن تنظيمها :

أولا : «ندوة الحرف العربي والتكنولوجيا» التي انعقدت بمقر الأكاديمية وكتب ورقة العمل الأساسية لها مع ملف وثائقي هام في الموضوع العضو السيد أحمد الأخضر غزال المعروف بانكبابه على هذه الدراسات منذ ما يزيد على ثلاثين سنة. وشارك في مناقشة الملف بعروض قيمة مكتوبة الأعضاء المقيمون السادة : محمد شفيق وإدريس خليل وعبد العزيز بنعبد الله ومجموعة من العلماء الخبراء المختصين في المعلوميات واللغة.

وقد أدار هذه الندوة العضو السيد عباس الجراري مقرر لجنة اللغة العربية.

ثانيا : «أسس العلاقات الدولية في الإسلام» التي نظمت في كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية بالرباط، وأعد ورقة العمل الأساسية لها العضو السيد عبد العزيز بنعبد الله، أسهم في إغنائها ومناقشتها بعروض مكتوبة الأعضاء السادة : عبد الرحمن الفاسي وأبو بكر القادري وعبد الهادي التازي وخبيران من كلية الحقوق.

أدار الندوة العضو السيد محمد المكي الناصري رئيس لجنة القيم الروحية والفكرية.

IV ـــ مطبوعات الأكاديمية :

أضيف إلى سجل مطبوعات الأكاديمية الكتب التالية :

1) ضمن سلسلة «الدورات» :

ـــ **«القدس تاريخيا وفكريا»** بحوث موضوع دورة الأكاديمية، مارس 1981.

ـــ **«التدابير التي ينبغي اتخاذها والوسائل اللازم تعبئتها في حالة وقوع حادثة نووية»** بحوث موضوع دورة الأكاديمية، يونيو 1987.

ـــ **«خصاص في الجنوب حيرة في الشمال : تشخيص وعلاج»** بحوث موضوع دورة الأكاديمية، أبريل 1988.

2) ضمن سلسلة «المحاضرات والندوات» :

ـــ **«وقائع الجلسات الرسمية بمناسبة استقبال الأعضاء الجدد»** (من 1401 / 1980 إلى 1407 / 1986)، دجنبر 1987.

— **«محاضرات الأكاديمية»** (من 1403 / 1983 إلى 1407 / 1987)، 1988.

3) **ضمن سلسلة «المجلة» :**

— **«الأكاديمية»** العدد الرابع، نونبر 1987.

* * *

استقبال أعضاء الأكاديمية الجدد :

استقبلت الأكاديمية خلال الجلسة الافتتاحية الرسمية للدورة الأولى لسنة 1988 بطنجة عضوين مشاركين جديدين هما السيد ناصر الدين الأسد وزير التعليم العالي في حكومة المملكة الأردنية الهاشمية، والسيد محمد حسن الزيات رئيس لجنة الشؤون العربية في مجلس الشعب لجمهورية مصر العربية.

كما تم استقبال السيد أناطولي كروميكو عضو أكاديمية العلوم بالاتحاد السوفياتي، كعضو مشارك، خلال الجلسة الافتتاحية الرسمية للدورة الثانية لسنة 1988 بالرباط.

وقد جاء تعيين هؤلاء الأعضاء الجدد على إثر غياب الأعضاء الذين انتقلوا إلى عفو الله ورحمته السادة : الرئيس قسطنطين تساتسوس، والسيد عبد المنعم القيسوني والرئيس إدغارفور، فبكل إجلال وتأثير نحيي ذكرهم الطيب ونثني عليهم الثناء الجميل وفق ما يليق بمقامهم العلمي الرفيع.

تـقـريـــر
لجنة التربية والعلوم والتكنولوجيا

محمد شفيق

واصلت لجنة التربية والعلوم والتكنولوجيا نشاطها خلال السنة المنصرمة، 1985؛ وكانت تتألّف من سبعة أعضاء، هم السادة الزملاء :

عبد اللطيف بن عبد الجليل	عز الدين العراقي
عبد اللطيف بربيش	عبد الهادي بوطالب
أحمد الأخضر غزال	إدريس خليل
محمد شفيق	

ترأس اللجنة خلال السنة نفسها الأستاذ عبد اللطيف بن عبد الجليل، بينما كان الأستاذ إدريس خليل مقررا لها. وفي غضون شهر يناير **1986** جدّدت اللجنة مكتبها، تطبيقا لمقتضيات النظام الداخلي للأكاديمية، فعهد بالرئاسة إلى الأستاذ إريس خليل، وأسندت مهمة التقرير إلى، محمد شفيق،

وقد انضمّ إلى اللجنة منذ الأسبوع الماضي أعضاء جدد، هم الأساتذة : محمد بنشريفة، والمهدي المنجزة وعباس الجراري وعبد الله العروي، وذلك نزولا عند رغبة الأعضاء القدماء، وبطلب منهم.

أشـغـال اللجنــة

حدّدت اللجنة لمناقشتها ستة محاور رئيسية هي :

1 ـــ رسم معالم واضحة لمهمة اللجنة، مع إمعان النظر في الأسباب التي استوجبت الربط بين التربية، من جهة، وبين العلوم والتكنولوجيا، من جهة أخرى.

2 ـــ تحديد مفهوم التربية، العامّ والخاصّ.

3 ـــ إبراز ماللتربية الأولية من أهمية قصوى.

4 ـــ الإلمام بمقتضيات التربية الصالحة في مرحلتي الطفولة والمراهقة.

5 ـــ التكوين المهني والجامعي وترابطهما بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والثقافية داخل الوطن وخارجه.

6 ـــ البحث عن السبل المؤدّية إلى تجديد الفكر العلمي وتنشيط المبادرة والابتكار في المجال التكنولوجي.

ويشرفني أن أجمل في هذا التقرير ما أفضت إليه اللجنة في تحليلها للمواضيع الثلاثة الأولى، مع الإشارة إلى أن الموضوع الرابع قد عرض على بساط الدرس في الأسابيع الأخيرة من سنة 1985، ولايزال محطّ اهتمامنا.

حصيلة مداولات اللجنة

المحور الأول : مهمة اللجنة؛ أسباب الربط بين التربية والعلوم والتكنولوجيا.
تساءل أعضاء اللجنة أول ماتساءلوا عن الغاية التي يتعيّن رسمها لعملهم، وعمّا هم مطالبون به بالضبط. فاتضح لهم شيئا فشيئا أن خير مايمكن أن يسهموا به في طرق موضوع «التربية والعلوم والتكنولوجيا» هو السعي مع الساعين من أجل بلورة خطة للعمل التربوي الهادف وللبحث العلمي والتكنولوجي، وذلك بعد استعراض أكثر ما يمكن من نظريات العلماء المختصّين واستقراء ماأتت به تجارب الأمم المتقدّمة، ومما لفت أنظار اللجنة أن الجمع العام للأكاديمية، إذ عهد إليها بتحليل موضوع التربية مقروناً بموضوعي العلوم (العصرية) والتكنولوجيا، لم يفعل ذلك على سبيل المصادفة. ولذا خصّص أعضاؤها عدة جلسات لتدارس ما يوجد من التفاعلات الحضارية بين مايُنَشَّأُ فيه الشباب من أخلاق وقيم وعادات فكرية وسلوكية، وبين الاتجاهات العلمية السائدة والمنجزات التكنولوجية الكبرى.

واستخلصوا أن من أوجب الواجبات لزوم الحذر عند تقبُّل النظريات وعند نقد المعطيات لتجارب الغير؛ ذلك لأن الانسياق وراء التيارات الحضارية العابرة غير الملبّية لحاجيات الإنسان الروحية والمادية، الدنيوية والأخروية على السواء، لايمكن أن تخلّف إلا الخراب والدمار، في النفوس أو في الأبدان، أو في النفوس والأبدان جميعا.

ومن جهة أخرى، تساءلت اللجنة عن العوامل الجوهرية التي تمكّن بعض المجتمعات من التفوق العلمي والتكنولوجي، والأخرى التي تحرم كثيرا من الأمم من أسباب الرقيّ الماديّ، والمعنوي في أغلب الحالات. فوقع الاتفاق على أن من اللازم إمعان النظر في هذه المسألة وإيلاءها عناية كبرى.

الغاية من عمل اللجنة إذن هي الإسهام في البحث عن طرق واضحة المعالم كفيلة بتمكين أجيالنا الصاعدة من مواكبة الركب الحضاري المعاصر مرئياً من حيث تفوقه العلمي والتكنولوجي، مالم تضرّ تلك المواكبة بالقيم الروحية والخلقية التي ينبغي أن تظل هي المرجع وهي الملاذ.

المحور الثاني : تحديد مفهوم التربية. ــ التربية في مفهومها الأعمّ هي مجموع العوامل التي توجّه نشأة الأفراد والأجيال والمجتمعات توجيها ما في تنمية الأبدان وفي التزوّد بالمعلومات والتصوّرات واكتساب المهارات، والالتزام بالقيم والأخلاق المتعارف عليها. وهي عوامل تتولّد، داخل المجتمع نفسه، من مفعول الزمن ومايحمله معه من تجارب ذاتية، ومن الاحتكاك بين الثقافات والحضارات، أي من تجارب الغير. والتربية، في مفهومها الخاصّ، هي العمل على تنشئة الصغار وتعليم المراهقين والشباب، وتكوينهم، في نطاق مذهب فلسفيّ عامّ، ونظام اجتماعي واقتصادي معيّن، وترتيبات بيداجوجية تتغيّر مع الزمن والمكان وقد أجمع العلماء على أن أدقّ مراحل التربية، في مفهومها هذا الخاصّ، هي المرحلة الأولى.

ومن العوامل التربوية الظاهرة المفعول، في المجتمعات الحديثة، يجب ذكر الأسرة، والمدرسة، والشارع، والإعلام بما له من وسائل (نخصّ منها أقواها تأثيرا، ألا وهي المرئية في شكل أفلام سينمائية وبرامج تيليفيزيونية ورسوم وصور) وسهولة المواصلات وسرعتها، والتبادلات المستمرّة بين الشعوب على اختلاف أجناسها

ودياناتها وأعرافها وتقاليدها ومستوياتها الحضارية. وبقدر ماكانت أهداف التربية جليّة بيّنة الجوانب في المجتمعات التقليدية القديمة، بقدر ما أصبحت تلك الأهداف موضوع تأرجح في الآراء وتناقض في الاختيارات، تتنازعها الرغبة الملحة في الاحتفاظ بالقديم والعزم الأكيد على اكتساب الجديد. وكثيرا مايكون الحُلم بالتجديد صادراً عن انبهار ساذج أمام حَضارات برّاقة السّطح لَمَّا يَخْتَبِر الزمن غورها، بل تكون مساوئها شاخصة للعيان، منها ما يتسبّب في تفكيك خلايا المجتمع، ومنها مايجر إلى انحلال في الأخلاق فظيع، ومنها ما من شأنه أن ينخر حتّى الأبدان إلى أن تنهار صحتها ومناعتها انهياراً. وكثيراً ماتكون الرغبة في الحفاظ على القديم صادرة عن تزمّت يبرّره الخوف من المجهول أو الدفاع عن المصالح.

والواقع أن التربية تقتضي اختيارات صعبة دقيقة لا تُمارَس عادة إلا في خضمّ المشاجرات الإديولوجية والخصومات السياسية، لأنها من قبيل العمل السياسي بالدرجة الأولى، والعمل السياسي من المفروض فيه أنه يراعي موازين القوى المتعارضة ويحاول التوفيق بين المصالح المتضاربة والاستجابة للمطالب الملحّة الداعية إلى الاستعجال؛ بينما يتطلّب أيّ مشروع تربويّ متكامل العناصر، بُعْدَ النظر في الرؤية وطول الأمد في الإنجاز. وليس من الضروري أن تُستعرض هنا الأحكام القاسية التي تصدر عادة في شأن كل خطة تعليمية لم تحقّق المعجزات في ظرف... بضعة أشهر. ولابد مع ذلك من الاعتراف بأن كل خطة تربوية غير مستوحاة من أوضاع المجتمع الذي أُعدّت له، ومن حاجياته وقدراته ومعطيات حضارته، محكوم عليها بـ «الفَشَل».

استنتج أعضاء اللجنة من هذه الاعتبارات العامة أن فلسفة التربية في المغرب لايمكن أن تُستقرأ إلا من مطامح الأمة وتطلّعاتها المتجلّية في استشرافها لمستقبل أفضل من الحاضر، غير متنكّر للماضي، يرقى فيه الوطن إلى مصافّ الدول القوية مادياً ومعنوياً. أما القوة المادية أي البدنية والاقتصادية والعلمية والتكنولوجية فلا ضير أن نتلمّس مقوّماتها في رصد ما هو معمول به عند الغير من الأمم المتطورة المتفوّقة في الصناعات. وأما القوة المعنوية فقد بيَّنت تجارب ذلك الغير بالذات أنها معرّضة للضياع ما لم تدَّعم بالإيمان. هذا، ثم إن الأخلاق الحميدة لاترسخ إلا في نفس من يدأب على لزومها ويستمرّ على العمل بها. يُستدلّ على ذلك بما

هو ملحوظ في سلوك بعض الشعوب المتقدمة في منحى من مناحي الحضارة، المنفردة بخصوصيات تُغبط عليها. فالشعب الألماني الملتزم بقواعد النظام الجماعي، المحبّ للعمل، لم يحقّق ماكان يصبو إليه في هذا الاتجاه إلا بعد قرن ونيّف من التنظيمات التربوية المحبّبة للنظام والعمل التي دعا إليها بإلحاح كبار مفكّريه وفلاسفته. والشعب الياباني المتفاني في الوطنية الصادقة، المتحمّس لاقتناء المعارف النافعة حيثما وُجدت، لم يكن كذلك منذ خلقه الله؛ وإنما أهّل نفسه لما هو عليه بتنشئة أجيال في حبّ الوطن وحبّ العمل والتشوّف إلى ماعند الآخر من علم منتج خلاّق، بعد انطلاقة اليابان الأولى في عهد «الميجي». والشعب الفرنسي لم يتوصّل إلى تثبيت قواعد الديموقراطية الحقّ إلا بعمل تربوي قامت به مدارس سُمِّيت عن قصد «مدارس القيم» أو «مدارس المقاييس» (Ecoles Normales)، ثمّ تأسيسها في ظروف تاريخية حاسمة منذ ما يقرب من قرنين، فخرَّجت مائات الأفواج من «واضعي الأوضاع» أو «واضعي الأُسس» (les instituteurs) كما أسماهم قانون فرنسيّ خاصّ. والشعب الأمريكي المتميز بطموح أبنائه واعتدادهم (المفرط ؟) بالنفس والوطن، إنما يجني ثمار عهد طويل من السعي المنتظم وراء السيطرة على الطبيعة والتحكّم في أسباب الغلبة. والمواطن البريطاني المعروف بضبطه للنفس، ماهو إلا نتاج سياسة تربوية ذات نزعة أريستوقراطية لاتزال مقاليدها، مبدئيا، بيد الملكة نفسها : جلالتها هي التي لها الحق وحدها في تعيين المفتشين العامّين للتربية الوطنية؛ ولذا يسمّى أولئك المفتّشون Her Majesty «Inspectors» مفتّشي جلالتها. وهكذا دواليك...

ترى اللجنة أن من واجبنا، نحن المغاربة، أن نراعي هذه التجارب كلّها، نستخرج منها كلّ عبرة نافعة؛ كما ترى أن من حقّنا أن نسعى لخلق نمط تربوي خاص بنا يرمي إلى «**تكوين مواطن سليم البدن، مؤمن بالله، ملتزم بالقيم الحضارية المغربية، متمسّك بوحدة المواطنة، قادر على الإسهام في تنمية البلاد، مؤهّل للمشاركة في التنمية العالمية بما يتوفّر له من فكر علمي وقدرات تكنولوجية، متفتّح على الثقافات الإنسانية**».

المحور الثالث : إبراز ما للتربية الأولية من أهمّية قصوى : ليس من المفارقات أن يقال إن تربية الإنسان يُشرع فيها قبل ولادته، بكيفية ما. إنّ مراعاة صحة

الأبوين وسلامتهما من الأمراض الدفينة الناهكة للأجسام ومن الآفات المعوّقة عن التفتّح على الحياة، لَمِنَ الاعتبارات التربوية الأساسية؛ ذلك لأن رأي العلماء استقرّ على أن لِلْمُتَوارَثِ مفعولاً قوياً في كل كائن حيّ وقد سبقهم إلى إبراز هذه الحقيقة نبيُّنا الأكرم ﷺ إذ قال : «استجيدوا الخال، فإن العرق دسّاس»، كما سبقهم إلى التحذير من التزاوج بين ذوي القرابة، إذ قال : «اغتربوا لا تضووا». هذه المسألة لابدّ إذن من وضعها في الميزان، لكن في كثير من الحذر، نظراً لما تثيره من الحساسيات، لأن معالجتها تؤدّي في أغلب الحالات إلى صراع إديولوجي، لاصلة له بالعلم، بين أنصار العرقية والطبقية وأنصار المساواة بين الناس. وقد احتدم الجدال بخصوص هذه القضية منذ ظهور السوسيوبيولوجيا في أواخر السبعينات من هذا القرن.

وإذا كان عامل الوراثة البيولوجية من المؤثرات الأولى في توجيه نشأة الكائن الحيّ، بصفة عامة، والكائن الإنساني بصفة خاصة، فإن الحالة التي توجد عليها المرأة إذ تكون حاملا فمرضعاً لَمِن تلك المؤثرات أيضا، لأن نمو الجنين في بطن أمّه يُعتبر بمثابة بناء الأساس لحياة الإنسان كلّها. وممّا يدعو إلى التأمّل أن أشْهُر ذلك النمو التسعة لاتُعَدُّ من العُمُر، كما أن الأُسَّ لايراه من يقيس ارتفاع المباني. ومعنى هذا أن المرأة الحامل في حاجة إلى رعاية وعناية، وإلى وعي بدورها، ومعناه أيضا أن الوضع الاقتصادي والاجتماعي للأُسَر، إذا كان متردّيا، لايمكن أن يساعد على تنشئة أجيال قوية صحيحة الأبدان صافية الأذهان، لاسيّما أن البيولوجيين والمهتمّين بعلم النشوء النفساني مجمعون على أن مرحلتي الطفولة الأولى (الصبا ؟) والطفولة الثانية، أي مابين الولادة والسن الثالثة، ثم مابين الرابعة والسادسة، تتطلّبان اهتماماً بالغاً بتغذية الصبيّ من حيث الكمّ والكيف، وبنظافة جسمه وتهوئة الأماكن التي يعيش فيها، وبتمكينه من الشعور بالاطمئنان العاطفي التامّ. وعلى سبيل المثال، نورد هنا قول أحد البيولوجيين الكبار المتخصّصين في كيمياء المخ والأعصاب[1] : «نموّ الدماغ البشري أسرع في مرحلة الجَنِّ في الرَّحِم، وفي

(1) هو البيولوجي الأمريكي E.A Shnœur، صاحب المؤلّف «الدّماغ والجوع». كتب ما أوردناه أعلاه في مقال نُشِر له في مجلة اليونسكو «Perspectives»، المجلّد السابع، العدد الأول، 1977.

السنوات الأولى من حياة الصبيّ، منه في المراحل الأخرى اللاحقة. ولدينا من البراهين العلمية الكثيرة مايجعلنا نوقن أن سوء التغذية، إذا مااستمرّ في المرحلتين الحسّاستين المشار إليهما، يضرّ في العمق بنموّ الدماغ ويَحُدُّ، بصفة لعلها نهائية، من قدرته على العمل الطبيعي، وبكيفية خاصّة، من قدرته على استيعاب المعلومات واكتساب ملكة التمييز». وسينوِّر أفكارنا في هذا الموضوع التقرير العلمي الذي تطوّع لإنجازه زميلنا أمين السر الدائم للأكاديمية الأستاذ عبد اللطيف بربيش، والذي سيقدّم لكم من قبل اللجنة في وقت لاحق.

ومن الأمور التي اتّفق في شأنها العلماء أيضا، أهمية المحيط المجتمعي الذي يحتضن الطفل في سنوات عمره الأولى؛ نعني الأسرة ــ بحجمها التقليدي أو «العصري»، ثم رياض الأطفال ودور الحضانة، في حالة وجودها، وكل مايحيط بالبيت أو يوجد على مقربة منه، من الأشياء الحية والجامدة. هناك يرتسم شعور الطفل ويرتسم دماغه، ويتكون في جهازه العصبي، «برنامج» من ردود الفعل يصعب التخلّص منه فيما بعد. وقد فسَّر المتخصِّصون هذه الظاهرة الفيزيولوجية السيكولوجية بكون مرحلة الطفولة الأولى تصادف إبَّان تغلُّف الأعصاب بغلافها الدُّهني البروتيني. وفيها تتكون العادات الأولى التي ينبني عليها السلوك فيما بعد. ولذا يوصي علماء التربية بترويض الطفل ترويضاً محكماً على مستويات ثلاثة، متمايزة متداخلة في آن واحد :

أولا ــ على مستوى البدن، بحيث يُعمِل الطفل حواسّه الخمس في ارتياده لمحيطه المادي، وبحيث يتمرّن على الانضباط والتحكّم في حركاته وسكناته بفضل التحكّم في أعصابه وعضلاته وأوتار حنجرته...

ثانيا ــ على مستوى الوجدان، بحيث يتعوّد الإقبال على ماهو محمود، وماهو جميل، وما هو طيّب، وماهو نافع.. إلخ، ويتعوّد النفور مما هو مذموم، وماهو قبيح، وماهو خبيث، وماهو مضرّ... إلخ. وبتعبير آخر، يُلقَّن الطفل، في هذه المرحلة، مقاييس الخير والجمال، دون أن يستند التلقينُ إلى أي تبرير أو تعليل من قبيل التبريرات والتعليلات العقلانية. ومن الواضح، والحالة هذه، أن للمربّي في ترويض الطفل على تكييف وجدانه في العمق دوراً حاسماً، لأنه هو المسؤول على تحديد المقاييس وضبط القِيَم؛ معاييره هي التي يتبنّاها مُربَّاه، على علاّتها ،

فيحتضِنُها في نفسه، بين «الشعور واللاشعور»، حتى إنما تصبح طبيعة ثانية له وكأنه جُبِل عليها. ولذا قال رسول الله ﷺ : «كلّ مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه اللذان يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه».

ثالثا ـــ على مستوى الفكر، بحيث يتدرّب الطفل على إعمال العقل بكيفية منتظمة تُراعَى فيها الحاجيات الآنية والمستقبلية لتوجيه القوة المفكّرة، في نطاق استراتيجية شمولية تهدف إلى وضع اللبنات الأُسِّيَّة لكلّ مَلَكَةٍ من الملكات الرئيسية التي اصطُلِح على تسمية مجموعها بالعقل البشري، وهي : الذاكرة، والخيال (أو المُخيِّلَة)، والقدرة على تركيز الانتباه، وعلى الاستدلال المنطقي، وعلى الإفصاح عمّا يخالج النفس. وكلّ ملكة من هذه الملكات تقتضي ترتيباً بيداجوجيّا معيَّنا يُتوخّى فيه تقويتُها. فالذاكرة مثلا يُنمِّيها الحفظ الآليّ، والخيال الخصب تربّيه رؤية أكثر مايمكن من المشاهد، الحيّة أوالمصوَّرة، الغنيّة بالايحاءات، كما يُربِّيه الاستماع إلى الأقاصيص المتنوّعة المواضيع؛ والمنطق الجدلي الصائب يتولّد من الملاحظة الدقيقة التي تَقرِن بين الأشياء، وأضدادها وتربط الأسباب بالمسّببات؛ والإفصاح عمّا يخالج النفس لايُحسِنه الصغير إلا إذا دُعِيَ من حين لآخر، في لين ولباقة وبطرائق غير مباشرة، إلى توظيف مايكون قد اختزنه ذهنه من مفردات وعبارات وتراكيب... ومن العبث أن يُعتقد أن عوامل التكوين الفكريّ، في هذه المرحلة من النمو، تتوفّر تلقائياً لكل طفل. بل تتفاوت فيها فرص التعلّم والارتياض باختلاف الأوضاع الطبيعية والعائلية والمجتمعية والثقافية، من حيث غناها أو فقرها على الصعيدين المادّي والمعنوي. ولابدّ من الإشارة هنا إلى أن هذه المسألة قد صارت مثار جدال صاخب في الأوساط السياسية العالمية بين من يرون أن «الطبيعة» هي التي توزِّع الحظوظ والمواهب، تمنح من تشاء وتمنع من تشاء، إمّا على سبيل الوراثة وإمّا على سبيل المصادفات، وبين من يرون أن «اللُّعبة التربوية مغشوشة في أصلها»، بما أن أبناء الفقراء يفدون على المدارس أوّل مايفدون وقد قُيِّض لهم الانهزام أمام أبناء الأغنياء، قيَّضَهُ لهم فقرهم الذي صاحبهم حتّى قبل أن يولدوا. ويظهر أن البحث العلمّي يُرجِّح كفّة الفئة الثانية، لأنه أثبت أن نموّ الدِّماغ البشري مرهون، في المراحل الحاسمة السابقة الذكر، بحُسن التغذية وتوفّر أسباب الرفاهية والطمأنينة، كما هو مرهون بإمكانات التمّرس بأكثر مايمكن من معطيات الوجود

في تفاعل بعضها مع بعض. وقد بُرْهِنَ بالخصوص على أن خلايا كثيرةً من الدِّماغ تتعطّل عن العمل بصفة نهائية، إن لم يمكِّنها محيط الطفل من الارتياض والتمرّن.

ومهما يكن من شيء، لم يعد أحد يناقش في ضرورة رعاية الأمّ والعناية بالولد، جَنينا، وصبياً رضيعاً، وطفلاً صغيراً، غير أن هذه الضرورة لمَّا تَسْتَرِع انتباه المسؤولين بالقدر الكافي، في «العالم الثالث»، لا على مستوى الأُمّة والدولة، ولا على مستوى القرية أو المدينة، ولا على مستوى الأسرة. ولذا يجب على كلّ من وَعى تلك الضرورة حقّ الوعي أن يلفت إليها الأنظار بإلحاح، لأن الازدهار الذي ننشده لمستقبلنا مشروط بالاستجابة لها. حبّذا لو تُولَى الأسبقية في كل مشروع اجتماعي، وفي جميع الظروف لرعاية الطفولة، عامة، ورعاية الصِّبية والمواليد والنساء الحوامل خاصّة.

نصّ العرض
الذي تقدّم به السيد محمد شفيق
مُقرّر لجنة التربية والعلوم والتكنولوجيا
يوم الخميس 86/12/18

أيّها الزملاء الكرام،

لاشكّ أن التقرير الذي أنجزه مقرر لجنة التربية والعلوم والتكنولوجيا قد وصلكم؛ ولاشك أنكم قرأتموه. وليس قصدي الآن هو أن أقرأ عليكم مضمّن ذلكم التقرير، وإنما الغاية من حديثي هذا هي تلخيص التقرير وتتميمه والتعليق على بعض جوانب الموضوع الذي عهد بطرقه إلى اللجنة.

فيما أعتقد، وحسب ما أعلم، هذا هو أول عرض يقوم به مقرر لجنة التربية والعلوم والتكنولوجيا أمام جمعكم هذا، وذلك في ظرف ثلاث سنوات أو أربع. والسبب الرئيسي في هذا البطء، بل في هذا التأنّي في العمل، هو أن أعضاء اللجنة شعروا بخطورة المهمة المسندة إليهم، وبدقّتها، وأدركوا شيئاً فشيئاً أن من وراء كلّ مسألة معقّدة مسألة أخرى أكثر منها تعقُّداً. وهم سعداء اليوم بأن تتاح لهم الفرصة للتشاور معكم والاستنارة بآرائكم.

لجنتنا، كما تعلمون؛ تسمّى «لجنة التربية والعلوم والتكنولوجيا». هذه التسمية، الصادرة عن جمعكم هذا، هي أول شيء استرعى انتباهنا واستأثر باهتمامنا. فحاولنا أن نبحث في العمق عن أسباب الربط بين التربية، من جهة، وبين العلوم والتكنولوجيا من جهة أخرى. فتبيَّنّا تدريجياً أن لكلمة «تربية» مدلولاً اصطلاحياً

أعمّ وأوسع بكثير من مدلولها التقليدي المتعارف عليه في الأوساط المغربية على اختلاف مستوياتها ومشاربها. تبيّنّا أن الإنسان، حينما تكون نشأته قد تمّت ونموُّه قد اكتمل، لايمكن أن يكون إلا «حصيلة»، أو «نتيجة» لمعطيين إثنين : أوّلهما هو المعطى البيولوجي، وثانيهما هو التكيّف مع الظروف البيئيّة والاجتماعية والاقتصادية. وقد وصلنا، في تحليلاتنا الجماعيّة، — بعد مناقشات طويلة ودقيقة، وحادّة في بعض الأحيان — إلى الكشف عمّا بين المعطيين من تفاعلات معقّدة تظهر آثار بعضها على المدى القصير (نسبياً)، وتظهر آثار بعضها الآخر على المدى البعيد، أو البعيد جداً، أي مدى العقود أو القرون، كما يشير إلى ذلك الحكيم الصينيّ في قوله : «إن كُنت تريد أن تجني ثمار عملك بعد سنة، فازرع القمح؛ وإن كنت تريد أن تجنيها بعد عقد من السنين، فاغرس الشجر؛ وإن كنت تريد قطافها بعد قرنٍ فربِّ الشعب !»

لقد تساءلنا مثلا عن الأسباب الخفيّة والحقيقية التي تجعل بعض الأمم تتمسّك بالمبادىء الخُلقية، وتجعل أمماً أخرى تعبث بالقيم الإنسانية المتوارثة. وتساءلنا عن الأسباب التي مكّنت مجتمعات من التفوّق في العلوم، وأتاحت لمجتمعات أخرى فرص التقدّم السريع في ميدان التكنولوجيا... كما تساءلنا عن الأسباب والمسبّبات في التفاعلات الاجتماعية والسياسية : ماهي أسس الديموقراطية مثلا ؟ لماذا يميل مجتمع إلى إقرار المساواة بين أفراده وجماعاته، بينما يميل آخر إلى الحفاظ على روح الطبقيّة ؟ لماذا يتعسّر على بعض الشعوب فرض سيادة القانون، مع وجود القانون، بينما نرى شعوباً أخرى يُطبَّق فيها القانون بكيفيّة آلية ؟...

لقد كان بإمكاننا أن نتّجه تواً إلى موضوع «العلوم» أو بالأحرى إلى موضوع «التكنولوجيا»، نظراً لكون مجتمعنا يبحث عن سبل التحكّم في البحث العلمي وفي الخَلق التكنولوجي، لكن اتضح لنا، من خلال مقاربة أولى لطرح الإشكاليّات، أمر يظهر لأول وهلة أنه بديهي لايحتاج إلى تحليل ولا إلى مناقشة؛ اتّضح لنا أن **الإنسان** هو الذي يقوم بالبحث العلمي، وأنه هو الذي يبتكر التقنيات ويخترع الآليات. ولكن ليس هذا الإنسان هو أي إنسان. وإنما هو إنسان «يُبْنى» على أسس معيَّنة، أو بعبارة أخرى «يُخلق» خلْقاً ثانيا، انطلاقا من الخلق الأول الذي هو من اختصاص البارىء سبحانه. وإذا كان الإنسان «يُبنى» فلابدّ

من مراعاة قواعد البناء : لابدّ من إعداد الأرضية، وتمتين الأسس، باعتبار أن
بدّ من مراعاة قواعد البناء : لابدّ من إعداد الأرضية، وتمتين الأسس، باعتبار أن الأرضية هي المجتمع والأسرة، وأن الأسس هي التربية الأوّلية انطلاقاً من رعاية المرأة الحامل ومروراً برعاية الطفولة... قد يقال : «هذا يطول بنا ونحن في أمسّ الحاجة إلى التقدّم العلمي السريع وإلى النموّ الاقتصادي في أقرب وقت، وإلى الالتحاق بالركب التكنولوجيّ !». رداً على هذه الملاحظة ــ التي تصدر بطبيعة الحال عن مشاعر وطنية نبيلة ــ رداً عليها، أودّ لو تسمحون لي بشيء من الاستطراد الذي يفرضه الموضوع.

في أواخر الخمسينات وأوائل الستّينات، أي غداة استقلال عدد من البلدان الآسيوية والافريقية، كان حُلم المسؤولين السياسيّين والاقتصاديّين المنتمين لتلك البلدان هو تصنيع أوطانهم في أقرب الآجال. فحدثت ظاهرة التصنيع السريع (والتكوين السريع) المرتجل التابع لغيره في أكثر من مجال. ولمّا «فَطِنَ» أولئك المسؤولون لما ارتكبوه من أخطاء في الاختيار والتخطيط، ظهر لهم ــ أو أوحي إليهم بسُبُل مباشرة أو ملتوية ــ أن لاتصنيع بدون «نقل (أو تحويل) للتكنولوجيا». فاستمرّ النداء بشعار «نقل التكنولوجيا»مدّةً ما، وهو لايزال يثير بعض الاهتمام، حتى تبيّن للجميع أنه شعار فارغ من كل محتوى، إذ التكنولوجيا، في جوهرها، ليست هي الأدوات والمختبرات والمعدّات والمعامل ولكن التكنولوجيا، هي العقل الخلاّق، والتنظيم المدقَّق؛ وتبيّن للجميع أن شعار «نقل التكنولوجيا» شعار ينطوي على أخطار، بما أنه يدعو إلى مبادرات من أدنى مغبّاتها أنها تنقل تلوّث البلدان المصنّعة إلى البلدان «النامية» التي لاتزال محافظة على نقاوة أجوائها وميّاهها. ومنذ سنوات، تقلّ عن عشرٍ أو تزيد عليها بقليل، اتّجه التفكير، تفكير المهتمّين بالاقتصاد خاصّة، إلى البحث عن أسباب التخلّف الكامنة في الإنسان نفسه. هذا التّيار «الجديد» أخذ يدافع عن أطروحة يمكن أن تلخّص في جملة، هي الجملة الآتية : «لا نموّ إلا بتوظيف الطاقات البشريّة». الأطروحة سليمة لاشكّ في ذلك، غير أنها تحتاج إلى تعليق وتوضيح.

أولاً ــ لم يأت أصحابها بفكرة جديدة، إذ من المعلوم أن الأمم التي نالت

قصب السبق في ميدان التقدّم العلمي والتكنولوجي والاقتصادي، وبالتالي في المجالين الاجتماعيّ والسياسيّ، هي بالذات تلك الأمم التي سبقت غيرها إلى تنظيم مرافق الجهاز التربوي. ويمكن ترتيبها، على وجه التقريب، باعتبار تواريخ إقدامها على تقرير إجباريّة التعليم. (وهنا يجب التذكير بأن السبب في تفوّق العالم الإسلامي على العالم غير الإسلامي، طوال حقبة من التاريخ الوسيط تقارب ثمانية قرون، هو أن المسلم كان يعتبر طلب العلم واجباً من الواجبات الدينيّة). أمّا كون الأطروحة تفرض نفسها على المسؤولين في «العالم الثالث»، فراجع لا إلى جدّتها، ولكن إلى صدورها عن كبار «خبراء الاقتصاد» الغربّيين أمثال J.K. Galbraith و Z H.W.Shultz وغيرهما. ولم تكن من قبلُ تلفت النظر، إذ كان يدافع عنها، في أوائل الستّينات، علماء الاجتماع التربويّ وعدد قليل من الاقتصاديّين المنتمين إلى العالم الثالث نفسه.

ثانيا ــ كون الأطروحة صادرة عن خبراء الاقتصاد الغربيّين يوحي بأن «النمو» المنشود هو النموّ الاقتصادي، أي السعي وراء القيَم المادّية، في شكل تهافت على المال. وفي هذه الرؤية نوع من التسطيح للإنسان بحيث يصبح «ذا بُعد واحد»، كما عبّر عن ذلك Marcuse، ويكون ذلك البُعد هو البعد الاقتصاديّ، فتضمحلّ أمامه الأبعاد الأخرى، من اجتماعيّة وخلقيّة وروحيّة.

ثالثا ــ من المحتمل أن تُحدث هذه الأطروحة «الجديدة» حيرة كبيرة في نفس أكثر من مسؤول سياسيّ من مسؤولي العالم الثالث؛ ذلك لأن توظيف الطاقات البشرية» يستلزم صبراً وأناة وطول نفس واستمراريّة في الاتّجاهات والاختيارات، بينما يستعجل الوقت كلَّ عامل في الحقل السياسيّ ويدعوه بإلحاح إلى الإدلاء بما أنجزه، لابعد عقد أو عقدين، ولكن بعد بضع سنين، بل بعد بضعة أشهر. ولذا يتعيّن على كلّ ذي شعور بالمسؤولية، أياً كان نوعها، وعلى كلّ ذي تأثير في الرأي العام، أن يسهم في ترسيخ الاعتقاد أن النموّ مرهون بِرُقيّ الإنسان، وأن الرقيّ المادّي محفوف بالأخطار مالم يكن مقروناً بالرقي المعنوي تابعاً له.

هذا هو وضع التأملات التربوية العامة التي تسود الآن في الأوساط المهتمة بهذه المواضيع. ويبقى لنا أن نستخلص الموعظة من تجارب هذه العقود الثلاثة

بعدما يكون قد فات أوان التدارك والعبرة الثانية هي أن لابدّ، في كل عمل تربوي من التروّي ومن الصبر والأناة، لأن التسرع في هذا المجال يؤدَّى ثمنه غالياً وعلى مدّة طويلة من الزمن، يؤدّيه الجيل اللاحق عن الجيل السابق، وقد تنجم عن ذلك ظاهرة التراكم ـــ تراكم السلبيات ـــ التي تتسبّب في الركود أو الرجوع إلى الوراء. والعبرة الثالثة هي أن مراحل التكوين والتربية والتعليم متفاعلة بعضها مع بعض : كل إهمال في إحداها تكون له انعكاسات مضاعفة على المراحل الأخرى؛ أهَمُّها كلُّ مرحلة سابقة بالنسبة للمرحلة اللاحقة. والعبرة الرابعة والأخيرة؛ هي وجوب الحذر عند النقل عن الغير، لاسيّما إذا كان النقل يُعنى بالسطح ويغفل عن العمق والجوهر، ويتجاهل الظروف والخصوصيّات.

وليس معنى هذه الاعتبارات كلّها أن العالم الثالث محكوم عليه بالتخلّف إلى أجل غير مسمّى. إنما معناه أننا مضطرون إلى اتباع منهجيّتين إثنتين، متباينتين، متوازيتين، متكاملتين، إن كنّا حقيقةً نريد أن نؤهّل أجيالنا الصاعدة للحياة الحرة الكريمة في عالم تتعقّد فيه أساليب الحياة يوماً بعد يوم. المنهجيّة الأولى تستمدّ عناصرها من رؤية مستقبلية تخطّط للقرن المقبل. والمنهجية الثانية ترمي إلى توظيف الطاقات المتوفّرة الآن أو المُرتَقَبِ توفّرها في الأربع عشرة سنة المتبقّية من هذا القرن أو حتى في العقد الأول من القرن المقبل. وهذا يفرض أنّنا «نسينا الماضي» وانطلقنا انطلاقة جديدة، بعد أن حدّدنا لأنفسنا هدفين إثنين بقصد ضمان المستقبل أولاً، وبقصد تدارك أخطاء الماضي ثانياً.

هذا هو باختصار مجموع الأفكار التي راجت ونوقشت أثناء جلسات لجنة «التربية والعلوم والتكنولوجيا» منذ نشأتها، أي خلال السنوات الثلاث 1983، 1984، 1985. ولما شعرت اللجنة أنها استنفدت القسط الأكبر من النقاط النظريّة المتصلة بموضوع التربية، ظهر لنا أن من اللائق أن تخرج من مرحلة التدارس الأكاديميّ وتدخل في مرحلة أخرى. فارتأى أعضاؤها بالإجماع أن من الضروري أن تُوَسَّع دائرة المناقشة، وأن تُتَوخّى الفاعلية، وأن «تنزل اللجنة إلى الميدان» بكيفية أو أخرى. وبعد أخذ وردّ واستعراض للمواضيع التي من شأنها أن تُخرج البحث من النظريّات وتدخل به في المجالات المتصلة بالواقع المعيش، استقر الرأي على توجيه الاهتمام إلى ماهو معمول به عند الغير، أو بتعبير أوضح،

إلى دراسة مقارنة للنظم التربوية المعتمدة في العالم، عسى أن نستقرىء منها ونستنبط ما لم تُوصلنا إليه البحوث النظرية والآراء العلمية المجرّدة عن التطبيق. فوقع الاتفاق على مبدإ عقد ندوة، إما على مستوى الندوات الطارئة وإما على مستوى الندوات الدورية العامة. هذا المبدأ ستطلب إليكم اللجنة الموافقة عليه، بعد مناقشته ومناقشة الموضوع المقترح للندوة. وسيُعرض ذلك كلّه عليكم في جلسة أخرى إن شاء الله، والسلام.

استقبال العضوين المشاركين الجديدين السيد ناصر الدين الأسد والسيد محمد حسن الزيات

خطاب العضو المشارك الجديد
السيد ناصر الدين الأسد

بسم الله الرحمٰن الرحيم

السادة الأعلام أعضاء أكاديمية المملكة المغربية
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد،
ففي رحاب هذا البلد الطيّب الآمن، الكريم أهله،

وفي ظل ملك عالم، شريف المحتد، كريم المنبت، بصير بطرق الخير، خبير بالحياة.. عركها وعركته.. حتى اكتسب من تجاربها حكمة جعلته منارة من منارات الرأي حين تَحْلَوْلِكُ الدياجي من حول الشعوب.

وأمام هذه الصفوة المختارة من علماء الأرض الذين ضمّتهم هذه الأكاديمية الزاهرة بما عرف عن راعيها وعن شعبه من سماجة يحتضنون بها أهل العلم والفكر : على تباعد ديارهم، واختلاف أجناسهم، وتعدد أديانهم، وتبلبل لغاتهم، فإذا هم جميعا متآلفون، يسيرون على درب واحد، ويتوخّون غاية واحدة، لاهمّ لهم إلا طلب الحق، والبحث عن الحقيقة، والتفكير فيما يعود على الانسانية بالخير،

في رحاب هذا البلد... وفي ظل دياك الملك... وأمام هذه الصفوة.. أقف اليوم موقف الحامد لله، الشاكر له نعمه، لما أسبغ عليّ من فضل إذ أصبحت بينكم ومعكم، عضوا في أكاديمية تتطاول إليها أعناق الأفذاذ وتشرئب إليها أنظار النبغاء، فكيف لا يملأ نفسي الزهو بانتسابي إليها. وأنا أعلم أنه لم يدخلني رحابها إلا حسن الظن، وجميل الرأي، وكريم الثقة، من قوم أسأل الله تعالى أن يثيبهم عني خير الثواب، وأن يجعلني أهلا لثقتهم جديرا ببعض نعمته عليّ، سبحانه.

ولابدّ لمن كان في مثل موقفي أن ينتابه شعوران : شعور الفخر والاعتزاز لاختياره عضوا في أكاديمية المملكة المغربية ــ ذات المكانة الرفيعة، والشهرة الذائعة ــ وشعور الأسى المبرّح لفقداننا سلفا صالحا من العسير أن يملأ أحد مكانه : يزيد قدره علوّا كلما مضى عليه الزمن، ويشتد الشعور بفداحة خسارتنا فيه كلما تطاول البعد بيننا. وكان أوضح ما يميّز فقيدنا الشيخ الدكتور صبحي الصالح تغمده الله تعالى برحمته، أنه عصري التفكير، حديث المنحى، معايش لقضايا أمته في حاضرها، وتطلعاتها لمستقبلها. نال من علم السابقين نصيبا وافرا، وأحاط بالتفسير والحديث والفقه والأصول واللغة، إحاطة المتمكن، وألّف في كلّ ذلك من ذات نفسه، وحقق فيه من تراث السلف، ماأبقى ذكره، ورفع شأنه، وصار مرجعا للباحثين لايستغني عنه منقّب في تراثنا. ويسّر جانبا من معارف ثقافتنا بأسلوب مبسّط، وقرّبه إلى طلبة العلم وجمهرة المثقفين في كتب أقبل عليها الدارسون، وتداولها المطالعون، فتوالت طبعاتها. جمع القديم والحديث في نسق مطرد، لا تناقض فيه ولا اضطراب، ومحص النقل بالعقل، والرواية بالدراية، حتى استقام له منهج واضح لاغموض فيه ولا التباس... كان يسير بخطى ثابتة في طريقه إلى أن يكون من زعماء التجديد الفكري والاصلاح الاجتماعي، لو أتيح له أن يجمع حوله عددا من تلاميذ مدرسته ومريدي طريقته، فهؤلاء هم الذين عادة ينشرون رأي شيخهم، ويوضحون كثيرا من جوانبه، ويواصلون منهجه، ويرفعون ذكره... ولكنه رحمه الله كان وحده، فقد انقضى عهد الأئمة ذوي المدارس والتلاميذ، وأظلّنا عهد الأئمة المنقطعين، ورحم الله سلفنا فقد كانوا يقابلون بين عالم وعالم فيقولون : فلان أفقه من فلان، ولكنّ أصحابه لم يقوموا به، أو : ولكنّ أصحابه قعدوا به. ومعنى ذلك أن تلامذته لم ينشروا علمه، ولم يواصلوا رسالته.

* * *

ويجمعني وإياه طريق واحد يتّسع حينا، ويتباعد جانباه، فيسير كلّ منا على جانب منه حتى ليكاد يغيب أحدنا عن صاحبه، ويضيق حينا آخر فيقرّبنا حتى لنكاد نكون شخصا واحدا. وتظلّ في الحالين شواغلنا الفكرية واحدة أو متقاربة، وهمومنا النفسية مماثلة أو متشابهة.

وربما كان من أكثر هذه الشواغل الفكرية والقضايا العلمية إلحاحا : أمر هذا المنهج العلمي عند المسلمين، الذي كثرت الأحاديث عنه، وتوالت الكتابات فيه، دون أن نصل إلى وضوح يجلّي غموضه. وأصبح أكثر مايقال عنه ويكتب فيه ضربا من التعميم الفضفاض والحماسة الخطابية الاستهوائية.

لو عرفنا حقا أسرار المنهج العلمي الذي ينتهي بأصحابه إلى الانجازات العلمية، لكان خيرا لنا، ولاتخذناه وسيلتنا إلى المشاركة في هذه الحضارة الانسانية الحديثة التي هي نتيجة لتراكم جهود فردية، من أمم مختلفة، في عصور متعاقبة، وهو منهج قديم ضربنا فيه بسهم وافر، ونقلناه نقلة حضارية واسعة حين أحدثنا فيه أسلوب الاستقراء والمشاهدة والتجربة، وأضفناه إلى الأسلوب الذي كان يتبعه الاغريق، وهو أسلوب الاستنباط، الذي يقوم على وضع القاعدة الكلية ثم استنتاج ما ينطبق منها على الحالات الفردية في الواقع، فإذا لم ينطبق أعيد تفسير الواقع ليتمشى مع القاعدة الكلية. وكان أسلوب التجربة والمشاهدة فتحا في مسيرة العلم الانساني، اعترف به لنا من أخذوه عنّا في عصورهم الوسيطة ومطلع نهضتهم، ومالبث أن أنكره علينا ونفاه عنا من تلاهم منهم بعد حين، ثم نفاه عنا أكثرنا — في العصر الحاضر — وأنكرناه على أنفسنا، جهلا منا، مع أن ذكره ووصفه مبثوثان في كتب تراثنا العلمي، بما يغني عن الحاجة إلى افتعال الدليل عليه.

ولو لم يكن لنا في ماضينا منهج علمي فكري واضح المعالم، ما استطعنا أن نشيد هذه الصروح المتطاولة في مختلف ميادين الحضارة الانسانية، وأن يكون ما شدناه أساسا من الأسس التي قامت عليها الحضارة الحديثة. ويبقى علينا أن نبذل أقصى الجهد لمعرفة مبادىء هذا المنهج وعناصره، معرفة تقوم على التحديد والوضوح.

وأول ما ينبغي التنبّه إليه أن مسيرتنا العلمية كانت مسيرة ذاتية، بدأت من داخلنا، حين أخذنا نصنع علمنا بأنفسنا، وكان أكثره على غير مثال سابق. فنشأت عندنا علوم : التفسير، والحديث، والنحو، والصرف، والبلاغة، والعروض، والفقه، والأصول، والسيرة، والمغازي، والأنساب، والتاريخ، والرواية، والشعر، والنقد. وتفنّنّا في كل علم من هذه العلوم، وشعّبناه وفرّعناه. فللتفسير علوم : كأسباب النزول، والقراءات، والتجويد. وللحديث علوم : كمصطلحه،

وصحاحه، وتراجم رجاله، وقواعد الجرح والتعديل، ورتّبنا الرجال طبقات : فطبقات للشعراء، وطبقات للغويين، وطبقات للنحاة، وطبقات للأدباء، كما رتبناهم على حروف المعجم، أو على سنوات الوفيات والعصور. وألّفنا في كل ذلك تراثا ضخما من الكتب، طاولنا به الأمم، نشر بعضه، ولايزال بعضه مخطوطا، تحتفظ به الخزائن في مشارق الأرض ومغاربها، وفي شمالها وجنوبها، وضاع بعضه وان حفظت لنا الكتب الباقية أسماء ماضاع أو أسماء أكثره. كل ذلك باللغة العربية، كتب بها العرب، وكتب بها علماء المسلمين من غير العرب.

وكان لهذه العلوم ضوابط وقواعد، وآلات وأدوات، وطرق للاستدلال واستنباط الأحكام، وموازين للنقد ومعايير لفنون القول، تدرّجت كلّها في النموّ حتى استوت على سوقها، وتفرعت أغصانها، وآتت ثمارها فصارت لهم منهجا علميا.

وحين تمَّ للأمّة بناء هذه القاعدة الواسعة الراسخة من العلم ومنهجه وتقاليده، وتأصّل كل ذلك فيها، انطلقت إلى اكتشاف ما عند غيرها، فبدأت الترجمة على أوسع نطاق، وأقيمت لها دور ومؤسسات، وأجريت على المترجمين الجرايات السخية، ورعاها الخلفاء، وتنافس في تشجيعها الأمراء والولاة. فنقلت إلى اللغة العربية كتب الإغريق والفرس والهند في شتى أنواع المعرفة الانسانية : بدأت ضعيفة متعثرة مبهمة، ثم أخذت تقوى وتتضح. وانطلقت مع الترجمة تلك التعليقات والشروح والردود على ما تُرجم من علم تلك الأمم. وكان بعض تلك التعليقات والشروح والردود أحيانا أوسع من المتون والأصول نفسها، وكان فيها كثير من التصحيحات والاضافات. وكلّ ذلك دليل معرفة القوم حينئذ بمعنى تواصل الثقافات والحضارات، وانتقالها بين الأمم والأجيال، وعلى مدى العصور، وادراكهم أن العلوم والمعارف ملك للانسانية جمعاء، لاتقتصر على قوم دون قوم، ولا على دين دون دين. فالحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها[1].

وكانت اللغة العربية هي وسيلة تأصيل العلم والمعرفة في الأمة، إذ لا يتأصّلان

(1) «سنن الترمذي» 5 : 51 تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، بيروت دار إحياء التراث العربي، 1938 م.

في قوم بغير لغتهم، ثم كانت وسيلة نشر العلم والمعرفة بين طبقات هذه الأمة، إذ لو اقتصر الاطلاع عليهما بلغاتهما على الذين يعرفون تلك اللغات لبقيا محصورين في أفراد معدودين.

واتّسع معنى «العلم» عندهم، وتداخلت فروعه وميادينه، وجمعوا علوم الدين وعلوم الدنيا في فهم متكامل لمعنى «العلم» ولمعنى «وحدة المعرفة». ومن أمثلة ذلك أن عمر بن الحسام كان يقرأ كتاب المجسطي في الرياضيات والفلك لبطلميوس على أستاذه عمر الأبهري[2]، فدخل عليهما أحد الفقهاء، فسألهما عمّا يقرآنه، فقال الأبهري «أفسّر آية من القرآن، وهي قوله تعالى ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ فأنا أفسّر كيفية بنيانها وقد عقّب فخر الدين الرازي في تفسيره على هذه الرواية ـــ بعد أن أوردها ـــ بقوله : «ولقد صدق الأبهري فيما قال، فإن كلّ من كان أكثر توغّلا في بحار مخلوقات الله تعالى كان أكثر علما بجلال الله تعالى وعظمته».

وماكان لهم أن يذهبوا هذا المذهب لولا أنهم استمدّوه من كتاب الله عز وجل، في آيات منه أشارت إلى مبادىء المنهج الفكري العلمي، وحسبنا أن نستشهد بقوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُها، وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[3] فإن اقتطاع قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ﴾ من سياق الآيتين، والاستشهاد به وحده، كثيرا ما أوهم أن المقصود بالعلماء هنا هم علماء الدين وحدهم، ولكنّ وضعه في سياقه وقرينته يوضح حقيقة معناه. فإن هذا القول الكريم ورد في سياق آيات الله الكونية، وقدرته تعالى على أن يخرج من الماء «الواحد» الذي ينزله من السماء «ثمرات مختلفا ألوانها»، وقدرته سبحانه على أن يجعل من الجبال جدداً مختلفا ألوانها، فمنها البيضاء والحمراء

---

(2) «التفسير الكبير»، تفسير فخر الدين الرازي في سياق الآية 164/ البقرة، ج 2، ص 56، بيروت، دار الفكر، 1978م.

(3) فاطر : 27 و28.

والسوداء كلون الغراب، وقدرته تعالى على أن يخلق الناس والدواب والأنعام من ألوان مختلفة كذلك، وفي كل ذلك عبرة وعظة للعلماء تجعلهم أقرب إلى معرفة الله عزّ وجلّ، وأدنى إلى خشيته. وليس في هذه الأمثلة على قدرته تعالى مايشير إلى أن معرفتها تكون بالعلم الديني، بل لابدّ لمعرفتها على وجهها الصحيح من علوم الدنيا كالفلك والفيزيقا وعلم طبقات الأرض (الجيولوجيا) وعلم الأجناس والوراثة، وغيرها.

وحين انطلق علماء المسلمين «يتفكّرون» «ويتدبّرون» دون ما حرج ولا تزمّت، لايحول بينهم وبين ميدان من ميادين العلم حائل، كانوا يهتدون في ذلك بهدى آيات من كتاب الله تعالى أشارت إشارات واضحة مستوفاة إلى أنه تعالى فتح جميع ميادين الحياة، وجميع ما فوق الأرض وما في باطنها، وما فوق البحار وما في جوفها، وما في الفضاء والسماء.. وجعلها كلها ميدانا للتدبّر والتدبير والتفكر والتسخير، في خدمة الانسان، يصل إليها بعقله، ويفتح مغاليقها بعلمه — بإذن الله — لم يحظر منها ميدانا، ولم يغلق فيها بابا، بل أشرعها كلها على مصاريعها جميعا دون قيد ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الفُلْكَ لِتَجْرِي فِي البَحْرِ بِأَمْرِهِ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الأنْهَارَ﴾ ﴿وَسَخَّرَ لَكُم الشَّمْسَ والقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾[4] ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ؛ إنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[5].

ومع هذا الحثّ على البحث والاجتهاد والتقصي والتفكير، أسقط الله تعالى عنهم حسابهم على أخطائهم، ما دامت نيّاتُهم سليمة، وما دام الحقّ رائدهم وهدفهم... منطلقين من قول الرسول الكريم ﷺ : «إنما الأعمال بالنيات»[6] فمنح العلماء بذلك حقا من أهم حقوق الانسان هو حق الخطأ، غير المتعمّد، ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُم جُنَاح فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ، ولَكِن مَاتَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ، وَكَانَ الله غَفُوراً

(4) إبراهيم 32 و 33
(5) الجاثية : 13
(6) رواه مسلم وأبو داود والترمذي وأحمد

رَحِيما﴾[7]﴿وَلاَيُكَلِّفُ الله نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ، رَبَّنَا لاتُؤَاخِذْنَا إنْ نَسِينَا أوْ أخْطَأْنَا﴾[8] وأكد هذا الدعاء رسول الله ﷺ في صيغة تقريرية بقوله «إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان...»[9]

ثم زاد الاسلام على كل ذلك فضلا آخر، فأربى على كل ما يخطر على بال العلماء وما يجول في أمانيهم، فلم يقتصر على التجاوز عن خطأ المخطىء وعلى الصفح عنه، بل نراه يكتب لهم الحسنة والثواب حين يخطئون وهم سائرون في طريق العلم، فيجعل للمخطىء أجرا واحدا وللمصيب أجرين[10].

وهكذا اطمأن العالم على نفسه ومصيره، وازداد انطلاقا في ميادين البحث المختلفة دون ماخوف ولا تردّد.

* * *

لقد فهم سلفنا الصالح منهج الاسلام في التفكير والبحث، وتدبّروا ما في كتاب الله تعالى من آيات محكمات، وما في سنة رسوله ﷺ من أقوال وأفعال، وظهر كل ذلك في مواقفهم. وحسبي أن أختم هذه الكلمة بالاستشهاد بآراء نفر منهم :

فقد نُقِل عن الفقيه الامام أبي حنيفة قوله : عِلْمُنا هذا رأي، وهو أحسن ماقَدَرْنا عليه، فمن قَدَر على غير ذلك فله ما رأى، ولنا ما رأيناه». ونقل عن الامام الشافعي قوله : «ما ناظرتُ أحدا فأحببتُ أن يخطىء. ومافي قلبي من علم الاّ وددتُ أنه عند كل أحد و لايُنْسَبُ إليّ» وقوله عن أهل الأهواء : «إذا خالف أحدُهم صاحبَه قال له : كفرتَ : والعلمُ انما يقال فيه أخطأت».

ومن أقوال أديبنا الكبير الجاحظ «تعلّم الشكَّ في المشكوك فيه تعلُّما. فلو لم يكن في ذلك الا تعرُّف التوقف، ثم التثبّت، لقد كان ذلك مما يُحْتاجُ إليه». ومنها

---

(7) الأحزاب : 5

(8) البقرة : 286

(9) رواه ابن ماجه والطبراني والحاكم

(10) روى الحديث البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد، قال الخطابي : «انما يؤجر المخطىء على اجتهاده في طلب الحق لأن اجتهاده عبادة، ولا يؤجر على الخطأ بل يوضع عنه الاثم فقط» (السيد سابق، فقه السنة 3 : 401 ـــ دار الكتاب العربي، بيروت).

قوله : «وللأمور حكمان : حكمٌ ظاهر للحواسّ، وحكم باطن للعقول، والعقل هو الحجّة».

وننتقل من آراء الفقهاء والأدباء وأقوالهم إلى العلماء، فنستمع إلى عالم الطبيعة والبصريات الحسن بن الهيثم في قوله[11] : «الحق مطلوب لِذاتِه، وكلُّ مطلوب لذاتِه فليس يَعْنِي طالبَهُ غيرُ وجوده، ووجودُ الحقّ صعب، والطريق إليه وعر، والحقائق منغمسة في الشبهات... وما عصم الله العلماء من الزلل، ولا حمَى علمهم من التقصير والخلل. ولو كان ذلك كذلك لما اختلف العلماء في شيء من العلوم، ولا تفرَّقت آراؤهم في شيء من حقائق الأمور، والوجود بخلاف ذلك. فطالب الحقّ ليس هو الناظر في كتب المتقدمين، المسترسل مع طبعه في حسن الظنّ بهم، بل طالب الحقّ هو المتهم لظنه فيهم، المتوقّف فيما يفهمه عنهم، المتّبع الحجة والبرهان، لاقول القائل الذي هو إنسان، المخصوص في جِبلَّته بضروب الخلل والنقصان. والواجب على الناظر في كتب العلوم، إذا كان غرضه معرفة الحقائق، أن يجعل نفسه خصما لكل ما ينظرُ فيه، ويجيل فكره في متنه وفي جميع حواشيه، ويخصمه من جميع جهاته ونواحيه، ويتّهم أيضا نفسه عند خصامه فلا يتحامل عليه ولا يتسمَّح فيه. فإنه إذا سلك هذه الطريقة انكشفت له الحقائق، وظهر ما عساه وقع في كلام من تقدّمه من التقصير والشُّبه.»

وبعد، فهذه أجزاءٌ من منهج فقهائنا وأدبائنا وعلمائنا، اقتطفناها من أقوالهم، وقد استمدوها من التوجيه الربّاني في آيات الكتاب الكريم، ومن سنة رسوله ﷺ، وتفهَّموها، وحقّقوها في سلوكهم وفي منهجهم الخلقي والعقلي.

وحسب ما قدّمت، فما قصدت منه الا أن يكون وسيلتي إلى الدخول في حماكم، والجلوس في أدنى مجالسكم، معيدا ما بدأت به من استنزال الرحمة على روح فقيدنا الشيخ صبحي الصالح، والثناء على علمه وفضله، والاعراب عن أصفى مشاعر الشكر لمن كرّمني فأنزلني هذه المنزلة.

والحمدُ لله من قبل ومن بعد، إنه ــ سبحانه ــ المخصوص وحده بالحمد كلِّه، المستحقُّ له، المنفرِدُ به.

(11) الشكوك على بطلميوس : 3 ــ 4، تحقيق الدكتور عبد الحميد صبرة والدكتور نبيل الشهابي ــ مطبعة دار الكتب، مصر 1971 م.

خطاب الترحيب بالعضو المشارك الجديد السيد ناصر الدين الأسد

عباس الجراري

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله.

سيدي أمين السر الدائم
سيادة أمين السر المساعد
السيد مدير الجلسات
أيها الاخوة الزملاء

يلتئم عقد أكاديمية المملكة المغربية ــ كمنضد الدر الفاخر النفيس ــ ينظم في سلكه صفوة الأعلام من أقطاب العلم والمعرفة وأفذاذ الفكر والأدب الحاظين بكريم إنعام مؤسسها جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله، وبجميل ظنه وغالي ثقته في أن يحققوا ــ متآخين متآزرين ــ سياقا إنسانيا تلتقي فيه الثقافات وتتواصل الحضارات، على ما بينها من تفرد وتمايز.

وإذا كنا ــ جميعا ــ نشعر بغامر الابتهاج وفائق الاعتزاز ونحن نستقبل في هذه الجلسة ثلة من الرصفاء الملتحقين بعضوية مجمعنا التكريمية الدائمة، فإني ــ شخصيا ــ لا أخفي عظيم استبشاري بالتكليف المشرف الذي عهدتم به إلي لأنوب عنكم في الترحيب بأحد هؤلاء الزملاء الجدد، هو معالي الأستاذ العلامة الدكتور ناصر الدّين الأسد، فإن له في نفسي مكانة متميزة ما إخالكم الا ستشاركونني فيها، كما يشاركني كل أصدقائه وأحبائه والذين يتصلون به من قريب أو بعيد.

ولتسمح لي — أيها الأخ العزيز — أن أبادر في مستهل هذا التقديم إلى القول بأن السبل التي قادت خطاك إلى هذه الأكاديمية وأحظتك لدى راعيها — سدد الله خطاه — كثيرة ومتعددة، لعل أقربها علمك الغزير وأدبك الوفير، وتفانيك في خدمة وطنك وأداء رسالة أمتك، ومانلته من عظيم التقدير وحسن الاحدوثة وجميل الذكر، ثم عواطفك نحو المغرب الذي منحت ملكه وشعبه خالص الحب وأصفاه.

وقد أسعدني الحظ فاقتفيت أثرك في هذه السبل ولقيتك في بعض شعابها، على الرغم من أنها بالنسبة لي طويلة أو تطول، ولمست من سابغ فضلك وعالي قدرك مايجعلني أتحدث عنك حديث العقل الذي للقلب عليه تأثير، وإن كنت أخشى أن يقصر باعي عن التعبير، فأعجز عن ايفائك الحق وما أنت به جدير.

عرفتك أول الأمر من خلال بحوثك العلمية الرصينة، كان ذلك عام سبعة وخمسين وتسعمائة وألف، كنت آنذاك طالبا حديث الالتحاق بكلية آداب جامعة القاهرة، وكنت أنت قد تخرجت فيها قبل ذاك بسنتين، حاصلا على درجة الدكتوراه. ولكن أصداء أطروحتك عن «مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية» كانت ماتزال تتردد في رحاب الجامعة، بل في مصر كلها، فأسرعت إلى قراءتها في طبعتها الأولى المنشورة عام ستة وخمسين، ساعيا إلى توضيح الموقف من الذين ضعفوا وسيلة حفظ الشعر الجاهلي ووهنوا طريقة نقله وروايته، فلم ألبث أن اقتنعت معك بأن النظر في المصادر هو الخطوة الأولى الصحيحة التي تسبق كل خطوة غيرها في سبيل دراسة هذا الشعر، وأن بحثه بحثا مجديا لايتم إلا عن طريق دراسة خارجية أولا تعنى بمصادره جملة في مجموعها، ثم تتتبع تلك التي استقى منها أولئك الرواة خطوة خطوة حتى تصل بين هؤلاء الرواة والشاعر الجاهلي نفسه. وكنت مؤهلا للنظر في تلك المصادر بالدراسة التي أنجزت من قبل في رسالة الماجستير عن «القيان وأثرهن في الشعر العربي في العصر الجاهلي»، وان لم يتسن لي أن أفيد منها الا حين نشرتها أول مرة عام ستين.

وقد دل تأليفك عن القيان ثم عن المصادر أن همتك في البحث لا تتعلق بالموضوعات السهلة التناول القريبة المأخذ، مما حثك — وقد تمرست بالصعب من الدرس — على خوض غمار مجهولة أو تكاد، فأخذت في التنقيب عن أدب

الأردن موطنك الذي أنبتك ورعى نبوغك، وكذا أدب فلسطين التي أتاحت لك قسطا من التعليم تخرجت به في الكلية العربية بالقدس الشريف، وأخرجت بذلك عام سبعة وخمسين كتابا قيما عن «الاتجاهات الأدبية الحديثة في فلسطين والأردن» أتبعته بعد أربع سنوات بسفر نفيس أفردته لجانب محدد من جوانب الحياة الأدبية، هو «الشعر الحديث في فلسطين والأردن»، وهما في الأصل محاضرات ألقيتها على طلاب معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية. وأظنني في غير حاجة إلى الاعراب عن كبير اغتباطي يومئذ بهذين المؤلفين، بما فتحا لي من آفاق معرفية مغلقة، وكذا آفاق منهجية تمس إشكالية إقليمية الأدب في علاقتها بوحدة الأدب العربي عامة. وهو منحى قادك — لوضوحه عندك — إلى مزيد من العناية والإبداع المحلي، فنشرت عام ثلاثة وستين كتابا عن «خليل بيدس رائد القصة الحديثة في فلسطين»، أخرجت بعده سنة سبعين دراستك عن «محمد روحي الخالدي رائد البحث التاريخي في فلسطين».

وعلى الرغم من أن اهتمامك بإنتاج جنوب بلاد الشام بدا وكأنه أبعدك عن مجال البحث الأول المتصل بالعصر الجاهلي، فإنك بقيت مرتبطا بالتراث العربي الإسلامي تعالج نصوصه بالمقابلة والتحقيق، مما أتاح لك أن تخرج بالاشتراك مع الصديق الدكتور إحسان عباس عام خمسة وخمسين «جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى» لابن حزم، وأن تنشر بعد ذلك على التوالي «تاريخ نجد» لحسين بن غنام سنة إحدى وستين، و «ديوان قيس بن الخطيم» عام إثنين وستين، و «ديوان شعر الحادرة» سنة تسع وستين، ثم «مختصر» ابن صمادح التجيبي الأندلسي لتفسير الطبري عام سبعة وسبعين.

ولم يقتصر اهتمامك العلمي على التأليف والتحقيق فحسب، ولكنه تعداهما للترجمة التي نقلت فيها من اللغة الانجليزية إلى العربية بالاشتراك مع نفس الصديق كتاب «يقظة العرب» لجورج انطونيوس، وقد طبع سنة اثنين وستين. وفي هذا الإطار راجعت تعريب الدكتور نقولا زيادة للكتاب الذي وضعه مجيد خدوري عن «ليبيا الحديثة»، وكان نشره سنة ست وستين.

إن جهودك العلمية أكبر وأضخم من أن يستوعبها هذا التقديم. ولو كان المجال يسمح لتحدثت عن محاضراتك الكثيرة ومقالاتك العديدة، ولتوسعت في هذا

الحديث، ولكن لابد من أن أشير إلى بعض دراساتك اللغوية التصويبية العميقة، ككتابتك عن «عشرينات وعشرينيات» المنشورة في العدد الأول من مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، وكتابات أخرى عن «معاجم ومعجمات» و «نواد وأندية» و «وديان وأودية» و «حماس وحماسة»، وهي منشورة في أعداد متفرقة من مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

بهذه البحوث وغيرها مما قد أكون أغفلت ذكره أو اختصرته، تسنى لك أيها الصديق الأود أن تخدم وطنك الأردن الذي حظك القدر فجعل تاريخ ميلادك فيه بالعقبة عام ثلاثة وعشرين مقترنا بإعلان استقلال دولته التي أقام صرحها جلالة الملك المغفور له عبد الله بن الحسين الهاشمي طيب الله ثراه.

وإنك بتلك البحوث لم تؤد الواجب نحو وطنك الصغير فحسب، ولكن أتيح لك أن تؤدي ماعليك كذلك نحو وطنك الكبير، وتشارك في صنع تاريخه الحديث وبناء نهضته الفكرية والأدبية.

ولقد كان هذا الوطن وفيا لك كما كنت أنت وفيا له، وكان معترفا لك بما لم تكن لتذكره أنت عن نفسك أو يذكره عنك الناس من فضل وجميل، فحلاك بأرفع الأوسمة، وأنالك أسنى الجوائز، ومنحك عضوية مجامع ومجالس علمية عديدة، ودعاك لحمل المسؤوليات الجسام، فاتحا أمامك الباب واسعا لتتدرج في مراكز عالية بدأت فيها بمناصب ثقافية في الأمانة العامة لجامعة الدول العربية بالقاهرة من سنة أربع وخمسين إلى تسع وخمسين، ثم توليت عمادة كلية الآداب والتربية بالجامعة الليبية ببنغازي، قبل أن تدعى عام إثنتين وستين لتأسيس الجامعة الأردنية في عمان حيث نهضت بتدريس اللغة والأدب العربيين، وأسندت إليك عمادة كلية آدابها ثم رئاسة الجامعة التي استمر إشرافك عليها إلى عام ثمانية وستين. وفيه عدت إلى جامعة الدول العربية وكيلا لإدارتها الثقافية، فمديرا عاما مساعدا مشرفا على الشؤون الثقافية بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. وقد استمر عملك في هذا المجال القومي زهاء عقد كامل. وعلى امتداد سنتي سبع وسبعين وثمان وسبعين تشرفت بتمثيل المملكة الأردنية الهاشمية سفيرا لها لدى المملكة العربية السعودية ثم ألقيت إليك مقاليد تسيير الجامعة مرة ثانية. وفي عام ثمانين أسس جلالة الملك الحسين المعظم المجمع الملكي لبحوث الحضارة الاسلامية

(مؤسسة آل البيت)، وأسند إليك رئاسته التي مازلت تقوم بأعبائها يحالفك التوفيق والسداد، إلى جانب مهمة وزارة التعليم العالي التي عينك فيها ــ أيده الله ــ منذ سنة خمس وثمانين.

ان المتتبع لهذه المسيرة المجيدة ليأخذه العجب من ملاءمتك النادرة بين متطلبات العمل العلمي الدؤوب في مختلف مجالات البحث والتدريس والتأليف والتحقيق، وبين مشاغل المسؤوليات الإدارية الكبرى التي تتحمل أعباءها، فتبدو وكأنك تغني هذه بتلك أو تلك بهذه، بل تبدو وكأن القدر ألقى إليك مقاليد حياتك فصغتها ــ كما تشاء ــ مجيدة حافلة بجلائل الأعمال.

وقد حظتني العناية الإلٰهية فعرفتك ــ شخصيا ــ بعد أن عرفتك من خلال كتاباتك. وأذكر أن أول مرّة لقيتك فيها كانت في عاصمة الكنانة أوائل السبعين، بمناسبة أحد الاجتماعات التي كانت المنظمة العربية للثقافة تدعوني للمشاركة في أعمال بعض لجان خبرائها المتخصصين. وتوالت الاتصالات بعد ذلك في أرض المغرب حين كنت تحل به في نطاق دورات اللجنة الاستشارية لمكتب تنسيق التعريب أو لحضور مهرجانات ومؤتمرات ثقافية تكون فيها بين جلة القوم كوكب النظراء وحلية الاكفاء. ثم بلغت لقاآتنا أوجها على صعيد المجمع الملكي الذي شرفتني بالدعوة إلى جمعه التأسيسي وما تلاه من مؤتمرات سنوية حضرتها فخورا بالانتساب إليه.

وإذا كانت هذه الاتصالات قد نسجت بيننا علاقات فكرية وروحية متينة، فلست أخفي أني منذ رأيتك لأول مرة، شعرت بالاقتراب منك والالفة إليك، مأخوذا بوقار طلعتك، وبجاذبية شخصيتك التي التقى فيها جلال العلم بجمال الأدب، واجتمعت فيها سعة النفس ورحابة الصدر بصفاء الفكر وجودة الرأي، مع ذهن حاضر وبداهة قوية وإحساس مرهف ولسان مطواع يسخر الخطاب ويمهد الصواب ويذلل القول لينقاد لك بيّن المنهج سهل المخرج، فتجيد وتتفنن في غير تكلف ولا تعقيد، حتى لكأنه يتابعك ويواتيك، في لفظ سليم صحيح، وتعبير مصقول فصيح، وأسلوب بليغ وضيح، وفي نقاء يستفظع الغلط والركيك والقبيح. تسحر سامعك إذا حدثت كما تسحر قارئك إذا كتبت، وتجعل كلا منهما يدهش لجمال عبارتك ويعجب لتميزها عن المألوف المتداول، مذكرة بأساليب

كبار الكتاب ومشاهير الخطباء المفوهين الذي انصاعت لهم مقاليد البيان السلس المرسل، فنفذوا به إلى القلوب قبل العقول. ولست أبالغ إذا قلت إن التعبير الفني الجميل قد انساب لك حتى لاخالك لا تبدع إلا شعرا، بل حتى لاخالك لاتعاني في حياتك وفكرك غير هذا التعبير، تملك ناصيته وتمزجه بالرائع من النكات والطريف من النوادر والحلو من الفكاهات والعذب من الدعابات، تفيد بذلك كله وتتحف وتمتع في نفس الآن.

وهل أفشي سرا إذا قلت إن في حياتك الحافلة جانبا أستسمحك في اثارته، وإن أبيت الا السكوت عنه في الترجمة التي كتبت بقلمك، ذلك هو جانب. الشعر. وكيف لا أشير إليه وأنت شاعر بتعبيرك وإحساسك، وبذوقك وعينك كذلك.

وهل تأذن لي ــ أيها الخل الوفي ــ أن أربط بين هذا الشعر الرائق وبين حبك للمغرب الذي تعلق عشقه بشغاف قلبك فغدا لا يفارقه ولا يسلوه.

وإن أصدقائك وأصفياءك وعشاق الشعر مازالوا يرددون قصيدتك الرائعة التي عارضت بها قافية ابن زيدون الزهرائية، ينشدونها ويتغنون بها، وكنت أنشأتها من وحي المهرجان الذي نظم في الرباط لهذا الشاعر الأندلسي الشهير في أكتوبر عام خمسة وسبعين، وأهديتها إلى زميلنا جميعا وصديقنا الأديب المبدع الكبير معالي الأستاذ الحاج محمد ابا حنيني، وكان الداعي إلى هذا المهرجان ووزيرا للدولة مكلفا يومئذ بالشؤون الثقافية. ومنها أقطف هذه الأبيات :

قال ابن زيدون قولا في الهوى راقا   «اني رأيتك بالزهراء مشتاقا»
وافتن في وصفه زهراؤه ومضى   يبثها نفسه وجدا وأشواقا
أحيا لنا ذكرها شعرا نردده   وكلما زاد عتقا زاد إشراقا
نشدو بأشعاره فينا وننشدها   حتى أقمنا لهذا الشعر أسواقا
وضمنا في رباط الفتح منه سنى   في مهرجان سما مجدا وأعراقا
ولم أزل أذكر الزهراء في شغف   والقلب يهفو إلى الزهراء تواقا
حتى تمثلت الزهراء لي بشرا   كأنها ملك... كالنور رقراقا

حضرات الاخوة الأعزاء

هل قلت كل ماكنتم تتوقعون أن أنوب عنكم به في الترحيب برصيفنا الجديد وهل ذكرت في حقه جميع ماكان ينبغي أن أقدمه به ؟

لاأزعم أني قمت بذلك أو قريب منه، ولكن حسبي فيما ألقيت أن أكون نقلت إليكم بعض ما انطبع في نفسي عن مكانة متميزة لأخ عزيز، لعله أن ينطبع في نفوسكم كذلك. فلنهنأ نحن بانضمامه إلينا في عضوية أكاديمية المملكة المغربية، وليهنأ هو بالتشريف الذي حظي به والتكريم الذي هو به جدير.

وشكرا على انتباهكم، والسلام عليكم ورحمة الله.

خطاب العضو الجديد
الزميل السيد محمد حسن الزيات

«بسم الله الرحمٰن الرحيم»

1 ــ تقترب ساعة الغروب، فيرتد الخاطر يتأمل ماشهدته السنون الطوال من الأحداث.

بين ساعة الميلاد التي بعد العهد بها، وساعة المغيب التي تقترب كلما كان صباح وكان مساء.

2 ــ وساعة الميلاد كانت في العام الثاني من أعوام الحرب العالمية الأولى، بينما كانت نيرانها تتصاعد في أوروبا، يخوضها فريقان كل منهما يصرخ بأنه انما يقتحمها دفاعا عن الحرية، وذيادا عن الحق، وطلبا لقيام عالم جديد تتمتع فيه الانسانية بالعدالة والسلام والرخاء.

3 ــ وأكلت الحرب العالمية الأولى بضعها بعد أن لم يعد هناك ما تأكله، وسكتت المدافع في أوروبا، وجلس المتحاربون يعقدون معاهدات الصلح، يفرض فيها الغالب إرادته على المغلوب.

4 ــ ثم فكر المنتصرون في ما كان من الصراع، وفيما انتهى إليه، ورأوا أن الحرب قد هزمت ــ في حقيقة الأمر ــ المنتصر والخاسر معا، وتمنوا لو استطاعوا أن يقيموا عالما جديدا آمنا من ويلات الحروب، فصاغوا على أساس معاهدات الصلح ــ ميثاقا جديدا استهدفوا به ضمان السلام الدائم للجميع، بضمان الأمن الشامل للجميع، وقامت مؤسسة (عصبة الأمم) على أساس الميثاق الذي وضعه المنتصرون معلنين أن العلاقات بين الأمم يجب أن تكون منذ ذلك الوقت، أي

منذ قيام العصبة ــ علاقات علنية، عادلة، شريفة، ملتزمة بأحكام القانون الدولي بحيث تنبذ فكرة اللجوء إلى الحرب نبذا مطلقا، فقد ثبت في يقين المنشئين للعصبة والمنضمين إليها أن الحرب لاتضمن استقرار الأمن، ولا تضمن دوام السلام.

5 ــ كان ذلك في عام 1919، وفي نفس العام تأكد لنا في مصر أن العلاقات العلنية والعادلة والشريفة والملتزمة بأحكام وبروح القانون الدولي مطلوبة لدول أوروبا المنشئة للعصبة، غير مطلوب أن تحكم العلاقات بين شعوبها وشعوب المستعمرات والبلاد التي أخضعتها لسلطانها، وسيطرت بأشكال وصنوف مختلفة من السيطرة على مقدراتها ومواردها.

6 ــ وقام صراع جديد بين دول الاستعمار وبين الشعوب التي أرادت اخضاعها أو أرادت الاستمرار في خضوعها لسلطانها، وامتحنت الحرب الإيطالية الحبشية صلابة المبادىء (التي أعلنها ميثاق عصبة الأمم) وفعاليتها فاتضح أن ذلك البناء العالمي قد بني على غير أساس، لأنه بني على تصور أن العالم يمكن أن يعيش ونصفه حر يتمتع بمبادىء الميثاق ونصفه لاحرية له، ينعم نصفه بالغنى فهو سعيد، ويشقى نصفه الثاني بالفاقة والحرمان.

7 ــ وانهار البناء. ونشبت الحرب العالمية الثانية بعد عشرين عاما، دارت رحاها بأسلحة أشد ضراوة، وتبارى الفرقاء فيها يخربون ويدمرون أشنع التدمير، وهم يصرخون، كما كان أسلافهم في الحرب الأولى يصرخون، بأنهم انما يقتحمون نار الحرب دفاعا عن الحرية وذيادا عن الحق وطلبا لقيام عالم جديد ينعم فيه كل الناس بالأمان وبالسلام وبالرخاء.

8 ــ وأكلت هذه الحرب أيضا نفسها، عندما اجترأ أحد الفريقين على استعمال السلاح الرهيب الذي توصل إليه الانسان، سلاح القنبلة الذرية، جربها الغرب في أرض الشرق البعيد فأوقعت الرعب في قلب الغرب والشرق معا، وعاد المنتصرون يفكرون في الحرب والسلام، في الخراب والعمران، في نتائج ذلك الصراع القاتل الذي حشدوا له كل الطاقات العلمية، والمادية، فإذا المنتصر في الحرب خاسر كالمهزوم، وجلس قادة الأمم المنتصرة ــ التي كانت تسمي نفسها بالأمم المتحدة ــ يخططون لقيام عالم جديد يتعاهدون على ألا تكون فيه للحروب

ثمرة، وعلى ألا يحقق أي منتصر بالحرب أي مطمع، وتعاقد المجتمعون على ميثاق جديد هو ميثاق الأمم المتحدة أصدروه باسم شعوب الأرض كلها في يوم من أيام صيف عام 1945 يؤكدون فيه إيمانهم بما للرجال والنساء من الحقوق التي لايمكن انكارها وبما ينبغي للأمم كلها، كبيرة وصغيرة من المساواة بغير اعتبار بقوة الكبير القوى ولا لضعف الصغير الضعيف، ودعا مؤسسو هذه «الأمم المتحدة» كل بلد محب للسلام للانضمام إليهم في مسعاهم الجريء الجديد كي تنعم الأمم كلها، معا، بالعدل والسلام كي تتاح للأمم كلها فرصة العمل، معا، للتقدم والرخاء.

9 ـــ وتمر أربعون عاما، يحقق الانسان فيها من آيات التقدم العلمي والتقني ما لم يكن يتخيل امكان تحقيقه، لقد حلّق في السماء يسابق سرعة الصوت وغاص إلى قاع المحيطات يجمع ثروة البحر وسما إلى القمر فسار عليه بقدميه لقد تغلب على بعض الأمراض التي كان علاجها يستعصي عليه، وتمكن من اسماع صوته في كل أرجاء المعمورة ومن بث صورته حيثما كان إلى كل مكان.

10 ـــ ومرت الأربعون عاما دون أن تشهد حربا عالمية جديدة، ولكن هذه الأعوام لم تشهد سلاما كاملا ولا أمنا شاملا.

لقد قام الصراع العنيف بين دول الشرق ودول الغرب يدعي كل فريق أنه صراع مبادىء وقام الصراع بين أهل الشمال وأهل الجنوب فتراكمت الثروات في الشمال وتراكمت في الجنوب الديون.

واستمر الأغنياء الأقوياء ينفقون البلايين ليصنعوا، ويكدسوا كل رهيب مخيف من أنواع السلاح وآلات الدمار.

وشعوب العالم تشهد راضية (أو على الأقل دون أن تنتفض غضبا) أموالها ثمرة عمل الفلاح والعامل والعالم، يلتهمها هذا السباق للتسلح، الذي تتنامى نفقاته وتتصاعد خطورته بحيث أصبح من الميسور تدمير العالم كله، لا مرة واحدة بل مرات ومرات.

وعاد الكبار الأقوياء إلى الحديث عما للقوة من حقوق وترددت من جديد مقولة (الويل للمغلوب) أن الذين دبجوا العبارات التي صاغوا بها ميثاق الأمم

المتحدة ـــ وأصابعهم محترقة بنار الحرب العالمية الثانية ـــ قد بردت أصابعهم فضعف إيمانهم بما سطروه أن الكبار الأغنياء لم يستطيعوا الاستمرار في تحمل أعباء المساواة مع الصغار التي بشر بها الميثاق.

لقد انهار بناء الأمم المتحدة أو كاد، وصح أن يوصف بأنه بنيان من زجاج.

11 ـــ إن تدمير الانسان لذاته هو أشنع ما يشهده العالم من ألوان الصراع.

إنه يبدد في سباق السلاح ماكان جديرا بأن يشبع الجائع ويشفي المريض ويعلم الجاهل من الأفراد ومن الشعوب.

إن الانسان لايكترث بما يرتكب من تلويث قاتل للأرض التي يعيش عليها وللماء الذي يجري فيها وللسماء التي تظلها.

إن الانسان يلوث جو هذا الكوكب حتى لتشهد العين العادية سحب التلوث تغطي سموات بعض المدن، ويلوث الأرض بما تعطيه من ألوان الطعام، ويحول ماء الأنهار ـــ التي عبد في بعض الأزمنة بعضها ـــ إلى سم زعاف.

إن الانسان يحيا في خوف وقلق.

يلجأ العديد من أفراده إلى ألوان المغيبات والمخدرات يدمر بها نفسه وجسمه وعقله تدميرا...

كيف يصنع الانسان هذا كله بنفسه ؟

كيف يستعد بما يكدسه من الأسلحة لتخريب حياة العدل والسلام ؟

كيف يقاوم مسيرة الحضارة بتلويثه ما حوله من مصادر الحياة والنماء ؟

كيف يعطل مسعاه نحو التقدم بما يوقعه بنفسه من التخريب والتدمير بتجارة وتعاطي ألوان المخدرات ؟

كيف يثقل القوى كاهل الضعيف بديون بالغة الضرر بالدائن والمدين ؟

12 ـــ نيف وسبعون عاما رأيت الانسان فيها عاكفا على قتل نفسه ببطء، ينفق في سبيل ذلك ثمرة جهده ويوظف في سبيل ذلك ما هداه الله إليه من فنون العلوم. صدق الله العظيم الذي أقسم بالعصر «إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ».

13 ـــ إن اليأس يوشك أن يستولي علينا، ثم نقرأ السورة الكريمة كاملة، فنجد برد السكينة في قلوبنا، لقد استثنى الله تعالى الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

14 ـــ نتأمل من حولنا فنرى هؤلاء المؤمنين الصالحين في أماكن متفرقة من العالم، وجهدهم ـــ متفرقين ـــ جد محدود، ولكنهم ان تجمعوا وتعاونوا جديرون بأن تتضاعف قدرتهم على علاج مايوقعه الانسان بنفسه من الخسران.

يجتمعون فيتواصون بالحق، يجاهدون لصلاح حال الانسان لاستغلال قدرته على صنع الخير.

15 ـــ إنكم هنا، أيها السادة في مجتمعكم هذا، تتواصون بالالتزام بما هو حق، وتستهدفون ماهو خير، وتلتمسون في أبحاثكم وفي مشاوراتكم منع الانسان من تدمير ذاته، وتوجيه قدراته لعمل مافيه الخير، لنفسه ولمجتمعه، لدنياه وآخرته، ولكن سعيكم هذا لابد ـــ بطبيعته ـــ أن يسير بخطوات قصار، وتأثير عمل مجموعته مثل هذه النخبة الممتازة سيكون كبيرا وخطيرا ولكنه سيحتاج حتما كي يؤثر أثره، ويؤتي ثمره، إلى كثير من الصبر والأناة.

تتواصون إذن بالصبر كما تتواصون بالحق.

وبالتواصي بالحق والتواصي بالصبر يستثني الله جل جلاله النخبة الصالحة من عباده من أن يكونوا من الخاسرين.

إنكم تبحثون عن الخير للانسان في كل ميدان، في ميدان السياسة، وميدان الاجتماع وميدان الاقتصاد.

وكل هذه الميادين تتساند وتتشابك.

16 ـــ ولقد كان لمصر شرف المشاركة في هذه الأكاديمية برجل من رجال الاقتصاد، وكان يدرك أدق الادراك تشابك حاجات الاقتصاد وحاجات المجتمع، وكان يدرك أدق الادراك أن الاقتصاد أساس من أسس الحياة السياسية.

كان المرحوم الأستاذ الدكتور عبد المنعم محمد القيسوني اقتصاديا اجتماعيا سياسيا، شرف بلاده مصر وشرف قومه العرب، واستحق شرف عضويته هذه الأكاديمية أكبر استحقاق.

عرفته رجلا صلبا ولكنه كان دمث الأخلاق، عظيم الكبرياء ولكنه كان عظيم التواضع، درس في لندن في مدرسة الاقتصاد الحر واقتنع بمنطقها ولكنه عرف حاجات الاقتصاد الموجه وأدرك ضرورته في بعض الأحيان، كان زعيم أصحاب التخطيط الاقتصادي عندما دعت ظروف بلاده إلى الالتزام بالاقتصاد الموجه، وكان زعيم مدرسة الانفتاح الاقتصادي عندما سمحت ظروف بلاده إلى الانفتاح.

عرفته زوجا من أكرم الأزواج، عرفته أبا من أكثر الآباء حنوا وعزما وعرفته مسؤولا عن مسيرة الاقتصاد في مصر وعرفته مسؤولا عن قطاع من قطاعات الاقتصاد العربي الدولي أيضا، وعرفته يعلق النجاح في عالم الاقتصاد على النجاح في عالم الاجتماع، ويربط عالمي الاقتصاد والاجتماع بعالم السياسة التي كان يرى أنها تستهدف أن يحيا قومه حياة العزة والسعادة المشتركة حسب تعبير عالمنا رفاعة رافع الطهطاوي، وعرفته وطنيا يحب بلاده حب التعصب وعالميا يتعامل مع الدنيا تعامل أكثر الناس سماحة وأرجحهم أفقا.

17 ــ وأنا الآن أجيء إليكم على استحياء، أعلم أن من العسير أن أملأ المكان الذي كان يحتله عبد المنعم القيسوني، وأدرك عظيم أعضاء هذا المجتمع ومن رجالات المغرب الاعلام وممن يشاركهم العضوية من أبرز عظماء العالم من عديد القارات.

لقد حضرت إلى المملكة المغربية للمرة الأولى منذ أربعة عشر عاما وهذه هي المرة الثانية التي أتشرف فيها بدخولها في زيارتي الأولى لهذا البلد الكريم جئت (وأنا مسؤول عن سياسة بلدي الخارجية) أحمل هموم بلادي التي كانت قد نهضت لاجلاء المحتل عن أرضها ورفع الظلم عن اخوتها العرب.

جئت في تلك الزيارة الأولى أشكر لهذا البلد مساهمته الفعالة في معركة التحرير وأشكر لمليكها ماقدم في ذلك الصراع من العون السخي الكريم.

وأجيء الآن إلى هذا البلد المضياف أحمل هذه المرة آمالا عريضة في أن أكون معكم، وبفضلكم، ممن استثناهم الله تعالى من الخسران، من الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر.

18 ــ إنكم ــ أيها السادة ــ في هذه الأكاديمية تقدرون فضل ما خلفته

لنا الأجيال السابقة من تراث، وتقدرون قيمة ما حققه العصر الحديث من القفزات في دنيا العلوم والتقنيات، إنكم تنتفعون بالموروث القديم وبالعلم المستحدث تستهدفون أن يتحقق للجنس البشري كل ماهو نافع له، دافع لمسيرة حضارته وعرفانه إلى الأمام.

إنكم تستهدفون إنارة الطريق لهذا الجيل من البشر، لتجنب مخاطر التهلكة «وليضطلع بالأمانة الإلٰهية الملقاة على عاتق الإنسان» كما ينص على ذلك الظهير الشريف الذي أنشأ أكاديميتنا هذه الجليلة منذ أحد عشر عاما.

ولهذا يكون الحجيج اليوم إلى هذه الأكاديمية الملكية المغربية الشابة وريثة تقاليد العلم والبحث المغربي العريق.

يكون الحجيج بعد أن طال الطريق نيفا وسبعين عاما، ودنا أوان الغروب.

19 ـــ شرف عظيم أناله أيها السادة بالحلول محل الراحل الكريم الأستاذ الدكتور عبد المنعم محمد القيسوني.

شرف عظيم أنالنيه أيها السادة راعي الأكاديمية الكبير جلالة الملك الحسن الثاني، العالم، والعامل المكافح، سليل العالم غزير العلم، العامل العظيم العمل المكافح أشد وأعنف مايكون الكفاح، الذي أضاءت صورته صبانا وشيابنا ونحن نستمع إلى ندائه ونتابع أنباءه في موطنه وفي منفاه، وفي عودته الظافرة إلى عرينه يرعى الشبل الذي يخلفه فيه.

وشرف عظيم نلته بتقديم الأخ الكريم عضو الأكاديمية لي الذي تفضل مشكورا بتقديمي إلى مجمعكم الموقر.

أستعينكم أيها السادة لأكون جديرا بالمشاركة في عضوية هذه الأكاديمية التي ألقي على عاتقها «الاضطلاع بدور يجعلها حلقة الوصل، وإدارة الربط، وعامل التأليف بين الأمم والحضارات في أوروبا وإفريقيا، وفي عالم البحر الأبيض المتوسط وعالم المحيط الأطلسي، وكذلك عامل ربط الماضي والمستقبل، وبين مستلزمات التقاليد ومتطلبات التقدم».

أستعينكم مستمعا إليكم اهتدي ان شاء الله بما أسمع.

استعينكم متعلما معكم كيف يمكن أن يكون العمل المثمر لتحقيق الأهداف السامية التي وضعها لهذه الأكاديمية راعيها حفظه الله، وحقق له، وبه، ما علقه على انشائها من الآمال. .

20 ــ بسم الله إذن أبدأ عملي اليوم معكم، المسؤول تعالى أن يجعلنا ــ في ختام العمر ــ ممن هداهم للايمان، ووفقهم لعمل الصالحات، وأهلهم ليتواصوا معكم بالحق ويتواصوا بالصبر، آمين.

خطاب الترحيب بالعضو المشارك الجديد
السيد محمد حسن الزيات

محمد فاروق النبهان

باسم الله الرحمٰن الرحيم

السيد مدير الجلسات
أيها الزملاء الأجلاء

جرت الأعراف والتقاليد في هذه الأكاديمية أن تعهد إلى عضو من أعضائها بأن يستقبل العضو الجديد الذي يتكامل به عقدها، واستقبلت هذا التكليف باعتزاز وفرحة، لاعتبارين إثنين :

أولهما : ان الزميل الجديد ينتمي إلى شعب عريق أصيل، أقام فوق أرضه أقدم حضارات الانسان، ومازالت آثار تلك الحضارة باقية شاهدة ثم أصبحت أرض الكنانة معقل الاسلام ومستودع ثقافته وفكره.

وثانيهما : ان الزميل الجليل يجسد من خلال شخصيته وفكره ونضاله الشخصية العربية المؤمنة بقضايا هذه الأمة، والملتزمة بمواقفها وقيمها...

أيهـا الزمـلاء الكرام :

يشرفني أن أقدم إلى هذا المحفل المهيب زميلا جديدا هو الأستاذ الدكتور محمد حسن الزيات المولود في مدينة دمياط في جمهورية مصر العربية، والزميل الجديد ينتمي إلى ذلك الجيل الذي عاصر أهم مرحلة في تاريخ هذه الأمة، فكانت طفولته مليئة بالمواقف التي تؤكد طموحات شعبنا في الحرية والاستقلال.

ففي المراحل الأولى من حياته كانت مصر مسرحاً لوعي وطني يتطلع إلى تحرير البلاد من الاستعمار البريطاني، وتابع الشاب محمد حسن الزيات مايجري في بلده من أحداث متلاحقة، ووجد نفسه وهو في المرحلة الثانية يشارك شعبه عواطفه، ولما دخل كلية الآداب بجامعة القاهرة شارك في العمل السياسي والوطني من خلال المنظمات الطلابية التي كانت تجسد ضمير الشعب المصري الذي كان لايقبل المساومة في قضاياه الوطنية...

وأتيح لهذا الشاب أن يتتلمذ على يد رواد فكر كانوا مشاعل في طريقه الطويل، من أمثال طه حسين وأحمد أمين، ووجد فيه عميدُ الأدب العربي مرآة لذاته ولشبابه، وشجعه على متابعة دراسته العالية، وفي اكسفورد تابع الشاب دراسته في الفلسفة على يد مستشرقين متخصصين، وحصل على درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة اكسفورد، واستقبله عميد الأدب العربي مرحبا به معجبا بنشاطه، وقبل أن يستقر به المقام في مصر كان الشاب الطموح قد اقتحم على أستاذه حياته الأسرية، وانضم إلى أسرته زوجا لكريمته.

وابتدأت رحلة زميلنا الجليل في رحاب المعرفة والثقافة، أستاذا في جامعة الاسكندرية، وسرعان مالاحقته أحداق الخارجية المصرية وهي تبحث عن جيل جديد يحمل أمانة الدفاع عن القضايا الوطنية في المحافل الدولية، وفي واشنطن بدأ عمله الديبلوماسي في سفارة بلده، ثم انتقل إلى طهران والصومال ولما برزت مواهبه وحكمته فيما أسند إليه من مهام عين سفيرا ومندوبا لمصر لدى الأمم المتحدة، وشارك بهذه الصفة في اجتماعات مجلس الأمن والجمعية العامة، وكان رئيسا لوفد مصر في اللجان الدولية.

وانتقل إلى الهند سفيرا لبلده، وقبل أن ترتاح نفسه من رحلة الطريق الطويلة عاد إلى القاهرة وكيلا للخارجية المصرية، ومشرفا على سياستها ورئيسا لوفد مصر

في المؤتمرات الدولية، العربية والافريقية، ثم عين رئيسا للهيئة العامة للاستعمالات ومن جديد عاد إلى الأمم المتحدة سفيرا ومندوبا دائما لبلده فيها، ومن هناك انطلق صوت مصر يخاطب العالم ويحذر من مغبة تجاهل حقوق الشعوب في مقدساتها الوطنية..

ولما ضاعت أصداء النداء عاد زميلنا الجليل إلى القاهرة لكي يكون وزيرا للاعلام، وبصمت انتقل إلى وزارة الخارجية، وأمسك بمقود العربة الديبلوماسية وزيرا لها، وعكف على إعداد الظروف النفسية التي يتقبل بها العامل حركة الشعوب في سبيل الحرية، ولما نقضت امريكا قرار مجلس الأمن المؤكد للقرارات السابقة بوجوب انسحاب اسرائيل من الأرض العربية المحتلة ورعاية حقوق شعب فلسطين كانت مصر قد أعدت نفسها لمواجهة الحقيقة المتمثلة في ان قضايا التحرير لاتقررها المنظمات الدولية، وإنما تقررها الشعوب المعتزة بتاريخها والمؤمنة بحقوقها.

وفي صباح السادس من أكتوبر عام 1973 كنت أيها الزميل الجليل في رحاب الأمم المتحدة مطوقا باخوة أعزة من وزراء خارجية أمتك العربية رافقوك في رحلتك التاريخية، وفجأة تهللت أسارير وجهك، وانطلق اللحن الجميل الذي تردّد صداه في المحفل الدولي مؤكدا أن اللهب المؤجج في الدماء مثل الصخرة الصماء لاتطفئه أمواج الأسى وعبرات الجفون...

ووقفت أيها الزميل الجليل مع باقة من إخوانك تنصت إلى صوت العالم وهو يعزف على قيثارة أشاد نغمها نضالَ شعبك...

لا ينهض الشعب إلا حين يدفعه   عزم الحياة إذا ما استيقظت فيه
والجد يخترق الغبراء مندفعا   إلى السماء إذا هبت تناديه
والقيد يألفه الأموات مالبثوا   أما الحياة فيبليها وتبليه

ولما عدت إلى أهلك وأسرتك بعد رحلة شاقة في رحاب العمل الدبلوماسي والسياسي سفيرا ووزيرا ومستشارا للرئيس ضاقت نفسك المتوثبة بحياة الراحة والهدوء، وواصلت جهادك الفكري، في معاقل الفكر والثقافة، وحاضرت في جامعات عريقة في أوروبا وأمريكا، وشاركت في توعية المواطن العربي من خلال ماكتبته من بحوث ودراسات، واختارك المجمع العلمي المصري عضوا فيه لأنك

كنت تجسد من خلال ثقافتك قيم الأصالة وخصائص الابداع وكانت مقالاتك تجسد شعورك الوطني بالانتماء إلى أمة ذات خصائص حضارية...
وفي مدينة الطفولة «دمياط» اجتمع رفاق الأمس حولك يلتمسون منك أن تمثل مدينتهم في مجلس الشعب، وقبلت التكليف، وعدت من جديد تواصل جهادك الوطني، دفاعا عن حرية بلدك.

أيـها الزميل الجليل :

أكاديمية المملكة المغربية عهدت الّي أن أرحب بك، وسعدت بهذا التكليف فأنت تمثل بلدا عريقا في المجد، وتجسد قيما خالدة التزمت بها في حياتك، وسوف تجد في هذه الرحاب زملاء أجلاء يفتر ثغرهم عن حكمة تورق ثم تزهر، ولا يطويها التراب، تغرد للحياة وتشدد بقضايا الانسان...

وإن راعي هذه الأكاديمية جلالة الملك الحسن الثاني عندما اختارك عضوا في هذه الأكاديمية فإنما أراد أن يكرم جهادك في سبيل الحق والعدالة وأن يكرم من خلالك شعب مصر العظيم.

والمغرب الوفي لتاريخنا وقيمنا سيظل وفيا للرجال الذين جسدوا عظمة ذلك التاريخ ودافعوا بشرف ورجولة عن مقدساتنا الوطنية وحقوقنا المشروعة وكنتم أيها الزميل الجليل من أبرز الرجال الذين أنجبتهم أرض الكنانة إيمانا بالحق ودفاعا عنه، وعاصرتم أهم الأحداث في تاريخ هذه الأمة وإن استقبالكم في هذه الأكاديمية هو تكريم لذاتكم وتكريم لما تمثلون من عظمة تاريخ مصر..

أيـها الزميل الجليل

لقد كنت تبحث خلال رحلتك الطويلة في الشرق والغرب عن «غابة الحكمة» التي تنصت لصوت الحق ولا يضيق صدرها بدموع البائسين من شعوب ضاقت بآمالها آفاق الفجر، وسوف تجد في رحاب هذه الأكاديمية ذلك المنبر الذي تبحث عنه، وسوف تشدو فيه لحنك الجميل، مدافعا عن حرية الانسان وكرامته.

المعبـد الحي المقـدس ههنـا   ياكاهـن الأحـزان والآلام
فاخلع مسوح الحزن تحت ظلاله   والبس رداء الشعر والأحـلام
وارفع صلاتك للجمـال عميقـة   مشبوبـة بحرارة الالهام

واصدح بـألحان الحيــاة جميلـــة كجمـال هــذا العــالم الــبسام

أيـها الزميل الجليل

مرحبا بك في أكاديمية المملكة المغربية.

تأبين العضو الراحل
ادغارفور

عبد اللطيف بربيش

السيـد مدير الجلسات
حضـرات السّادة

أمام جلال الموت، يقضي الوفاء وتقضي التقاليد المغربية العريقة، ويقضي الخلق الإسلامي النّبيل، أن نقول كلمة رثاء وثناء في حق صديق رحَل، وعزيز ولّى، وأن تقف أكاديمية المملكة المغربية وقفة وداع وفية لزميلنا الراحل الرئيس إدغار فور، نكرم فيه الرجل الذي أحب المغرب، عاهِله وشعبَه، ومن خلالهما شعوب الانسانية جمعاء، منذ أمد مبكر، في وقت لم تكن بعد محبة الشعوب المستضعفة ولا الدفاعُ عن حقوق المناضلين فيها من بين عادات المفكرين والمنظرين في العالم المتقدم يومئذ.

وإنه لحق بل واجب علينا أن نبادله في أيام رحيله من دار الزوال هذه، إلى دار البقاء الأبدي حباً بحب، ووفاء بوفاء، وإجلالا باجلال.

وإني لأكاد أتمثّل الساعة أمام ناظري شخص الراحل الكريم في حيويته المعهودة، ونشاطه الفكري المتوالي، وحركته التلقائية في أفناء هذه الأكاديمية، بين زملائه، حاضراً أَوْفَى ما يكون الحضور وأكمله، متحدثا أفصح مايكون الحديث وأجمله، مستشعرا أهمية الأمانة الملقاةِ على عاتقه، عضواً مشاركاً في أكاديمية المملكة المغربية، من أجل نشر رسالتها، وتبليغ أمانتها، على ألسنة أعضائها، وعبر آرائهم السديدة، وتأملاتهم العميقة، وفتاويهم القانونية وإشاراتهم الرشيدة إلى قادة دول العالم ورؤسائه من المسؤولين عن مصير الإنسانية في هذا القرن العشرين.

وان ننس لاننسى أبدا مواقفه السياسية الشجاعة في إصرار كبير واعد، ووعي ذكي نافذ، ونظر سديد صائب إلى مستقبل العلاقات المغربية الفرنسية في الخمسينات من هذا القرن حيث لم يتردد يومها في الدعوة بأعلى صوت من على منبر الجمعية الوطنية الفرنسية إلى سياسة رشيدة ترمي إلى تصفية الاستعمار بالمغرب خاصة والشمال الإفريقي عامة.

وقد أظهرت الأيام صدق فراسته وصواب آرائه، وموهبته كسياسي وكمفكر سبق تفكيره السياسي وحدسه الإنساني الأحداث قبل أن تسبقه الأحداث.

وتتزاحم الصور الانسانية الزاهية للراحل الكريم أمام ناظري حتى لأكاد أحتار أيها أختار، للتعبير عن عواطف الإعجاب ونقل كلمات الإشادة بما عمل وبما صنع، وبما ترك من تراث فكري خالد :

ذلك أني أجدني أمام إدغار فور أواجه حياة مليئة بالاجتماعي والقانوني إلى جانب الفلسفي والتربوي وجها لوجه، مع المالي والسياسي إلى جانب التقني والانمائي، أقول : أجدني أمام هذا الفكر العملاق أجمع صوراً عظيمة في صورة أعظم لذهنية إنسانية اجتماعية واقتصادية وسياسية «إدكارفورية»، ولتسمح لي اللغة العربية أن أستعير هذه الصيغة التي تتسع في غناها لرسم ملامح بارزة في شخصية الرجل وإعطاء وصف شامل لتكوينه الموسوعي المتتبع لآخر ما استجد من مستحدثات في الفلسفة والمنطق والحكمة والعلوم والآداب قديمها وحديثها على حد سواء.

حضـرات السّادة

تلكم كلمات تقدير وثناء ووفاء، شاءت الأقدار أن تقال قبيل الإعلان عن شغور المقعد الأكاديمي للراحل العزيز. ويبقى دينا علينا جميعا، ومن حقه علينا في هذه الأكاديمية التي عرفته رحابُها متحدثا قديرا، ومحاضرا بليغا، ومناقشا بارعا، ومحاورا نابها، أن نعود لتمجيد ذكراه عندما يتفضل راعي الأكاديمية الأمين جلالة الملك الحسن الثاني حفظه الله بتعيين العضو المشارك الجديد الذي يأخذ مقعد العضو الزميل الراحل الكريم.

والسلام عليكم ورحمة الله

تأبين العضو المشارك
السيد عبد المنعم القيسوني

محمد شفيق

أيها السـادة

لمثل هذه الدورة من دورات مجمعنا، ولمثل الموضوع الذي نحن مقبلون على تدارسه مع ضيوف كرام من العلماء والخبراء ذوي الباع الطويل، لمثل هذا، كنّا ندّخر أخاً عزيزا ألفنا منه أن يشفي غليل كلّ متعطش إلى مزيد من المعرفة في شؤون الاقتصاد. نعم، لمثل هذا اليوم، ولمثل هذه الدورة، كنّا ندّخر بفخر واعتزاز عالماً عربياً طبقت شهرته الآفاق وارتوت من ينابيع علمه الأجيال، وعمل بمشورته الملوك والرؤساء. لمثل هذا اليوم، أيّها الزملاء، كنّا ندّخر عبد المنعم القيسوني، فشاء الله سبحانه وتعالى أن يُختلج من بيننا عبد المنعم القيسوني، في هذه الظروف بالذات، أي عندما اتجهت إليه أنظارنا مستفتية إيّاه في أمر من أمور الدنيا، كانت درايته به من أوسع الدرايات. ولا مردّ لمشيئة الله ! لقد علّمنا ديننا، نحن المسلمين، أن نتجاوز مواقف التضجّر من «بؤس الحوادث والدّهر»؛ إن الرزء الذي أصابنا في أخينا، أيها السادة، لمصداق لقول الله عز وجلّ ﴿وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً إلاَّ أَنْ يَشَاءَ الله !﴾ وحبذا لو أن الناس جميعا أدركوا ما من وزن فلسفي للمدلول الذي تؤدّيه تلكم العبارة البسيطة التي ما يفتأ المسلم يردّدها سهواً طوال حياته، كلما شرع مشروعا أو نوى القيام بعمل، تلكم العبارة التي يعجب غير المسلم لتردّدها على ألسنتنا، هي عبارة «إن شاء الله !».

أذكر، أيها الإخوة، ذلك اليوم الذي نُعِيَ فيه إلينا، نحن أعضاء لجنة الأعمال، عبد المنعم القيسوني، فلم نلبث إلاّ هنيهة، هنيهة الصمت الذي يفرضه الهلع على كل إنسان يفجع في حبيب، لم نلبث إلاّ هنيهة، حتّى ارتفعت أصواتنا مسترجعة فيما أصابنا، وكأنها صوت رجلٍ واحد : «إنّا لله، وإنّا إليه راجعون » ثم نظر بعضنا إلى بعض، ولم يجرؤ أحد منّا على أن يدعو إلى حذف اسم عبد المنعم القيسوني من القائمة التي كنّا قد أعددناها منذ لحظات، وأحصينا فيها أسماء الزملاء الذين كان من الممكن أن يعوّل عليهم في استقصاء مسألة «الخصاص في الجنوب». ومن المصادفات التي يكشف بها القدر للبشر عن جبروته، أن اسم عبد المنعم القيسوني كان برأس القائمة؛ وكأنّ صوتاً خفياً أهاب بنا أن نكرّم أخاً كان على وشك الرحيل بتبويئه مكانة الصدارة. ولا يعلم الغيب إلا الله، الذي يحيط علمه بكلّ شيء.

ولد الفقيد بالقاهرة، سنة ست عشرة وتسعمائة وألف، إذ كان أوار الحرب الكونية الأولى ملتهبا، وكانت مصر في غليان، تستعدّ للمطالبة باستقلالها السياسي. فرضع عبد المنعم، مع اللبان، روح الوطنية الصادقة، ونشأ على حبّ النضال من أجل الحقّ، بينما كانت دياجير الظلم حالكة، والشعوب الإسلامية كلّها مغلوبة على أمرها، يرزح أكثرها تحت نير الاستعمار. فانكبّ عبد المنعم على الدرس، طفلا وفتىً يافعاً، ونهمت نفسه في التحصيل نهم الشاب الذي أحس بأن أجيالا متعاقبة من أبناء أمته قد فرّطوا في العلم الصحيح تفريطاً. ولم يلبث أن تأهّل للالتحاق بالجامعة. فساعده إذّاك حدسه القويّ، وساعدته نباهته، على أن يدرك أن كبريات المعارك السياسية قد انتصرت فيها مصر على خصومها وأعدائها، بقيادة زعماء من رجال القانون، كان على رأسهم سعد زغلول العظيم. فما عسى أن يصنع الشابّ عبد المنعم كي يوظّف الحماسة التي نُشىء فيها، ويصرف الطاقة التي ادّخرها طوال نشأته لخدمة الوطن ؟ هنالك قرّر عبد المنعم أن يهيىء نفسه لخوض معارك من نوع جديد، لم يكن يتبيّن ضرورة خوضها، في الثلاثينات، إلا ذوو الحصافة والزكانة من الناس. فاختار عبد المنعم أن يكون رجل اقتصاد. فدرس أساليب التجارة العصرية بجامعة القاهرة؛ ثمّ شدّ الرّحال إلى العاصمة العالمية للمبادلات آنذاك، ألا وهي لندن، ولم يبرحها إلا وهو حاصل على دكتوراه الدولة

في الاقتصاد. فقفل راجعاً إلى أرض الوطن، وهو واثق بأن ماقد اقتناه من سلاح فكري سيكون في خدمة مصر عمّا قريب. واتّجه أول مااتّجه إلى تكريس جهوده لتكوين جيل جديد من الاقتصاديّين المصريّين. فخرّج أفواجا من الخبراء، كان من بينهم من لم يمكث إلا مدّة وجيزة حتّى أصبح تثنى به الخناصر عند ذكر ذوي المقدرة على الصعيد الدولي؛ وكان من بينهم من أصبح اليوم زملاؤه في التخصّص ينتظرون بفارغ الصبر كل جديد من كتبه ومقالاته، ويلقون السمع كلّما خطب في حفل أو حاضر في جمع. ولكنّ أمثال عبد المنعم القيسوني لاتستطيع الجامعة أن تحتكر قدراتهم لنفسها، بل لاتستطيع حتّى أوطانهم أن تستأثر باستغلال خبراتهم. ولذا التحق الأستاذ الشاب عبد المنعم، وهو ابن الثلاثين، بصندوق النقد الدوليّ، ولما يمض على إنشاء ذلكم الصندوق أكثر من عامين اثنين. فأسهم الفقيد في تنظيمه وتقوية أركانه، بصفته رئيساً لأحد أقسامه، حتى استكمل صندوق النقد الدولي بنيته ووجد طريقه التي كان يبحث عنها للقيام بمهمته. فعاد عبد المنعم إلى كرسيّه في الجامعة المصرية، سنة 1950، وهو راض كل الرضى عن عودته تلك إلى مجال يرتاح فيه ضمير ذوي الأريحيّات وتقرّ عينهم، لأنهم يعطون فيه أكثر بكثير مما يأخذون.

لكن، سرعان ما تطور عالم الخمسينات، فتغيرت معالمه الجيوسياسية، وأخذ يتحوّل إلى ميدان للمنافسات التجارية التي لا هوادة فيها، والتي كان عبد المنعم قد أعدّ نفسه لتحليل عواملها، لا بالتنظير فحسب، ولكن برصد مايلوح في الآفاق من تحولات جذريّة في العقليات والممارسات. فلم يكن في الساحة من هو أكثر منه جدارة بشغل منصب وزير المالية والتخطيط في حكومة بلده. واستمرّ يوجّه الاقتصاد المصري، على المستوى الحكومي لمدة عشر سنوات، من سنة 1954 إلى سنة 1964؛ فأهّل مصر لأن تكون رائدة في الدعوة إلى تغيير المعادلات الفاسدة التي كانت الثروة العالمية توزَّع بمقتضاها على الشعوب، ينال منها ما نسمّيه اليوم بالشمال حصة الأسد، ويقنع الجنوب بالفتات. ونحن نعلم جميعا أن مصر الخمسينات، التي كانت جماعة من أبنائها البررة المخلصين قد تولّوا أمرها، كانت هي السبّاقة إلى إيقاظ الجنوب من سباته ؛ فعملت على إنجاح مؤتمر «بوندونڭ» سنة 1955. ولم يمض على مؤتمر «بوندونڭ» إلا عام واحد حتى بادرت مصر

إلى سنّ طريقة ثورية في الكفاح ضدّ القوى المهيمنة، فأممت قناة السويس، وبرهنت على أن الحقوق الاقتصادية، شأنها شأن الحقوق السياسية، لاتنال بالتوسل والاستعطاف، ولكنها تُنتزع انتزاعاً. فكان لتأميم قناة السويس دويّه الذي سجّله التاريخ، وكانت له فائدته الاقتصادية التي دوّنها الوزير الشاب عبد المنعم القيسوني في سجلّ موازنات بلده؛ وكأني به يحتفل بعيد ميلاده الأربعين وهو يناجي نفسه قائلا لها : «تقبّلي قناة السويس هدية بهذه المناسبة !» وظلّ عبد المنعم يخطط للاقتصاد المصري بذكاء، حتى فطن ان الاقتصاد المصري جزء من كل، وأن ذلك الكل هو الذي ينبغي له أن يتحرّك، ويعمل من أجل كسب القوة والمناعة؛ ذلكم الكل هو الاقتصاد الثالثيّ تذكروا، أيها السادة، أن مصر هي التي دعت إلى عقد أول مؤتمر تدارست فيه الدول النامية قضاياها الاقتصادية. كان ذلك بإيعاز من عبد المنعم القيسوني؛ فانعقد المؤتمر بالقاهرة، سنة 1962، وترأسه الفقيد. فكان لعمل المؤتمرين صداه المتوقّع على الصعيد الدولي،إذ شعر العالم المصنع المحتكر لأسباب الاغتناء بأن عهد الاستبداد المطلق بأمور الاقتصاد قد ولّى، وأن الحوار أصبح ضرورياً. فنتج من ذلك انعقاد المؤتمر العالمي الأول للتجارة والتنمية، الذي احتضنته «جينيف» سنة 1964، تحت إشراف الأمم المتحدة، وبرئاسة.. عبد المنعم القيسوني. وفي السنة نفسها عُيِّنَ المرحوم نائبا لرئيس وزراء مصر، وظلّ لمدة سنتين أخريين يفتي حكومة بلده كل فتياء صالحة لانعاش الاقتصاد ثم اعتزل السياسة سنة 1966، ولمدة عقد كامل. والغالب على الظن أنه أحس أن كارثة 1967 واقعة؛ والغالب على الظن أنه حاول قصارى جهده أن يدرأ وقوعها، ولمّا لم يُعمل بنظره انسحب، وعلى كل حال من الصعب أن يوجد تعليل آخر لانعزاله ذاك المفاجىء. وسنراه يعود إلى المنصب نفسه، منصب نائب الوزير الأول، بعد عشر سنوات. لما ؟... لأن ما سُمِّي شططا بأزمة البترول أثار بين الشمال والجنوب جدالاً عنيفا كان يستلزم من الجنوب تعبئة الخيرة من مفاوضيه المحنكين ومتخصّصيه في شؤون التبادل. ومرّةً أخرى شدّ عبد المنعم القيسوني أزر العالم الثالث وأسهم إسهاما وافرا في تلقين الشعوب النامية أساليب الدفاع عن النفس في نطاق الصراعات الكلامية التي يطمع الباطل في خضمّها أن ينتصر على الحق، ما لم تندحض براهينه الزائفة.

ماهذا، أيها السادة، إلا بعض ما أنجزه عبد المنعم القيسوني من الأعمال الجليلة في الحياة الدنيا، تلكم الحياة التي لأيُبلى بها الناس إلا ليعلم أيّهم أحسن عملاً. ولقد كان من وقع فَعال المرحوم أن انتشر صيته، واعترف له بالمقدرة في مشارق الأرض ومغاربها، ورُفع اسمه بالذكر الحسن إلى علم جلالة الملك الحسن الثاني، منشيء أكاديميتنا وراعيها، فأبى نصرهُ الله إلا أن يعيّنه عضواً في هذه المؤسسة الفتية الفريدة من نوعها. ونعم ما صنع جلالته، لأننا تمكّنا، نحن المغاربة، كما تمكّن زملاؤنا المشاركون، من معرفة الإنسان عبد المنعم؛ وماكنّا من قبل نعرف إلا الوزير القيسوني. فرأينا في الرجل من الخصال الحميدة ما حبّبه إلى قلوبنا، ولمسنا في نفسه خيراً وكرماً. لقد كان، رحمه الله، بشوشا، رغم ما مرّ به من الأيّام العصيبة في حياته، ورغم أنه كان يشتغل في ميدانٍ تدعُو أوضاعُه الناس عادة إلى لزوم الكآبة. وكان عالي الهمة، لم يكسب جاهاً ولا مالاً إلا خدم به الصالح العام. كان ميّالا بطبعه إلى إيثار الجماعة ونكران الذات. لقد بعث، رحمة الله عليه، لما أقعده المرض، باستقالته إلى أمين السرّ الدائم لأكاديميتنا، معلّلا طلبه بقوله : «لن أنسى أبداً الإخوة الأفاضل أعضاء الأكاديمية الذين لمست فيهم دائما العلم الوفير، والفضل الكبير، والخلق الكريم. ولكنّ استمرار حضوري الاجتماعات، وأنا بهذا الوضع، سيكون فيه إزعاج بالنسبة إليهم... ». ولقد كان الرجل، بالإضافة إلى هذا دائم التفاؤل، يدعو إلى الوئام والتوافق بين الأمم والشعوب. لاتزال نبرات صوته تجرس سمعي، وهو يلومنا في لطف على نزوعنا إلى التبرّم من الأوضاع الاقتصادية السائدة في العالم؛ لأأزال أسمعه يقول : «لمست أحيانا، خلال الاستماع إلى الدراسات التي تقدّم بها بعض الإخوة، أن هناك شعورا بالتشاؤم الشديد حول العلاقات الاقتصادية الدولية بين الشمال والجنوب، أو بين الأغنياء والفقراء... إني لا أنكر أن الأوضاع الحالية شديدة الصعوبة، ولكني أرجو أن لايؤدي ذلك إلى أن نفقد ثقتنا بأنفسنا...». والسرّ في تفاؤل عبد المنعم القيسوني، وفي تواضعه، وبشاشته، وصبره على المكاره، السر في ذلك كلّه، كان هو إيمانه القويّ بالله. لقد جاء في آخر رسالة أرسلها إلى أمين السرّ الدائم لمجمعنا مايلي : «إن الله العليّ القدير، بعد أن غمرني سنوات طويلة بفضله وكرمه، وبعد أن مكّنني من خدمة بلادي ومن المساهمة في خدمة كثير من الشؤون الاقتصادية العربية والدولية، أراد

أن يختبرني بما أصابني من بلاء. ولكن عطفه وفضله وكرمه عزّ وجلّ، مازال يغمرني».

انظروا كيف قرن الفقيد، في الحديث، بين ذكريات السرّاء وفواجع الضرّاء، في طمأنينة، وهو يعاني أشدّ الآلام، ولم يغفل عن حمد خالقه وشكره على الحالين كلتيهما. ذلك والله هو خلق المؤمن الراسخ في الإيمان، خلق الإنسان الربيط الجأش الذي لاتبطره نعمة ولا تدهشه نقمة. لقد عاش عبد المنعم مؤمناً بالفعل، لم يتهافت على حطام الدنيا. فإن رقي إلى الدوائر السياسية العليا، فمن مراقيها المشروعة، مراقي الجدارة والاستحقاق، وإن ولج المحافل الدولية، فمن أبوابها الواسعة التي يرحّب عندها بأصحاب المهارات والكفاءات؛ ومات عبد المنعم مؤمنا، لم يرعه شبح الموت، ولم تنسه البليّة أن نعم البارىء لاتعدّ ولاتحصى؛ فكان ممّن يعبرون الدنيا ولا يعبرونها. أفرغ الله عليه شآبيب رحمته، وأسكنه فسيح جنانه، ورزق أهله وذويه كل صبر وجميل؛ إنه سميع مجيب. والسلام عليكم، ورحمة الله تعالى وبركاته.



ACADEMIA

Revue de l'Académie du Royaume du Maroc

N° 5 - Rabiâ II 1409 - Décembre 1988

Dépôt légal auprès de la Bibliothèque Générale et archives N° 29/1982

Académie du Royaume du Maroc
Avenue Al-Imam Malek (Souissi)
B.P. 1380 Rabat — Maroc

LES MEMBRES
DE L'ACADEMIE DU ROYAUME DU MAROC

LES PUBLICATIONS DE L'ACADEMIE

I - Collection «Sessions»

- «Al Qods : Histoire et civilisation», travaux du thème de la session académique de Mars 1981.
- «Les crises spirituelles et intellectuelles dans le monde contemporain», travaux du thème de la session académique de Novembre 1981.
- «Eau, nutrition et démographie», 1ère Partie, travaux du thème de la session académique d'Avril 1982,
- «Eau, nutrition et démographie», 2ème Partie, travaux du thème de la session académique de Novembre 1982.
- «Les potentialités économiques et la souveraineté diplomatique», travaux du thème de la session académiques d'Avril 1983.
- «De la Déontologie de la conquête de l'espace», travaux du thème de la session académique de Mars 1984.
- «Le droit des peuples à disposer d'eux-mêmes», travaux du thème de la session académique d'Octobre 1984.
- «De la conciliation entre le terme du mandat présidentiel et la continuité de la politique intérieure et étrangère dans les Etats démocratiques» travaux du thème de la session académique d'Avril 1985.
- «Un trait d'union entre l'orient et l'occident : Al-Ghazzali et Ibn Maimoun», travaux du thème de la session académique de Novembre 1985.
- «La piraterie au regard du droit des gens» travaux du thème de la session académique d'Avril 1986.
- «Problèmes d'éthique engendrés par les nouvelles maîtrises de la procréation humaine», travaux du thème de la session académique de Novembre 1986.
- «Mesures à décider et à mettre en œuvre en cas d'accident nucléaire» travaux du thème de la session académique de Juin 1987.
- «Pénurie au Sud, incertitude au nord : Constat et remèdes», travaux du thème de la session académique d'Avril 1988.

II - Collection «Patrimoine»

- Al-Dhail wa Al-Takmilah», d'Ibn 'Abd Al-Malik Al-Marrakushi, Vol. VIII, 2 tomes, (biographies maroco-andalouses), édition critique par M. Bencharifa, Rabat, 1984.
- Al-ma'wa ma warada fi chorbihi mine al-adab», (apologétique de l'eau), de M. Choukry Al Aloussi, édition critique de M. Bahjat Al-Athari, Rabat, Mars 1985.
- «Maâlamat Al-Malhoune» 1ere et 2ème partie du 1er volume, Mohamed El Fassi, Avril 1986, Avril 1987.
- «Diwane Ibnou Fourkoune», recueil de poèmes, présenté et commenté par Mohamed Bencharifa, Mai 1987.

III - Collection «Séminaires»

- «Falsafat Attachriâ Al Islami» 1er séminaire de la commission des valeurs spirituelles et intellectuelles 1987.
- «Actes des séances solennelles consacrées à la réception des nouveaux membres». (1980 - 1986). Décembre 1987.
- «Conférences de l'Académie» (1983 - 1987). 1988.

IV - Revue de l'Académie du Royaume du Maroc

- «Academia», numéro inaugural relatant la cérémonie de l'inauguration de l'Académie par Sa Majesté le Roi Hassan II, le 21 Avril 1980, la réception des académiciens, ainsi que le discours prononcés à cette occasion et les textes constitutifs de l'Académie.
- «Academia», N° 1, Février 1984.
- «Academia», N° 2, Février 1985.
- «Academia», N° 3, Novembre 1986.
- «Academia», N° 4, Novembre 1987.

Sommaire
Contents
Sumario

Textes :

• Prospective et demainisme 13
Mohamed Aziz Lahbabi

• Islam et droits de l'homme 19
Mohamed Allal Sinaceur

• Media and Communication in Africa : The Weight of advanced technologies 31
Mahdi EL Mandjra

• Pénurie au Sud, Incertitude au Nord : Rôle de facteur humain dans cette situation (comment y remedier ?) 43
Mgr. Bernardin Gantin

• Prevención de desastres por fenómenos sísmos : La experiencia de la ciudad de Mexico 47
Pedro Ramirez Vasquez

• British views on the desert locust problem 59
Lord Chalfont

• **Abstract** 67

• **Activités de l'Académie** 93

1ère Partie

Textes

PROSPECTIVE ET DEMAINISME

Mohamed Aziz LAHBABI

a) Semblables et différents

Par vocation et par fonction, le demainisme doit s'appuyer sur un outillage intellectuel qui mobilise l'interdisciplinarité d'une part, et toutes les énergies de la personne (physiques, intellectuelles et spirituelles), de l'autre, pour appréhender le présent et affronter les défis de demain.

A cela, on pourra objecter que la prospective s'occupe déjà de l'avenir, et que le projet demainiste ferait double emploi.

La contre-objection consistera à rappeler que, étant nécessairement restrictive, la prospective se limite à des domaines précis et tend à être une science, non une philosophie. Selon son fondateur, Gaston Berger, elle est une recherche ayant pour objet :

«La prévision à long terme dans le domaine des sciences humaines»(1).

L'attitude prospective ne nous renvoie pas seulement vers l'avenir, «elle nous fait regarder au loin, ... la prospective est ainsi essentiellement l'étude de l'avenir lointain»(2).

C'est bon de regarder au loin, mais ne faut-il pas d'abord bien regarder de très près le tragique vécu présentement, et rechercher comment le dépasser en réhumanisant les hommes et le monde ?

Ce tragique, cette grande misère humaine, est trop flagrante, surtout dans le Tiers-Monde.

Le demainisme tente de réfléchir sur ce que nous voulons faire de demain, un demain pour tous les peuples, et dans tous les domaines. C'est le devoir de la condition humaine considérée comme un champ de potentialités infinies. Imaginez un pianiste devant les touches de son instrument: toutes les musiques possibles attendent inimprimées dans l'espace vibrant qui sépare les doigts du clavier. A lui de reproduire ou de rompre la fatalité des écoles. La prospective essaie de deviner ce dont demain sera fait : cela suppose que demain s'inscrit

---

(1) Prospective, I, I, 4, 5.

(2) G. Berger, Encyclopédie française, XX, 54, 12.

dans la continuité d'aujourd'hui. Notre différence avec les prospectivistes, c'est que nous ne croyons pas au déterminisme sournois des statistiques, ou du moins, nous pensons que l'homme reste porteur d'espoir, c'est-à-dire qu'il peut, quand il le veut, écrire sa propre histoire, au futur.

Dès lors, en plus de la prospective, il y a lieu d'envisager une philosophie d'action, une philosophie qui devrait être tiersmondiste. Les problèmes les plus angoissants, actuellement, ne relèvent pas du seul plan économique ; ils sont tout autant moraux, psychiques, et spirituels.

C'est la grande différence entre philosophie et science. En tendant à devenir scientifique, la prospective étudie les causes techniques, économiques et sociales qui accélèrent l'évolution du monde moderne. Elle observe et analyse. Ne portant pas de jugements de valeur, elle ne saurait orienter nos actes. Au plus, elle prévoit des situations qui pourraient découler des influences conjuguées, des causes. Si elle orientait et jugeait, elle deviendrait normative, ce qui la rapprocherait de la morale (et, bien sûr, de la philosophie, en quelque sorte) et elle perdrait de sa scientificité.

D'autre part, la prospective est soumise, de par sa destination, à la régionalisation(3). C'est ce qu'affirment des prospectivistes eux-mêmes :

«Sans statistiques, sans données et sans études approfondies, au niveau national et au niveau régional, il est difficile d'arriver réellement à une prospective de l'action(4).

Le demainisme, au contraire, tend à l'universalisme et, en une première étape, à une multitude de régions ayant des facteurs structurels communs et des aspirations qui convergent.

Pour les Anglo-Saxons, la prospective concerne l'intelligence lorsqu'elle est orientée vers l'avenir. Ainsi, dans le langage courant, ce qui est prospectif est simplement le contraire de rétrospectif.

Objectivement, la prospective absorbée par ce que nous appelons «la présentologie», s'accouple à un projet futurologique. Si la visée prospectiviste est bien indiquée, le clivage entre présent et futur d'une part et le moment de rupture de l'autre, n'y paraît pas. Le regard peut continuer à aller le plus loin possible.

Quand fera-t-il retour sur lui-même ?

Il va de soi que lorsqu'il reviendra, les changements auront fait disparaître les points de repère, en Occident, alors que le Tiers-Monde, s'il demeure soumis

(3) Cette tendance régionaliste représente un obstacle pour la prospective étant donné que toute science a une visée universaliste.

(4) Abdelmalek Cherkawî, dans **Développement et prospective** (séminaire de Beni-Mellal, Maroc, p. 304. Ce travail a été édité par l'A.M.P. (Association marocaine de prospective) en 1981. Nous nous référons à ce livre en le signalant par Beni-Mellal (à cause de la proclamation qui a eu lieu à l'occasion de ce colloque dans cette ville.

au suivisme, n'aura pas bougé, il n'y aura aucune modification sur sa carte d'identité de vagabond dans une histoire où il est marginalisé. Toutefois, si le Tiers-Monde a raté le passé récent et le présent, il ne faut pas qu'il manque aussi l'avenir.

La prospective analyse le mouvant, le changement, sans créer du mouvement ou orienter le progrès, humainement et universellement. Sa référence est un certain mode temporel, un champ d'investigation conçu pour ceux qui possèdent, d'ores et déjà , une saisie réelle du temps et assument leur destin dans l'histoire moderne. Quant aux tiersmondistes, ils sont laissés pour compte, sauf quand on «nationalise» la prospective, c'est-à-dire quand on limite les recherches à un pays, à une nation, ce qui en restreint la portée scientifique. Les tiersmondistes ruminent leur misère, au degré zéro de l'humain, de l'économique et du technique : ils sont a-historiques.

Le mode temporel qui intéresse la prospective est un présent dans le futur, la projection du présent au futur. Cela fait penser à ce que les grammairiens arabes appellent le mud.âri(5). C'est une «duo-valence» si nous pouvons dire. Le «mud.âri» exprime donc le présent et / ou le futur sans être, de par lui-même, ni l'un ni l'autre.

La futurologie est un «mud.âri» considéré comme objet d'un connaître par des méthodes statistiques et par le sondage.

De telles méthodes sont-elles suffisantes pour construire le monde de demain ?

Se fondent-elles sur une idée militante en faveur de l'homme dans son universalité ?

A ces questions la réponse est négative.

b) Une base pour la prospective

Pour mieux asseoir le statut futurologique de la prospective, il faudra s'appuyer sur une philosophie demainiste adéquate (dans le sens large de demainisme). Sans cette philosophie, la prospective ne pourra opter que pour un futur possible mais vulgaire, une sorte de scénario où le déjà vu s'avèrera irréversiblement pareil à lui-même.

L'agir humain est toujours créateur du neuf, ce qui le rend universel, alors qu'en prospective, il est plus strict et précis en tant que fonction d'un dessein immédiat et localisé. La prospective ne milite pas pour une vérité, mais elle se met au service d'une efficacité :

«Raisonner d'une façon systématique, intégrante par rapport au développement»(6).

---

(5) Il signifie qu'une chose ou un fait se passe en ce prolongeant pendant que quelqu'un en parle, ou bien après qu'il en ait parlé, «le préterit».
Second sens : ce qui se réalisera / se passera...
Troisième sens : l'équivalent de l'imparfait «il indique que l'action dure».

(6) Hugues De Jouvenel, Beni-Mellal, p. 298.

Ainsi, la prospective pourrait être, dans sa visée, restrictive. C'est par rapport au développement qu'elle invitera au raisonnement. Toute l'humanité qui vit le sous-développement en est écartée. C'est l'effet inconscient de l'occidentcentrisme, même chez des gens de bonne volonté et très ouverts.

Dans une autre définition que donne un tiersmondiste, l'horizon change :

«Ma définition de la prospective est très simple : je réfléchis très loin pour prendre une décision maintenant»[7].

En employant le «je», Cherkawî entend «nous» «Marocains» ; il a intégré le sous-développement, en prend conscience tout en régionalisant la portée de la prospective comme science. En effet, selon Mahdi Elmandjra :

«L'avenir est toujours au pluriel... Quand on fait de la prospective, on parle de l'avenir... On ne peut pas la faire en la pensant en terme linéaire, on ne peut pas la faire en pensant qu'il n'y a qu'un futur possible»[8].

Le demainisme envisage ce pluralisme, du point de vue géographique et du point de vue historique. Par là, il englobe aussi la prospective dans l'ensemble des activités humaines.

Une autre difficulté demeurera : ce qui domine davantage la prospective, sont le probable et le flottement entre le possible et l'impossible. Ces notions sont respectables, mais à distance du déterminisme et du non-nécessaire. En prospective, aucune axiomatique ni postulats d'évidence rassurante.

La troisième remarque découle, d'ailleurs, des précédentes : les statistiques et les sondages, étant l'ossature de la méthode prospectiviste, ne peuvent à eux-seuls construire le futur ; ils ne peuvent même pas conquérir sûrement le présent pour dépasser la banalité du quotidien susceptible d'être analysé scientifiquement.

Bien sûr, la futurologie s'appuie sur le présent qui la conditionne en grande partie. Cependant, le présent, déjà défiguré par tant de crises et de guerres, ne laisse prévoir de l'avenir qu'une caricature indiscernable et effrayante.

Un des grands apports de la prospective est d'avoir pu établir des liens intimes entre le présent et le futur. Malheureusement les reflets respectifs du présent et du futur n'ont pas de place sur la carte du Tiers-Monde, la prospective n'a pas encore réussi à exprimer l'avenir d'un projet inspiré du présent des tiersmondistes, ni à donner au demain un sens où il ne s'épuisera plus dès son éphémère jaillissement. La grande exigence pour la prospective et le demainisme est de dégager le profil du présent, et surtout de l'avenir, un avenir pour tous.

Une dernière remarque. Elle est plutôt méthodologique.

Etant elle-même une approche (précisément méthodologique), la prospective

---

(7) A. Cherkawî, Ibid, p. 304.

(8) Ibid, pp. 8 - 9.

devra être soumise à une réflexion critique, non seulement quant à ses visées, mais aussi quant à ses procès. En effet, comme elle laisse l'imagination s'exprimer très librement, ne risque-t-elle pas de trop coller à l'utopie s'éloignant du déterminisme et s'ouvrant largement sur le contingent ?

Lorsque, phénoménologiquement parlant, la prospective utilise l'analyse intentionnelle et réhabilite le subjectivisme, elle s'engage sur une voie qui la rapproche davantage de l'art que de la science[9].

Ce sont là, nous semble-t-il, le statut et le rôle de la prospective. La distingue donc du demainisme surtout le manque de souffle humain universel qui lui permettrait de se libérer de l'égocentrisme occidental. C'est pourquoi nous souhaitons voir se prolonger la prospective par une collaboration avec une philosophie où l'homme (tous les hommes) retrouvera sa place centrale et référentielle par rapport à tout acte et à toute pensée.

Ce qui précède ne diminue en rien la valeur intrinsèque de la prospective. C'est une jeune science, encore en sa période héroïque, et elle s'impose déjà à toutes les recherches et planifications. Il lui reste à expliciter la philosophie qu'elle devrait impliquer afin de ne pas subir le sort d'autres disciplines scientifiques qui ont été récupérées, orientées et manipulées par des pouvoirs politiques et militaires, ou confisquées par les Grandes Puissances.

Réquisitionnés, une science, une technique, un art perdent leur déontologie. L'objectif de toute activité humaine, une action n'a de sens, ni de valeur, que lorsqu'elle vise à s'universaliser, ou du moins, à être universalisable.

«innamâ el a 'mâl binniyât» (les actes ne sont validés que par l'extension qui les soutend)[10].

c) Rompre ou ramper

Le demainisme ne prétend pas être une science ; c'est une philosophie en rupture avec les philosophies classiques, académiques et universitaires.

Deux caractéristiques le spécifient :

- Il est tiersmondiste (d'où ses rapports avec le sous-développement) :

- Il tend à s'articuler sur l'interdisciplinarité.

On relèvera peut-être une contradiction entre ces deux caractéristiques puisque toutes les disciplines sont monopolisées par l'Autre, le Tiers-Monde ne peut maîtriser aucune discipline, à plus forte raison l'interdisciplinarité.

Il s'agit de prendre conscience de cette contradiction pour la mieux prendre en charge. Cela revient précisément à dire qu'il faut se battre afin :

- qu'on alerte les consciences sur tout ce qui ne marche pas, ou marche à travers des tempêtes, à l'aventure ;

(9) Le demainisme ne court-il pas lui aussi les mêmes risques ?

(10) Hadîth (un dire) du Prophète de l'Islam.

- qu'on s'aperçoive que l'écrasante majorité des naufragés dans le présent se compose de tiersmondistes ;

- qu'on pousse ceux-ci à tendre vers autre chose, puisque le présent ne leur appartient pas ;

- qu'on assume un engagement orienté vers des principes et des valeurs communs à l'ensemble de l'humanité (ce qui implique le rejet des modèles existants déviés et déviateurs).

Cette quadruple tâche implique un nouvel esprit et un engagement catégorique qui pousseront les tiersmondistes à rompre avec tout ce qui est. Sans quoi, toute projection du présent ne peut que contaminer le futur par des désordres et des faillites. Ne pas projeter le présent sur l'avenir, encore moins le futur sur le présent. Anticiper, mais en fonction de scénarios à étudier selon la perspective de ce qu'on veut devenir, non de ce qu'on est. Sinon, le monde de demain serait pis que celui d'aujourd'hui. Bien sûr, on devra tenir compte des facteurs et paramètres qui seront présents, au moment décisif de la rupture. C'est pour la prévision de ces éléments que la prospective jouera à plein et mobilisera sa dynamique créativité, à l'instar des autres disciplines.

En inventant son point de chute, en choisissant et les modèles et le moment de la décision cruciale, le Tiers-Monde accomplira l'aventure salvatrice et forcera le destin à changer de signe. Toutes les révolutions, réformes, découvertes et inventions ont d'abord été des aventures, des utopies qui, par leur audace, ont permis à l'Histoire de brûler des étapes décisives. La rupture est d'autant plus aisée pour le Tiers-Monde qu'il n'est pas encore encombré par le machinisme, la grosse industrie, ni englué dans les structures sociales et les mœurs qui en découlent. La mentalité tiersmondiste demeure disponible, apte au neuf, étant libre des surcharges forgées par les concurrences, les trusts et les monopoles. Pas de bagages stabilisateurs sur le dos, les tiersmondistes seront bien lestés pour la rupture qu'ils auront à accomplir. Sans doute y aura-t-il quelques dégâts et angoisses, mais c'est la rançon nécessaire ; «le jeu en vaut la chandelle».

ISLAM ET DROITS DE L'HOMME

Mohamed Allal SINACEUR

Ce serait commettre une erreur de croire que la marche de la culture et le progrès naturellement bienveillant règleront la question de la liberté de l'homme et des droits. Le respect universel des droits de l'homme ne pourrait être sauvegardé si chaque culture et chaque nation n'offrent, dans leurs racines mêmes, les défenses qui les protègent. C'est dans la mesure où chaque culture permet à chaque nation ou ensemble de nations qui s'en réclament, de préserver le respect de ces droits, que les nations trouveront elles-mêmes les ressources et les moyens d'une vie à l'unisson de la communauté mondiale, d'une libre conformité aux valeurs universelles qui fondent les relations entre les pays et les Etats et donnent tout son sens à l'idée de communauté internationale. Et c'est également dans la mesure où la comptabilité entre l'universelle exigence de l'homme et ses expressions culturelles diverses, entre la variété des langages et leur invariant axiologique fondamental, est mise à jour et approfondie, que la défense de ces droits, dont l'universalité éthique engage tout homme et toute communauté, se place au-dessus des frontières nationales, devient l'objet d'une coopération dont les préoccupations ne sauraient être considérées comme une ingérence dans les affaires intérieures d'un Etat, mais comme l'accomplissement d'un devoir éthique concernant une question qui n'est du ressort d'aucun Etat comme tel, mais de celui de l'ensemble des hommes pour une cause qui s'identifie à celle de tout homme en tant qu'il est (tel) homme. C'est donc à cette problématique que l'Islam, comme message révélé, comme culture et comme civilisation, apporte son propre éclairage et sa propre justification. Rien de plus étrange à cet égard, ni de plus néfaste à la cause, que la propagande qui fait des droits de l'homme une conception propre à l'Occident, impropre à l'Orient, inconnue à l'Islam, comme vient de le répéter un vieux colonial en ces termes : «Il ne s'agit pas dans l'Islam, d'égalité ou de respect de la dignité de l'homme. Chez les Musulmans, cette notion de droits de l'homme est remplacée par les droits de Dieu et les devoirs de la communauté responsable devant Dieu. Nous, nous avons laïcisé la notion chrétienne de personne, assortie du poids redoutable du salut individuel, pour en faire «les droits de l'homme». Il faut bien voir que cette notion est liée à notre civilisation et n'existe dans aucune autre...». Etrange conception qui fait des droits de l'homme une ethnothéologie, ce que l'Islam, en accord avec le principe du respect universel de l'homme en vertu de son essence d'homme, infirme dans son enseignement

authentique, comme dans ses sources fondamentales. Cet enseignement conforte, sur ce point comme sur tant d'autres, ce que doit être une éthique universelle des droits de l'homme au sens de l'Islam, que chaque déclaration exprime, qu'aucune n'épuise, non pas en raison du fait qu'il en détiendrait le seul langage absolu, ce que tout musulman a le droit de croire, mais pour cette autre raison qu'aucun langage humain ne peut épuiser des valeurs d'une signification infinie, incommensurable avec tel ou tel système d'énoncés finis. C'est pourquoi nous examinerons successivement les raisons modernes en faveur de l'adoption par les Etats musulmans de la Déclaration universelle des droits de l'homme, les raisons théologiques qui rendent cette attitude possible, et enfin la hiérarchie des valeurs propre à l'Islam et qui pose la question de l'originalité de son enseignement et celle des garanties des droits de l'homme dans le cadre des Etats musulmans actuels.

L'Adoption des droits de l'homme

Dans les faits, l'adoption de la philosophie des droits de l'homme, qui, en Europe, a accompagné la formation des Etats nationaux et territoriaux modernes, a précédé, en Islam, les constitutions adoptées après 1924, date de l'abolition du Califat (magistrature suprême de l'Islam dont les Sultans ottomans s'étaient présentés comme les titulaires depuis Abd-ul-Hamid 1er, fin du XVIIIè siècle). Paradoxalement, elle résulte des possibilités de ressourcement dans une tradition religieuse ancienne, la tradition de la Réforme et du retour aux «pieux ancêtres», réorientée par la pensée islamique renaissante un peu partout (avec le wahhabisme d'Arabie, la Senoussia en Afrique du Nord Est et des mouvements similaires en Egypte, en Irak, au Maroc, en Algérie et en Tunisie) dans des voies de recherche et de réflexion qui ont abouti à l'adoption des problématiques modernes de la philosophie politique, au rebours de la régression religieuse dominante, au nom de l'Islam vrai, porté par les musulmans, au dire d'un de ces penseurs, «comme une fourrure mise à l'envers». Et plus paradoxalement encore, c'est à partir du moment où le monde islamique, longtemps ancré dans les certitudes d'une culture réduite de plus en plus à une tradition juridique rigidifiée, se trouve engagé par la force des choses dans un processus à la fois de confrontation avec l'Europe dont l'expansion coloniale se heurte aux réactions vives des populations, et de mutations socio-culturelles qui suscitent des débats de plus en plus nourris sur les modèles politiques et culturels véhiculés par la civilisation scientifique et technologique moderne, que se développe, comme complémentaire du mouvement orientaliste adverse, un occidentalisme qui cherche à acclimater, dans les langues du monde musulman, les institutions politiques de l'univers européen. C'est donc essentiellement au cours des dernières décennies du XIXè siècle que se développe la pensée réformiste qui est en grande partie marquée par une problématique explicite des droits de l'homme. Celle-ci est reprise dans le cadre de la pensée islamique renaissante comme «ce que l'Occident a de meilleur». C'est par exemple le tunisien Khaïr ed-Din qui justifie l'intérêt aux institutions occidentales en ces

termes : «Evoquer les moyens qui ont conduit les Etats européens à leur suprématie actuelle, à la dignité et à l'autorité en ce monde, nous permet de choisir ce qui serait convenable à notre situation et propre à fournir aux textes de notre Loi soutien et contenu correspondants». Ce bien comporte trois fondements : la réforme de l'enseignement par laquelle peut être aménagé l'accès aux sciences et aux arts ; la réforme administrative par laquelle peut être rationalisée la vie sociale et économique ; les réformes juridiques et politiques par lesquelles peuvent être mis en oeuvre les moyens qui permettent de concrétiser la liberté. Les idées de la révolution française avaient par ailleurs fait leur chemin depuis la première moitié du XIXème siècle, non seulement par la suite de l'expédition égyptienne de Napoléon, mais encore et surtout par la multiplication des missions intellectuelles ou militaires qui ont fini par former une élite «libérale», principal truchement pour les idées modernes sur les libertés individuelles et l'égalité devant la loi. C'est donc à l'ombre de l'Empire ottoman qu'ont commencé à s'exprimer en turc et en arabe les idées principales qui véhiculent le concept moderne des droits de l'homme. Cependant, ce mouvement de fond s'organisait dans une atmosphère caractérisée par la volonté ottomane de réformes. C'est une période cruciale dans l'histoire des fameuses **«tanzimat»** qui réorganisaient les différents secteurs de la vie. Mais les porteurs directs d'idées occidentales se sont vite aperçus que les réformes ottomanes étaient conduites de manière à élargir les domaines réservés du Calife. Cette extension de pouvoir et d'autorité est le motif principal de l'orientation contradictoire du modernisme, tiraillé entre le conservatisme et des vues plus radicalement libérales. C'est ce qui conduit à introduire, dans le monde musulman, l'idée de nation.

De fait, que les idées exprimant les droits de l'homme soient islamiques de source, il n'en reste pas moins que les **Déclarations** historiques des droits de l'homme restent liées à l'émergence du concept de souveraineté nationale et d'Etat territorial. C'est ce qui manquait au monde musulman qui ne faisait que reconnaître dans ses traditions les principes des droits de l'homme, sans pouvoir les adopter formellement, dans les textes juridiques, ni les promulguer efficacement, car on avait besoin de leur support subjectif : l'idée de citoyen. L'évolution qui a conduit à la formation des nationalismes non-européens est complexe. Elle coïncide avec ce que l'histoire coloniale a appelé le **Réveil de l'Orient.** Autrement dit, comme l'a écrit un expert de cette histoire : «L'opinion que le vaste monde asiatique, depuis l'Arabie jusqu'au Japon, en passant par les Indes et la Chine, est un monde figé, aux formes immuables, qui seraient fixées après une civilisation millénaire et dans laquelle l'idée de progrès ne trouverait plus place, est aujourd'hui abandonnée et reconnue insoutenable». (De Kat Angelino, **Le problème colonial,** La Haye, Martinus Nijhoff, 1931, vol. 1, page 36 et sqq.). En d'autres termes encore, la modernisation du Japon ne signifie pas nécessairement l'abandon des traditions nationales. Elle signifie «un sous-courant puissant et unique», capable d'assimiler l'apport de l'Occident en tant qu'apport, mais qui reste spécifique dans le sens où toute conscience

collective est spécifique, où elle constitue une énergie nouvelle, l'énergie capable de fournir le support et le concours appropriés aux idées de personnalité au sens des droits de l'homme, de civisme, de liberté, de patriotisme, d'autonomie, de sécurité judiciaire et de progrès. Or, ce sont ces idées qu'on retrouve dans le monde musulman, mais associées désormais à la revendication nationale. L'avènement des revendications en termes de droits de l'homme apparaît confirmer qu'ils ne peuvent être dissociés de l'idée de patrie, de nation et de citoyen. Encore une fois, l'émancipation globale et politique semble une condition logique et chronologique de l'émancipation civique et, éventuellement, sociale. Ce n'est qu'un fait, mais qui achève la démonstration, en vérifiant empiriquement les liens conceptuels mis en évidence par la pensée moderne, entre l'Etat et le citoyen.

Ce ne sont pas les idées, mais **l'action fondée sur elles** qui caractérise l'arabisation - et en général - l'islamisation des idées des droits de l'homme. L'idée de nation apparaît d'abord comme l'ensemble des droits et des obligations qui constituent des liens entre les fils d'une seule nation. Mais l'idée de ce lien ne peut rester purement juridique. Son contenu émotionnel se développe dans l'idée littéraire de patrie (watan), tout en déployant son contenu politique et juridique, favorisé par l'impact international, souvent mal apprécié des acteurs qui le subissent. C'est Rifa'at al-Tahtâwi qui voit dans l'idée de patrie ce tissu formé par une seule langue, une seule souveraineté, une seule loi, une politique unique, l'Etat national, appelé par beaucoup de publicistes arabes actuels Etat «scientiste», apparaît comme la condition **sine qua non** d'un lien essentiel pour lequel il est légitime de se sacrifier. La nation (watan) implique la connexion, la consubstantialité entre elle et la citoyenneté, entre le watan et la mouwâtana. L'appartenance signifie ici «jouir de tous les droits reconnus, et le droit principal est la liberté totale dans la société». C'est dans la mesure où cette appartenance existe que les droits peuvent être revendiqués, opposés à une autorité. Parmi les libertés, Tahtâwi évoque la liberté de conscience, car il n'y a pas de liberté sans le respect de la liberté des autres, et par suite, de la liberté religieuse. Le lien avec l'Islam apparaît double : d'un côté, pour Kawakibi, la régression des sociétés islamiques est due au manque de liberté, au despotisme ; de l'autre, on pense qu'il y a parallélisme entre fraternité religieuse et fraternité nationale. Ce rapport fonde une laïcité objective du fait que le fondement de la fraternité se déplace et joue dans un domaine conforme à la religion, puisqu'il ne la contredit pas, mais susceptible d'être défini avec son aide, non nécessairement par elle. Or cette orientation est maintenue par le grand réformateur Mohammad ' Abdouh : Pas de patrie sans liberté. Et pas de patrie non plus sans tolérance, répètent d'autres réformistes. Donc pas de droits de l'homme sans Etat de droit. Mais cette idée est fondée sur un **hadith,** un propos du Prophète : «L'amour de la nation, c'est de la foi». Pour cette raison, la revendication des droits de l'homme, même lorsqu'elle n'impliquait pas la rupture de l'allégeance envers le Calife ottoman, comportait une revendication de principe : le droit à l'autodétermination, droit qui ne pouvait avoir de sens dans une conception non territoriale de l'Etat, telle que la conception islamique.

Sur ce fond historique qui est en même temps comme un a priori dans la formation de la plupart des Etats musulmans actuels, la Déclaration universelle des droits de l'homme ne pouvait poser d'autres questions que celles, d'interprétation, qu'elle peut poser à tous les Etats du monde. En revanche, là où la renaissance s'est faite en référence à l'Islam pur, comme dans le mouvement wahhabiste, l'argumentation, bien qu'implicitement en rupture avec le califat, et sans être une revendication nationale ne voit pas d'autre solution que la restauration de l'Islam des origines. Le wahhabisme suppose la même analyse sociologique que celle faite, après lui, par Snouck Hurgronje : «Dans presque tous les pays musulmans, la sphère des idées spirituelles où vit la population proprement dite renferme plus d'éléments d'origine païenne que d'éléments islamiques... il suffit de consulter les descriptions des moeurs et coutumes populaires et des superstitions vulgaires qui jouent le grand rôle dans la vie, pour constater que (...) même en Arabie, berceau de l'Islam, l'unité d'Allah se dérobe partout derrière une infinité d'êtres ou d'objets saints (...) les moyens indiqués par la loi pour obtenir la faveur d'Allah se trouvent ainsi supplantés par des pratiques antérieures à l'introduction de l'Islam» (La Hollande et l'Islam, 1915, p. 18). La doctrine et la vie en désaccord, telle est la situation qu'a produit l'éloignement des sources. Le retour aux sources résoudrait tous les problèmes, y compris ceux que pose l'incompatibilité entre l'Islam vécu et le progrès de la société. D'où la question, que nous devons examiner, des racines directes des droits de l'homme dans la tradition pure, qui conduit, à mon avis, à la même problématique, car la convergence entre l'analyse savante extérieure et la prise de conscience interne n'est pas fortuite, même pour des pays apparemment à l'abri de la fureur moderne.

Fondements islamiques de la problématique des droits de l'homme

Le but essentiel du Coran n'est pas de fixer un code, ni de fournir une Déclaration. Il ne peut s'agir de droits de l'homme que dans un sens très particulier, tout à fait neutre envers l'interprétation de leurs fondements. Son but est de transformer et d'orienter la vie humaine. Il n'envisage donc pas de poser des questions de nature abstraite, difficiles à résoudre ou insolubles. Mais nul n'oserait s'aventurer à agir en se basant sur un principe de conduite douteux. Sans doute, le Coran concilie-t-il les divergences de l'expérience, les leçons de l'histoire, et par là, il marque en lui-même une époque de rationalité élaborée. Mais cette élaboration reste liée à la formulation de principes concrets de conduite. Bref, la conscience coranique est couronnée par des commandements explicites ou implicites, fondés sur l'éveil de l'attention aux relations avec Dieu et avec la nature telles qu'elles déterminent des attitudes, des dispositions à agir, des actions, c'est-à-dire l'engagement des volontés pour abolir la distance, toujours menacée d'être maintenue («Vous deviendrez comme des ennemis les uns pour les autres» dit le Coran), pour réduire la tension entre l'idéal et le réel. Le raisonnement fondateur des droits de l'homme selon l'Islam ne peut donc procéder que par la référence à des indications et des incitations concrétisantes du Coran, ou, éventuellement, par leur application à des

situations qui se sont produites effectivement dans la mesure où elles se sont cristallisées comme conduites exemplaires. Autrement dit, fonder islamiquement signifie qu'on met en valeur les principes d'une pratique et ses tendances générales, définis en référence, non pas à un Etat, mais universellement, à des êtres, à des individualités en conflit, à des exemples, ce qui est essentiel et constitutif dans toute éthique, même d'inspiration purement philosophique. Cependant, ils doivent être susceptibles de s'approfondir en morale effective, c'est-à-dire dans les moeurs, par le respect de l'éthique du Coran. Mais la possibilité que l'homme demeure sourd à son appel donne le sentiment aigu d'un tragique de la vie que le positivisme juridique a tendu vainement à effacer.

Les énoncés équivalents aux droits déclarés figureront dans un texte indépendant qu'on trouvera plus loin. Mais, pour compléter les indications ci-dessus et les illustrer, je dois pour le moins mentionner quelques cas historiques. L'Islam apportait aux Arabes une idée tout à fait nouvelle par rapport à leurs moeurs : l'égalité entre les hommes,la piété, c'est-à-dire la crainte et l'humilité. C'est tenir un propos on ne peut plus spécieux que de voir dans l'Islam, comme l'a fait l'idéologie coloniale, malheureusement reprise aujourd'hui par certains médias, que «l'Islam, ce n'est pas tant l'égalité que le puritanisme, l'idée d'une vie simple et frugale», ce qui est, précise-t-on, le propre de l'«intégrisme» (Figaro-Magazine, l'Intégrisme : un nouveau puritanisme, 14 Juin 1986, p. 30). Or, l'Islam, c'est d'abord l'égalité et la critique explicite et répétée des excès, donc du puritanisme. Il dénonce explicitement **l'excès en religion,** car la démesure, ce n'est pas la piété, mais l'orgueil ou la folie. D'où la dénonciation systématique et ferme de l'orgueil païen et tribal, la création d'un nouvel état d'esprit qui fait que deux musulmans, quels que soient leur pays de provenance, arrivent plus vite à s'entendre «que deux membres de n'importe quelle fédération internationale». Dès lors, l'inégalité et les privilèges dûs à l'origine apparaissent pour le musulman comme un scandale. «Nous vous avons constitués en groupes et en nations». Le propos s'adresse à tous les hommes **-«pour que vous vous reconnaissiez»**, pour votre connaissance, reconnaissance et compréhension mutuelle. Mais à l'époque où l'exclusivisme agnatique était encore trop invétéré pour s'effacer devant l'universalisme de l'Islam, certains califes omeyyades n'avaient pas respecté ce principe. D'où l'action du grand omeyyade Ibn 'Abd-el-Aziz en faveur des «mawâli», musulmans d'origine non-arabe, parmi lesquels il investit notamment des juges, en répondant aux protestations en ces termes : «Si les mawâli s'élèvent grâce à leur travail et que vous trainiez le pied derrière eux, qu'y puis-je ?». D'autres ont suivi son exemple. La force du sentiment égalitaire promu par l'Islam comme un droit a continué tant et si bien à agir qu'elle amena la formation d'un véritable parti pour la mise en oeuvre et le respect de l'égalité au nom du Coran et de la Tradition. Ce sont «les partisans de l'égalité», pour lesquels le vrai noble est celui qui se distingue par la noblesse de son action, ce qui reprend le hadith, rien ne distingue les croyants, sinon leur piété. Il s'agit donc de principes revendicables et de droits opposables, même lorsqu'ils ne

liberté pour tous et l'abolition de l'esclavage des noirs résultèrent de ces luttes de libération, élargies désormais aux Philippines (1812), et par la suite, aux mouvements qui secouèrent la Chine et le Japon. **Le sol des colonies est désormais ouvert à la liberté et aux droits des peuples.** L'histoire est donc plus complexe, et non déterminée par la sacrosainte sécularisation.

Il faut rappeler tout cela pour comprendre la portée des principes de l'Islam. Sur le plan général, le racisme est exclu, vigoureusement combattu, dénoncé explicitement par le Coran et par la tradition du prophète. Un principe fondamental de liberté régit l'Islam à cet égard, au point que, lorsque ses juristes opéraient en société esclavagiste, ils avaient introduit, comme principe de droit, un principe permettant, non seulement de ne jamais rigidifier la situation esclavagiste en élaborant des formules juridiques qui lui correspondent, ou la cristallisent, mais d'exprimer l'exigence de l'Islam au plan même de la loi : Il s'agit de l'énoncé juridique qui dit que **«la loi a vocation de liberté»**.D'autre part, l'idée de salut de la personne existe, contrairement à ce que prétendent les experts coloniaux dont on a repris les idées récemment en jetant le doute sur la notion islamique de salut. Mais alors que cette idée est l'objet de divergences théologiques profondes dans le Christianisme, elle est unanimement admise par tous les musulmans, en tant que telle, dans toute sa complexité. Le salut, pour le musulman, s'acquiert par la grâce, et tout à la fois par l'œuvre, l'action. D'où l'idée d'individualité, suscitée, non par un appel direct à l'individu, «Il n'est pas donné à l'homme que Dieu lui parle directement» (Coran, XLII, 50), mais dans sa sensibilité même, il est affecté par cette présence. Le moi est donc poussé dans la direction d'un autre, vers un autre sujet. Mais cette affirmation du moi n'est pas un absolu, car, comment faire d'un mode de perception de soi un principe absolu alors qu'il résulte lui-même d'activités intellectuelles et organiques qui le dépassent ? C'est le fond de l'objection de Leibniz au subjectivisme cartésien. Le moi est un **fait**, non un principe. Bref, comme le soutient un théologien chrétien, on peut dire : «Nous possédons une connaissance du monde qui nous enseigne un Dieu de force et de puissance, qui envoie la vie et la mort avec autant de simultanéité que l'ombre et la lumière, et une révélation, une foi dans le salut»... «Suivre le Dieu du monde produit la morale de la lutte pour la vie», et (le) servir produit la morale et la compassion. Et pourtant, il n'y a pas deux dieux, mais un seul Dieu. D'une façon ou d'une autre, leurs bras s'entrelacent. Mais aucun mortel ne peut dire quand et comment ceci a lieu», un musulman ne peut qu'y souscrire, sans nécessairement adhérer aux images anthropomorphiques de Dieu, ni à une vision exclusivement tragique de l'individu. Ce que l'Islam récuse, c'est la tonalité unilatéralement pessimiste de la doctrine du salut. La raison ? C'est, écrit encore Iqbal, «L'enseignement du Coran qui «croit à la possibilité d'une amélioration de la conduite de l'homme et dans son contrôle des forces naturelles... la légende qui se rapporte à ce que l'on appelle la chute de l'homme (...) dans sa forme sémitique (...est..) épurée de son cadre phallique». Il n'y a aucune raison, ajoute Iqbal, de voir dans le jardin d'Eden (jannât), la désignation d'un paradis

supersensuel d'où l'homme est censé être tombé sur cette terre. La terre est certes une épreuve, mais non un lieu de tortures. Elle est source de profit. «Et pour vous juger nous vous mettrons à l'épreuve avec le mal et avec le bien» (Coran, XXI, 36). C'est pourquoi le Coran représente l'homme comme ayant accepté à ses risques et périls la charge de la personnalité, qui est la charge de la responsabilité. Mais cet homme reste une individualité unique : aucun homme ne porte le fardeau d'un autre. Mais le fond de cette individualité est inaccessible à la connaissance, ce que montre l'échec de toute volonté d'élucider l'idée philosophique de personnalité, souvent tentée dans la philosophie européenne. Elle reste une masse de confusions aussi bien pour la psychanalyse que pour la philosophie analytique anglo-saxonne contemporaine, ce qui n'interdit nullement de l'investir sur tous les plans, y compris biologique. Mais, sur sa fonction directe, le Coran disait déjà : «Et ils t'interrogent sur l'âme. Dis : l'âme procède de l'Amr (l'ordre) du Seigneur : mais quant à la connaissance, il ne vous en est donné que bien peu». (XVII, LXXXVII). Comme Hölderlin, un musulman peut penser qu'à l'homme est imparti peu de connaissance, mais beaucoup de joie. C'est une position d'équilibre, profondément humaniste dans son inspiration, et qui préserve le penseur musulman d'ériger en absolu l'un des pôles de l'existence. En revanche, de cette existence, il peut y avoir une expérience poétique et mystique dont les paradoxes révèlent la profondeur. Dans l'Islam, cette expérience mystique a été poussée très loin par al Hallâj. Son «Je suis la vérité créatrice» donne encore à penser. C'est une manière de souligner, dans le cadre de l'éthique de l'Islam, l'appel à une liberté créatrice, voire, de ne considérer la piété de l'Islam que comme cet appel. C'est la forme islamique d'un **cogito** particulier, celui de l'existence impliquée par l'interpellation.

L'originalité de l'enseignement islamique en matière de fondements des droits de l'homme exige des développements impossibles à satisfaire pleinement ici. Répétons d'abord que l'Islam ne peut être réduit à des énoncés simples, conçus dans le but de l'opposer au christianisme ou à d'autres philosophies, religieuses ou areligieuses. En revanche, il n'est pas inutile de souligner que la philosophie islamique des droits de l'homme inviterait en permanence à éviter deux écueils essentiels : l'individualisme excessif et le matérialisme simpliste. Par exemple, le souci de procréer à tout prix, ne peut conduire à un **droit d'avoir** l'enfant, fût-ce aux dépens de ce qui institue et constitue l'identité d'un individu. L'idée de toute-puissance dont dérive la volonté de puissance moderne peut être déshumanisante si l'acharnement à l'extension des droits oblitère le sens de l'homme. C'est précisément en quoi réside la nécessité de rapporter les droits de l'homme que peut aligner une «Déclaration» aux fondements pré-déclaratifs de ces droits.

En revanche, pour des raisons historiques et actuelles, on ne peut se contenter du recours aux fondements qui éclaire la réflexion et de la référence aux textes qui sont matière de foi, pour occulter, comme cela se fait souvent hélas, que les droits de l'homme ont vocation à l'exercice de ces droits et, par suite, que

ces droits n'ont pas de sens en dehors des garanties qui en permettent la mise en oeuvre et le respect effectif. En réalité, si, en réponse à l'attitude occidentale qui veut exclure l'Islam de l'aire culturelle où les droits de l'homme ont un sens, on doit rappeler, selon la vérité et l'équité, que le message monothéiste de l'Islam est, comme en beaucoup d'autres cultures, un message de tolérance et de respect non équivoque de l'homme, nous soulignons également que la référence à l'Islam et à ses idéaux clairs ne peut être complice du silence sur le non-respect des droits de l'homme en terre d'Islam et que la référence aux textes sacrés ne peut en aucun cas servir de chantage terroriste au voile de méconnaissance qui, çà et là, recouvre les droits. Quand l'homme est publiquement dégradé par des traitements cruels, quand la torture et l'arbitraire sont dénoncés par des organisations humanitaires internationales, quand la loi reconnue de l'Etat n'est pas respectée par l'Etat lui-même, quand la force se substitue au droit, quand le simple soupçon lève tous les droits qui protègent l'individu, quand la liberté de penser et le droit à la parole sont bafoués, quand l'habitude de la répression enlève jusqu'à l'envie de résister et ne laisse aux individus que les détours de l'humour et de l'ironie, la responsabilité n'est pas celle de l'Islam ni de la foi, mais des hommes, des régimes et des sociétés encore hésitantes, sur le seuil des libertés publiques. Quand cette situation existe, l'expliquer par l'inappropriation des droits de l'homme à l'Islam, c'est la consacrer. Les critiques qu'on adresse à l'Islam en tant que tel ne peuvent donc rien signifier sinon le fait qu'elles soutiennent le camp hostile aux droits de l'homme, dussent-ils nous venir d'idéologues occidentaux.

Par ailleurs, on peut considérer que le peu de résistance opposée de la part de la grande majorité des musulmans à la philosophie des droits de l'homme résulte de l'enseignement islamique qui prédispose à leur reconnaissance. La dignité absolue reconnue à l'être humain par l'Islam ne peut permettre à un musulman de s'opposer à l'adoption de l'article 1 de la Déclaration universelle des droits de l'homme de 1948 et des dispositions de ce texte qui vont dans le même sens. Cependant, cette raison négative s'approfondit dès lors que les sociétés islamiques s'organisent sur un modèle moderne. Il va de soi que l'organisation moderne, étatique-territoriale et constitutionnelle, entraîne les dispositions complémentaires qui obligent l'autorité à respecter les droits reconnus dans un Etat de droit. Quand l'Etat n'est pas guidé par un Imâm, ce qui est le cas de tous les Etats musulmans - qui sont tous modernes historiquement - les droits de l'homme doivent être humainement garantis. Ils exigent d'être inscrits dans le droit positif. Ils demandent un pendant au fiqh qui leur donne statut juridique reconnu dans le cadre des relations entre hommes, même si les motivations s'enracinent dans les profondeurs de l'enseignement spirituel permanent. Un homme qui a foi en l'Islam reconnaît naturellement le caractère méta-juridique et méta-politique des fondements des droits de l'homme, mais rien ne lui permet de méconnaître une philosophie politique non exprimée comme telle par l'Islam, mais compatible avec lui et susceptible d'être considérée comme la mise en oeuvre de ses propres principes

si l'évolution historique des pays musulmans avait permis la poursuite d'une philosophie des Lumières dont les principes humanistes ont éclairé l'action des premiers califes et de Omar II, mais à laquelle s'est substituée une logique du pouvoir bien connue et décrite avec réalisme et sans complaisance par Ibn Khaldoun. En effet, les principes de l'Islam, comme fondements des droits de l'homme, sans résulter d'une simple projection rétroactive des Déclarations sur des références saintes, indiquent l'inspiration qui doit orienter le mouvement de l'évolution, la pratique des droits de l'homme comme résultat de la rectification obtenue dans la dialectique entre la reconnaissance des Droits dans des Déclarations solennelles et la mise en œuvre progressive de leur respect. Les principes de l'Islam rappellent que ce respect ne peut être suspendu, comme ne peut être suspendu le respect général de la Loi.

L'Islam a élaboré une doctrine que nous avons explicitée ailleurs : c'est celle de la **fitra,** ou raison naturelle (v. Philosophical Foundations of Human Rights, p. 215). Cette raison naturelle est aussi nature universelle de l'homme, ce que l'anthropologie justifie. Elle est essentielle à une philosophie des droits de l'homme. Elle est, comme le pense l'Islam, coextensive à la nature de l'homme, homme de droit en ce sens profond. En effet, comme l'ont montré depuis longtemps A. Moret et G. Davy, «Les documents diplomatiques inaugurent des formules qui reflètent l'amitié des peuples et des princes : «n'avoir qu'une même pensée» (Inscription de Karnak), «n'avoir plus qu'un seul coeur» (Pap. Anastasi II, pl.II...), termes qui caractérisent à merveille l'évolution des esprits vers une sorte d'internationalisme. Il s'agit d'une orientation éthique dont on a maint exemple dans le Bouddhisme, dans l'idéal d'Asoka. Ces idéaux qui ont valeur d'incitation s'expriment dans l'Islam, avec vigueur, et dans le cadre d'un intérêt clair pour l'individu humain, et non moins clair pour l'espèce en tant que telle.

MEDIA AND COMMUNICATIONS IN AFRICA : THE WEIGHT OF ADVANCED TECHNOLOGIES

Mahdi ELMANDJRA

I remember very distinctly the importance which the African delegates to the XIth General Conference of UNESCO, held in Paris in the Fall of 1960, attached to the development of the mass media. That was the «Year of Africa» when independence was still very fresh and when the virtues of the freedom of expression and the role of communication in development were properly assessed against the background of a colonial period which has just ended.

Unfortunately this interest waned slowly although it was replaced, many years later, by a no less vital issue as that of the **New International Information Order.** There is no doubt that radical changes in an international information system, which **presently generates inequalities and maintains inequities,** are a basic prerequisite to any substantive transformation of the national African information and communication systems.

This being said, it is also a fact that the **African governments have not given information and communications the weight which they deserve as pillars of developmental policies.** Had they done so their leverage at the international level would have been much stronger because their concern for national policies and infrastructures would have been in harmony with their political and economic awareness of the North - South imbalances in these sectors.

Decision-makers in Africa have tended to concentrate on the political aspects of information and its use as a tool of government and not enough, if at all, on its economic, socio-cultural and technological functions.

This assessment does not in any way reduce from the importance of the international debate nor can it be used to argue against the need for urgent structural changes in the international information and communication order. Indeed, the report of the Sean MacBride Commission published by UNESCO in 1980, under the title MANY VOICES, ONE WORLD is a most lucid and courageous work which has greatly helped to sensitize world public opinion to the modern problematique of information.

Without the kind of reforms proposed in the above report, the Third World, in general, and Africa, in particular, will have tremendous difficulties in

surmounting the existing Northern hegemonism in these key areas. One more reason to undertake measures at the national level to activate such changes through policies in coherence with the recommendations of the MacBride Commission.

It is simply a matter of credibility. As will be seen from a quick survey of the development of information and communication in Africa, the arguments for such a credibility are not apparent.

In 1960 Africa had about 100 dailies with a total distribution of 1.5 copies per 100 people ; 350 transmitters with 2.5 radio receivers per 100 people ; 20 television transmitters with 0.1 receiver per 1000 people. **A little progress has been achieved in the last 25 years but the share of Africa of the World's media is still quite weak** as can be seen from the table below especially if we bear in mind the fact that Africa represents over 11 % of the World's population.

AFRICA'S SHARE OF THE WORLD DISTRIBUTION OF THE MEDIA :

Media	Year	Africa's share
Book Production	1983	1.8 %
Circulation of dailies	1982	1.5 %
Newsprint consumption	1982	0.8 %
Broadcasting transmitters	1983	4.2 %
Radio receivers	1983	4.0 %
Television transmitters	1983	1.4 %
Television receivers	1983	2.3 %
Number of cinemas	1983	1.5 %
Annual cinema attendance	1983	2.2 %
Telephones	1984	1.4 %
Mail traffic	1980	2.1 %
Expenditures in informatics	1985	0.3 %[1]

Note : these figures are based on those given in the UNESCO Statistical Yearbook (1985) which have been adjusted so as to include the Arab African countries in order to give a picture of the Continent as a whole. The figure concerning the telephones is taken from «Facts and Trends», Magda C. McHale, IBI, Rome (1985).

(1) The share of Africa within the total of the developing countries is only 5 % - See «Quelle informatique pour quel développement ?», Futuribles, Paris, June 1985.

These statistics give an overall picture of the appalling situation of the media and communication in the African continent. **Its compound share of the world's media is around 2 %.** This is one of the most significant indicators of underdevelopment. **It is not surprising that the total GNP of Africa represents less than 3 % of the World GNP** - there is a **direct correlation between these two figures.**

In fact the situation is worse than can be gathered from these figures because **information and communication technologies have undergone a real revolution and are rapidly transforming the world from a society based on production to one based on knowledge and in which human resources** and **information are gradually replacing raw materials and capital as generation of development.** Hence the weight and importance, for information and communications, of advanced technologies such as informatics, telematics, robotics, artificial intelligence, space technologies, new materials and even biogenetics.

The backwardness of Africa in these new fields is much more dramatic than the one in the traditional media. In the case of the latter its ratio of backwardness, as compared with the world average, is of the order of 1 to 6. When we move to the advanced information and communication technologies this ration climbs up to 1 to 60 or more. In these areas Africa's weight is either non-existent or insignificant except as a minute but slowly developing market.

To fully appreciate what this information revolution is about we need to examine a few basic economic facts which in turn can help to understand the political and socio-cultural implications for Africa :

* **The information industry and its related services has become the largest industry in the world with** a turnover which exceeds $ 200 billion dollars ; in the year 2000 it will represent **40 % of the world industrial production** ;[(2)]

* **it accounts for 60 % of the GNP of the United States** and for over **55 % of the total GNP of the members of the European Economic Community** and it **employs over half of the working population of the industrialized world.**[(3)]

Information, «the difference that makes the difference», to quote Gregory Bateson, has indeed become both **a source and an instrument of political, economic, social, cultural and technological power** at **the national** and **international levels.**

The evolution of the world into a society of knowledge is transforming the theories and practices concerning economic and socio-cultural advancement. It calls for new models of development and a reassessment of the «expert» advice

---

(2) M. Elmandjra, «Communication, Informatics and Development» in Informatics, is there a choice ?, DEVELOPMENT, 1985/1, Society for International Development (SID), Rome.

(3) According to ATT, Informatics alone represents, this year, 4.7 % of the total GNP of the world - a figure which is expected to go up to 8 % in the year 2000.

which Africa has been receiving from international circles during the last 25 years.

The battle in the field of the media is being mainly fought on two fronts : advanced technologies and human rights (freedom of speech, freedom of the press, right to information, participation, privacy...). The first is the real «hardware» of the information revolution and the second is its «software». The weakness of the African performance on both of these fronts does not call for a demonstration.

The advanced technologies that have led to the wiping out of frontiers between the different media have become more and more interlocked. The world of the press, publishing, radio, television and cinema is the object of reconversions, readjustments and mergers which reduce every day the traditional boundaries between the different media.[4].

The information revolution has even changed the concept of «priorities» by bringing out the interdependence between all of the sectors of the economy. In Africa, for instance, the priority of priorities is obviously self-sufficiency in food. But this objective can not be attained by a narrow emphasis on agricultural solutions. It inevitably goes through a proper use of advanced technologies such as informatics, telematics, teledetection, biogenetics, data banks and seed banks. These technologies can no longer be considered as a «luxury». They have become a necessity for survival.

The agricultural labor force in the developed countries represents 11 % of the total labor force. This figure will go down to 6 % by the year 2000 (in the U.S.A. it will be around 2 %). In Africa the comparable figures are 66 % for 1985 and 50 % for the year 2000. In spite of this massive agricultural labor force Africa is finding great difficulties in feeding itself bècause, among other things, it is not capable of generating, collecting, processing, storing and retrieving information to manage its agricultural production.

Thus the limitations, if not uselessness, of notions such as those of «appropriate» technology. There is a natural tendency for the North to push for an «adaptation» of its obsolescent technologies and for their «appropriate» use by the South in meeting its «basic» and «primary» needs. We must understand and accept the fact that **information** and the advanced technologies which make it economically viable and indispensable for development **has become a new «basic need» of the South** for the satisfaction of its primary

---

(4) The mergers of publishing houses and radio and TV stations have become quite common in the industrialized countries. For example, press agencies and newspapers are moving into the information industry ; the New York Times makes more income from its computerized information services than from the sales of the newspaper ; Reuters devotes only about 20 % of its activities to its traditional service, the rest is taken up by its data banks and specialized information tasks.

needs and for ensuring a decent quality of life for its inhabitants. The North is not ready to let this happen because it wishes to maintain the dependency of the South.

How else, for instance, can we explain the intervention of a delegate from an industrialized country, at the annual session of the United Nations Information Committee (New York, July 1986), saying that «information is not as crucial as primary needs, «How else can we interpret the statement made the same month, by the Director of Science and Technology at the European Economic Community, that high technology projects in telecommunications, semi-conductors and information technologies with industrial applications could be ruled out ; especially when it is accompanied by a justification about the limited absorbent capacity of the South for advanced technology[5].

The challenge for Africa on the front of the advanced technologies is tremendous not only because of its present economic and scientific poverty but also because of its excessive balkanization - half of the African countries have less than five million inhabitants and only two have more than fifty millions. What the advanced technologies teach us is that you can not embark upon their development unless you have a minimum economy of scale and large budgets for R&D. Not a single African country meets these conditions on its own[6].

To count on what is called «transfer» of technology would be an illusion because technology becomes truly operational, scientifically, economically and socio-culturally only if it is mastered by its users and nurtured by local research. Technological advancement is an endogenous process - it is not a product which one buys on the market. Gadgets are sold but technology can never really be bought.

The only way out would be a serious scheme of inter-african cooperation within the framework of an intensive South-South scientific and technological collaboration. In the field of information and communications, as other advanced technologies, the European countries have initiated a number of joint programs such as FAST, ESPRIT and now EUREKA because they felt the need.

> «to overcome the fragmentary nature of the initiatives undertaken heretofore in the individual countries in order to arrive at scale economies which make it possible for it (Europe) to compete with the forces that are now dominating the international market and to regain lost ground.»[7]

---

(5) «While not denying that the EEC fears third world competition in some high technology areas, EEC officials insist that these countries lack the scientific capacity to absorb new technologies», p. 11 Inter Press Service (Special UN Service), SUNS # 1524, 19 July 1986, IFDA, Nyon, Switzerland.

(6) See M. Elmandjra, «The Financial Support of Research and Development within the Third World Countries», Inaugural Symposium, African Academy of Sciences, Nairobi, June 1986.

(7) IBIPRESS Bulletin # 90/6, 20 July 1986, IBI, Rome. In the meeting held in London in July 1986 the European governments approved 62 projects, within the EUREKA program,

If this is true of Europe, where several countries have individual GNP's greater than the total of the GNP of all the African countries put together, how much truer would it be for Africa. Before examining the possibilities for such a South-South cooperation we must underline the importance of human rights, public liberties and democratic participation as vital conditions for counteracting some of the negative effects and dangers of the information revolution. As a recent report of the National Institute for Research Advancement (NIRA) of Japan has put it,

> «The mechanical technology of the industrial revolution expanded man's physical capabilities ; electronics technology led by micro electronics during the micro electronics revolution will expand human intelligence itself and holds the potential to bring into being a new society full of intellectual creativity. At the same time, however, the shadows cast by technological progress may be thrown into sharper relief and may require prudent corrective measures on our part to counteract them.»(8)

In this context, human rights and public liberties in Africa are most needed to create an environment conducive for creativity, research and innovation, and which can enable citizens to express themselves freely and to **communicate in total liberty while protecting them from a variety** of national and international abuses. This is one of the essential conditions for catching the rocket of the Twenty-First century as well as for leaving the cart of the Nineteenth.

Human rights are not only a condition for the development and mastering of the advanced technologies in the area of information and communications ; they **also come actively into play in confronting, nationally and internationally, the ethical and deontological problems which these technologies generate such as abuse of power, equity,** right **of access** to information, **cultural identity** and **privacy** to cite just a few examples.

What information society do Africans want ? When are they likely to enter into as actors and not merely as passive and powerless spectators ? Are they being consulted in any way ? Are they anything more than a market for the industrialized countries ? How many African decision-makers take the issue of information and communications seriously enough to tackle it nationally or regionally ? How long will it take before we understand the extent to which our economic development and social well-being have become dependent upon modern information and communication technologies ?

The first and only international meeting of African ministers of information held so far was the one organized by UNESCO in Yaounde in July 1980. If

= representing over $ 2 billion dollars. The top priority was given to those dealing with informatics and telecommunications.

(8) «Comprehensive Study of Microelectronics 1985», p. 16, NIRA, Tokyo (1986).

one wishes to have an indication of the speed at which things pertaining to information and communications move, one only has to read the recommendations of this meeting, most of which were quite pertinent six years ago but very few of which have much to do with the issues at stake today.

The Lagos Plan of Action approved at the first African Economic Summit (1979) paid almost no attention to the media and the information technologies. it had a section devoted to «transport and communications» (Chapter VI) in wnich transport represented 94 % of the investment foreseen and transport 6 %[9].

The United Nations General Assembly proclaimed the «Transport and Communications Decade for Africa 1978-1988». The U.N. resolution was adopted by the African Heads of State at the Monrovia Summit (1979). The Decade was included in the Lagos Plan of Action as we have seen above but the big mistake was to count on an international financial assistance which never materialized - a valid excuse for inaction.

Information and communications have been forgotten from the African agendas. The most recent example of this is to be found in the «Africa's Priority Program for Economic Recovery 1986-1990» approved by the Special Session of the U.N. General Assembly convened in May 1986 to consider «the critical economic situation in Africa». The document contains a short sentence referring to the «exchange of information» in agriculture within the framework of South-South cooperation.

This is an indication of the priority given to information and communication in a program of 128 billion dollars over 5 years. Yet the 43 word title of the agenda item employs expressions such as «comprehensive and integrated manner» and «long-term problems and challenges facing African countries»[10]. The challenge has been reduced to how to feed Africans by traditional means and with international charity !

The bare truth is that Africa has not yet woken up to the real challenge of the contemporary world - the one of the advanced technologies in general and those dealing with information and communications more particularly. This is why it is increasing every day the distance it will have to cover to catch up not only the industrialized countries but also a few of the developing ones which have become conscious of what is at stake.

A positive fact worth mentioning concerns two meetings organized by the

---

(9) The only reference to the media is to be found in Chapter XII «Women and Development» (para 320). The 6 % for communication were distributed as follows : telecommunications 3.5 %, broadcasting 2 %, postal services 0.5 %, Communications by satellite 0.07 %.

(10) See U.N. documents A/S-13/2 (19 May 1986) - Report of the Secretary General and A/S-13/AC.1/L.3 (31 May 1986) - Report of the Ad Hoc Committee approved by Consensus by the Assembly.

Intergovernmental Bureau for informatics (IBI) in Africa. The first one, held in Dakar in February 1982, was devoted to «informatics and development» and ended with the adoption of an important declaration on the subject. A year earlier the Council of Ministers of the Organization of African Unity (OAU), at its February 1981 meeting, had adopted a resolution (CM/Res. 837/XXXVI) inviting IBI to propose to the OAU informatics strategies and policies for the execution of the Lagos Plan of Action.

The second meeting had as a theme «Informatics and sovereignty contribution to the Plan of Action of Lagos». It met in Yamoussoukro (Ivory Coast) in March 1985. The later grouped a number of ministers, decision-makers and academics and was able to make a preliminary assessment of the problems facing Africa in the area of informatics as well of the urgent measures which needed to be taken.

As **the Yamoussoukro conference** March, 1985 was held under the honorary chairmanship of the Presidents of the Ivory Coast and Senegal who sent messages on that occasion, it **enabled informatics to be, for the first time in Africa, the subject of official public statement by Heads of States.** In his message to the opening session, President Felix Houphouet-Boigny said,

> «First of all, we need to face up to the fact that all of us in this continent have been basing our development efforts on theories that bear very little relation to our real situation or requirements... thanks to informatics, technological short cuts to development exist today and are within the reach of all... We must be sure not to miss this new opportunity and our first actions must be geared to ensuring that national decision-makers adopt an appropriate attitude toward it...»
>
> «In this last quarter of the 20th century, informatics lies at the interface between advanced technology and the sciences. We believe it can be instrumental in the achievement of the regional integration of national economies and in the consolidation of the sovereignty of the African countries[11].

The conference adopted a text known as the «Yamoussoukro Declaration» which has been widely circulated and created a permanent reflection group known as the «Group of Yamoussoukro» which meets periodically to examine the «state» of informatics in Africa. This group has **launched an initiative known as PACT (Projet Africain de Codéveloppement Technologique) which aspires** to become a kind of African EUREKA[12].

---

(11) See AGORA, N° 12, 1985/3, pp. 29-30, IBI, Rome. The final report of the conference has been distributed by IBI : «Informatics and Sovereignty, a Contribution to the Lagos Plan of Action», Rome 1985.

(12) Its most recent meeting was held in Libreville (Gabon) in June 1986 ; See P. Gaillard, «Une voie Africaine de l'Informatisation», Jeune Afrique N°. 1334, 30 July 1986, Paris.

Because of the rapid technological developments in information and communication the sovereignty of the African States is dwindling every day as their dependence on the North increases[13]. The main economic resources of Africa at present are its agricultural and mineral production. The constant value of these natural resources has been going down systematically for many years and will continue to do so with or without the agreements with the European Economic Community of the Lome type.

At the other end of the spectrum we see that the information and communication services based on advanced technologies are occupying a larger and larger place in the modern economies. There is no other alternative for those who seek economic and social development. This alternative has its rules : political will, emphasis on human resources ; high priority to Research and Development (R&D) ; highly performing information and communication systems and close regional cooperation. Information is slowly replacing raw materials and knowledge is becoming a substitute to capital.

The acid test for Africa will be its ability to launch a few major regional or subregional joint ventures in the areas of information and communication because as we have seen these areas call for a minimum of scale. It suffices to point out the fact that only one African country (Nigeria) has a GNP higher than the turnover of a firm such as IBM ($ 55 billions in 1985) and 20 African States have a GNP smaller than the R&D budget of the same firm ($ 3.15 billions in 1985).

Developments in these fields are so impressive especially those affecting digital communication technology[14] that inter african cooperation would not be sufficient by itself but it could pave the way for a more rational South-South cooperation with Asia and Latin America which have an important advance in the information and communication technologies as it is useless to count on a serious cooperation with the North in this area[15].

Underdevelopment, in our days, may simply be a consequence of the inability to generate, process, update, transform, communicate and share equitably productive information. This takes us a long way from the standard definitions of development as well as from the traditional concepts of information and communication. To harness information and communication for economic and socio-cultural development, Africa must first of all master the relevant advanced

---

(13) See M. Elmandjra, «Information and Sovereignty», ACADEMIA, N°. 2, February 1985, Academy of the Kingdom of Morocco, Rabat.

(14) An example is optoelectronics which consists in the use of photons instead of electrons. Among the breakthroughs expected in this area in the 1990's : a 1000 times faster transmission of large volumes of information and a transmission cost reduction (cable weight reduction from 130 kg per meter to 70 gr per meter). See NIRA Report, op. cit., pp. 44-48.

(15) See above, p. 8.

technologies, but it can not do so without the help of a large scale regional scheme and of South-South cooperation.

In a recent report, the United Nations stressed the fact that one of the main lacunas in South-South cooperation is the absence of any significant joint third world ventures in the field of advanced technologies. It also noted that regional cooperation in these areas, among professionals, was weak and limited[(16)]. The study was based on UNDP missions to Africa and Asia. Information does not circulate within the Third World and even less so between African countries.

The OAU, the UN Economic Commission for Africa (ECA), the International Telecommunications Union (ITU), IBI and other international institutions have attempted, during the last few years, to assist in the launching of some advanced information and communication programs and networks. These efforts have helped to assess the needs and potential of the African countries and to elaborate feasible projects such as PANAFTEL (Pan African Telecommunications Program) ; PADIS (Pan African Documentation and Information System) ; and the project of the African Teledetection Council to establish three sub-regional receiving centers to be connected with the satellites of the LANDSAT or SPOT programs.

The statistics of ITU indicate a very low level of transborder data flow between the African countries whether it be by telephone or telex, by cable or satellite, by analogous or digital transmission. Information about information and communications technologies in Africa and about their use is scarce and often incomplete[(17)]. The networks between african countries are almost non-existent and there are no real continental data banks in operation. They rely entirely on those of the industrialized countries and their transmission networks often at a prohibitive cost.

The Arab countries (of which 75 % of their total population is African) were well-intentioned when they initiated the ARABSAT project to improve their communications and information systems. Unfortunately they did not pay sufficient attention to the importance of financing research and development as part of the project. Out of a cost exceeding $ 200 million dollars nothing was foreseen for R&D either before, during or even after the launching of the satellites. Most of the problems which have arisen have to do with the «turn key» approach to technology. As we have already said one does not «buy» technology especially a space technology which has such a wide range of implications[(18)].

---

(16) Doc. E 1986-98 ; see also IPS SUNS # 1520, 15-7-86.

(17) An interesting survey on the flow of data in Africa was prepared by IBI for the 1982 Dakar conference mentioned above, see «La circulation des données en Afrique, diagnostic actuel et perspectives», doc. RR-DK/02, December 1981, Rome.

(18) See M. Elmandjra, «The Conquest of Space», Third World Quarterly, July 1984, London.

The increasingly heavy conditioning of information and communications by the advanced technologies does not raise only scientific and technological problems for the future development of Africa. Information technology is a value loaded field.

The advanced technologies necessitate and stimulate the developments of new mental structures and new socio-cultural values but these do not necessarily have to be the same as those of the Western countries. Otherwise the risk of cultural homogenization and politico-economic hegemony is great.

These technologies are in no way an obstacle to the nurturing of diversity as a product of innovation and creativity of the respective cultures of the world. They are the most effective tool to combat the prevailing cultural ethnocentrism of the industrialized countries through a reduction of the technological dependence of Africa.

The dilemma which the information and communications technologies raise is that they have become indispensable to the development process while simultaneously introducing a set of complex disruptions in the existing social and cultural patterns. This is where a full respect of the democratic process involving the whole population becomes a basic condition to technological progress if the latter is not to become counter productive. As the MacBride Report has put it,

> «The technological explosion in communication has both great potential and great danger. The outcome depends on crucial decisions and on where and by whom they are taken. Thus, it is a priority to organize the decision-making process in a participatory manner on the basis of a full awareness of the social impact of different alternatives[19].

The challenge for Africa is much more one of socio-political relevance and economic and cultural self-reliance than of imitative technocratic pursuits which can only lead to the thriving of underdevelopment. It is only if this challenge is met that Africans can begin to hope to develop and use properly the advanced technologies indispensable to a purposive, productive and satisfying utilization of information and communications by their people.

In one word, nothing is more political today than the advanced technologies and nothing more backward than politicians who do not wish to understand it and act accordingly - this is why their weight is so tremendous for the media and communications. This is also why it is not a matter to be left only to the specialists. The African specialists would be the first ones to gain from a serious political debate in Africa on this issue. That day Africa would have made a big step forward in its fight for dignity.

* * *

---

(19) Many Voices, One World, op. cit., pp. 258-259.

PENURIE AU SUD, INCERTITUDE AU NORD

ROLE DU FACTEUR HUMAIN DANS CETTE SITUATION : COMMENT Y REMEDIER ?

Bernardin GANTIN

1- **La Pénurie au Sud et l'Incertitude au Nord** sont les deux grandes réalités que les historiens retiendront pour caractériser notre époque car ils la jugeront sur son aptitude à répondre au défi de ce contraste qui a été largement provoqué par les comportements passés de l'humanité et nous en rendent responsables. Les systèmes que nous avons créés nous ont enfermés dans nos particularismes et nous ont empêchés de communiquer et d'établir cette civilisation solidaire que nous nous sentons obligés de construire si nous voulons répondre à notre vocation d'homme.

2 - Qu'il me soit également permis de dire combien j'apprécie que le premier point de notre ordre du jour soit un échange de vues sur la part des **facteurs humains** qui sont à l'origine du contraste de cette «pénurie» àu Sud et de cette «incertitude» au Nord que nous déplorons. Chaque crise de civilisation est en effet un signe donné aux hommes qui les invite à se dépasser ; c'est un appel à constater le mal dont nous souffrons en le considérant avec objectivité, sans passion mais avec esprit scientifique, pour concevoir des remèdes et avoir le courage de les appliquer.

3 - L'évocation du problème de la pénurie ne relève pas seulement de l'analyse froide des économistes. Celui qui croirait avoir cerné les divers éléments de cette question en démontant les mécanismes techniques et les situations de dépendance qui sont à son origine, n'aurait pas saisi la véritable dimension de ce phénomène et ignorerait le point central du défi qu'il nous porte. Les seules statistiques sur la pénurie alimentaire ne rendent pas compte de la réalité de la pénurie car elles sont incapables de traduire par elles-mêmes le tragique auquel elle confine. La litanie des pays de la faim de notre continent, l'Afrique, est longue. Les noms de l'Ouganda, de l'Ethiopie, du Mozambique, de Madagascar, de l'Angola, des territoires du Sahel... n'évoquent pas seulement la détresse de millions d'êtres humains ; ils sont comme autant de taches indicatrices des handicaps que l'Afrique doit affronter à l'aube du deuxième millénaire soit

que la faim ait réduit une population déjà trop rare, soit que trop de survivants souffrent de carences fondamentales qui limiteront leur capacité de participer au développement ; et cela dans un continent dont toute la tradition culturelle invite à célébrer la vie.

4 - Ainsi le défi qui se pose à nos générations n'est pas seulement technique ; il est par sa véritable nature d'ordre éthique. La question n'est pas seulement d'«aider» individuellement ceux qui sont dans la détresse, mais de créer des structures de coopération entre les uns et les autres qui soient porteuses de développement. Comme le soulignait tout récemment le Pape Jean-Paul II dans son Encyclique **Sollicitudo rei socialis** un «développement humain authentique» ne vise pas seulement la réalisation d'objectifs techniques ; il est orienté selon «cette réalité et cette vocation de l'homme envisagé dans sa totalité» (par. 29).

5 - La Bible apprend aux croyants que «l'emprise de l'homme sur les choses et sur les forces de la nature aurait dû s'exercer par un effet de la grâce divine au bénéfice et non pas aux dépens de la société humaine»[1]. Le premier constat qu'il nous est donné de faire est celui d'une infidélité de l'homme au plan de Dieu puisqu'au lieu du «libre épanouissement des forces, dans des conditions favorables aux progrès les plus étendus et les plus élevés»[2], nous voyons le monde trop souvent pris par l'angoisse là où l'installe la modernité et sombrer dans la misère partout où les valeurs de la tradition tendent de se perpétuer au contact de la civilisation industrielle.

6 - Il faut savoir regarder avec courage et lucidité la nature religieuse du contraste devant lequel nous sommes placés car il n'y a aucune raison que nous ne soyions en mesure de le dissiper à l'instar des générations qui nous ont précédés et sont venues à bout de difficultés au moins aussi considérables.

7 - L'on attribue souvent au décalage technique qui existe entre les pays du Nord et du Sud la persistance du maintien des inégalités structurelles du monde contemporain ; il n'en constitue pas la seule explication. Certes le processus qui entraîne le monde vers des connaissances nouvelles et des applications toujours plus étonnantes de la technique ne semble pas prêt de s'arrêter ni même de se ralentir. Les Etats du Sud, dépourvus d'une infrastructure de recherche et de moyens financiers et humains pour la constituer semblent donc condamnés à ne recueillir que les miettes du progrès, surtout s'ils sont préoccupés du bien de **tout** le peuple et soucieux de remédier à sa pauvreté ; ils sont alors tentés de privilégier quelques secteurs nobles de l'économie et d'abandonner, comme sous l'effet d'une fatalité, la masse des populations à son sous-développement. Sont-ils donc alors condamnés à n'être que des partenaires de seconde zone ces Etats attentifs au coût humain du progrès laissant les géants de la science, de la technique et de la recherche leur imposer la civilisation de demain ? Il faut se réjouir de ce que l'importance exagérée accordée aux facteurs techniques

---

(1) PIE XII Message au Monde. Noël 1956 1ère Partie.

(2) Idem.

et à une politique sélective de développement soit de plus en plus regardée aujourd'hui comme inacceptable et que la situation malheureuse de larges couches des populations soit regardée avec mauvaise conscience par les pays du Nord. Déjà le Concile se faisait l'avocat d'«une recherche adéquate et d'une réalisation plus efficace du bien commun universel» par l'instauration d'un «ordre» international nouveau «qui corresponde aux tâches actuelles, - principalement en ce qui concerne ces nombreuses régions souffrant encore d'une disette intolérable» (G.S. 84.1).

8 - Les facteurs économiques, techniques et monétaires ne sont pas, en effet, les seuls à freiner l'établissement de relations commerciales et d'échanges égales entre peuples aujourd'hui d'une richesse inégale.

C'est ici qu'intervient le facteur humain et cela à un double niveau :

Le niveau professionnel de l'éducation. Un effort sérieux a été fait dans nombre de pays pour donner à la jeunesse une formation professionnelle et supérieure qui lui permette de prendre en mains les postes de responsabilité dans les firmes et dans l'économie. C'est maintenant chose faite. Les pays dits en voie de développement disposent d'une élite médicale, juridique, scientifique, technique... qui leur manquait jusqu'à une date récente pour pouvoir espérer se développer. Cependant ces pays n'ont pas pour autant vraiment «décollé» entraînant tous les habitants et chaque habitant vers une satisfaction suffisante de leurs besoins essentiels.

C'est qu'il existe un **second niveau, spirituel,** de l'éducation dont on parle moins car il est très difficile à réaliser ; c'est pourtant celui où l'on se prépare à combler la différence de potentiel psychologique entre les pays en voie de développement et ceux qui sont industrialisés. Ceux-ci n'ont maintenu leur avance que dans la mesure où leurs populations sont entrées dans le système nouveau de valeurs que le capitalisme libéral a imposé. Le libéralisme économique n'est pas en effet une doctrine philosophique désincarnée mais une vision du monde qui assigne à l'homme un rôle à jouer dans lequel toutes ses pensées, ses actions, ses valeurs - en un mot le système - conditionne chacun à poursuivre le profit en vue de renforcer sa position dans la lutte pour le pouvoir ou pour jouir égoistement des avantages de la vie. Le socialisme marxiste a tenté de renverser ce schéma mais à un coût économique et humain où l'individu, de moteur du développement économique en devient le rouage et se trouve aliéné au service de la communauté.

9 - Le facteur humain doit donc intervenir dans les entreprises de coopération économique au niveau des valeurs et des fins et nous disons que l'homme, et non la puissance économique, politique ou financière des Etats, doit être le «mètre» (Jean-Paul II) selon lequel juger les politiques de développement.

10 - L'on entend dire encore qu'il faut créer la richesse et que le reste, l'amélioration des conditions de vie des populations suivra automatiquement. Il faut s'élever contre cette théorie, non seulement parce que les faits montrent

qu'elle n'est qu'une illusion, mais surtout parce qu'y céder serait s'écarter du dessein de bonté de Dieu sur l'humanité qui nous demandera au dernier jour ce que nous avons fait de notre frère[3]. Le progrès humain ne peut être que solidaire car Dieu nous rassemble tous dans un même amour. C'est pourquoi «les mesures inspirées par la solidarité et l'amour préférentiel des pauvres qu'exigent les circonstances et que requiert surtout la dignité de la personne humaine, image indestructible de Dieu créateur, image identique en chacun de nous, selon l'expression de Jean-Paul II[3], requièrent la collaboration de tous ; sans doute, dira-t-on, une telle affirmation a-t-elle été souvent répétée dans le passé ; mais ce qu'il y a de nouveau aujourd'hui, c'est qu'au lieu de recourir à des moyens de contrainte, «chacun de nous est appelé à prendre sa part dans cette campagne pacifique, à mener avec des moyens pacifiques, pour conquérir le développement dans la paix, pour sauvegarder la nature elle-même et le monde qui nous entoure[4]. Tel fut le sens de notre rencontre à Assise le 27 octobre 1986 avec le Cheikh Mohammed El Mekki Naciri et Monsieur Mohammed Hajoui - Taalibi. Si la victoire sur la pénurie et le développement sont le nouveau nom de la paix, il appartient de témoigner que celui-ci dépend, au-delà des mesures techniques indispensables, de notre générosité à «ouvrir nos coeurs à la réalité divine, au-delà de nous-mêmes, et à nos frères et sœurs en humanité»[5].

---

(3) Jean-Paul II Sollicitudo rei socialis par. 47.

(4) Idem.

(5) Jean-Paul II Discours de clôture à la réunion de prières d'Assise 27 Octobre 1986. Ed. de la Commission pontificale Justice et Paix 1987. p. 99.

PREVENCIÓN DE DESASTRES POR FENÓMENOS SÍSMICOS : LA EXPERIENCIA DE LA CIUDAD DE MEXICO

PEDRO RAMIREZ Vasquez

Las manifestaciones catastróficas de los grandes fenómenos naturales han infundido terror y sobresalto en los hombres de todos los tiempos.

En su afán por defenderse, por evitar efectos devastadores y aun por poder predecir un fenómeno, todos los grupos humanos desde hace miles de años han empeñado esfuerzos, cuando no inventado mitos o acudido a recursos mágicos y - desde luego - al uso de la ciencia y la tecnología disponibles en cada momento.

Mucho se ha avanzado en la época moderna en este camino, aunque los huracanes, las grandes sequías, las erupciones volcánicas y los sismos siguen golpeando con efectos de catástrofe a ciudades o regiones enteras del planeta.

Actualmente contamos con recursos para predecir el curso y la fuerza de un huracán y poder prevenir sus efectos. En el mes de septiembre de este año un programa preventivo aplicado adecuadamente en el Estado de Yucatán en México, evitó decenas de muertes cuando el huracán Gilbert, uno de los más violentos enlo que va de este siglo, asoló grandes zonas del Caribe. Allí donde no fue previsto su paso y no se tomaron medidas adecuadas, dejó una secuela de muerte y desolatción.

Los sismos, sin embargo, resultan más temibles para el hombre. Por su brutal, breve e impredecible presencia, siguen siendo un enigma. Parece que todavía nos queda un largo camino antes de que la comunidad científica pueda establecer con precisión, frecuencias, posibles fechas, zonas e intensidades de un sismo. Se trabaja en ello intensamente, en Estados Unidos y en otras partes ; baste recordar que en China, en lo qu va del siglo, 18 sismos han podido predecirse con razonable precisión y evitarse así efectos de muerte[*]. Pero mientras los casos que prodrímos llamar excepcionales puedan convertirse en métodos

(*) Zoltan Czerna, «Más allá de la Geología» en «Esto pasó en México», Edit. Contemporáneos, Pág. 21.

universales, las medidas generales de prevención, nacidas de las lecciones que nos deja cada sismo, pueden siempre perfeccionarse, para preparar cada vez mejor a la población, a afrontar una eventualidad tan indeseable como un sismo de grandes proporciones.

LOS SISMOS DE SEPTIEMBRE DE 1985.

El 19 de septiembre de 1985 un violento sismo sacudió a una extensa zona del centro y el suroeste de la República Mexicana. Eran las 7 : 19 horas de la mañana cuando la Ciudad de México, se estremeció dramáticamente. El fenómeno alcanzó 8.1 grados en la escala de Richter y llegó a sentirse en áreas tan lejanas como la ciudad de Houston.

En la capital la capacidad destructiva del sismo fue enorme, por su gran intensidad y por las características muy especiales en que se desarrolló y se propagaron sus ondas.

Treìnta y seis horas más tarde, otro sismo, réplica del primero, esta vez de 7.5 grados en la escala de Richter, sembró el terror en los capitalinos que estaban empeñados ya en una gran cruzada de solidaridad y auxilio a los damnificados.

Los dos movimientos telúricos causaron la muerte de más de 20 mil personas, dejando destruidos 412 edificios y dañados otros 5,700 entre los que no pocos eran escuelas, oficinas y hospitales. Las pérdidas materiales se han calculado en cinco mil millones de dólares y las económicas sumaron una cantidad mucho mayor. Los daños alcanzaron magnitudes sin precedentes en la historia de la Cuidad de México. En algo más de dos minutos el Distrito Federal perdió el 25 por ciento del agua que consume diariamente, a través de fracturas en los acueductos y redes de distribución. El 42 por ciento del servicio de fluido eléctrico quedó interrumpido y un millón 280 mil teléfonos quedaron fuera de servicio. De hecho la capital permaneció incomunicada con el resto del mundo durante varios días por los daños sufridos en sus sistemas de comunicaciones.

La gran Tenochtitlan fundada por los aztecas, la ciudad de los Palacios de la época colonial, la metrópoli capital del país, había sido catastróficamente dañada. Entre lamentos y lágrimas los capitalinos se dieron a la reconstrución, cuando todavía no habían terminado de enterrar a sus muertos. Después de tres años de aquella tragedia, todavía estamos entendiendo, aprendiendo y asimilando las enseñanzas que nos ha dejado aquel macro-sismo.

LAS ZONAS SISMICAS.

México está ubicado en una de las regiones continentales del llamado Círculo de Fuego del Pacífico.

El Círculo de Fuego, se extiende por las costas del Océano Pacífico, uniendo una extensa línea de riesgo sísmico : desde Alaska hasta Chile, en el litoral americano - pasando por la costa occidental de México - y, por otra parte, sobre

el litoral asiático, toca Oceanía, buena parte del territorio chino, Japón, Indonesia y Polinesia.

En el Círculo de Fuego, se registra el 60 por ciento de los temblores en el mundo.

En el caso de México, las zonas que muestran una mayor intensidad sísmica conforman un cinturón de costa a costa, del Pacífico al Golfo, que contiene a buena parte de los estados del centro y algunos del sureste : parte de Nayarit, Jalisco, Colima, Michoacán, Guerrero, parte de Guanajuato, de Querétaro, de Hidalgo y de Tlaxcala, Oaxaca, Morelos, Puebla, Chiapas, Veracruz y parte de Tabsco, además del Estado de México con el Distrito Federal, desde luego.

Este cinturón de máxima sismicidad, está conformado por las fallas denominadas Falla de Zapopan-Acambay- Oxochoacan, la Falla del Pacífico - que desciende de la Falla de San Andrés, cuyo inicio está en Alaska y pasa por California, Estados Unidos - y las Fallas de Acapulco y Chilpancingo.

Por otra parte México se encuentra en el cruce de placas que se mueven en dirección opuesta y que ocasionan por su colisión temblores como el del 19 de septiembre. En efecto, la placa llamada de Cocos que se halla en el lecho marino del Pacífico mexicano se mueve regularmente hacia el noreste, a razón de 7 centímetros por año, entrando en contacto y presionando a la placa de Norteamérica que se desliza hacial el oeste. La colisión produce tensión en las rocas de ambas placas ; la de Cocos avanza por debajo de la de Norteamérica produciendo rupturas y gran descarga de energía. Otras dos placas intervienen en este proceso de interrelación : la de Nazca que se halla al sur de la de Cocos presionándola, y la del Caribe que ocasiona zonas de tensión al entrar en contacto con la de Norteamérica.

RIESOGOS ADICIONALES EN LA CIUDAD DE MEXICO.

La Ciudad de México, además de encontrarse en una de las zonas de mayor sismicidad del país reúne otros factores agravantes.

Se trata de una de las ciudades más densamente pobladas del mundo y, por su devenir histórico, ha sido y es el centro de la mayor actividad política, comercial y social de la República.

Concentrados en un círculo cuyo diámetro escasamente excede los 30 kilómetros, se hallan dispuestos los edificios públicos y privados que en gran parte mueven al país, con sus sobrecargas de documentación, equipamiento y personal.

En apenas cuatro delegaciones políticas - Benito Juárez, Miguel Hidalgo, Venustiano Carranza y Cuauhtémoc - se asenta el 47 por ciento de las viviendas en arrendamiento.

Se sabe que, a la fecha, la aglomeración urbana y sus alrededores está alcanzandos los 20 millones de habitantes.

Un crecimiento anárquico y poco planificado ha colocado edificios cada vez más altos con menos metros cuadrados de superficie.

Miles de vehículos aumentan mes con mes los asfixiantes congestionamientos en las vías públicas, cuyo tránsito pesado provoca cimbramientos. Otras vibraciones proceden del tránsito aéreo, motivado por los aviones supersónicos.

La otra grave dificultad es el subsuelo. Sobre agua y chinampas se creó la gran Tenochtitlan. Chinampas, ruinas prehispánicas, arenas, grava y cascajo suelto, fueron el asiento de la ciudad colonial, cuya traza seguía en principio a su antecesora. Después, más rellenos y una ciudad cada vez más pesada, sobre depósitos lacustres de hasta 30 y 40 metros de profundidad. Un subsuelo fangoso que, en ocasiones, aminora las ondas sísmicas según su frecuencia, aunque en otras las vuelve más fuertes.

El estar construida sobre el agua, le da a la ciudad otros riesgos. Hasta la fecha, buena parte de las deficiencias del subsuelo urbano obedecen a falta o sobra de agua, ya sea por la succión mediante el bombeo y por los sistemas de desalojo del líquido. Si las inundaciones ya no son tan frecuentes, la capacidad del agua para soportar el peso de la ciudad se ha desequilibrado en algunas zonas.

LOS SISMOS EL PASADO.

Como estos problemas se deben a causas geológicas que se remontan a los albores de la formación del Contiente, cuando surgieron los ejes volcánicos y se produjeron las fallas ya mencionadas, es obvio que ha temblado en México desde épocas inmemoriales y aunque no tenemos información directa y abundante al respecto, sabemos que los aztecas atribuían gran importancia al concepto de movimiento en general (ollin) y al catastrófico en particular y desde luego recogemos a través del Códice Florentino los registros de temblores que llevaban los aztecas en Tenochtitlan, usando un glifo para señalarlos, el cual, con su repetición, 2, 3, 4, ó más veces, marcaba la intensidade del fenómeno.

De la época colonial se han recogido numerosas crónicas que dan cuenta de temblores tanto de la Ciudad de México como de otras del centro del territorio. Es curioso hacer notar que la gran religiosidad que distinguía a la sociedad colonizada por los españoles, se reflejaba en el sistema de medición de un sismo, basado en oraciones. El «Credo» de la religión católica que empezaba a rezar la gente cuando se producía un temblor, servía para calificarlo. Había temblores que durabn uno, uno y medio, dos o tres «Credos». «La Gaceta de México» del 5 de abril de 1768 anota : «El terremoto de ayer al amanecer tuvo una intensidad de un Credo y medio».

En el siglo XIX el registro se hizo más detallado, con duración, fecha y hora. Hay descripciones de nueve sismos entre 1801 y 1882.

A partir de la creación del Observatorio Meteorológico Central, en el año de 1877, se empieza en México una medición científica rigurosa de los sismos,

a través de parámetros conocidos actualmente como magnitud, intensidad y acelaración.

El sismo más fuerte sentido en la Ciudad de México el siglo fue el que se produjo a las 9 : 15 horas del 19 de junio de 1858. Murieron 19 personas, se registraron daños en varias casas y edificios, los derrumbes interrumpieron el tránsito de carruajes por dos días en las principales calles de la ciudad. Los damnificados que quedaron sin techo y que se sumaban por docenas fueron alojados en la Alameda Central, para lo cual se habilitaron tarimas y toldos. Daños muy importantes resintieron las iglesias de la urbe algunas de las cuale fueron cerradas al culto para ser reparadas por el peligro que significaban.

Entre 1900 y 1920 se tienen registrados nueves sismos de cierta importancia.

Hay que subrayar que el temblor más intenso en lo que va del siglo se produjo el 3 de junio de 1932, a las 3 : 36 horas con una magnitud de 8.4 grados en la escala de Richter, afectando ampliamente a los estados de Colima y Jalisco. Pero indudablemente el que mayor conmoción causó entre les habitantes de la Ciudad de México fue el temblor del 28 de julio de 1957, aquel que se conoce en la memoria colectiva como el que derribó al «Angel de la Independencia».

Considerado como uno de los mayores temblores en los anales sísmicos de México, el terremoto que a las 2 :40 horas de la madrugada del 28 du julio de 1957 sucudió a la Ciudad de México,alcanzó una magnitud de 7.8 grados en la escala de Richter. Sus ondas sísmicas se sintieron en una amplia zona del país. En la capital causó 50 muertos, múltiples heridos, un sinnúmero de derrumbes y la caída del Angel que se halla en lo alto de la columna, monumento que rinde homenaje a la Independencia de México.

CARACTERISTICAS DEL SISMO DE 1985.

Los sismos de septiembre de 1985 se produjeron a unos 480 kilómetros de la Ciudad de México y 65 kilómetros mar adentro frente a las costas de Michoacán. El déslizamiento de la placa de Cocos ocurrió a unos 20 kilómetros de profundidad ocasionando una fractura de unos 200 kilómetros a lo largo de la costa.

Los sismólogos de la Universidad Nacional Autónoma de México han establecido que se produjeron dos rupturas con 26 segundos de diferencia, la segunda 100 kilómetros al sur de la primera.

Las ondad sísmicas viajaron a una velocidad de 8 kilómetros por segundo, es decir, 28.800 kilómetros por hora, para llegar a la Ciudad de México en menos de 50 segundos. Pero las ondas sísmicas viajan a velocidades diferentes en arena, grava y arcilla. Aunque no hay información suficiente para establecerlo definitivamente, la creencia general es que debido a esto, las ondas del temblor sufrieron transformaciones intensas al rebotar entre las diferentes capas sedimentarias.

Alguns ondas al golpear la división entre una capa de arcilla y una de arena,

pudieron haber sido rebotadas hacia atrás. Estas ondas rebotadas chocaron luego con las que venían detrás , anulándolas, en un fenómeno que les físicos llaman interferencia destructiva.

Pero otras ondas reflejadas probablemente se incorporaron a una serie de otras ondas que llegaban haciéndolas todavía más vigorosas, en lo que los físicos llaman interferencia constructiva.

En algunos casos las vibraciones se anulan, en otros, se suman, creando ondas vivas de una magnitud impresionante.

Por otra parte la frecuencia de las ondas tuvo mucho que ver en la destructividad del fenómeno.

Normalmente, un sismo envía una serie de ondas de frecuencias muy variadas. Algunas de las ondas vienen cada tantos centésimos de segundo, otras a intervalos de un décimo de segundo, y otras a intervalos todavía más largos. Los instrumentos cercanos al epicentro del terremoto registraron ondas similares. Pero cuando las ondas llegaron a la Ciudad de México dos minutos después, las ondas de alta frecuencia habían sido filtradas y eliminadas por los 480 kilómetros de terreno entre ambos puntos. Lo que quedó fue una cadena estrenduosa de ondas sísmicas de gran intensidad, que llegaron con intervalos de dos segundos.

Ordinariamente, las ondas sísmicas más fuertes de un temblor duran solamente unos segundos, quizá 15 segundos cuando mucho. Pero las ondas sísmicas más intensas del terremoto de la Ciudad de México, duraron casi un minuto. Las más potentes llegaron a la mitad y duraron casi 30 segundos.

En suma, la energía sísmica que llegó a la Cuenca de México, procedente de dos eventos diferentes que enviaban ondas a intervalos distintos, fue atrapada en formaciones geológicas locales, generando grandes amplificaciones energéticas, sobre todo en el centro de la Ciudad dónde se registraron el 90 por ciento de los daños, debido a que el suelo blando de esa área magnificó las vibraciones sísmicas produciendo el fenómeno de la «resonancia» en los edificios, al entrar en concordancia la frecuencia de vibración de los edificios con la frecuencia de vibración sísmica.

LAS CONSTRUCCIONES DAÑADAS.

Sin olvidar las características del suelo y las especialísimas y hasta entonces desconocidas de los sismos de septiembre, se realizan estudios en torno a las edificaciones y sus respuestas. Actualmente contamos con estudios de la Universidad Nacional Autónoma de México, el Colegio de Arquitectos de México, la Sociedad de Arquitectos de México, el Colegio de Ingenieros Civiles de México. Varios estudios han contado con el apoyo del Joint Council on Architectural Research y la National Science Foundation, ambos de los Estados Unidos de Norteamérica.

Todos estos estudios refuerzan y confirman con hechos nuevos y con cifras

y mediciones muy precisas, lo que ya sabíamos, dándole nueva importancia. Es decir, que :

- Un sismo de gran envergadura es devastador en términos de las pérdidas tanto humanas como meteriales para una ciudad moderna.

- En une edificación, la interacción entre su forma, su estructura y la calidad de la construcción, son determinantes para su comportamiento sísmico. El sismo busca, inevitablemente, los puntos débiles.

- Los edificios bien diseñados y construidos responden aceptablemente durante un sismo. Par llegar a este nivel se requiere muchísima cooperación y entendimiento entre las personas que lleven a cabo el diseño.

- Los conceptos tradicionales para lograr ciudades bien planeadas coinciden, normalmente, con los conceptos requeridos para que una ciudad sea sísmicamente segura.

El daño a los edificios puede analizarse en la siguiente forma : 26 por ciento de los edificios severamente dañados o destruidos datan de antes de 1957 ; el 56 por ciento entre los años 1957 y 1976 y et 18 por ciento después de 1976. Sólo el 1 por ciento de los edificios de uno o dos pisos sufrieron daños, y el 11 por ciento de los edificios entre seis y 12 pisos. Los más vulnerables fueron los edificios de altura media, con estructura reforzada de concreto, sin paredes estructurales, con plancha o cuvra de estrucrura del piso. Estos edificios fallaron en sus columnas, que no tuvieron fuerza suficiente en sus uniones con el piso. Se ha establecido que las fallas más comunes radicaron en la forma de la construcción (asimetría, construcción en «T») ; en la ubicación (edificios en esquinas y en ángulos propensos a torciones) ; en la planeación (planta baja débil, columnas cortas) ; en los componentes ; y finalente en las cargas excesivas en no pocas construcciones. También los choques entre edificios excesivamente cercanos y con «resonancias» distintas durante el sismo, si bien hay que analizar todavía los informes que señalan que ciertos edificios no cayeron por estar, precisamente, pegados a otros con los que actuaron «en bloque» protegiéndose mutuamente.

Hay que señalar que los edificios coloniales del centro de la Ciudad sufrieron muy pocos daños, puesto que son estructuras de poca altura y muy pesadas.

Resulta también de interés un estudio que se ha hecho sobre los comportamientos de los pisos superiores, los medios, los inferiores y el edificio en su conjunto. Baste señalar, por razones de brevedad, que 38 por ciento de los edificios fuertemente dañados tuvieron fallas en los pisos superiores ; en el 40 por cinto - las más altas - las fallas se ubicaron en los pisos del medio ; el 8 por ciento de las fallas se presentaron en los primeros pisos ; el otro 14 por ciento mostró fallas generalizadas o no fáciles de identificar.

NORMAS Y REGLAMENTOS.

Puesto que un terremoto ataca y pone a prueba a toda la construcción sin

distinguir entre las partes que se deben al arquitecto, al ingeniero o al constructor, los reglamentos y normas deben ser cuidadosamente revisados y escrupulosamente cumplidos para impedire por todos los medios que su incumplimiento cueste vidas.

El Reglamento de Construcción para la Ciudad de México de 1942, toma en cuenta normas sísmicas. A partir del sismo de 1957 las normas se han ido haciendo cada vez más severas y se han puesto en vigor otras nuevas. En 1966 y 1977 se incluyeron previsiones con respecto al análisis dinámico. Se especificaba entonces una aceleración base de diseño para calcular la estructura de un edificio de 24 por ciento de la gravedad, norma que resultó superior a la aceleración real del suelo en el sismo de septiembre de 1985, que alcanzó el 20 por ciento. Es importante subrayar que le año pasado se ha puesto en vigor una nueva norma que contempla el 40 por ciento de la gravedad, es decir casi el doble de la que estaba vigente.

Si bien se han detectado excepcionalmente fallas en el cumplimiento del reglamento, hay que decir que los estudios hasta ahora realizados prueban por un lado la eficacia de las normas y por otro la honestidad de los profesionales mexicanos dedicados a la construcción. En un estudio reciente sobre el tema, publicado por la Revista «Architecture» en julio de 1987, Donald Geis y Christopher Arnold afirman que dadas las características del sismo de 1985, la interrogante que hay que hacerse no es por qué ocurrió tanto, daño, sino cómo es que frente a la magnitud del movimiento tantos edificios sobrevivieron. Por su parte William C. Stone, ingeniero del National Bureau of Standards de Estados Unidos de Norteamérica en un congreso de la Sociedad Americana de Ingenieros Civiles, afirmó que el sismo fue tan violento y sus circunstancias tan singulares, que edificios totalmente apegados al más severo reglamento pudieron sufirir daños, para añadir que en este terreno los costos son un factor determinante : un edificio diseñado para soportar un sismo de 7 grados costará diez veces más que uno diseñado para tolerar movimientos de 6 grados y así sucesivamente.

Confirmando estas afirmaciones, ingenieros mexicanos sostienen que las reservas de resistencia estructural han logrado que muchísimos edificios hubieran tolerado bien el castigo sísmico.

El caso de la Torre Latinoamericana con sus 50 pisos, construida en 1984 es muy ilustrativo. Ubicada en un área muy severamente golpeada del centro de la Ciudad, apenas sufrió rotura de cinco vidrios y daños ínfimos. El edificio tiene fama por su cuidadosa integración de deseño estrutural y arquitectónico.

Cabe hacer notar que respecto a otras construcciones, aparte de los edificios, casi no hubo daños en los numerosos pasos a desnivel de la Ciudad ; las torres de transmisión de energía sufrieron daños menores ; los túneles del «Metro» y las estaciones subterráneas sufrieron daños insignificantes ; el sistema de drenaje quedó casi intacto.

En conclusión y tras los numerosos estudios y análisis sobre los efectos de los sismos, se puede afirmar que la destrucción provocada no se debió a la fuerza en sí de los temblores, sino a la longitud de la onda sísmica, al periodo de vibración de las construcciones o a su frecuencia, en función - todo esto - con el tipo de terreno que existe en el centro de la Ciudad de México. Sin embargo, es evidente que dadas las características de los movimientos de 1985, los daños sufridos por la Ciudad - aunque severos - pudieron ser de mayores dimensiones.

UNA RECONSTRUCCION EJEMPLAR.

Las tareas de reconstrucción en la Ciudad de México han sido extensas y muchas de ellas continúan todavía. El gobierno creó en octubre de 1985 la Comisión Nacional de Reconstrucción con funciones en el área social la vivienda, la seguridad civil, la salud, los aspectos financieros y otros. Esta comisión ha coordinado muchos esfuerzos y ha canalizado muchos recursos.

Resulta de gran interés, sin embargo, relatar un caso de reconstrucción que es de características relevantes pos su planeación, concertación de esfuerzos y coordinación eficiente de los trabajos.

Se trata del Programa de Renovación Habitacional Popular que en 18 meses de operación ha sido calificado como el programa de reconstrucción más grande después de la Segunda Guerra Mundial. La Unión Internacional de Arquitectos le otorgó, en 1987, el Premio Robert Matthews.

El Programa ha logrado edificar 45 mil viviendas para personas de bajos recursos cuyas casas quedaron destruidas o severamente dañadas durante los sismos en una extensa zona del centro de la capital. La gran mayoría de los beneficiados con el Programa eran antiguos inquilinos que tuvieron ahora la oportunidad de comprar su casa en condiciones y plazon muy favorables, y ser propietarios por primera vez de una vivienda con servicios que muchos de ellos no tenían antes. Se buscó que las relaciones sociales y familiares se mantuvieran, planeando la distribución de acuerdo con la cercanía y vecindad que existía antes, resolviendo así serios problemas de inadaptación que han hecho fracasar muchos programas habitacionales en diversas partes del mundo.

Hubo también un gran esfuerzo de coordinación ya que intervinieron alrededor de cien organizaciones : las víctimas del sismo, entidades públicas y privadas, grupos de arquitectos, universidades y organismos financieros. El gobierno aportó el 80 por ciento y el resto se financió con un crédito del Banco Mundial. El costo del Programa fue levemente superior a los 600 millones de dólares.

El Programa contempló siete prototipos posibles con paredes prefabricadas de concreto reforzado con acero. Todas las unidades tienen electricidad y agua potable. Mil 350 empresas intervinieron en los trabajos que generaron 120 mil empleos. Las viviendas de concreto se incorporaron a la imagen urbana que combina lo colonial con lo moderno y lo mediterráneo, mediante colores brillantes rojo, naranja, verde y ocre.

También ha llamado la atención la reconstrucción del conjunto habitacional Tlatelolco que tiene 112 edificios, 22 escuelas, cinco hospitales, teatros, tiendas, etcétera. Construido cerca del centro de la Ciudad de México, en 1963, alberga a unas 120 mil personas. En el terremoto cayeron nueve edificios y muchos otros resultaron dañados, seis de los cuales fueron demolidos. El gobierno decidió realizar las tareas reconstructivas mientras muchos de los habitantes del conjunto vivían en condiciones dramàticas. En síntesis 60 edificios han sido reparados en detalles y 32 edificios han recibido arreglos estructurales mayores, con la construcción de marcos exteriores de refuerzo, y la colocación de vigas cada tres pisos ; se cortaron paredes y se reforzaron ligazones. En algunos casos se disminuyó el número de pisos para hacerlos más bajos y reducir así el riesgo sísmico.

LA PREVENCION.

La dolorosa y sombría experiencia de estos grandes sismos de 1985 nos han dejado lecciones técnicas, urbanísticas y humanas que es indispensable incorporar al saber colectivo sobre este tema y sobre todo convertir en práctica generalizada el conjunto de medidas preventivas que no podrán disminuir la intensidad de un sismo pero que - enseñándonos a afrontar y a manejar racionalmente una emergencia - nos llevarán a salvar miles y miles de vidas, que es el capital más valioso de una sociedad. Porque va a seguir temblando y aunque no podemos saber cuándo va a producirse otro macro-sismo, tenemos que estar permanentemente preparados.

Esta actitude debe darse en varios campos.

En primer lugar es indispensable la creación y la actualización permanente de una conciencia sísmica serena y racional pero que abarque a gobiernos, instituciones, escuelas, asociaciones y gremios, familias e individuos. En los países que están comprendidos o cercanos al Círcuo de Fuego esta tarea es muy importante. No es posible que tiemble, se atienda a los heridos y damnificados, luego se reconstruyan los edificios dañados, y después entremos a un olvido nocivo es decir el olvido que lleva a descuidar las medidas prenventivas. Necesitamos infundir desde la escuela primaria una comprensión de lol que significa vivir en una zona sísmica y de la circunstancias a las que hay que enfrentarse debido a ello. Tenemos igualmente que desarrollar una actitud de previsión con entrenamiento y acciones de protección en caso de temblor. Todos los habitantes deben saber perfectamente qué hacer y qué no hacer en la casa, en la oficina, en la calle, en un cine, en un espectáculo, en caso de presentarse un sismo. No siempre será fácil aplicar ese conocimiento, pero es indispensable que lo tengamos. Tenemos también - dentro de lo posible - que aprender colectivamente a afrontar emocionalmente el golpe traumático de los sismos.

En algunos países como Japón y Estados Unidos este capítulo es cubierto y con eficiencia creciente. En otros, por desgracia, el tiempo borra las heridas y borra la conciencia sísmica de gran parte de la población y hay que llamar

la atención de los gobiernos, los educadores y los padres de familia sobre la insensatez que significa dar las espaldas a este problema y desaprovechar las lecciones del pasado.

En un segundo campo debe desarrollarse una prevención cada vez más sabia y capaz de aprovechar los grandes adelantos de nuestra época. Es el terreno de la técnica y de los reglamentos que recogen esa técnica, en donde se han hecho y pueden hacerse todavía grandes adelantos. Quizá sea imposible llegar a construir ciudades - y por lo tanto edificios e instalaciones - totalmente a prueba de terremotos, pero es probables que en un futuro cercano el hombre se acerque a ese ideal. En México, como ya quedó anotado, se han ido perfecionando y enriqueciendo los reglamentos. Los arquitectos e ingenieros saben perfectamente que tienen la responsabilidad de llevar a la prática esos reglamentos y se realizan actualmente nuevos esfuerzos de investigación en torno a la influencia de la configuración arquitectónica sobre el comportamiento sísmico y a su relación con las soluciones estructurales y es evidente que las lecciones que emergen de ese gran laboratorio sísmico vivo que fue y es todavía la Ciudad de México, van a ayudarnos a aumentar la seguridad en torno a no pocos de los aspectos a los que me he referido anteriormente. De hecho el centro de la Ciudad de México en donde la densidad de población es muy alta, ya cuenta con más parques y espacios abiertos ubicados en predios en los que se demolieron edificios. Es posible que se logre limitar a cuatro pisos toda nueva construcción en el Centro Histórico de la capital mexicana. Y habrá que construir también lugares de refugio para casos de emergencia.

La planeación del desarrollo urbano de no pocas ciudades paqueñas y medias de las zonas sísmicas del país tendrá que asimilar en incorporar a diseños y reglamentos no pocas de estas leccion es de los sismos de 1985. Los propietarios y usuarios de inmuebles tendrán que ser más severamente vigilados en cuanto a modificar el uso original y por lo tanto la carga de los edificios y en cuanto a corregir rápidamente fallas en sus construcciones.

El tercer campo de lo preventivo es igualmente importante, me refiero a los riesgos multiplicados por la aglomeración humana. Hay para nosotros en México y creo que para muchas grandes zonas metropolitanas de países en vías de desarrollo, una necisidad urgente, que es la desconcentración y la descentralizacíon. No es posible pensar en un infrenable e ilimitado crecimiento de las grandes ciudades con demandas crecientes de servicios, con hacinamiento, con contaminación, con problemas de seguridad, con tránsito vehicular inmenso, con delincuencia, con la tensión psicológica de las distancias, las colas, las muchedumbres.

Esta tendencia está siendo ya revertida y tendrán que hacerse grandes progresos en ese camino antes del fin del siglo. Porque los problemas inherentes a las megalópolis son de proporciones gigantescas en lo humano, en lo administrativo, en el terreno socio-psicológico, en el campo laboral, entre otros.

Si a este conjunto de problemas de la gran ciudad le añadimos la posibilidad

de un gran sismo, estaríamos señalando los perfiles dantescos que puede alcanzar un gran conglomerado humano ubicado en una megalópolis.

Hay que recordar que el sismo de 1932, que alcanzó 8.4 grados en la escala de Richter encontró a toda la República Mexicana con 16 millones de habitantes. El número de víctimas fue muy bajo. El sismo de 1985 encontró sólo a la Ciudad de México con más de 18 millones de habitantes. No es sensato, también desde el punto de vista sísmico, arriesgar un peligro mayor. La arquitectura y la ingeniería resuelven cada más satisfactoriamente los desafíos sísmicos, pero las grandes soluciones nacionales rebasan este aspecto. Es indispensable descentralizar las grandes ciudades, sobres todo la Ciudad de México, y fomentar el desarrollo de ciudades de rango medio. Así lo previó el Programa Nacional de Desarrollo Urbano en 1978, cuando la conciencia de la necesidad de la planeación urbana empezó a convertirse en acción de gobierno. Lentamente, se está avanzando por ese camino y sin duda se seguirá avanzando. Resolveremos con ello grandes problemas de demada de servicios, de demanda de trabajo, de contaminación, de tráfico, de educación, de seguridad. Pero estaremos, al mismo tiempo, previniendo una gran catástrofe sísmica. De modo que la descentralización resulta imperativa desde todos los puntos de vista.

La reconstrucción realizada en la Ciudad de México nos ha mostrado que con la concertación, con clara visión de los objetivos, con una población consciente y solidaria como la mexicana, lo que parece imposible, resulta realizable. La Ciudad de México tiene que llevar a cabo transformaciones profundas en su estructura y funcionamiento y estamos seguros de que vamos por ese camino, existe ya una conciencia sobre la desconcentración, se da ya lo que podría llamarse una cultura de la descencentración.

Estaremos así, sacando provecho de las dificultades y los problemas, para cumplir un propósito irrenunciable : hacer más segura, más justa y más humana la vida de los hombres.

BRITISH VIEWS ON THE DESERT LOCUST PROBLEM

Lord Chalfont

UK participates at the regular meetings of affected countries, donors, UN Agencies and International Banks to finance emergency measures and to determine how to strengthen national and regional control organisations. More recently, medium and longer term research needs and priorities have been discussed.

Most meetings have concentrated on the problems in West Africa and the affected countries of that region and of Eastern Africa and Arabia have been invited. The desert locusts have now spread to the remaining region, South West Asia, but the needs of these countries have not been adequately considered to date.

UK recognises the need :

a. For international coordination of locust control and donor assistance.

b. For Regional control organisations and strategies.

c. To strengthen locust control Institutions and train their staff.

d. To improve operational management.

e. For trials to establish the effectiveness of new pesticides.

f. For safe handling, storage and application of pesticides on non-target organisms.

g. To monitor and minimise the impact of pesticides on non-target organisms

UK encourages the use of modern technology to locate locust breeding sites (by use of satellite remote sensing to monitor rainfall and vegetation) and to forecast swarm migration (by use of products from global numerical models of the atmosphere).

FAO and UK have submitted project proposals to the EC to introduce these techniques to the Central Forecasting Unit at FAO, to Regional and to National Units.

UK Aid

The importance of the UK contribution to the solution of the locust problem is attributable to two factors :

a. The ability of the UK to provide specialised anti-locust spraying machinery (especially the Exhaust Nozzle Sprayer (ENS), ULVA, Micronair Units and Micron Sprayers promising vehicle mounted Micron X15) ; land-rovers on which ENS and other sprayers can be mounted ; consultants experienced in locust operations to organise campaigns and train local personnel ;

b. The UK's unique archives and expertise in processing, collating and interpreting locust and weather information for forecasting ; all of which enable it to provide donors, recipients and FAO with advice and guidance on planning current campaigns and assessing control strategies for plague prevention and plague suppression.

Consequently, ODA through ODNRI stands alongside FAO as a world centre of locust expertise and enjoys great credibility.

UK has supplied pesticides, protective clothing and sprayers for emergency action to 18 countries in Africa andt the Arabian Peninsula.

The UK has supplied satellite receiving equipment to monitor rainfall in Morocco, Algeria and Tunisia, and consultants to train staff in its use.

The UK has supplied forecasters and operational managers as Consultants to strengthen Regional Organisations and train their staff.

The Maghreb States

Desert locust plagues threaten the major agricultural areas of these countries. Swarms reach North West Africa in the autumn from the Sahel. The strategy adopted is to control them before they cross the mountains and reach the major crops. This year, however, the areas south of the mountains are dry and the locusts have already invaded agricultural areas. Breeding occurs in the winter and spring and major campaigns will be needed to avert serious crop damage.

Locust campaigns in North West Africa are well organised. The Moroccan Control Centre in Rabat reflects the general mobilisation of officials and the effective coordination between the many Ministries involved. The collection, assessment and documentation of locust infestations, control capabilities and actions is exemplary and is a model for others to aspire to.

The Maghreb Ministers, aware that locust upsurges and start in the Sahel and of the mutual benefit of controlling locusts there, have been in the forefront of proposing the creation of international task forces to operate in such strategic areas.

As a result of their initiative, a project for preventive control of desert locusts

in West and North West Africa will be submitted for international funding. It aims to strengthen national control units, set up forward bases from which campaigns can be run, operate joint survey and control teams, improve the collection, exchange and use of locust, weather and locust habitat data, and train personnel and undertake research under local conditions.

There follows a British view of this problem, institutional and technical, associated with locust outbreaks and of the research needed to improve control.

CONTROL STRATEGY

Why did the current strategy fail to prevent the current plague ? Was it because :

a. Decreasing funding during the long recession caused the decline of regional and national control organisations ;

b. Experienced staff retired and equipment deteriorated ;

c. Border disputes have made survey and control difficult ; or does the strategy need modifying ?

The present strategy is to prevent plagues arising by controlling gregarising and gregarious populations as they appear at the start of an upsurge. Some experts, noting that most of the population is not in treatable targets at this time, suggest that the strategy should be modified.

The current plague should be analysed and compared with earlier ones to better define the processes and environmental parameters associated with plague onset and decline.

The role of habitats and weather in the migration and concentration of locusts at the beginning of upsurges needs clarification.

Locusts are those grasshoppers which have a capacity for changing their behaviour from solitary to gregarious. In the field, this phase change is overwhelmingly a response to changes in numbers and density. When population density is high, the locusts form the characteristic marching bands of hoppers (wingless nymphs) and dense swarms of adults. When the population density is low, the locusts behave as individuals.

The Desert Locust does not have permanent outbreak areas and gregarisation can occur in several parts of the more arid central part of its range. It is now recognised that upsurges of this species develop into plagues only after heavy and prolonged rains occur in several successive breeding areas and give rise to rapid population increases.

Areas of observed or deduced gregarisation of the desert locust suggest that factors making habitats suitable are complex weather patterns which concentrate locusts ; upland valleys where run-off provides favourable breeding sites ; and rainfall regimes which can provide suitable breeding conditions at all times of the year.

When swarms persist and lay, producing hopper bands and further swarms in several countries simultaneously, a plague is said to exist. In contrast, during recessions, there are few, if any gregariously behaving populations. Desert Locust plagues may affect all major regions within the invasion area simultaneously or separately but because of swarm mobility no region remains permanently uninfested during a major plague.

The effectiveness of control in plague suppression needs to be more firmly established.

Rainfall failure plays a major role in the decline of plagues. Natural enemies become more effective as numbers fall. Control can hasten the end of plagues but the effectiveness of campaigns is not well documented.

INFORMATION NEEDED TO APPLY CONTROL STRATEGY

Monitoring and forecasting

More survey teams need training and equipping with vehicles and radios.

Accurate and timely information on the current and probable future occurrence, stage, numbers and movements of locusts is needed nationally, regionally and at the central forecasting office in FAO to get control teams, pesticides and spray equipment to locust infestations.

Remote sensing from satellites, as well as data from manned and unmanned meteorological stations are needed to locate potential breeding areas to which locust survey teams can be directed.

Desert Locust eggs need to absorb about their own weight of water from the soil if they are to develop and the hoppers require green vegetation for food and shelter. Although rain is scanty and erratic, it tends to fall seasonally and the locusts migrate downwind between these seasonal rainfall zones.

WEATHER, ESPECIALLY WINDFIELDS AND TEMPERATURE

Locusts are powerful downwind migrants, capable of flying more than 100 km a day and more than 1000 a week.

Solitary locusts fly at night but swarms fly during the day. Flight is inhibited at low and high temperatures.

Operational Meteorologists are needed to improve forecasting.

CONTROL

Control Organisations

Control can be more effective if there is regional cooperation as locusts frequently cross frontiers. UK strongly favours Regional Control Organisations funded by Member Countries and by both bi-lateral and multi-lateral donor aid. UK actively supports the Desert Locust Control Organisation for Eastern Africa (DLCO. EA) and with FAO has sent forecasters to the Regional

Coordinating Centre at Organisation Commune de Lutte Antiacridienne et de Lutte Antiaviare (OCLALAV).

Forecasters are unable to predict before migrations occur, which countries in the extensive breeding areas will be more heavily infested. Regional Control Organisations expect to move control teams, planes and materials across borders to heavily infested areas. Members Countries can jointly undertake operational research, and train personnel.

OCLALAV in West Africa has received decreasing funds and support from Member States and so is currently transferring its control functions to the four Sahelian States : Mauritania, Mali, Niger and Chad. A small coordinating unit will continue its other functions : information exchange and forecasting, campaign planning and training. DLCO.EA has support from its member states but needs strengthening if it is to function effectively during this plague. In North West Africa, the Middle East and Southwest Asia, there are no regional control organisations. FAO Commissions and inter-country committees coordinate information, control and training.

Effective national units are also needed, especially where there is no regional control organisation. Where both exist, national units protect major crop areas and the regional organisations attack infestations which are beyond the resources of the national units or threaten to spread the plague to other areas.

Control Methods

The aim is to maximise kill rate and minimise environmental pollution.

Dieldrin is a persistent pesticide which accumulates in the food-chain. Restrictions on its use require that substitutes are found for barrier spraying, the most effective way of killing hopper bands.

Field trials of newer insecticides are needed to establish appropriate formulations and dosage rates.

Biological agents used as biocides should be sought to minimise environmental damage.

Operators need training in the safe handling, storage, application and disposal of pesticides.

Adequate health checks and protective clothing suitable for the tropics need to be supplied.

Trials are needed to discover the correct droplet spectrum and volume of diluant to active ingredient to achieve maximum control in the field.

A reliable, vehicle-mounted ultra-low volume sprayer is needed which emits an appropriate droplet spectrum.

A more robust hand-held sprayer is needed for treating small areas.

Environmental Impact

Detailed protocols are urgently needed for field assessments of the impact of locust control.

Economic Impact of Desert Locusts

Desert Locust damage can be devastating but it is sporadic and losses need to be adequately documented.

Locust control is expensive and establishing cost-benefit ratios, though necessary, will be difficult since as well as cost of control, estimates must be made of actual damage, of the effectiveness of control in eliminating or reducing current and future infestations, and of the damage that would have occurred in the absence of control.

2ème Partie

Abstract

Abderrahmane EL FASSI

LES SOUBASSEMENTS DE LA LONGUE LUTTE ENTRE LES OMEYADES ET LES OBEIDITES

Deuxième partie

Les berbères furent les plus chanceux dans le commerce de l'or dans le grand Sahara et le Sahara Occidental durant l'époque byzantine. Ce qui prouve que la suprématie s'est effritée et que les choses sont retournées à l'état initial. Ainsi les différentes luttes tribales relatées par l'histoire ne traduisent pas la réalité. C'est en fait le déplacement géographique qui a donné, de par la cohabitation entre les tribus, une nouvelle impulsion à la vie quotidienne et un nouvel essor au commerce de l'or qui est allé de pair avec l'atténuation du tribalisme.

Le chercheur réalise qu'une seule tribu est composée de plusieurs clans, eux-mêmes formés en divisions, subdivisions et fractions, disseminés sur plusieurs régions. Ce ne fut en aucun cas une situation stagnante, ni le fruit d'un déterminisme historique, ou bien le résultat d'une lutte pour le pouvoir entre tribus ou enfin un conflit des classes, exploité par les obeïdites et les omeyades en Andalousie.

En fait, l'examen des attitudes des tribus face à divers évènements attire l'attention sur d'autes éléments d'analyse tels que les facteurs naturels (dont les catastrophes naturelles), les fléaux sociaux et enfin les intérêts personnels. Autant d'aspects agissants qui font qu'une tribu ne s'intéresse guère au commerce et s'achemine vers les terrains fertiles.

Nous sommes donc face à des clans, factions et familles qui se sont mélangés sur un même terrain donnant une tribu dont les liens sont devenus indissolubles.

Ainsi la possibilité d'atteindre l'est soudanais et d'entreprendre un commerce saharien, celui de l'or en particulier, fut assuré aux caravanes.

Ceci signifie que l'existence de l'or remonte loin dans le temps, que son commerce fut entrepris clandestinement entre le Sénégal et le Sud marocain qui produisait l'or loin des frontières romaines et ce jusqu'à l'avénement de l'ère arabe marquant l'institution des relations avec le sud sénégalais en l'an 374 de l'Hégire.

THE AFTERMATH OF THE LONG STRIFE BETWEEN THE OMAYYAD AND THE OBEIDITE

The Second Part

The Berbers were fortunate in their commerce of gold, in the great Sahara and the Eastern one during the Byzantine era. This indicates that the supremacy diminished and the matters reverted back to their original owners.

As a matter of fact, the tribal disputes which the history relates do not reflect reality ; however, it is the geographical displacement and the tribal cohabitation which gave a new start to both life and the gold trade which accompanied the end of tribal drifts.

The researcher can realize that one tribe has many clans and families which spread out in many parts. This, however, was neither a stagnant situation nor the fruit of a certain historical determinium, nor even a tribal leadership controversy or a class struggle that was exploited by the Omayyad and the Obeidite in Andalusia.

The reality is that the tribes attitudes towards the different events draw attention to diverse factors such as natural disasters, social dangers and personal interests. Among these we can find subsistance matters in a way that the tribe does not get interested in commerce and thus makes its way towards fertile lands.

We are therefore faced with the reality of families and clans which got mixed in the same piece of land, this grouping resulted in a one compact tribe with closely knitted ties, and thus the caravans secured the opportunity to go through the Western Sudanese passage so as to overtake Saharan commerce, especially the commerce of gold.

This means that the existence of gold in Morocco goes back to earlier times, and its commerce was secretly carried out away from the Roman boundaries till the onset of the Arab era during which the relationship with this market was established in 734 of Hegira.

EL TRASFONDO DE LA LARGA LUCHA ENTRE ABIDES Y OMAYAS

Segunda parte

En la época bizantina, los bereberes tenían bastante suerte en su comercio de oro tanto en el gran Sahara, como en el Sahara Occidental, lo que demuestra que la supremacía ha disminuído.

Así pues, los conflictos tribales citados por la historia no reflejan la realidad, sino que el desplazamiento geográfico con cohabitación entre tribus dió un nuevo impulso a la convivencia y activó el comercio de oro, al mismo tiempo que limitó las tendencias tribales.

El investigador constata que una tribu se compone de fracciones, secciones o grupos dispersados en más de un lugar. Esto no es una situación permanente ni una fatalidad de la historia ni es debido permanentemente a conflicto tribal de caudillaje o lucha de clases explotado por Abides y Omayas en Andaluciá.

En realidad, la postura de las tribus ante los diferentes acontecimientos llama la atención hacia diferentes elementos naturales tales como : catástrofes naturales, peligros sociales e intereses personales o incluso de supervivencia ; cuando el objetivo de una tribu no es el comercio y se dirige hacia lugares fértiles.

Estamos pues ante una realidad, la de fracciones, secciones y grupos que se mezclaron en una sóla amalgama dando lugar a una tribu bien congregada y unida con la cual se aseguró el tránsito de las caravanas hacia el Sudán y dedicarse al comercio sahariano sobre todo el negocio del oro.

Esto significa que la presencia del oro en Marruecos tiene una remota historia y que su comercio se llevaba a cabo en secreto entre el Senegal y el Sur de Marruecos donde se producía aislamente de las fronteras romanas hasta la llegada de la época árabe y se fundaron las relaciones con este mercado en el año 734 de la higra.

Abdelaziz BEN ABDELLAH

L'ENSEIGNEMENT MEDICAL AU MAROC ET DANS LE MONDE ISLAMIQUE

Cette recherche donne une idée claire sur ı enseignement médical et des méthodes au Maroc et dans le monde islamique et ceci à travers le développement des différents centres d'études, de recherches, de formation allant d'Instituts, d'hôpitaux et de cabinets médicaux individuels et collectifs, spécialisés ou généraux jusqu'aux officines considérées comme dernier refuge des pratiques de méthodes médicales qui avaient perdu leurs caractères scientifiques véritables.

La recherche fonde ce point de vue sur l'analyse de deux éléments essentiels ; en premier lieu, les différentes maladies et infirmitées connues dans cette région du monde et en second lieu, les diverses spécialisations médicales qui ont été déployées devant ces maladies et qui faisaient appel aux moyens préventifs et aux méthodes de guérison.

Comme la médecine dans le monde arabe en général et au Maroc en particulier connût une certaine sacratisation qui en fit en quelque sorte, une partie des sciences musulmanes ; le premier lieu où l'enseignement médical s'est développé fut la mosquée, symbolisée au Maroc par El Quaraouiyine ainsi que d'autres mosquées du Royaume.

La comparaison entre les principes de l'Islam et la médecine en tant que science - cette dernière étant considérée comme une structure fondamentale qui conditionne la société et qui veille sur sa santé physique et donc moral - nous fait réaliser l'efficacité et l'importance de ces principes et ceci dans le cadre d'une investigation inductive qui analyse l'être humain depuis sa conception dans l'utérus jusqu'à sa vieillesse en passant par les différentes étapes de la vie avec tout ce que cela renferme comme phénomènes et péripéties.

Les demeures des Ulamas (savants) ont constitué aussi, des lieux d'instruction privée dans plusieurs domaines de la connaissance. Il en a résulté un intérêt croissant pour les principes essentiels de l'Islam qui considère l'hygiène comme un remède préventif pour le corps et l'âme.

THE TEACHING OF MEDICINE IN MOROCCO AND IN THE ISLAMIC WORLD

The research gives a clear idea on the teaching of medicine and its methods in Morocco and in the Islamic World through the development of research and training Centers. These go from institutes, hospitals, and individual or collective medical offices to small dispensaries which are considered as remnant places for the practice of some medical methods which had lost their true scientific values.

The research bases this viewpoint on the analysis of two essential elements : firstly the different diseases and infirmities known in that part of the world and secondly the various medical specializations which were set up to face these diseases and which used preventive and healing methods.

Since medicine in the Arab World, in general, and in Morocco, in particular, became sort of sacred and thus became associated with islamic sciences, the mosque became the first place where medical studies were developed. This was typified in Morocco by Al karawiyine and other mosques of the kingdom.

The comparison between the principles of Islam and medicine as a science - being a fundamental structure which conditions society and which looks after its physical health and hence its moral health - makes us realise the importance and efficiency of these principles within an inductive investigation which analyses the human being from his conception to his old age going through the various life stages with all their phenomenae and peripeties.

Also the homes of the ulemas (religious scientists) were made into private teaching places for many fields of knowledge. As a result, there was a going interest for the essential principals of Islam which regards hygiene as a preventive cure for the body and the soul.

ENSEÑAR LA MEDICINA EN MARRUECOS Y EN EL MUNDO ISLÁMICO

El estudio presenta una clara imagen sobre la enseñanza de la medicina y sus orígenes en Marruecos y otros países islámicos. Muestra el progreso conocido en diferentes centros de estudios, de investigación y de enseñanza, tanto en institutos, hospitales o en clínicas individuales o colectivas, sean de medicina general o especializada. También aborda el desarrollo de centros de cura que instauraron aplicaciones que perdieron parte importante de su verdadera esencia científica.

Este punto de vista se refuerza con el análisis de dos elementos esenciales : los tipos de enfermedades e incapacidades que conoció esta parte del mundo y las diferentes especialidades que se opusieron a estas enfermedades, junto a los medios con que se armó como instrumentos de prevención y tratamiento.

Si la medicina fue considerada como sagrada en el mundo islámico en general y en Marruecos en particular incluyéndola como parte de las ciencias islámicas, la mezquita fue el lugar más destacado donde floreció la enseñanza de la medicina, siendo ejemplo de ello la Mezquita Karauita y otras mezquitas del Reino.

La comparación entre la doctrina del Islám y la medicina como ciencia, - en consideración de que es la construcción básica que amolda la estructura de la sociedad y vela sobre su salud material que refuerza la salud espiritual -, nos hace sentir la eficacia y utilidad de esa doctrina dentre de un método de investigación que analiza la concepción del ser humano desde su formación en la matriz hasta su completo desarrollo y crecimiento llegando a la fase de vejez con lo que le acompaña durante su vida de fenómenos y acontecimientos.

Los domicilios de los sabios constituyeron también lugares predilectos para la enseñanza privada en diferentes campos del saber, gozando de un interés mayor los principios generales del Islam que, a su vez, dieron una importancia particular a la higiene como cura preventiva del cuerpo y del alma.

THE BEGINNING OF THE HISTORY OF THE RELATIONSHIPS BETWEEN MOROCCO AND THE EUROPEAN NATIONS ORGANIZED TODAY AS THE EUROPEAN COMMUNITIES

Relations between the Moroccan kingdom and the European kingdoms and Republics began a long time ago. The main reason for this acquaintance is the geographical situation of Morocco. It is separated from the European continent by only a few miles and is not only the nearest way from Africa and North Africa in particular to Europe, but also the sole station which offers-on a vaste area that extends from the Atlantic Ocean to the Mediteranean Sea-that geographical situation which has attracted for centuries European princes and leaders to Morocco as tourists, politicians or diplomats. This is also certified through Moroccan and European documents, embassies and missions.

The research tackles many samples of these documents in a very detailed report supported by illustrations which depict the flourishing of the Moroccan and the European relations before the protectorate.

The research demonstrates that although the relations between Morocco and the other European countries witnessed a transitory period of stagnation during the protectorate, nevertheless they regained their former status when Morocco got its independence.

EL COMIENZO DE LA HISTORIA DE LAS RELACIONES ENTRE MARRUECOS Y LOS PAÍSES EUROPEOS QUE HOY CONSTITUYEN LO DENOMINADO «COMUNIDADES EUROPEAS»

Las relaciones entre el Reino de Marruecos y otros Reinos y Repúblicas Europeas han conocido su camino desde tiempos remotos. Esto es debido a la situación privilegiada de que goza Marruecos puesto que no le separa del continente más que unas cuantas millas. Es la ventana más próxima del continente Africano y del Maghreb Arabe al continente Europeo, además de que es el paìs que se constituye entre el Atlántico y el Mediterráneo. Esta situación geográfica a la cual se deben las numerosas visitas realizadas por príncipes y dirigentes europeos, así como turistas, políticos y diplomáticos a través de su historia. Todo ello confirmado por documentos marroquíes y europeos y a través de Embajadas y Misiones.

La ponencia destaca algunos documentos dando una amplia exposición fundamentada con fotos y gráficos que muestran el florecimiento de las relaciones marroco-europeas antes del Protectorado.

El estudio muestra que las relaciones entre Marruecos y algunos países europeos han conocido durante la época del Protectorado unos momentos de estancación pasajera que no tardó a volver a su estado anterior cuando Marruecos recuperó su independencia.

Mohamed Larbi KHATTABI

LE GUIDE DU MEDECIN DANS LA CONNAISSANCE DES PLANTES

Le livre intitulé : «Le guide du médecin dans la connaissance des plantes» figure parmi les sélections du patrimoine scientifique andalous. Il fut composé par son auteur au début du 6ème siècle de l'Hégire (12ème siècle). L'ouvrage est constitué d'une encyclopédie des plantes et d'un lexique en plusieurs langues (le grec, le syriaque, le persan, le latin, le copte et le dialecte andalous non arabe en plus de l'arabe). Il fournit de précieuses informations sur l'agriculture relatives à l'Andalousie, ses différentes espèces d'arbres, de plantes, d'herbes et de graines, ainsi que les expériences agronomiques qui y étaient menées. Ces données sont dues au mérite de l'auteur qui a accordé une attention particulière à l'environnement des plantes en Andalousie et au Maroc.

Le livre comprend plus de 4700 articles contenant les définitions fournies et détaillées d'un très grand nombre d'herbes ainsi que leurs différentes espèces.

Nous ne connaissons rien sur l'auteur sinon qu'il s'appelait «Ibn Abdoun», était andalous a vécu à Séville. Il était peut être originaire de Tolède, ville de son maître Hassan Ali Essaâdi El Ansari, connu sous le nom de Ibn Al Lawnaka (mort en 498 de l'Hégire/1104), fréquemment cité par l'auteur. Il résida à Cordoue après la reconquête de sa cité par les chrétiens.

«Le guide du médecin» est encore à l'état de manuscrit dont une copie se trouve toujours dans la Bibliothèque Nationale de Rabat tandis qu'une autre se trouve dans la bibliothèque de l'Académie Royale d'Histoire de Madrid.

L'orientaliste espagnole A. Palacios dégagea de ce livre les termes qui y sont utilisés et qui appartiennent à l'ancien espagnol, il a vérifié les termes et a démontré leurs origines. En même temps, il rédigea un prologue où il est question du «guide» et de son importance. Le tout fut réuni en un livre édité par l'Ecole des Etudes Arabes de Madrid et l'Ecole des Etudes Arabes de Grenade et intitulé : «Lexique des termes romans employés par un botaniste andalous (11-12èmes siècles).

THE DOCTOR'S GUIDE TO PLANTS

From excerpts of the scientific-Andalusian culture, we know of a book entitled «The doctor's Guide to Plants». Written in the beginning of the sixth century of Hegira(*) which (corresponds to the twelfth century AD) the book was considered a plant encyclopedia and a dictionary of several languages. These languages are : Greek, Syriac, Persian, Latin, the Andalusian dialect and Arabic. This book also includes important agricultural information regarding Andalusian trees, vegetables, herbs, and seeds - It also mentions agricultural experiments done in Andalusia, in addition to the special care the author gave to the plant's environment and its geographical location in both Andalusia and Morocco.

The book consists of more than four thousand and seven hundred chapters that contain abundant and detailed definitions of a great number of plants and their different species.

We know nothing about the author of the book except for his name, Ibn Abdun and the fact that he was Andalusian and had lived in Sevilla. He might have come originally from Toledo which was the home of his instructor and mentor Abu Hassan Al Saâdi Al Ansari called Ibn Lawnaka (died in 498 of hegira which corresponds to 1104 AD). Although he was from Toledo, Ibn Lawnaka who was frequently mentioned by Ibn Abdun, lived in Cordoba after the conquest of his city by the Christians.

This book is still a manuscript, one copy of which can be found in the National Library in Rabat, while the other is at the Library of the Royal Academy of history in Madrid.

Mr. A. Palacios, a Spanish orientalist, deduced from this book items that existed in the old Spanish language and then he verified them before demonstrating their origins. At the same time, he wrote a prologue where he focused on Ibn Abdun's book and its importance. Mr. A. Palacios published this research in a book edited in 1943 by the School of Arabic studies in Madrid and the School of Arabic Studies in Granada. This book is entitled : **Dictionary of the Romantic Terms that were Recorded by an Andalusian Botanic Scientist** (IIth-12th centuries).

(*) Hegira : We mean by Hegira the year 622 AD, the year I of the Muslim Calendar, the beginning of civilisation.

LA GUÍA DEL MÉDICO PARA CONOCER LAS PLANTAS

Este libro fue elaborado por su autor a principios del siglo XII. Es una especie de enciclopedia botánica y diccionario en diferentes lenguas (griego, siriaco, persa, latin, nabateo y el castellano viejo). Contiene datos de gran importancia sobre la agricultura en Andalucía y las diferentes clases de árboles, plantas, hierbas y cereales de que dispone ; hace referencia también a los experimentos agrícolas que se llevaban a cabo, además de una exhaustiva referencia al medio ambiente de las plantas y su geografía en Andalucía y Marruecos.

El libro contiene 4700 temas que abarcan una amplia y precisa definicíon de un gran número de plantas y sus diferentes especies.

No se sabe nada de este autor, salvo que se llama «Ibn Abdun», es andaluz, vivió en Sevilla, es posible que su orígen sea de Toledo, ciudad de su maestro y profesor Abi Al Hasan Ali Asahdi Al Angari, alias Ibn Lunca (1104), el cual se cita a menudo por el autor y que se instaló en Córdoba después de la caída de su ciudad en manos de los cristianos.

«La Guía del médico» es todavía un manuscrito del cual la Biblioteca General de Rabat dispone de una copia y otra se encuentra en la Biblioteca de la Real Academia de Historia en Madrid.

El orientalista español, Asin Palacios, extrajo de este libro los vocablos del antiguo castellano citados en el mismo, analizando los términos y los orígenes y escribiendo una introducción en la que hace referencia al libro destacando su importancia. El libro de Asin Palacios se titula «Diccionario de palabras romanas registradas por un botánico andalusí (siglo XI - XII) editado en 1943 por el Instituto de Estudios Arabes en Madrid y la Escuela de Estudios Arabes de Granada.

Mohamed BENCHRIFA

UNE PERSONNALITE DU «THAGHR AL AALA» ABDALLAH IBN KACEM

La ville d'Aragon, appelée par les musulmans d'Andalousie «Thaghr al Aâla»(*) est considérée comme le berceau d'un mouvement intellectuel original. Parmi ses figures éminentes, citons Abdallah Ibn Kacem Athaghri qui vécut au quatrième siècle de l'Hégire et fut considéré comme la plus étrange personnalité dans l'histoire de cette région.

Abdallah Ibn Kacem réunit le Sabre au Savoir. Il était celui sur qui l'on pouvait compter dans son pays, pour lever un état de siège ou pour contrer une attaque ennemie, de même il était une référence dans le domaine de la médecine et du savoir. En plus de ses qualités de cavalier, il était l'exemple même de la piété.

Ce texte a abondemment cité la biographie traduite de Abdallah Ibn Kacem, il y est aussi question de ses maîtres, sa carrière de juge et son exile à Cordoue en 375 de l'Hégire après une querelle avec le maître de la citadelle Ayoub Abdelaziz, fils d'Elassi Ibn Hakam Ben Al Moundir Etajibi.

En effet, il s'agit d'un point stratégique culminant.

(*) «Ataghr Al Aâla» : veut littéralement dire «la bouche supérieure».

A FIGURE FROM «ATHAGHR AL AÂLA» : ABDALLAH IBN KACEM

The city of Aragon, named by Muslims as «Athaghr Al Aâla»[*], is considered as the cradle of an original cultural movement. Among its outstanding figures there is Abdallah Ibn Kacem Athaghri, who lived in the fourth century of Hegira and was considered the oddest personnality in this region's history.

Abdallah Ibn Kacem handled the sword as well as the pen. Accordingly, he was reliable in getting out when besieged or in encountering an attack. He was a no less reliable reference when seeking knowledge. In addition to these qualities he was a true model of a pious, mystic and worshiping man.

This text abundantly describes the works of Abdallah Ibn Kacem which have been translated and also mentions his mentors and instructors. It also describes his taking over a judicial function and then his banishment to Cordoba in 375 of Hegira because of a quarrel with the owner of the citadel Ayub abd Al Aziz Walad Al Aâssi Ibn Hakam Ibn Al Moundir Atjyibi.

(*) «Athagr Al Aâla» : Literally means «the upper mouth» or any «upper hole».

UNA FACETA ABDELLAH BEN KACEM DEL «ALTO ENCLAVE»

La ciudad de Aragón, denominada por los musulmanes de Andalucía «Alto Enclave», se considera la cuna de un original movimiento intellectual, entre sus celebridades se encuentra Abdallah Ben Kacem Tukri que vivió en el siglo IV hégira y es considerado como el personaje más extraño en la historia de esa región.

Abdallah ben Kacem alternó la espada y la pluma y con él se contaba en su país para romper cercos o repeler agresiones, y a él se acudía para aprender ciencias. Además de un buen jinete y hombre de ciencias, fue ejemplo de piedad y de temor en su adoración a Dios.

El texto se extendió en exponer referencias que trataron sobre Abdallah ben Kacem citando sus maestros y su desempeño al cargo de juez como también su destierro a raíz de un reproche por parte del señor de la fortaleza de Ayul (Calatayud), Abdel Aziz Walad Aasi Ben Hakam ben Mundir Tajibi.

UN SAVANT DE YAFA AU 13e SIECLE DE L'HEGIRE

L'étude bibliographique revêt une importance capitale dans notre histoire car elle permet de réaliser le contact entre les générations. Le savant que cette étude présente est Cheikh Hassan Salim Dajani né en 1202 et mufti de Yafa entre 1236 et 1274 de l'Hégire.

Le nom de Cheikh Housseine Salim Dajani figure dans des biographies du 13e siècle ainsi que dans de nombreux manuscrits. L'un d'eux, rédigé par son propre frère Abu Ikbal hassan Dajani et recopié par l'élève de ce dernier cheikh Abderrazak Afandi Al Ladiki, est intitulé «Biographie de notre maître le savant plein de dévotion Cheikh Houssein Salim Dajani, Dieu le bénit».

Ce manuscrit de soixante et une pages se trouve encore dans la bibliothèque Dahiria de Damas sous la côte 6351. D'autres manuscrits contenant ce que ce savant a écrit sur le Fikh et l'histoire et ce qu'il a composé comme poésie se trouvent dans cette bibliothèque ou chez certains de ces descendants.

Cheikh Salim Dajani est aussi l'auteur de «Fatawi» intitulées «Les Fatawis Hassaniennes salimites», manuscrit de 292 pages se trouvant dans la bibliothèque Islamique de Yafa. Cette recherche relate les détails de la vie du cheikh ainsi que ses origines, ses études, son ascetisme, ses œuvres et sa poésie, autant de signes qui constituent un véritable témoignage de leur époque.

Ahmed Sidki DAJANI

A FIGURE FROM YAFA IN THE THIRTEEN CENTURY OF HEGIRA

Biographical Studies have highly important values in our history, since they are means of establishing a thouroughgoing contact between generations. The person that this study depicts is Hussin Salim Dajani born in 1202 of Hegira, Yafa's Mufti (a casuist, official expounder of the religious law) between 1236 and 1274 of Hegira.

Cheikh Hassan's name is mentioned in, both, biographical books of the thirteenth century, and in many manuscripts. Among them, one was written by his own brother Abu Ikbal Hassan Salim Dajani ; and this manuscript was recopied by this latter's student Cheikh Abderazak Afandi Elathiki and its title is «The translation of the Constant Obeyer of God Our Cheikh Hassan Salim Dajani, may God Bestows his Benediction on Him». This 61 pages manuscript is still in the Dahiri Library in Damascus under the number of 6351. There are many other manuscripts in the same library ; and some are in the possession of some of his grandchildren. These manuscripts contain his writings on Fikh (that is jurisprudence), history and poetry.

Cheikh Salim Dajani wrote Fatawi as well (that is a number of legal opinions in the religious law) known as «Fatawi Hassania Sulaimiya», a 292 pages manuscript that can be found in the Islamic Library of Yafa.

This research pinpoints also to details of the Cheikh's life, his kinship, studies, sufism, his undertaking casuistry, his courageous attitudes, his many writings ad his poetry which truly depict their contemporary characteristics.

LA CIENCIA BEN YAFA EN EL SIGLO XIII HEGIRA

Este estudio reviste en nuestra historia una gran importancia puesto que realiza la continuidad entre las generaciones. El sabio presentado en este estudio Husin Salim Dajani, que nació en el año 1202 hegira, era mufti de Yafa entre 1236 y 1274 hegira.

El chaik Husin Salim Dajani se cita en los libros de las celebridades del siglo XIII hegira y en diversos manuscritos, entre ellos uno escrito por su hermano «Abou Ikbal» Hasan Salim Dajani y copiado por su alumno Abdel Rasak Afandi Ladiki cuyo título es : «Taryamato chaikina Alkotbo Adani Wali Allah el chaik Husin Salim Dajani Kadasaho Allah», que se encuentra en la biblioteca de la secta «Dahiria» en Damasco bajo el número 6351 y contiene 61 páginas ; unos manuscritos se encuentran en la biblioteca de la secta y otros, que contienen sus escritos en materia de historia y poesía, están en posesión de sus nietos.

El chaik Husin Salim tiene un dictamen «Fatwa» que se titula «Fatawi Husinia Salimia» ; son manuscritos que contienen 292 páginas y que se encuentran en la biblioteca islámica en Yafa.

El estudio aborda también detalles de la vida de chaik y sus orígenes, sus estudios, sus obras y sus poesiás, que han expresado fielmente su época.

Mohamed Brahim EL KETTANI

ORGANISATION DE L'ARMEE ARABO-MUSULMANE A L'EPOQUE OMEYADE

Le texte est une présentation du livre du Dr. Khaled Jassim El Janabi intitulé : «Organisation de l'armée arabo-musulmane durant l'époque Omeyade» et édité par le ministère de la culture et de l'information irakien.

La thèse que l'auteur a développé dans cet ouvrage est que l'Etat arabo-musulman à l'époque omeyade possédait des institutions militaires complètes, avec leurs structures, leur commandement et leur style propre.

Le texte de présentation met en relief l'esprit dans lequel l'auteur a parlé de la nation marocaine, de sa position vis-à-vis des conquérants arabes libérateurs, de la fusion de ces deux parties accomplie lors des batailles pour la libération. Le tout appuyé par des extraits de l'ouvrage en question.

Le texte annote le livre mettant en exergue les bienfaits de la fusion des deux éléments, effectuée durant les débuts de la conquête arabe et fondant les succesions monarchiques musulmanes au Maroc : fatimide, idrisside, almoravide, almohade, merinide, saâdienne et alaouite.

THE ORGANIZATIONS OF THE ARABO-ISLAMIC ARMY DURING THE OMEYADE ERA

The text is an introduction to a book issued by.Dr. Jacem Khaled El Janabi, among the editions of the Iraki ministry of culture and information, entitled **The Organisations of the Arabo-Islamic Army during the Omeyade Era.** In this book the author tried to reach the fact that during the Omeyade era, the Arabo-Islamic nation had not only its military institutions with its organisations and leaderships, but its outstanding styles as well.

The text also pointed out the spirit with which the author spoke about the Moroccan nation and its position on the Arab conquerors. It also spoke of the alliance of these two groups during the wars of liberation. These facts were sustained by paragraphs from the book.

The text comments on the book underlining the advantages of the solidarity which prevailed since the early Islamic conquest between the two factions for establishing the successions of Islamic Khalifs in Morocco : the Fatimids, the Idrissids, the Almoravids, the Almohads, the Marinids, the Saâdis and the Alawis.

LAS ORGANIZACIONES DEL EJÉRCITO ARABE-ISLÁMICO EN LA ÉPOCA DE LOS OMAYAS

El texto es una especie de presentación del libro que publicó el profesor Kalid Yasin Yanabi que forma parte de las publicaciones del Ministerio de Cultura e Información de Irak bajo el título «las organizaciones del ejército árabe-islámico en la época de los Omayas». Es un libro donde el autor intentó llegar a que el Estado árabe-islámico durante la época de los Omayas tuviera sus propias instituciones militares completas con organización, dirigentes y métodos peculiares.

El texto muestra también el espíritu con que el autor se refirió a la nación marroquí y a su posición en relación a los conquistadores árabes liberadores y la completa amalgama que se produce entre las dos partes para llevar a cabo batallas de liberación, todo esto demostrado, citando párrafos del libro del señor Katani.

El texto comenta el libro del señor Katani resaltando las ventajas de la mezcla racial practicada desde el comienzo de la conquista islámica en Marruecos entre las dos razas y su incidencia en el nacimiento de califatos en Marruecos : Fatimi, Idrisi, Murabiti, Mwahidi, Marini, Saadi y Alaoui.

SEMINAIRE DE L'ACADEMIE AU ROYAUME DU MAROC :

L'EPANOUISSEMENT DES SCIENCES CHEZ LES ARABES

L'Académie du Royaume du Maroc a organisé dans le cadre des activités du comité des valeurs culturelles et spirituelles, le 16 Rajb 1406 correspondant au 27 Mars 1986, une conférence sur le thème «l'épanouissement des Sciences chez les Arabes.

Monsieur Fuat Sezgin, président et membre associé de l'académie a lu l'exposé principal. Il y a procédé à l'analyse des études récentes sur les sciences arabo-musulmanes, l'édition des textes et l'historiographie. Ces études qui regorgent de divergences et de contradictions ne peuvent en aucune façon donner une vision définitive des activités scientifiques chez les arabes. Monsieur Sezgin a abordé d'autres thèmes : le lien existant entre les sciences arabo-musulmanes et le patrimoine grec, la naissance de la science arabe, les questions relatives aux écrits du Hadith, le fikh, les sciences naturelles et les sciences rationnelles. Le thème principal de la conférence a fait l'objet d'une discussion lors de laquelle, Monsieur Naciri a centré son intervention sur la civilisation musulmane inspirée par le Coran. Mr Abdallah Maslout a fait des observations concernant la diffusion du patrimoine scientifique arabo-musulman. Mr Mustapha Benyakhlef, a pour sa part émis des remarques relatives à la rareté des recherches concernant la science arabe tout en mettant l'accent sur la contribution des musulmans aux mathématiques.

Mohamed El Baghdadi, quant à lui a présenté une recherche sur l'expérimentation chez les arabes, à travers les investigations de Hassan Ibn Al Haïtam dans les sciences optiques.

Il ressort de l'ensemble des documents de la conférence que la contribution des arabes et des musulmans dans le domaine des sciences rationnelles, naturelles et mathématiques a besoin de faire l'objet de plus de recherches, qui permettront d'une part de fournir les références suffisantes et d'autre part de contrer les études pernicieuses qui tendent de minimiser la part et le rôle arabo-musulman dans le développement et l'épanouissement des sciences.

THE FLOURISHING OF SCIENCES IN THE ARAB WORLD

The Moroccan Royal Academy has organized a conference on «The Flourishing of Sciences in the Arab World» on the sixth of Rajab (which corresponds to 27th of March 1986) and this within the sphere of activities of the cultural and spiritual values committee. Mr. Fuad Sezgin, a member of the royal academy, read out the main report where he analyzed the recent studies about the Arabo-Muslim sciences, the edition of texts and the writing of history. These studies are so full of differences, if not contradictions, that they hardly give us an approximate view of the scientific activities in the Arab World, let alone a final and clear one.

M. Fuad Sezgin referred to the relationship between the Arabo-Muslim sciences and Grecian culture, to the growth of all types of Arab sciences, to questions concerning the writing of Hadith (verbal tradition of Mohammed), and to jurisprudence and to both rational and natural sciences.

The main theme of this conference was primarily discussed by Mr. Mekki Naciri with an emphasis on the Muslim civilization that finds its divine inspiration in the Koran. Secondly, by Mr. Abdullah Maslout who made some observations concerning ways of making widely known the scientific Arabo-Muslim culture. Then, by Mr. Mustapha Benyakhlef, who noticed the scarcity of research on Arab sciences, stressing the Muslims' contributions to mathematics. Lastly, Mr. Mohammed El Baghdadi, presented a paper on experimentation among Arab scientists through inquiries in optical sciences undertaken by Hassan Ibn Al Haïtam.

Drawing a conclusion from the conference's documents, it can be deduced that the contribution of both Arabs and Muslims in not only rational and natural sciences, but in mathematics as well, needs more research and inquiry. Such research would be carried out in order to supply enough references on the one hand, and on the other hand, to restrain all the pernicious studies that attempt to belittle the Arabo-Muslim contribution in the development and flourishing of sciences.

FLORECIMIENTO DE LAS SIENCIAS ENTRE LOS ARABES

En el marco de las actividades del Comité de los valores espirituales e intelectuales, la Academia del Reino de Marruecos organizó en el día 16 de Rajab de 1406 (27 de marzo de 1986) un coloquio sobre : «El florecimiento de las ciencias entre los Arabes».

La principal ponencia fue expuesta por el miembro de la Academia Señor Don Fuat Sezgin, quien analizó los más recientes estudios sobre las ciencias árabes islámicas y la publicación de textos e historia. Son estudios llenos de discrepancias y contradicciones que impiden tener una visión definitiva o casi definitiva sobre las actividades científicas entre los árabes. Don Fuat Sezgin trató también sobre la relación de las ciencias árabo-islámicas con el legado griego, el desarrollo de la ciencia árabe con el «Hadit», el «Fikh», las ciencias mentales y las ciencias naturales.

Participaron en la discusión el Señor Don Mohamed el Mekki Naciri, quien centró su intervención sobre la influencia del Corán en la civilización islámica y el Señor Don Abdela Maslut lo hizo presentando observaciones en relación a la definición del legado científico árabo-islámico, mientras que el Señor Don Mustafa Benyakhlef lo hizo con observaciones sobre la poca investigación en relación al tema de la ciencia árabe, insistiendo sobre la participación de los musulmanes en el desarrollo de las matemáticas. Finalmente, Mohamed Bagdadi intervino con una ponencia sobre los ensayos de los árabes a través de los estudios de Hassan Ben Haitam en óptica.

A través de los diferentes documentos del coloquio, se puede concluir que las aportaciones de los árabes y los musulmanes en las ciencias mentales, ciencias naturales y matemáticas, necesitan mayor investigación para obtener fuentes suficientes en el tema y poder así contrarrestar estudios tendenciosos que intentan disminuir el papel árabe-islámico en el desarrollo y florecimiento de la ciencia.

3ème Partie

Activités de l'Académie

RAPPORT D'ACTIVITES DE L'ACADEMIE DU ROYAUME DU MAROC (1987 - 1988)

Dans ce numéro de la revue «Academia» seront publiées les activités de l'Académie du Royame du Maroc de l'année 1987-88. Y seront également exposés les principaux thèmes que l'Académie a débattus et examinés au cours des conférences, des sessions et des causeries du Jeudi.

I - Les sessions de l'Académie

- La première session de l'année 1988, tenue à Tanger du 11 au 13 avril 1988 a été consacrée à l'étude du thème suivant :
  «Pénurie au Sud, Incertitude au Nord : constat et remèdes».

  Y ont participé les Membres de l'Académie et un certain nombre d'experts invités.

  Les communications suivantes ont été faites :

- «Présentation du thème de la session»
  Mr. Mahdi Elmandjra (Directeur des séances)
- «Introduction dialoguée : constat du biologiste, constat de l'historien» par MM. Jean Bernard et Maurice Druon.
- «La dépendance périphérique et l'accumulation, facteurs de la crise économique internationale» par Mr. Abdelhadi Boutaleb.
- «Les variations climatiques et leurs effets sur la pénurie au Sud et l'incertitude au Nord» par Mr. Charles Stockton.
- «Pénurie d'eau dans le monde et le Tiers-Monde en particulier : perspectives, incertitudes, remèdes» par Mr. Robert Ambroggi.
- «Pénurie en sciences et techniques dans les pays en voie de développement : constat et solutions possibles» par Mr. Abdellatif Benabdejlil.
- «Les incertitudes du progrès scientifique et technologique» par Mr. Idriss Khalil.
- «Science, technologie et développement»,
  par Mr. Ahmed Abdus-Salam.

- «Face à la diffusion de l'incertitude, le multilatéralisme, instrument de plus de prévisibilité»,
  par Mr. Yves Berthelot, expert invité (France)
- «L'image monétaire du monde»,
  par Mr. Mohamed Allal Sinaceur
- «Désordre financier : dette et coopération internationales»,
  par Mr. Habib El Malki, expert invité (Maroc).
- «Le Sud et les afflux monétaires inverses»,
  par Mr. Ismaïl Sabri Abdellah, expert invité (Egypte).
- «Les effets du protectionnisme sur la croissance et le développement»,
  par Mr. Moriuky Motono, expert invité (Japon).
- «Nord - Sud, leurs évolutions : approches mondiale et régionale»,
  par Mr. Fath Allah Oualalou, expert invité (Maroc).
- «La confrontation entre les superpuissances et la gestion de la crise mondiale», par Lord Chalfont.
- «Le désarmement pour le développement»,
  par Mr. René-Jean Dupuy.
- «Culture et problématique de la pénurie et de l'incertitude»,
  par Mr. Abbas Al Jirari.
- «Réflexions à propos de la coopération culturelle internationale»,
  par Mr. Alfonso de la Serna.
- «Libertés publiques et démocratie, facteurs de développement économique et social»,
  par Mr. Abdelkrim Ghallab.
- «Civilisation à bout de souffle : déception chez les sur-développés, amertume chez les sous-développés»,
  par Mr. Mohamed Aziz Lahbabi.
- «Préliminaires à tout dialogue Nord-Sud»,
  par Mr. Mohamed Farouk Nebhane.
- «Diversité de la pénurie et variations de l'incertitude :
  la recherche de solutions globales est-elle efficace ?
  par Mr. Abdellatif Benachenou, expert invité (Algérie).
- «Remèdes au dilemme économique actuel : le Sud frappé par la pénurie contre le Nord troublé par l'incertitude»,
  par Mr. Ding Naikuan, expert invité (Chine Populaire).
- «L'avenir de la coopération internationale»,
  par Mr. Ahmad Sidqi Dajani.
- «Pénurie au Sud, incertitude au Nord, constat et remèdes»,
  par Mr. Helio Jaguaribe, expert invité (Brésil).

- «Trois scénarios pour l'avenir de la coopération internationale», par Mr. Mahdi Elmandjra.
- La deuxième session de l'année 1988 s'est tenue à Rabat du 28 - 11 - 1988 au 30 - 11 - 1988 et a été consacrée à l'étude du thème suivant : «Les catastrophes naturelles et le péril acridien».

«CATASTROPHES NATURELLES ET LE PERIL ACRIDIEN»

Y ont participé les Membres de l'Académie et un certain nombre d'experts invités.

Les communications suivantes ont été faites :

PREMIERE SEANCE

«Présentation du thème de la session»

Mr. Idriss KHALIL

- «La prévention des catastrophes naturelles : état actuel et horizons futurs», par Mr. Driss Bensari, expert invité (Maroc).
- «Pour un droit à l'assistance humanitaire au plan international», par Mr. René-Jean Dupuy.
- «Définition du concept de la catastrophe naturelle», par Mr. Ahmed Sidqi Dajani.

DEUXIEME SEANCE

«Le phénomène acridien»

- «Les acridiens dans le patrimoine arabo-musulman», par Mr. Nasser Eddine Al-Assad.
- «L'eau souterraine du Sahara assure la pérennité du criquet pélerin», par Mr. Robert Ambroggi.
- «Impact des variations climatiques sur le criquet saharien au Sud du Maroc», par Mr. Charles Stockton.
- «Les acridiens : études récentes et conceptions classiques», par Mr. Mohamed Habib Belkhodja.
- «Le phénomène acridien : généralités. Cas particulier du criquet pélerin «schistocerca gregaria» par Mr. Thami Benhalima, expert invité (Maroc).

TROISIEME SEANCE

- «Les possibilités d'un contrôle biologique des acridiens», par Mr. Donald Frederickson.

- «La lutte contre les criquets : cas du Maroc», par Mr. Abdelaziz Arifi expert invité (Maroc).
- «Application des acridicides dans la lutte antiacridienne», par Mr. Chbil Mahraz, expert invité (Tunisie).
- Prévention du péril acridien : expériences des différents pays concernés :
  - Arabie Séoudite : Prévention du péril acridien : Mr. Salem Ben Salem Bamouflih.
  - Egypte : Prévention du péril acridien : Mr. Mohamed Saïd El Gharhi.
  - Maroc : L'expérience marocaine dans la lutte antiacridienne : Mr. Abdelaziz Arifi. Prévention du péril acridien. Mr. Thami Benhalima.
  - Tunisie : La stratégie tunisienne dans la lutte antiacridienne : Mr. Chbil Mahraz.
  - Soudan : La lutte antiacridienne : Mr. Ahmad Ismaël Wahbi.

Ainsi que les expériences de l'Algérie, du Tchad, du Niger et du Mali.

QUATRIEME SEANCE

La coopération régionale et internationale dans le domaine de la prévention et de la lutte antiacridienne

- «La coopération dans l'histoire internationale du Maroc : cas des criquets», par Mr. Abdelhadi Tazi.
- «Lutte antiacridienne: stratégie, structures, besoins, et le rôle de la F.A.O.», par Mrs. L. Brader, J. Staf, et R. Roffey, experts invités.
- «La coopération internationale dans le domaine de la lutte contre le péril acridien : rôle des organisations gouvernementales et non-gouvernementales», par Mgr. Le Cardinal B. Gantin.
- «La coopération bilatérale, régionale et internationale et son rôle dans la lutte contre le fléau acridien»,
  par Mr. Ahmed Arafa, expert invité (Maroc).
- Réflexions relatives à la coopération régionale et internationale dans le domaine de la prévention régional et de la lutte antiacridienne», par Mr. Ahmadou Mahtar M'Bow.

II - Réunions ordinaires :

1) «les causeries du Jeudi»

Au cours de ces réunions tenues à Rabat, au siège de l'Académie du Royaume du Maroc, et auxquelles participent les membres résidents, ont été entendus et discutés les exposés et communications suivants :

- A propos de la nouvelle édition des «**Mille et une nuits**» de Muhsen Mahdi, par Abdallah Laroui, Jeudi 12 Novembre 1987.

Monsieur Abdallah Laroui signala l'importance de cette nouvelle édition, qui a été réalisée sous une double forme : une édition de luxe et une édition populaire.

Il souligna que ce travail n'aurait pu voir le jour sans l'aide des moyens informatiques. En effet, des «**Mille et une nuits**» ne sont connus ni l'auteur, ni le manuscrit original.

Diverses copies existent du livre. Monsieur Muhsen affirme s'être basé sur le manuscrit de Paris, qui fut utilisé par Gallaud pour la traduction française ; ce texte, incomplet, est le plus ancien qui nous soit parvenu : il remonte à la fin du 8ème siècle de l'Hégire.

- «Situation de la femme au sein de la société musulmane moderne», par Abou Bakr Kadiri, Jeudi 17 décembre 1987.

Monsieur Abou Bakr Kadiri affirma que le rôle de la femme dans la société est de première importance. Ce rôle ne doit pas être occulté, car la société ne peut être saine, et évoluer, qu'avec l'aide de la femme. L'homme et la femme sont solidaires même si leurs responsabilités sont différentes ; en réalité, l'homme et la femme se complètent harmonieusement.

A partir de ces données de base, l'auteur étudia les différents aspects de la situation de la femme au sein de la société musulmane moderne : le mariage et le divorce, la femme et l'argent, les voyages sans l'autorisation du mari, le costume. Il se pencha également sur le problème de la polygamie, la direction de la prière, le travail de la femme, l'héritage, et la participation de la femme dans la vie politique.

- «L'histoire du Maroc entre l'engagement du devoir objectif et l'élan affectif», par Mr. Abdelwahab Ben Mansour, le 2 juin 1988.
- «Le concept de la souveraineté au Maroc avant le protectorat», par Mr. Abdelkrim Ghallab, le 23 juin 1988.
- «Les travaux de l'Union Internationale des Académies», par Mr. Mohamed Allal Sinaceur, le 7 juillet 1988.
- «L'histoire des sciences et la présentation du livre : «La médecine et les médecins en Andalousie musulmane», par Mr. Mohamed Larbi Khattabi, le 15 septembre 1988.

- «Quatrième congrès de la Ligue des Universités islamiques», par Mr. Mohamed Al fassi, le 29 septembre 1988.
- «Le problème du sous-développement scientifique et technologique dans le monde islamique», par Mr. Abu bakr Al Kadiri, le 13 octobre 1988.
- «Le rôle des poètes du Sahara marocain dans la renaissance de la poésie arabe contemporaine», par Mr. Abbas Jirari, le 3 novembre 1988.

2) Les commissions :

• En plus de la **commission des travaux** et de la **commission administrative,** se tiennent normalement les réunions des **commissions permanentes.**

La commission des travaux et la commission administrative ont étudié le **projet d'amendement du Règlement Intérieur Provisoire de 1981,** lequel a été soumis à l'Académie au cours de deux réunions ordinaires, et adopté au cours de la troisième séance ordinaire qui s'est tenue le 10 Mars 1988. Le Secrétaire Perpétuel s'est alors chargé de sa rédaction, sous sa forme juridique définitive.

• L'année académique écoulée a été marquée par une activité particulière. Il s'agit de la réunion de la **commission ad hoc** chargée d'établir les mesures et dispositions relatives à l'organisation des **prix de l'Académie.** De nombreuses réunions ont été consacrées à l'établissement du cadre juridique et réglementaire nécessaire pour l'octroi de ces prix.

III - Séminaires de l'Académie :

L'Académie a tenu deux séminaires d'une journée chacun.

1) Le caractère arabe et la technologie :

Cette manifestation a été organisée au siège de l'Académie du Royaume du Maroc à Rabat. Le document de travail comprenant un dossier très fourni sur la question a été réalisé par notre collègue Monsieur Ahmed Lakhdar Ghazal, connu depuis des décades comme un des plus éminents spécialistes de la question. Ont participé aux débats sur ce dossier et présenté des documents écrits Messieurs Mohamed Chafiq, Idriss Khalil, Abdelaziz Benabdellah, ainsi qu'un groupe de techniciens spécialisés en informatique et en linguistique. Ce séminaire a été dirigé par notre collègue Monsieur Abbas Jirari, Rapporteur de la commission de la langue arabe.

2) Les Fondements des relations internationales en Islam :

Cette rencontre s'est tenue dans l'enceinte de la Faculté des Sciences Juridiques, Economiques et Sociales de Rabat. Le document de travail relatif au sujet a été présenté par notre collègue Monsieur Abdelaziz Benabdellah.

Ont participé aux débats par des documents écrits les membres Messieurs Abderrahmane El Fassi, Abou Bakr Kadiri et Abdelhadi Tazi ainsi que deux spécialistes de la Faculté de droit. Le Séminaire a été dirigé par notre collègue Mohamed Mekki Naciri, Président de la Commission des valeurs morales et intellectuelles.

IV - Les Publications :

Ont été publiés les ouvrages suivants :

1) «Mesures à décider et à mettre en oeuvre en cas d'accident nucléaire» Travaux du thème de la Session Académique de Juin 1987.

2) «AL Qods : Histoire et civilisation» travaux du thème de la session académique de Mars 1981.

3) «Pénurie au Sud, incertitude au Nord : Constat et remèdes» travaux du thème de la session académique d'Avril 1988.

4) Revue «Academia» N° IV Rabi II 1401/Novembre 1987.

5) Travaux des séances publiques solennelles à l'occasion de la réception des nouveaux membres. (1980 - 1986). Décembre 1987. Joumada 1er 1401 / Décembre 1987.

6) Conférences de l'Académie du Royaume du Maroc. (1983 - 1987). 1988.

V - Informations concernant les Académiciens :

• Durant l'année écoulée, nous avons eu à déplorer la disparition de trois de nos collègues. Il s'agit du Président Constantin Tsatsos, de Monsieur Abdelmounim Al Kaissouni et de Monsieur Edgar Faure.

Nous saluons avec une profonde émotion et un respect déférent le souvenir de leur mémoire et leur exprimons d'ici-bas le témoignage le plus sincère de notre gratitude. Des éloges funèbres ont été prononcés en leur mémoire.

• Par ailleurs, pour remplir les sièges devenus vacants, Sa Majesté Le Roi Hassan II a nommé trois nouveaux membres associés. Il s'agit de Messieurs Nasser Eddine Al Assad, Mohamed Hassan El Zayyat et Andreï Gromyko.

Ils ont été officiellement reçus au sein de l'Académie au cours des sessions au titre de l'année 1988.

ACTES DES SEANCES SOLENNELLES CONSACREES A LA RECEPTION DU NOUVEAU MEMBRE ASSOCIE

M. Anatoly GROMYKO

RECEPTION SPEECH

Anatoly GROMYKO

I am happy to meet and address you, especially at a time highlighted by two memorable dates in the history of bilateral relations : the 30th anniversary of the establishment of diplomatic relations between the USSR and the kingdom of Morocco and the 90th jubilee of Russian-Moroccan relations.

A survey of the archives of the African Institute of the USSR Academy of Sciences shows that Russian-Maroccan ties are deeply rooted in history. The first contacts took place at the last quarter of the 18th century. Morocco's Sultan Sidi Mohammad ben Abdallah and Russian Empress Catherine the Second exchanged friendly messages and documents in 1778-1783.

For a number of years, the Royal Academy had among its members Prof. Boris Piotrovsky, an outstanding representative of the Soviet historical, archeological and Oriental studies.

Of Prof. Piotrovsky's 150 scientific publications, the most significant works are dedicated to ancient civilizations on the territory of modern Armenia. He was the one to enrich modern history and culture with the discovery of the ancient State of Urartu. Boris Piotrovsky is a prominent Egyptologist of our time. In 1961-1963 he headed de Soviet archeological expedition to Egypt. Piotrovsky enjoys high authority in the world scientific community. He is an Honorary Doctor and Corresponding Member of a number of foreign universities and academies. For the past 25 years, he has been director of the State Hermitage in Leningrad, the largest museum in the world.

Dear colleagues,

Your Academy as a high assembly of Moroccan Scholars has won recognition in many countries, including the USSR. We are aware that twice a year the Academy goes into session to discuss problems vital, not only to scientists, but to all mankind.

It is opportune to recall the Royal Academy's first visiting session in Paris in 1987, which discussed action to follow a nuclear accident. As a member of the Pugwash movement, I am also concerned over the nuclear threat for the whole mankind.

In my scientific papers I draw attention to the consequences of a nuclear war.

The main conclusion is clear. A nuclear conflict in the Northern Hemisphere would have a disastrous impact on the developing Asian and African countries due to the «nuclear winter» effect. The latter boils down to an ejection of a great number of solid substances into the air, which prevent solar warmth from reaching the Earth, and the tropical zone as well. This would happen in addition to total radioactive contamination. Therefore, I think that the growing awareness of the nuclear danger and the need to combat it should not be «the privilege» of Northern peoples only : it should be spread amid the wide circles of the developing countries. There are certain positive signs already. One of them is that your Academy treats nuclear themes among its priorities.

Although nuclear disarmament has become the main problem from the point of view of mankind's survival, it does not exhaust the questions with which we, Earthlings, shall enter the rapidly-approaching 21st century. The Soviet Union is busy scrutinising possible global cataclysms, no matter social or natural, that are connected with man's activity. Our task is to prevent them and exclude the very possibility of their eruption.

There are no problems of «minor», «local» significance among the issues concerning mankind's survival. We are growing ever more conscious of what John Donne, a British poet, expressed in a wonderful metaphor, «No man is an island, entire of itself ; every man is a piece of the Continent... ; if a clod be washed away by the sea, Europe is the less..»

The conception of the world as a single home for all the people inhabiting it is one of the main signs of a new way of political thinking pursued by the Soviet leader, Mikhail Gorbachev. There is an apt Arab proverb, «Stones are not thrown at each other in a glass house». It applies fully to our planet today. On the one hand, we have reached high peaks of scientific and technological development and the evolution of productive forces. But from these peaks one sees better the insecurity of our common home in the face of the destructive forces awakened by man himself. So, we should take care not to throw stones in our common house.

Dear colleagues,

The African continent is the site of 29 out of 36 poorest countries. Many of them are hunger-stricken. The situation in Africa is aggravated by serious ecological woes, above all, the rapid felling of tropical woods and desert expansion affecting most disastrously the Sahel zone adjacent to Northern Africa.

The heavy rains that poured over the Sahel in the recent period promised a relief in the protracted combat against the sand's onslaught, but a locust invasion, a new calamity which has not circumvented Northern Africa, has ruined the hope. The damage already caused justifies the appearance of this problem on the agenda of the Royal Academy's current session.

Being no expert in biology or agriculture, I am in no position to add anything more to the competent recommendations already made. But allow me to utter a few ideas of a general nature.

First, without weakening attention to the specific character of the locust plague and the need of working out concrete methods of fighting it, we ought to regard this calamity in the general context of the region's ecological problems : desert expansion, environmental pollution, the flood in the Sudan and some others. This complex approach would help gain a deeper insight its into the natural balance in the region and adjacent areas and its guaranteed utilisation for the benefit of all peoples inhabiting the zone.

Secondly, let us make an attempt of shifting ecological analysis to the socio-political sphere : the maintenance of natural balance and its utilisation can be regarded as a common concern of all regional peoples without their neglecting national customs. Their joint effort in fighting the evil could become a consolidating factor and additional impetus in the development of regional cooperation.

I am, of course, far from giving recommendations to African governments on how they should cooperate on the regional and continental levels, but it seems to me that ecological, economic and other global priorities suggest the idea of general human targets and that the struggle against common dangers is more important than discrepancy on various other problems. This is an important aspect of the new political mentality being so much spoken about throughout the world.

No one has monopoly on new political thinking. We in the Soviet Union consider that the sprouts of new political approaches are bursting all over the world, amid different social, political and ideological forces ; they assume original forms in regard to different nations and social layers but grow on the common field of peaceability, humanity, good-neighbourliness and constructive cooperation.

We can also see in this light the fact that after a long period of disagreement, the Maghreb countries have gathered at the negotiating table to show an example of regional cooperation. As a result, no State has ignored its peculiarities or betrayed its principles but the tendencies of regional cooperation got a strong impetus of mutual interest.

New political thinking also pursues the consolidation and development of humanistic continuity between traditions and the present day. It is necessary to benefit by the great potential vested in traditions of all peoples and cultures, including the religious tradition.

This year our country observed the Millennium of the Baptism of Rus, a milestone in the history and culture of our people. In this respect, I'd like to note that the present-day multi-ethnic state, inherited by the Sovied system, was being shaped up under the influence of primarily two world

religions-Orthodox Christianity and Islam. The followers of these two faiths have treated each other differently through the period of their development, but on the territory of our country the spirit of cooperation has prevailed.

Talking about the humanist potential of Islam, I'd like to note that it must not be a coincidence that the words «Islam» and «Salam» (peace) have the same root. Neither is it accidental that Moslem greetings presuppose wishing each other peace.

Another example of the humanistic Moslem tradition is that the words «mosque» and «University» are also of the same root : the theological centres in the Moslem world have been, as a rule, scientific centres while cultured Arab rulers eagerly gathered scientists around them. It applies also to Morocco in the epoch of the Maghreb's flourishing in old days.

Morocco knew the golden age of poetry and prose ; its Andalusian music became a classical trend in Arab musical culture ; the sciences, mathematics and philosophy prospered. These achievements as well as monuments of Moroccan architecture can be justly considered the treasures belonging to the whole humanity. I think that these gains are also evidence of the high spirit of the nation.

Permit me to take this opportunity to wish further flowering to the Academy and new scientific discoveries to its members.

DISCOURS D'ACCUEIL

MAURICE DRUON

Le regard du Protecteur de notre Compagnie, Sa Majesté HASSAN II - que Dieu le protège en tout et favorise toutes Ses Entreprises - est constamment ouvert sur de vastes horizons. Veillant à l'équilibre, à l'éclat et à l'universalité de l'Académie qu'il a fondée, Ses yeux n'ont pas manqué de se porter, pour parfaire nos rangs, vers l'immense Russie.

Ayant, pour ma part, visité trois fois l'Union Soviétique, je sais ce qu'elle contient de talents, de savoirs et d'ardeurs. Et je sais aussi la valeur des hommes qu'elle élève à la tête de ses institutions scientifiques et de sa diplomatie.

S'il est permis en une telle occasion de faire état de circonstances personnelles, ce sera pour m'émerveiller de la répétition des rencontres que nous réserve la vie.

En 1966, Monsieur Andreï Gromyko, le père du nouveau confrère que nous accueillons, se trouvait auprès du Général de Gaulle, au Château de Rambouillet, lors d'une visite d'Etat, quand la Télévision annonça mon élection à l'Académie française.

C'est Monsieur Andreï Gromyko lui-même qui le raconta, sept ans plus tard à ma femme, quand j'eus, au titre de mes fonctions gouvernementales, le privilège d'accompagner, pendant une autre visite officielle en France, ce grand diplomate et homme d'Etat qui aura pendant un quart de siècle conduit à travers la planète la politique étrangère de l'U.R.S.S. Son infaillible mémoire avait enregistré ce détail.

Et voici qu'après quinze ans écoulés, l'honneur m'échoit de recevoir son fils à l'Académie du Maroc. Je suis de longtemps convaincu que rien, jamais, n'est totalement fortuit.

Avec Monsieur Anatoli Andreïevitch Gromyko, notre Compagnie s'enrichit deux fois ; d'abord parce qu'il nous apporte la présence et le témoignage de son propre pays, de ses permanences historiques, de ses ressources intellectuelles et humaines, mais aussi parce que lui-même connait parfaitement trois

Continents qu'il a parcourus, étudiés et où il a exercé des fonctions d'importance.

Il n'est jamais aisé, on le sait ; d'être le fils d'un homme fort puissant ou fort célèbre, ou les deux à la fois, mais ce n'est pas un handicap insurmontable. Cela peut même parfois faire gagner du temps au talent. Alexandre Dumas fils a eu assez de personnalité et de succès pour qu'on fût obligé de dire Alexandre Dumas père, afin de distinguer l'auteur des **Trois Mousquetaires** de celui de la **Dame aux Camélias.**

Monsieur Anatoli Gromyko parait pouvoir supporter cette sorte de rapprochement. Sa carrière l'atteste.

Après des études scientifiques et diplomatiques, qui suivent, en effet, la voie paternelle, il entre au Ministère des Affaires Etrangères de Russie. En 1961, âgé de vingt neuf ans, il est nommé à l'Ambassade de l'Union Soviétique à Londres où il restera quatre ans, d'abord en qualité de premier Secrétaire, puis de Conseiller.

En 1965, il bifurque vers le journalisme et demeure un an à l'Agence de presse Novosti. Le voici ensuite à l'Institut de l'Afrique, une des grandes unités dépendantes de cette vaste organisation qu'est l'Académie des Sciences de l'U.R.S.S ; il y travaille deux ans avant de passer à l'Institut des Etats-Unis et du Canada, auprès de la même Académie, et pour cinq autres années. Il y acquiert une spécialisation qui le désigne, en 1973, au poste de Ministre Conseiller à l'Ambassade Soviétique à Washington. Nous le retrouvons ensuite, toujours Ministre Conseiller à l'Ambassade de Berlin-Est, d'où il revient en 1976 à l'Institut de l'Afrique, mais cette fois comme directeur de cet institut, fonction qu'il occupe depuis douze ans. C'est assez dire que l'Afrique, plus que toute autre partie du Monde, est son champ d'intérêt, d'information et d'action.

Membre correspondant de l'Académie des Sciences de l'U.R.S.S. depuis 1981, Président du Comité pour l'Amitié avec l'Afrique, Président du Comité Afrique-Asie et membre du Comité pour la paix et la sécurité européenne, il est l'auteur de nombreux ouvrages que l'on peut ranger en deux catégories, selon la géographie de leurs sujets d'inspiration : d'une part, l'inspiration américaine, avec des études telles que «Le Congrès des Etats-Unis», «La politique étrangère des Etats-Unis de 1960 à 1970», «Les frères Kennedy» ; d'autre part l'inspiration africaine, avec «les conflits au sud de l'Afrique». «L'Afrique dans la politique mondiale», «Progrès, difficultés et perspectives de l'Afrique».

Or l'Afrique, où nous nous trouvons dans sa partie la plus occidentale et la plus communicante avec l'ensemble du monde, est bien souvent le sujet de nos réflexions et de nos travaux. Nul doute que Monsieur Gromyko n'apporte à celui-ci l'éminente contribution de son savoir et de son expérience, et qu'il ne nous instruise, ce qui est particulièrement précieux, de la vision qu'a Moscou des problèmes africains.

Mais l'intérêt de Monsieur Gromyko pour ce grand Continent ne se limite pas aux domaines diplomatiques, stratégiques, économiques et sociaux ; il englobe aussi les arts et la culture, comme le prouve l'ouvrage qu'il a consacré aux «**Masques et sculptures de l'Afrique tropicale**».

Je me suis même laissé dire qu'il était, de cet art, un collectionneur avisé. On ne collectionne pas si l'on n'aime pas. Notre nouveau confrère, assurément, aime l'Afrique.

Celle-ci comprend maints peuples qui sont de tempérament gai. Or je me suis laissé dire aussi que Monsieur Gromyko avait beaucoup d'humour, ce qui paraît chez lui un trait héréditaire, et que notre Compagnie appréciera certainement.

Enfin je me suis laissé dire - et là notre curiosité devient intense - que Monsieur Anatoli Gromyko préparait un journal de la Pérestroïka qui, pour les lecteurs qui n'ont pas l'avantage de comprendre le russe, doit paraître prochainement à Londres et, je l'espère, à Paris.

Une grande mutation, sur laquelle l'univers a les yeux fixés, s'opère en U.R.S.S. Cette mutation, sous l'impulsion de celui qui est à présent le Chef de l'Etat Soviétique, Monsieur Gorbatchev, parait revêtir quatre aspects principaux, et s'effectuer en quatre directions : réduction des dépenses militaires, réveil des appareils administratifs sclérosés, stimulation de la productivité industrielle et de la productivité agricole - notamment par la location emphytéotique des terres - afin de répondre aux besoins de la population en biens de consommation ; satisfaction plus grande donnée au sentiment de personnalité nationale dans les diverses républiques qui composent l'U.R.S.S. et dans les républiques satellites ou associées. Immense programme, mais qui est dans l'ordre des choses. La vie n'est jamais immobile, celle des Etats comme celle des individus. L'immobilité est mortelle. La méthode dialectique marxiste se devait de prendre en compte les résultats de son application à un grand Empire, pendant soixante-dix ans, et d'introduire, dans les objectifs et le comportement du Gouvernement, les modifications nécessaires. Nous sommes donc particulièrement intéressés à apprendre, d'un homme qui est au cœur des affaires de son pays et qui appartient à la génération la plus impliquée dans la «pérestroïka», comment celle-ci s'opère, et si elle va vraiment conduire à la réduction de la politique des blocs qui coûte si cher au Monde depuis le dernier conflit planétaire. Toute modification, tandis qu'elle est en cours, comporte des incertitudes ; nous serons reconnaissants de toute indication et toutes explications qui nous permettront de les lever.

A présent, je veux, selon nos jeunes traditions, m'adresser directement à notre nouveau confrère.

Monsieur,

Vous entrez dans une Compagnie qui n'a pas de pareille. Constantin Tsatsos, ancien Président de République Hellénique et dont la mémoire nous reste

présente, disait et répétait de l'Académie du Royaume du Maroc qu'elle était la plus intéressante et la plus originale de toutes les sociétés savantes qu'il connaissait ; et il appartenait à beaucoup.

Ici, vous verrez côte à côte des hommes venus de toutes les parties de la planète, et le seul spectacle de nos costumes, burnous, vestons, boubous, soutane, vous le marquera.

Ici vous serez parmi des gens de toutes disciplines, et qui parfois en pratiquent plusieurs, disciplines qui vont de la philosophie à l'hydrologie, de l'Histoire à la découverte spatiale, de la stratégie à l'économie, et tous s'employant, par leur rapprochement, à unir et à transcender leurs spécialités intellectuelles. Entre la théologie et la biologie, entre les esprits occupés du Service de Dieu (Théos) et les esprits occupés du service de la vie (Bios), n'y a t-il pas des convergences obligées ?

Ici vous verrez se côtoyer et se lier d'amitié des hommes de religions ou de doctrines diverses, ou appartenant à des pays ayant des atavismes ou des intérêts immédiats franchement opposés, mais attachés, sans cesser d'être eux-mêmes, à dégager leurs points d'entente. Ici vous verrez la tolérance du Cardinal s'accorder à la tolérance des Ulemas. Ici vous le noterez vite, nul ne met son drapeau dans sa poche, mais nul ne cherche à en bâillonner les autres.

Vous venez renforcer la cohorte, nombreuse parmi nous, des diplomates, ou des hommes ayant tenu des fonctions diplomatiques, race précieuse qui sait comment tout peut être exprimé avec courtoisie.

Nous avons, je crois, un trait commun, nous aimons tous notre Patrie. Or seuls les patriotes peuvent vraiment respecter et comprendre la Patrie des autres.

Ici, je le crois aussi, par la fusion des connaissances, la réunion des acquis de l'existence et l'unisson des bons vouloirs, nous préparons, nous préfigurons cette civilisation de l'Universel chère au Président Senghor, et qui devrait, pour le bien de l'Humanité, être celle du prochain siècle. C'est notre honneur que de participer à une telle tâche.

Anatoly Andreïevitch, soyez reçu à bras ouverts dans cette Académie. Venez-y souvent et soyez-y heureux.

HOMMAGE A CONSTANTIN TSATSOS

Maurice DRUON

Monsieur le Directeur,

Monsieur le Secrétaire perpétuel,

Mes chers Confrères,

Parce qu'il était tout ensemble homme de raison et homme de foi, parce qu'il était homme d'intelligence et de sensibilité, parce qu'il était homme de tradition et de modernité, parce qu'il était homme de combat et homme de paix, parce qu'il était homme de culture et de générosité, parce qu'il était homme d'honneur et parce qu'il chérissait l'amitié, Constantin Tsatsos a aimé le Maroc.

Peu après que, voici huit ans, Taïbi Benhima, dont nous gardons affectueusement mémoire, fut à Athènes pour lui offrir, au nom du Souverain et Protecteur, d'entrer dans cette Compagnie fraîchement créée, Constantin Tsatsos, me faisant part de l'honneur qu'il en ressentait, me posa vingt question sur le pays, son histoire, son peuple et son Roi.

Sachant que m'échoirait le privilège de lui souhaiter, en notre nom à tous, la bienvenue parmi nous, je lui répondis de mon mieux et résumais mon propos en lui disant : «Je sais, vous connaissant, que vous aimerez le Maroc.»

Prophétie aisée. Les yeux de Tsatsos ont regardé le Maroc. L'esprit de Tsatsos a pénétré le Maroc. Le cœur de Tsatsos a compris le Maroc. Et la voix de Tsatsos a porté témoignage, pour le Maroc, avec clairvoyance et conviction.

Son assiduité à nos sessions prouvait son attachement. Ses interventions, dont nous nous souvenons, apportaient à nos travaux toute la richesse d'une pensée et d'une expérience l'une et l'autre d'exceptionnelle ampleur. Il professait pour S.M. le Roi Hassan II une admiration qui ne craignait pas de s'exprimer avec chaleur. Cet ancien chef d'Etat savait de quoi et de qui il parlait.

Il y avait en cet homme de taille brève, et d'une impressionnante vitalité juqu'en son grand âge, quatre personnages au moins qui méritaient également la considération et le respect.

Il y avait un grand philosophe et juriste, auteur de plusieurs ouvrages fondamentaux sur **la science du droit, les sources du droit, la philosophie du droit.**

Il y avait un grand érudit, nourri aux universités d'Athènes, de Paris, d'Heidelberg, qui lisait, parlait, écrivait deux langues mortes et quatre langues vivantes, et qui accomplit de remarquables essais sur **la poétique, l'esthétique,** sur l'éloquence aussi avec son **Démosthène et Cicéron,** et qui laisse, avec ses quatre livres **d'Aphorismes** et de **Méditations** une œuvre de moraliste.

Il y avait un patriote, un combattant, qui avait lutté avec courage pour l'indépendance et la dignité de son pays, un homme pour qui la liberté n'était pas une parole creuse ni un article obligé de discours électoral, mais une réalité spirituelle, et qui, à cause de cela, respectait la liberté des autres et chez les autres.

Il y avait un homme d'action et de gouvernement, douze fois ministre, au moins, et tenant les portefeuilles les plus divers avec une égale compétence et une constante autorité. Premier et permanent compagnon de Caramanlis, il l'aida à rétablir la démocratie sur la terre dont elle était originaire, rédigea la nouvelle constitution hellénique, assuma la magistrature suprême. Il fut l'un des plus puissants artisans de l'entrée de la Grèce dans la Communauté européenne. Il était l'inventeur d'une expression qui a fait fortune : «l'espace culturel européen», et, dans cet espace, il comprenait le Maroc.

Entre les innombrables académies et institutions auxquelles il appartenait à travers le monde, la nôtre, avec naturellement celle d'Athènes dont il était le membre le plus influent, avait sa prédilection. Et ses séjours en ce pays, en compagnie de Madame Tsatsos, elle-même grand écrivain et poète, étaient, de leur dire même, des moments de lumières.

Ajouterai-je que, dans cette symbiose des spiritualités qui s'opère ici si naturellement qu'on songe à peine à en souligner l'importance, Tsatsos apportait la contribution de la confession grecque orthodoxe.

Messieurs,

Si nous sommes encore une jeune Académie, nous ne sommes déjà plus une nouvelle Académie. Nous avons pris ce rythme des disparitions et des chagrins qui est celui, hélas, des compagnies de l'esprit. Chaque année, la divine volonté nous retire quelques uns des nôtres, dont le souvenir devient une assise historique, tandis que s'élève l'immatériel monument.

En Constantin Tsatsos, la Grèce a perdu un de ses plus illustres fils, et la plus parfaite incarnation de la civilisation hellénique en notre siècle. L'Europe a perdu un de ses bâtisseurs les plus lucides et les plus déterminés, le Maroc a perdu un de ses amis les plus dévoués et les plus fervents.

Son nom restera gravé dans les lettres les plus hautes sur l'une des pierres de mémoire de notre Académie.

Je vous demande d'observer, en pensant à lui, une minute de silence et de prière.